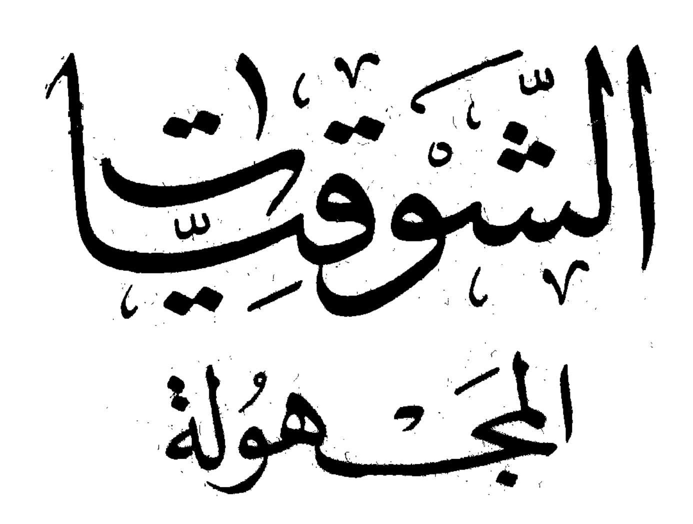


آثار شوقي

التي لم يسبق كشفها أو نشرها

دراسات وأضواء جديدة على حياة الشاعر وعصره وأدبه

الجزء الأول

١٨٨٨ - ١٩٠٣

بقلم
الدكتور محمد صبري



دار المسيرة
بيروت

طبعة ثانية مُنقّحة
١٣٩٩ هجرية
١٩٧٩ ميلادية

تنبيه

لست بحاجة إلى القول إن الكتاب الذى أتقدم به بحث أدبى تاريخى ، يستند ككل بحث إلى قدرة الكاتب فى حسن العرض والاختيار وبناء الموضوع . ومعلوم أن الطريقة التاريخية الحديثة تمتاز بتمحيص الوقائع ونشر الوثائق والتعليق عليها . هذا هو لب لباب التاريخ ، يستوى فى ذلك تاريخ الحوادث وتاريخ الأدب .

وقد وجدنا لشوقى أكثر من مائة وثلاثين قصيدة ، أو حوالى ٤٠٠٠ بيت من الشعر ، وذلك بخلاف حوالى ١٠٠٠ بيت من المقطوعات والأبيات المتفرقة ، وبخلاف حوالى ستين مقالة أو قطعة نثرية ، وكل هذا لم يسبق نشره فى دواوين شوقى ومؤلفاته التى طبعت فى أثناء حياته وبعد مماته . وبعبارة أخرى لقد وجدنا كل ذلك التراث بعد ما أفرغت أسرته كل ما فى جرابها ونشرته ، فقد طبع الجزء الرابع والأخير من ديوانه فى سنة ١٩٤٣ ، أى من نحو عشرين عاما . ولولا أن الله قد وفقنا إلى العثور على ذلك الكنز لظل جزء كبير من شعر شوقى دفينا إلى الأبد ، خصوصا وأن الكثير من قصائده ومقطوعاته كان ينشر فى الصحف بلا إمضاء أو بإمضاء مستعار ، وقد كشفنا عن هذا الشعر الأخير المستتر ، كما كشفنا عن الشعر الذى كان مطويا فى بطون الصحف والمجلات القديمة . ولا شك أن السبق إلى نشر هذه الوثائق المجهولة أو المطمورة حق من حقوق التأليف ، أى أنه لا يجوز قانونا ولا عرفا إعادة نشر شىء منها إلا فى حدود معينة ، وبعد استئذان المؤلف والإشارة إلى المصدر ، وذلك تطبيقا لقواعد الأمانة العلمية التى هى الدعامة الأولى لصيانة حقوق التأليف والمؤلفين ، ومنع السطو على جهود الغير ، هذا السطو الذى أصبح لا يتورع عنه جهارا وبلا استحياء نفر من الناشرين والكتاب .

إننا لا ندعى العصمة فى كل ما نسبناه لشوقى من شعر مجهول النسب ، ولكن فى استطاعتنا أن نؤكد ، إذا كان هناك خطأ ، أن نسبة الخطأ لا تتجاوز قصائد أو مقطوعات معدودات . ومثل هذا الخطأ يحدث فى نسبة الصور لأصحابها فى المتاحف الكبرى ، وقد يصحح النسب أحيانا بعد سنوات ، وأحيانا بعد قرون ، لأن الأمر اجتهادى بحت ، والمهم أن المجتهدين من أهل الخبرة والفن كان لهم الفضل فى إغناء المتاحف بعدد كبير من الصور القيمة التى كانت مجهولة النسب لأن اجتهادهم كان يستند إلى علم وخبرة .

وعلى أية حال لا مراء فى أن مهمة خبراء الفن كانت عسيرة ، لأن الصور القديمة مضت عليها قرون على الرغم من أنها تحمل توقيع أصحابها أحيانا كان يحيط بها الشك ، لبراعة المقلدين وتشابه الملامح أحيانا وحسبنا أننا وجدنا قصائد جليلة لشوقى صحيحة النسب مائة فى المائة ، ظهرت فى الصحف فى صور مختلفة حتى سنة وفاته ، ولكنها لم تنشر فى الديوان . أما القصائد والأبيات التى تحمل إمضاءات مستعارة لشوقى ، فبعض هذه الإمضاءات قد تكشف لنا مع الزمن (كالنديم) و (سائح) و (ش) ، والبعض الآخر تنم عليه أنفاس شوقى . وعقنا الشعر على أية حال محصور فى طبقة من الشعراء المبرزين أمثال حافظ إبراهيم ، وإسماعيل صبرى ، وخليل مطران ، وقد نشرت دواوين أولئك الشعراء كاملة ، وبذلك انحصر الشك فى أضيق حدوده ، خصوصا وأن بعض المعاصرين الثقاة رفعوا الشك عن بعض الشعر المجهول النسب مما سنفصله . وقد كنت شخصيا من معاصرى النهضة الشعرية الكبرى ، التى حمل لواءها شوقى ، ولم أكن غريبا عنها . لذلك أتقدم بهذا الكتاب وكلى يقين أنى أديت واجبا فى عنق نحو الأدب .

مقدمة

أضواء
على
حياة الشاعر وأدبه

١
النشأة الدراسية

أصدر أحمد عبد الوهاب أبو العز سكرتير شوقى كتيبا عنوانه (إثنا عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء) جاء فيه فى صفحة ٧٣ :

ولد أمير الشعراء سنة ١٨٦٨
ودخل مكتب الشيخ صالح سنة ١٨٧٣
خرج من المدرسة الخديوية سنة ١٨٨٣
ودخل مدرسة الحقوق
سافر إلى أوربا لتتمة الدراسة سنة ١٨٨٧
وعاد إلى مصر سنة ١٨٩١
ونفى إلى أسبانيا سنة ١٩١٥
وعاد إلى مصر أواخر سنة ١٩١٩

لا شك أن فترة الدراسة فى أوروبا من أهم الفترات فى حياة الشاعر ، وكان لها نتائج بالغة فى جميع أطوارها . وتأريخها هنا خطأ (١٨٨٧ — ١٨٩١) وصحته (١٨٩١ — ١٨٩٣) . ولعل منشأ ذلك الخطأ العُجاب كله أو بعضه ما كتبه شوقى فى مقدّمة الشوقيات (طبعة سنة ٩٨) . قال : " دخلت مكتب الشيخ صالح وأنا فى الرابعة .. ثم انتقلت منه إلى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة وأنا فى الخامسة عشرة .. ثم رأى أبى أن أدرس القوانين والشرائع فدخلت مدرسة الحقوق .. فدرست الحقوق سنتين ثم ارتأت الحكومة أن ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة فنصح لى الوكيل أن أدخل هذا القسم ففعلت وأقمت به سنتين ثم منحتنى نظارة المعارف الشهادة النهائية فى فن الترجمة " .

يفهم مما تقدّم أن شوقى دخل مكتب الشيخ صالح سنة ١٨٧٣ (فى سن الرابعة) وأنه خرج من المدرسة الخديوية ودخل مدرسة الحقوق فى سنة ١٨٨٣ (فى الخامسة عشرة) . قضى بعد ذلك أربع سنوات اثنتين فى الحقوق واثنتين فى قسم الترجمة فيها فيكون انتهاؤه من الدراسة فى مصر فى سنة ١٨٨٧ . بناء على ذلك يكون سفره إلى أوروبا فى أواخر سنة ١٨٨٧

أو فى بحر سنة ١٨٨٨ على الأكثر وتكون عودته إلى الوطن بعد دراسة ثلاثة أعوام فى مونبلييه وباريز حوالى سنة ١٨٩١ . وفى هذا تأييد للتواريخ التى أثبتها سكرتير شوقى فى كتابه .

والذى لاشك فيه أن شوقى التحق بمدرسة الحقوق فى سنة ١٨٨٥ . وهذه النقطة يجلوها ويؤكدها أحمد زكى باشا فى مقال له بعنوان (ذكريات عن شوقى)[1] ، وكان زميلا له فى الدراسة : " فلنرجع إذن إلى سنة ١٨٨٢ وهى التى تشرفت فيها بدخولى الفرقة الرابعة (أى السنة الأولى بالاصطلاح الحديث) بمدرسة الإدارة التى صححوا (فى سنة ١٨٨٦) اسمها المغلوط ، بجعلوه مدرسة الحقوق (وهو اسم مغلوط أيضا ، ولذلك بيان ليس هنا محله) . كانت المدرسة قد انتقلت من مقرها القديم فى سراى مصطفى باشا فاضل (بدرب الجماميز) إلى دار البدراوى الباقية إلى اليوم بشارع سوق الزلط (من قسم باب الشعرية) على مقربة من دار آل العروسى الذين آلت إلى أحدهم مشيخة الأزهر . وفى العام التالى أقبل فوج جديد من التلاميذ للحلول محلنا ، وفى الذى بعده جاء فريق آخر ، وكان فى جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ فتى نحيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة (تقريبا) بعيون متألقة (تحقيقا) ولكنها متنقلة (كثيرا) . فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق . هذه صورة مصغرة لأحمد شوقى ، عند أول عهدى به فى حياة المدرسة ".

على أن زكى باشا سيناقض نفسه بنفسه حين يقول بعد الفصل المتقدم من ذكرياته :

" كان المرحوم الشيخ محمد البسيونى البيبانى من علماء الأزهر المعدودين ، وكان يدرس لنا فنون البلاغة ، أما خارج المدرسة فكان بالنهار متخصصا بنظم القصائد فى مدح الخديوى توفيق كلما حل موسم ، أو أطل عيد ، وما لبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية فأنشأ الأستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها إلى المعية السنية ، فإلى جريدة (الوقائع المصرية) وغيرها من الصحف ، وكان شوقى ببساطة التلميذ الناشئ ، يشير بمحو هذه الكلمة ، وتصحيح تلك القافية ، وحذف هذا البيت ، وتعديل ذلك الشطر ، والأستاذ يغتبط بقوله ، وينزل عند رأيه . وأحسن ما أذكره لأستاذى البسيونى أنه كان يتحدث بذلك إلينا وإلى الفرق المتقدمة علينا دون أن تأخذه العزة بالإثم . على أن الأستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش وأفهمه أن بين أثواب الصغير أحمد شوقى براعة نادرة وذكاء رائعا ، وأنه خليق برعايته العالية ؛ فكانت

(١) انظر كتاب (ذكرى الشاعرين) لناشره الأستاذ أحمد عبيد . دمشق ١٩٥١ (من ص ٣٢٤ إلى ٣٣٨) .

هـذه الشهادة من أكبر الأسباب التى حفزت الخديوى فى سـنة ١٨٨٧ إلى إرسال شوقى على نفقته الخاصة لإتمـام الدراسة العلميـة فى باريس ، ولتغذية مواهبـه الغريزية بمـا يراه فى الغرب من روائع . عاد شوقى إلى مصرائح ".

لا يتفق أن يكون التحاق شوقى بمدرسة الحقوق فى سنة ١٨٨٥ وتخرجه فيها بعد سنتين فقط (٨٧) والسفر إلى باريس (وبعبارة أدق إلى فرنسا) مع أن مدة الدراسة فى الحقوق والترجمة مما كانت أربعة أعوام . كما أن توظف شوقى بالمعية حدث بعد مضى شهور على تخرجه (والعام الدراسى فى مصر من أكتوبر إلى يولية) وأن سفره إلى فرنسا كان بعد مضى حوالى سنة على توظفه، وإليك البيان :

نشرت (الوقائع المصرية) فى عدد ٧ أبريل سـنة ١٨٨٨ أول قصيدة لشوقى قالت : "جاءتنا هذه القصيدة من قلم حضرة الشاب النجيب أحمد افندى شوقى من قسـم الترجمة بمدرسة الحقوق الخديوية فى رثاء المغفور له البرنس حسن باشا " :

دع المجـد يبـكى بدره وعمـاده فقد كاد هذا الخطب يصمى فؤاده

والقصيدة — وهى ثلاثون بيتـا — منشورة فى الجزء الأول من الشوقيات، طبعة قديمة، فى صفحة ١٣٨ .

وفى عدد ١٣ مايو سـنة ١٨٨٨ نشرت (الوقائع) قصـيدة غراء من الشاب النجيب أحمد افندى شوقى يهنئ الجناب الخديوى بإقبال شهر الصوم .

إن لام صادى السلو العين تأريقا فطالمـا ألف الأحداق والريقـا

وهى تسعة وخمسون بيتا . وقد أسقطها شوقى ولم ينشرها فى ديوانه لركاكتها .

وفى عدد ٣ يونيه سنة ١٨٨٩ نشرت (الوقائع) قصيدة من قلم حضرة الشاب النجيب الشاعر المجيد أحمد افندى شوقى تهنئة بعيد الفطر المبارك .

هـل للبشير إلى حمـاك طريق فاليـوم هز بك اللـواء فريق

وهى ثلاثون بيتـا . منشورة فى الجزء الأول، طبعة قديمة، فى صفحة ٩١ .

• كان انتهاء شوقى من الدراسة فى يولية سنة ١٨٨٩ . ويقول هو عن توظفه ثم سـفره إلى أوروبا فى مقـدمة الديوان بعد أن ذكر أن نظارة المعارف منحته الشهادة النهائية فى فن الترجمة (دون إشارة إلى التاريخ كالمعتاد) « وبينما أنا أتردد على المغفور له على باشـا مبارك ورد عليه مرسوم من المعية السنية بطلبى إليها » ، ولمـا مثلت بين يدى الخديوى توفيق باشا

ولم أكن رأيته من قبل ولكن بدهته مرارا وأنا فى المدرسة خاطبنى بهذا اللفظ الشريف : «قرأت بالشوق فى الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتى لكن ليس بها الآن محل خالٍ فهل لك فى الانتظار». ثم قال : «سمعت أن أباك عطل من الخدمة فبلغه أنى ربما أدخلته فى عمل قبلك» . فلبثت فى المعيــة بضعة شهور أنتظر فربما يأتى به الله ...... (وذات يوم) كنت أجتاز ميدان عابدين فاعترضنى رسول من الأمير يدعونى إليــه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معــه ساعتئذ المرحــوم عبد الرحمن باشا رشدى (سر تشريفاتى الخديوى) .... فالتفت الباشا عندئذ إلىّ وقال الآن أمرنى أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشا فى الخاصــة الخديوية وأما أنت فتعين بعد شهر .. ثم لم يحل علىّ حول فى الخــدمة الشريفة حتى رأى لى الخديوى أن أبلغ التــأديب فى أوربا » .

من المحقق أن تعيين شوقى فى المعية تم فى فبراير سنة ١٨٩٠ إذ نشرت (الوقائع) فى عدد ٣ مارس سنة ١٨٩٠ قصيدة « من قلم حضرة الشاعر المجيد أحمد افندى شوقى الذى وظف حديثا فى قلم السكرتارية الخديوية » .

تفديك من ملك فى زى إنسان ... شكم لذاتك من حسن وإحسان

والقصيدة منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ١٢٢ . وقد أسقط الشاعر منها أبياتا كثيرة كما أدخل تعديلات فى الصياغة . فمثلا بدّل كلمة نفديك بحييت . ونفديك أحلى . ورواية البيت التالى وردت فى الديوان :

يامورداً (للندى سهلا) لملتمس ... ومنهلا (للمنى) عذبا لظمآن

وكانت فى الأصل (رواية الوقائع) :

ياموردا (للمنى دان) لملتمس ... ومنهلا (للندى) عذبا لظمآن

والرواية القديمة أحلى . وإن كان الذى حمل شوقى على هذا التغيير الأخير هو رفع كلمة (دان) وحقها أن تنصب . وقد نشرت مع هذه القصيدة فى (وقائع) ٣ مارس سنة ٩٠ قصيدة « من قلم العلامة الشيخ محمد البسيونى البيانى إمام الحضرة الخديوية » .

ونشرت الوقائع فى عدد ٢١ أبريل سنة ١٨٩٠ قصيدة غراء من قلم حضرة أحمد افندى شوقى أحد موظفى السكرتارية الخديوية :

هــذا العزيز وذاك باب نواله ... تتبختر النعماء تحت ظــلاله

وهى منشورة فى صفحة ٢٠٤ من الديوان القديم .

وفى عدد ٢٤ مايو سنة ١٨٩٠ نشرت الوقائع قصيدة « من قلم حضرة الشاب النجيب الشاعر المجيد أحمد افندى شوقى أحد موظفى السكرتارية الخديوية » :

خل المطايا ونجم السعد هاديها   يزيدها من حديث الجود حاديها

وهى منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ١٣٠ .

وفى عدد ٢٨ يونية سنة ١٨٩٠ نشرت (الوقائع) قصيدة لأحمد شوقى « أحد موظفى السكرتارية الخديوية » .

حدثت قلبي بالسلو فشقته   وصبا الى ذكر الحبيب فسقته

وهى منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ٦٠ .

وفى عدد ٢ أغسطس سنة ١٨٩٠ نشرت (الوقائع) قصيدة وردت « من حضرة الكاتب البليغ أحمد افندى شوقى أحد موظفى السكرتارية الخديوية » .

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلها   ولك البلاد عريضها وطويلها

وهى منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ٩٨ . وقد أشار إليها داود بركات فى ذكرياته (انظر العدد الخاص من أبولّو . ديسمبر ١٩٣٢) قال : " وكان أحمد شوقى بك يسكن داره فى حى الحنفى . والشيخ زكى سند مؤسس « جماعة مكارم الأخلاق » يسكن فى حارة السقايين . وكنت أسكن فى ذلك الحى . فكنا متجاورين وكنا فى كل صباح نلتقى فى الطريق فيذهب شوقى إلى سراى عابدين والشيخ زكى إلى مدرسة اليسوعيين وأذهب أنا إلى إدارة جريدة المحروسة . فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لا يصدقون أن خريجا من خريجى مدارس فرنسا كأحمد شوقى يستطيع قرض ذلك الشعر الراقى كقصيدته فى الخديوى توفيق :

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلها   ولك البلاد عريضها وطويلها

وكقصيدته فى مؤتمر جنيف :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها . فكانوا يقولون : " إن الشيخ زكى سند صديقه هو الذى يساعده فى نظم هذه القصائد " . وقد أخطأ داود بركات فى قوله إن القصيدة الأولى نظمت بعد عودة شوقى من فرنسا . والواقع أنها نظمت قبل سفره إليها .

وفى عدد ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٠ كتبت (الوقائع) : « وأرخ حضرة الكاتب البليغ والشاعر المجيد أحمد افندى شوقى أحد موظفى السكرتارية الخديوية العام الهجرى الجديد بتاريخين جليلين ثم امتدح الجناب العالى بقصيدة غراء » :

مضنى وليس به حراك   لكن يخف إذا رآك

وفى عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٠ نشرت (الوقائع) قصيدة لأحمد أفندى شوقى « من موظفى السكرتارية الخديوية » تهنئة بإقبال العام الميلادى الجديد :

العام أقبل ياعزيز ببشره وعليه من علياك أبهج رونق

مما تقدّم يبين أن شوقى ظل لغاية آخر سنة ١٨٩٠ فى مصر . ولا ريب أن سفره إلى فرنسا كان فى أوائل يناير سنة ١٨٩١ : ففى ٤ يناير (٩١) قام الخديوى توفيق برحلة إلى الصعيد ولم يعد إلى العاصمة منها إلا فى ٨ فبراير . وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٩١ كتبت (الوقائع المصرية) تقول : " وردت إلينا هذه القصيدة الرائقة من قلم حضرة الشاعر المجيد أحمد افندى شوقى أحد موظفى السكرتارية الخديوية نزيل باريس الآن تهنئة للجناب الخديوى بعوده من سياحته فى الوجه القبلى وبعود عيد مولده (١٩ فبراير) :

من له فى الملوك ذاك البناء يتهادى على ذراه اللواء "

وهذه القصيدة منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ٥٠ . وهى جيدة النسج ولكن يعيبها أنها مدح فى توفيق وذم فى العرابيين مما سنبينه فيما بعد .

سافر شوقى إذن للدراسة فى فرنسا فى أوائل يناير سنة ١٨٩١ ولكن هل ذهب إلى باريس أولا كما قالت الصحف أو إلى مونبلييه فى الجنوب ؟

الجواب على ذلك ما أكده شوقى نفسه إذ قال : " فركبت البحر لأول مرة أؤم مرسيليا فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية فى انتظارى فأخبرنى أن الأمير أمر بأن أقضى عامين فى مدينة مونبلييه وآخرين فى باريز . وكان المدير قادما من مونبلييه للقائى فعاد بى إليها على الفور وأدخلنى فى مدرسة الحقوق الجامعة ثم رجع إلى العاصمة " .

قضى شوقى السنة الدراسية الأولى التى تنتهى فى يونية سنة ١٨٩١ فى مونبلييه ثم التمس من ولى النعم « الإذن له فى الأوبة إلى مصر لقضاء زمن العطل » فرأى الخديوى — ولعل صاحب الرأى هو عبد الرحمن باشا رشدى — أن يبقى شوقى « أربع سنوات كاملة فى أوروبا وأن لا يضيع منها دقيقة واحدة » فذهب شاعرنا مع رفقائه من الفرنساويين لزيارة مدن الجنوب المتفرقة وهناك شاهد معالم الحضارة فى أقاصى القرى وآثارا لدولة الرومان . قال شوقى : " وبالجملة كانت هذه النقل من أجل نعم الله على " إشارة إلى رحلته فى الجنوب فى صيف سنة ١٨٩١ ثم انتقل بغتة إلى قوله : " ثم ما كدت انتهى من السنة الثانية حتى كتب إلى مدير الرسالة المصرية يستقدمنى لباريز ويخبرنى أنه ذاهب بتلامذته إلى انكلترا للسياحة ... فبرحت مونبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ثم سافرنا إلى عاصمة انكلترا فلبثنا فيها

نحو شهر . . . لكنا لم نلبث أن سئمناها فخرجنا إلى بعض المدائن على بحر الشمال .. فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى في باريز أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت . وعندئذ أشار على الأطباء بالسفر إلى الجزائر .. أقمت بالجزائر أربعين يوما أو تزيد ثم قفلت إلى باريز وهناك تمت لى السنة الثالثة فى الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها فرأى لى الجناب العالى أن أقضى فى العاصمة ستة شهور أخرى أتمكن خلالها من معرفة أشياء باريز وأهلها " .

ولكن ما قاله شوقى يحتاج إلى بيان : بعد تنقله بين مدائن الجنوب عاد شاعرنا إلى مونبلييه حيث قضى السنة الدراسية الثانية (أكتوبر ١٨٩١ — يونيه ١٨٩٢) ثم ذهب إلى باريز ومنها إلى انكلترا وعاد إلى العاصمة الفرنسية فى أواخر يوليه أو فى أوائل أغسطس سنة ٩٢ . وفى هذه الآونة تعرف بالأمير شكيب أرسلان . وقد وصف شكيب هذا اللقاء فى كتابه «شوقى أو صداقة أربعين سنة» . ولكن يجب أن نقرر أولا أن الأمير كان مراسلا للأهرام فى الاستانة وأوروبا وأنه يتضح مما كتبه فى الأهرام فى رسائله العديدة أنه وصل مرسيليا ، آتيا من الاستانة ، فى ٢٤ يونية سنة ١٨٩٢ . وبقى فى مرسيليا لغاية ٣ يولية . وفى ٤ يولية كان فى باريز حيث بقى لغاية ١٦ سبتمبر ثم عاد إلى مرسيليا فالاستانة هربا من الكوليرا التى كانت متفشية فى باريز . ولا شك أن المرض الذى أصاب شوقى فى مستهل السنة الثالثة (الدراسية) أى فى أكتوبر سنة ٩٢ والذى كان يهدد حياته واضطره إلى الرحيل إلى الجزائر هو مرض الكوليرا وما إليه .

قال الأمير شكيب فى صفحة ١٠ من كتابه تحت عنوان (اجتماعنا الأول فى باريس) ما يأتى : " وبقيت لا أعرف شوقى معرفة شخصية إلى سنة ١٨٩٢ إذ ذهبت من الاستانة إلى فرنسا قاصدا السياحة وكان أحمد شوقى يدرس علم الحقوق فى مونبلييه وفى أثناء العطلة المدرسية جاء إلى باريس ومعه رفيق اسمه دلاور فبينا نحن فى الحى اللاتينى إذ جمعتنا الأقدار ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين . وأكثر تلاقينا كان فى مقهى داركور . . . ومن غريب الاتفاق أننا فى سنة ١٩٢٦ تلاقينا أنا وشوقى رحمه الله فى باريس فى هذا المقهى نفسه .

وفى أثناء لقائنا الأول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا نخوض فيه هو الشعر . وكان مع شوقى ديوان المتنبى وكان يحفظ منه ولا شك أنه انطبع عليه " .

والآن نستعرض ما كتبه شوقى فى أثناء الدراسة حتى عودته التى سنحددها بالدقة .

بعد قصيدة ٢٨ فبراير سنة ١٨٩١ التي قيل إن ناظمها « نزيل باريس الآن » نشرت (الوقائع) فى عدد ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ قصيدته المنشورة فى الديوان القديم فى صفحة ١٣٠ ومطلعها :

يا حسنه بين الحسان   فى شكله إن قيل بان

وفى عدد ١٣ مايو سنة ١٨٩١ من (الوقائع) قصيدة لشوقى تجدها فى الديوان القديم فى صفحة ٧٣ وفى باب النسيب من الجزء الثانى صفحة ١٧٣ :

قصر الأعزة ما أعز حماكا   وأجل فى العلياء بدر سماكا

وفى عدد أول يولية سنة ١٨٩١ نشرت (الوقائع) تهنئة توفيق باشا بعودة نجليه من أوروبا .

لا والكتاب وذمة العرب   مالى سواك ينيلنى أربى

وهى منشورة فى الديوان القديم صفحة ٥٩ .

وفى عدد ٢٠ يولية سنة ١٨٩١ نشرت (الوقائع) قصيدة تجدها فى ديوانه القديم صفحة ٦٢ :

لى الله ما أغرى الغرام بمهجتى   وأهدى لأقمار المنازل مقلتى

وفى القصيدة تعريض بالثورة العرابية .

*
* *

وفى عدد أول فبراير سنة ١٨٩٢ نشرت (الوقائع) قصيدة مطلعها :

بين ماضى الأسى وآتى الهناء   قام عذر النعاة والبشراء

وهى رثاء توفيق (صفحة ١٣٤ من الطبعة القديمة) . قالت الصحيفة خطأ إنها من أحمد افندى شوقى « نزيل باريس الآن » .

وفى عدد ٣٠ أبريل سنة ٩٢ نشرت (الأهرام) تهنئة بالعيد والفرمان السعيد بقلم « الشاعر المجيد أحمد افندى شوقى نزيل فرنسا حالا » :

إن الوشاة و إن لم أحصهم عددا   تعلموا الكيد من عينيك والفندا

والقصيدة فى ديوانه القديم فى صفحة ٦٤ . وهى أولى قصائده الرائعة .

وفى عدد ٢٥ مايو سنة ١٨٩٢ نشرت (الأهرام) قصيدة لحضرة « الأديب الفاضل أحمد شوقى افندى نزيل فرنسا بتهنئة الاسكندرية بتشريف الخديوى » :

يفتر عن بشرك ثغر البلاد   وأنت منها فى صميم الفؤاد

وهى منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ٦٧ . وأبيات النسيب فى الجزء الثانى صفحة ١٤٨ .

وفى عدد ٩ يولية سنة ١٨٩٢ ، نشرت (الوقائع) لأحمد افندى شوقى « نزيل الديار الفرنساوية الآن » قصيدة مطلعها :

دع عنك ما صاغ الوشاة وزخرفوا   واسمع لحسنك إنـه بى أعرف

وهى منشورة فى صفحة ٨٨ من الطبعة القديمة .

وفى عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٢ نشرت (الوقائع) لأحمد شوقى « المقيم الآن فى ديار فرنسا » قصيدة مطلعها :

لمن البـاب عاليـا ومؤمل   يمثـل الدهر فى ثراه المقبل

وهى منشورة فى صفحة ١٠١ من الطبعة القديمة .

وفى عدد ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٢ نشرت له الوقائع قصيدة مطلعها :

نصبن لنـا فى مسرح الحدق المـدبا   وجاذبننا الألبـاب يأخذنهـا غصـبا

وقالت الصحيفة إن هذه القصيدة « كلها غرر من نظم أحمد شوقى نزيل الديار الفرنساوية الآن » . وهى منشورة فى صفحة ٥٥ من الطبعة القديمة .

وفى عدد ٢٨ أكتوبر سنة ٩٢ نشرت (الأهرام) حكاية شعرية تحت عنوان « الهندى والدجاج البلدى » بإمضاء (نجى الخرس) . ولم تكن هناك أقل إشارة إلى مصدر الشعر أو إلى قائله :

بينا ضعاف من دجاج الريف   تخطـر فى بيت لهـا ظـريف

إذ جاءها هندى كبير العـرف   فقـام فى الباب قيام الضيـف

يقـول حيا الله ذى الوجـوها   ولا أراها أبـدا مكـروها

فـاود الدجاجَ داء الطيش   وفتحت للعلـج باب العـش

إلى آخره . وقد ظننا بادئَ ذى بدء أنه لمطران وما كان يدور بخلدنا أنه لشوقى . وأن شوقى يوقع بإمضاء مستعار . وهذه ولا شك أول مرة . هـذه القصة أو الخرافة التى يقلد بهـا (لافونتين) موجودة فى الديوان القـديم فى صفحة ١٦٢ وفى الجـزء الرابع من الشـوقيات فى باب (الحكايات) .

وفى ٢٨ نوفمبر سنة ٩٢ نشرت (الأهرام) حكاية (الثعلب والديك) :

بـرز الثعلب يـوما   فى شـعار الـواعظينا

والإمضاء (نجىّ الخرس) . والحكاية فى صفحة ١٧٧ من الديوان القديم . وأيضا فى باب الحكايات فى الجزء الرابع . وأغلب الظن أن شوقى نظم بقية الحكايات فى سنة ١٨٩٣ ولكنه لم ينشر منها شيئا فى الصحف فى صورة من الصور سوى ما ذكرنا .

وفى عدد ٢ يناير سنة ١٨٩٣ نشرت له (الوقائع) قصيدة مطلعها :

سويجع النيل رفقا بالسويداء فما تطيق أنين المفرد النائى

وقالت الصحيفة إنها وردت من « أحمد افندى شوقى وهو الآن مقيم بالديار الفرنساوية » والقصيدة فى صفحة ٥٢ من الطبعة القديمة .

وفى عدد ٣١ يناير سنة ١٨٩٣ نشرت (الوقائع) « تهنئة بعيد الجلوس من أحمد افندى شوقى الموجود الآن فى الديار الفرنساوية » .

صال الدلال بقدها المياس الله أكبر ياقلوب الناس

وهى فى الديوان القديم صفحة ٨٦ .

وفى عدد ١٨ مارس سنة ١٨٩٣ نشرت (الأهرام) قصيدة قالت إنها « من نظم حضرة الشاعر المجيد والكاتب البليغ أحمد بك شوقى بالديوان الخديوى العالى ونزيل باريز الآن » :

لحظها لحظها رويدا رويدا كم إلى كم تكيد للروح كيدا

والقصيدة منشورة فى الديوان القديم فى صفحة ٨٣ . وأبيات النسيب موجودة فى الجزء الثانى صفحة ١٤٧ .

وفى عدد ٢٢ أبريل سنة ١٨٩٣ نشرت (الأهرام) قصيدة « لأحمد شوقى نزيل باريز الآن » :

دام ذا الوجه مقصد الأعياد ساعيات بتهنئات العباد

وهى فى الديوان القديم فى صفحة ٦٥ .

وفى عدد ٢٠ يونية سنة ١٨٩٣ نشرت (الأهرام) قصيدة بغير إمضاء تحت عنوانها الداخلى الكبير (حوادث محلية) كالآتى :

(حوادث محلية)

قد مثلوا فى صورة مزوقة كأنها قصيدة منمقة

وهم مليك محكم التمثيل بصولجان المجد والإكليل

وتحته فى سلم المقام شريف قوم شاكى الحسام

وكاهن يليــه إسرائيــلى   أمامـه الأمــوال فى زنبيــل
وعسـكرى شاهـر الحسام   وسائل منحــدب القــوام
وتحتهــم جميعهـم فــلاّح   فى كيسه محصوله المبـاح
ودون كل صــورة عبـارة   تفيــد ما تعـنى بهـا الإشارة
يقـول فيها المَـلْك إنى السائد   فيكم والشريف إنى القـائد
والكاهن الثـانى أنا أصــلّى   لأجلكم فريضــتى ونفــلى
والإسرائيــلىّ يقــول الراجح   أنا عليكــم حيث أنى الرابح
والعسـكرى إنى أحميــكم   والسائل المكدود أسـتعطيكم
ويضرع الفلاح حســبى ربى   أطعمكم جميعكـم من حَـبى
ينهكــنى حِملكم الثقيــل   وليس عنــدى لكم جميــل

" تلك حالة الفلاح عموما ولا سيما فلاح ألمـانيا اليوم " .

لا يخالجنا شك فى أن هذه الحكاية من نظم شوقى وأنه أسقطها من الديوان عنـد جمعه خوفا من السلطات الحاكمة . وقد حاولت الأهرام تخفيف أثرها وإبعاد الشبهة بتعقيبها على الحكاية بقولها : " تلك حالة الفلاح عموما (!) ولا سيما فلاح ألمـانيا اليوم ". وأغلب ظننا، والظن يقين، أن شوقى أقام فى مصر فى شهرى يونية ويوليـة لتمضية جزء من عطلته الصيفية ثم عاد ثانية إلى باريز . فقد نشرت (الأهرام) فى عدد ٦ يولية سنة ١٨٩٣ قصيدة له دون أى تقديم بالشكل الآتى :

(حــوادث محليــة)

تهنئـــة

بصــوتك حاججنا الممالك والعصرا   وقلنا فباتت مصر فى مجـدها مصرا
... ...

أحمد شوقى

بالديوان الخديوى العالى

وصيغة التوقيع تدل على أنه كان فى مصر . وفى عدد ١١ أغسطس سنة ١٨٩٣ عادت (الأهرام) ونشرت قصيدة « لأحمد شوقى نزيل باريز الآن » :

رضى المسـلمون والإســلام   فــرع عثمان دم فذاك الدوام

والقصيدة منشورة كاملة فى ص ١١١ من الديوان القديم وفى صفحة ٢٩٦ من الجزء الأول طبعة سنة ١٩٣٦

وفى سنة ١٣١١ ه صدرت رواية « على بك أو فيما هى دولة المماليك » من قلم العاجز (أحمد شوقى) أحد موظفى الديوان الافرنجى الخديوى . « ألفها وهو نزيل باريز فى شهر أكتوبر سنة ١٨٩٣ » .

وأخيراً فى عدد ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٩٣ نشرت (الأهرام) فى حوادثها المحلية الخبر الآتى : " عاد من باريز حضرة الشاعر الأديب والكاتب البارع أحمد افندى شوقى بعد أن قضى فيها السنين الطوال فى تلقى العلوم والمعارف " .

وعلى ذلك تكون إقامة شوقى فى فرنسا للدراسة حوالى ثلاث سنوات من يناير سنة ١٨٩١ إلى نوفمبر سنة ١٨٩٣ قضى النصف الأول منها فى مونبلييه والنصف الآخر فى باريز .

❖

وقد وجدنا فى السنة الأولى من مجلة « التقدم المصرى » فى عدد ١٩ مارس ٩٣ وعدد ٧ فبراير ٩٤ تفصيلات هامة عن حياة شوقى فى فترة الإقامة فى الخارج وعقب عودته .

فى العدد الأول من المجلة (١٩ مارس سنة ٩٣) نشرت ما يأتى :

جمعية التقدم المصرى

" اسم لجمعية تأسست بمدينة مونبلييه من أعمال فرنسا فى شهر مايو سنة ٩٢ بهمة الوطنى الفاضل على أبو الفتوح أحد طلبة الحقوق بتلك المدينة وذلك لتقوية وتعضيد لغتنا الشريفة العربية [١] .. وقد استمر أعضاؤها يزاولون اجتماعاتهم إلى أن اتحدت كلمتهم وتقوت رابطتهم

---

(١) ظاهر أن الفكرة كانت اجتماعية وطنية تحت ستار اللغة وتعضيدها لأن قانون البعثات كان يحرم السياسة . والظاهر أن تأليف الجمعية المركزية فى مونبلييه حدث فى مايو سنة ٩٢ أى بعد أن أوشك شوقى على إتمام سنتى الدراسة فى مونبلييه والذهاب إلى باريس لقضاء السنة الدراسية النهائية الثالثة فيها . . وقد أشار شوقى إلى أيام صباه فى مونبيل (مونبلييه) فى رثائه لعلى أبو الفتوح الذى كان وكيلا لوزارة المعارف العمومية ومات فى ٢٧ مارس سنة ١٩١٤ :

إنى التفت إلى الشبا ... ب الغابر المتمثل
ووقفت ما بين الحقيـ ... ـقة فيه والمتخيل
فرأيت أياما جمـ ... ـلن وليتها لم تعجل
كانت صبوحاً للهوا ... د لنا عذاب المنهل

=

ومما عددهم فكتب عندئذ حضرة الرئيس رسميا إلى جناب موجيل بك مدير الإرسالية المصرية بباريس يخبره بهذا المشروع الوطني ويطلب من جنابه التصديق عليه حتى لا يكون مستترا تحت طي الخفاء . وقد كان وتصرح على شرط أن لا يحوموا حول دائرتي السياسة والديانة بسوء . .

" وعند عودة حضرة الرئيس إلى مونبلييه من مصر حيث قضى فصل الصيف سرى في عروقه الطاهرة دم الوطنية فآلى على نفسه أن يعمم هذا المشروع الجليل بين جميع المصريين بفرنسا . . فتشعبت هذه الجمعية في أهم نقط فرنسا فأنشئ لها فرع بباريس تحت رئاسة رب القريض وأخو (!) الأدب سحبان الفصاحة وقس البلاغة أحمد افندي شوقي المصري (أحد موظفي السكرتارية « إدارة التحريات » الخديوية ونزيل باريس الآن) ووكالة اللوذعي الأديب الشيخ محمود أبو النصر المصري « من متخرجي مدرسة دار العلوم الخديوية ومدرس العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس الآن » . وكلاهما من

=

ذهبت كلم بيد أن ... الحلم لم يتأول
إذ نحن في ظل الشبا ... ب الوارف المتهدل
جاران في دار النوى ... متقابلان بمنزل
أبكي وأبكيك ضاحكا ... ن على خمائل مونبلي
والدرس يجمعني بأفـ ... ـضل طالب ومحصل

شوقي هنا يعبر عن عاطفة صادقة وكلامه عن الأيك وخمائل مونبلي ليس صورة خيالية ولكنه حقيقة لأن مدن الجنوب في فرنسا باستثناء الموانى مدن صغيرة حالية بأشجارها ومبانيها الساكنة وكثرة الدعة في أفيائها ووجوهها ومنازلها وحناياها . وما أحلى برد الظل في منعرجاتها وأزقتها الصاعدة والهابطة . المستقيمة والملتوية . المستطيلة والمنعطفة التي يندفع فيها الهواء الطلق ويهفو بين جنباتها ومنازلها المطمئنة وشجرها . ولعل منشأ ذلك في الطابع الروماني الذي لا زال يحتفظ به جنوب فرنسا كما يحتفظ به جنوب إيطاليا حتى رومة نفسها . أما مدن الشمال في البلدين ، من ميلانو إلى باريس ، فهي مدن كبيرة تعبس بمبانيها وتصخب بجماهيرها وتضج حتى السأم بحركاتها السياسية والمالية والصناعية الكبرى التي تموج في عبابها .

وأذكر أني قبل سفري إلى فرنسا تقابلت مع الأستاذ على أبو الفتوح فنصحني بالذهاب إلى مونبلييه لهدوئها . ولكني حين وصلت إلى ميناء مرسيليا في يوليه سنة ١٩١٣ طربت من حياتها الزاخرة العاصفة فقلت في الأثر الذي تركته في نفسي :

وعالم قد جد في تسنمه ... غوارب الأطماع إثر مغنمه
يكاد أن يهلك في تجشمه ... كالطفل يلقي كل شيء في فمه

لذلك عولت على السفر إلى باريس حيث يجذبني طابع المدنية الغربية الحديثة في مضطربها الواسع وما كنت أكره طابع المدنية الرومانية السائد في الجنوب ولكني كنت ولا زلت أعتقد أن تكوين الشخصية لا يتم إلا في تطويح الشباب في غمار الحياة .

وقد قضى شوقي أقل من سنتين دراسة وإقامة في باريس ، وهذه مدة لا تكفي للتغلغل في البيئة ودراسة آدابها ولغتها ومدنيتها بدرجة تساعده على التحرر في يسر من القديم مع التوفيق بين آداب الشرق والغرب خصوصا وأنه قضى معظم أيامه هنالك في الاشتغال بالنظم والأدب العربي . .

الوطنيين المشهود لهم بقوة الباع وسعة الاطلاع ، وآخر بفرساليا وثالث بجنيفة وهلم جرا . .
ثم أراد حضرة الشاب النجيب رئيس الجمعية المركزية بمونبلييه أن يشعر أترابه بمصر فكتب في بحر شهر يناير سنة ٩٣ رسالة مسهبة إلى جناب الوطني صالح افندي نور الدين « مترجم المالية المصرية » يطلب منه المشاركة في ذلك العمل . . وخلاصة القول إننا أنشأنا فرعا لهذه الجمعية بمصر سيكون هو الجمعية المركزية في العام القابل وترتيب أعضائه كما يأتي :

صالح افندي نور الدين	رئيس
صالح علي	وكيل
حسن افندي الفكهاني	محرر

وثلاثة آخرون أفاضل أعضاء عاملون وهم محمد افندي الجندي والشيخ أحمد القوصي ومحمد افندي ثاقب " انتهى .

وفي عدد ٨ أغسطس سنة ١٨٩٣ تحت عنوان (تهاني) جاء ما يأتي : " أكبر دليل على الفلاح ما أحرزه شبابنا نزلاء البلاد الأجنبية من قصب النجاح . فإن حضرة علي افندي أبو الفتوح رئيس الجمعية المركزية بمونبلييه، علاوة على الدرجات التي تحصل عليها في الامتحان، امتاز بثناء المدرسة الخصوصي (١) وكذلك كامل افندي إبراهيم كاتب سر الجمعية المركزية وحضرة رب القريض أحمد افندي شوقي رئيس الجمعية بباريس ومحمد بك كامل أحد أعضائها إلخ".

وفي عدد ١٣ سبتمبر سنة ٩٣ (غرة ربيع الأول سنة ١٣١١) في ملخص الأحوال الأسبوعية لجمعية التقدم المصري من ١٤ محرم سنة ١٣١١ لغاية أول ربيع الأول سنة ١٣١١ نشرت المجلة ص ١٦٤ محضر جلسة ١٩ صفر سنة ١٣١١ (أول سبتمبر سنة ١٨٩٣) :
" . . ثم شرع الرئيس في الاحتفال بحضرات رئيس وأعضاء الجمعية المركزية بفرنسا حيث شرفوا ذلك المساء . . . وقد تلا حضرته كثير من أعضاء وأفاضل الزائرين منهم

---

(١) نشرت مجلة (رعمسيس) في عدد يونيه سنة ١٩١٢ فصلا عنوانه (ترجمة حياة سعادة النابغة القدير علي باشا أبو الفتوح وكيل نظارة المعارف) جاء فيه : " وهو أول تلميذ تقدم في مدرسة سان لويس لامتحان الدراسة الثانوية ثم سافر في أكتوبر سنة ١٨٩٠ لتلقي علم الحقوق بكلية مونبلييه في فرنسا ومكث بها ثلاث سنوات حاز في نهايتها شهادة الليسانس ونال في جميع امتحاناته علامات بيضاء . . وقد رأى أثناء وجوده بأوربا أن لا رابطة تربط الطلبة المصريين فأسس جمعية التقدم المصري وأنشأ لها فروعا في باريس وإكس وغيرهما . . وأسس بمساعدة إخوانه مجلة التقدم المصري التي استمرت على الظهور مدة ثلاث سنوات . . ولما رجع إلى مصر في صيف سنة ١٨٩٣ انتقل مركز الجمعية لمصر إلخ " .

حضرة مصطفى افندى كامل محرّر جريدة (المدرسة) الغرّاء الذى قال مخاطبا أعضاء جمعيتنا المركزية بفرانسا :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وبعد ذلك قام حضرة على افندى أبو الفتوح وشنف أسماع الزائرين والأعضاء بدرر ألفاظه الخ » .

وفى ختام من عدد ١٠ ديسمبر سنة ٩٣ نشرت المجلة (نتيجة الانتخابات) فكانت كالآتى :

على افندى أبو الفتوح	رئيس
صالح افندى نور الدين	وكيل وأمين صندوق
محمد افندى الجندى	كاتب سر
كامل افندى ابراهيم	أمين مكتبة

⁂

« لجنة المراقبة » « لجنة الادارة »

رئيس

أحمد افندى شوقى

أعضاء

أحمد افندى سليمان	محمد افندى مسعود
صالح افندى على	محمد افندى دلاور
الشيخ أحمد القوصى	محمد افندى عبد اللطيف
حسن افندى الفاكهانى	

٢
النّشأة الأدبيّة

كتب أحمد شوقى فى مقدّمة ديوانه القديم : " أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبى مثلا حياته العالية ثم يموت عن نحو مائتى صحيفة[١] من الشعر ، تسعة أعشارها لممدوحيه ، والعشر الباقى ، وهو الحكمة والوصف ، للناس . هنا يسأل سائل : وما بالك تنهى عن خلق وتأتى مثله ؟ فأجيب أنى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من

(١) الصفحة من الكتاب : الوجه من الورق . والصحيفة : القرطاس أو الورق المكتوب .

حقيقته ما أعامه اليوم ، ولا أجد أمامى غير دواوين الموتى لا مظهر للشعر فيها[١] ، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء[٢] ، والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحا فى مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوى صاحب المقام الأسمى فى البلاد ، فما زلت أتمنى هذه المنزلة ، وأسمو إليها على درج الإخلاص فى حب صناعتى وإتقانها بقدر الإمكان ، وصونها عن الابتذال حتى وفقت بفضل الله إليها ، ثم طلبت العلم فى أوربا فوجدت فيها نور السهيل من أول يوم . جعلت أبعث بقصائد المديح من أوربا مملوءة من جديد المعانى وحديث الأساليب بقدر الإمكان[٣] ، إلى أن رفعت إلى الخديوى السابق قصيدتى التى أقول فى مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء ... والغوانى يغرهن الثناء

---

(١) أى موتى يعنى؟

(٢) ماعدا القصائد التى تعمد فيها محمود سامى البارودى مجاراة الأقدمين من الفحول كان طابع التجديد والشخصية فى شعر محمود سامى لأنه كان شاعرا بالسليقة لا ينطق إلا عن عاطفة ووجدان صادق . وليس له كما لشوقى عشرات القصائد التى تبتدئ بالغزل أو النسيب « الصناعى » وتنتهى بالمديح وذكر البدر والشمس والنوال والأمجاد والآرام جريا على عادة الشعراء العباسيين .

(٣) يريد قصائد المديح التى كان يرسلها من أوربا بين سنتى ١٨٩١ و ١٨٩٣ وليس فيها من جديد المعانى وحديث الأساليب إلا القليل . ولعل أروع قطعة قالها شوقى فى تلك الفترة هى (خدعوها بقولهم حسناء) ، وهى قطعة فذة قائمة بذاتها ليست من نوع الغزل الذى يسبق المديح . هى أبيات حب وتشبيب ونفحة باريسية يكاد يفوح شذاها . . والواقع أن جدة المعانى والأساليب لم تظهر فى شعر شوقى بشكل مخصوص إلا ابتداء من سنة ١٨٩٤ إذ نظم قصيدة المؤتمر التاريخية الشهيرة :

همت الفلك واحتواها الماء ... وحداها بمن تقل الرجاء

وعلى أية حال لقد ظل شوقى طول حياته كالبحر يرمى بالدر ويرمى بالصدف فهو لم يتطور كما تطور مطران الذى بدأ شعره بالمدائح حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم أخذ يسير على نهج واحد من التجديد فى شعر الحياة والطبيعة والتاريخ . وقد كان لشوقى فى جميع عصوره شعر « قديم » وشعر « جديد » شعر رائع وشعر خسيس . ولا شك أن نضوجه تم بعد المنفى ولكنه لم يتطور . ولعل تمكن مطران فى دراسة الأدب الغربى والتشرب بمذاهبه ومناحيه هو الذى ساعده على التحرر من القديم فى نواح كثيرة فى سنوات فى حين أن شوقى ظل طوال حياته لا يهتم فى أحاديثه وفى مطالعاته إلا بالأدب العربى . ومن العجيب أنه فى فترة الخمس سنوات التى قضاها فى ربوع الأندلس (١٩١٥ — ١٩١٩) لم ينظم إلا بعض القصائد وأرجوزة دول العرب وعظماء الإسلام التى ظهرت بعد وفاته (سنة ١٩٣٣) وقال ناشرها فى المقدمة " وليس ثمة مواقع أشحذ للذهن وأنضى للخيال من مثل تلك المواقع والمشاهد التى أوحت إلى شوقى بك أن ينظم هذه الأرجوزة الخالدة . . " ولكن هذه الأرجوزة وما إليها كانت محصولا ضئيلا . . ولا شك أن مواقع الأندلس ومشاهدها كان لا بد أن توحى إلى شاعرنا ديوانا ضخما فى شعر الطبيعة وفلسفة الحياة فأين هذا الشعر ؟

ولكن شوقى فى الواقع عاش بذهنه وخياله فى البيئة العربية القديمة غريبا عن تلك المواقع والمشاهد التى لا تشحذ إلا ذهن من يعرفها ويهيم بها . ويستلهمها . ويقف منها موقف العابد . ويعيش فى أجوائها .

ومن هنا كانت ضآلة محصوله الحقيقى أو « الصافى » من ناحية الكم والكيف معا . ويظهر أن شوقى نظم كثيرا وكتب كثيرا فى الأندلس ولكن بغير نظام ، كما أنه لم يحسن اختيار ما يلائمه من المواضيع وطريقة معالجتها . ==

والتي غزلها في أول هذا الديوان . وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية، وكان يحررها يومئذ أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان فدُفعت القصيدة إليه وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المديح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل . ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر . فلما بلغني الخبر لم يزدني علما بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله وأن الزلل معي إن أنا استعجلت .

"ثم نظمت روايتي (علي بك أو فيما هي دولة المماليك) معتمدا في وضع حوادثها على أقوال الثقاة من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق فوردني منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله : " أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها وناقشني في موضع منها وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح . ويجب أن لا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك في مصر عن التمتع من معالم المدنية القائمة أمامك وأن تأتينا من مدينة النور

= روى لي الدكتور سعيد عبده أن شوقي كتب (أميرة الأندلس) نثرا أثناء إقامته هناك وأنه أتى بها من المنفى في مجلدات كانت أضخم محصول نثري له . فلما نجحت روايتا مجنون ليلى وكليوباترا أخذ يعيد النظر في (أميرة الأندلس) وكانت طويلة جدا ومفككة حتى انتهى بها الأمر إلى حجم كراسة . ومع ذلك كانت فاشلة عند تمثيلها منذ الليلة الأولى .

ولو أن شوقي أجهد نفسه في كتابة روايته شعرا — لا نثرا — لما ضاع جهده كله ولبقيت لنا لمحات خالدات وعلى أية حال لقد كان لاغتراب شوقي نتائج بعيدة ظهر أثرها في رواياته التي ختم بها حياته وفي بعض قصائده الكبرى التي نظمها بعد عودته . ولكن لا يمكن القول إن إقامة شوقي بالأندلس أحدثت ثورة في أدبه كإقامته الأولى في فرنسا زمن الدراسة .

بعد عودة شوقي من منفاه مدح فؤادا ونظم قصائد عاوده فيها الحنين إلى القديم فقد نشرت له (الأهرام) في ١١ مارس سنة ١٩٢٤ القصيدة التي قالها بمناسبة إطلاق بعض السجناء الذين كانت المحاكم العسكرية الانكليزية قد أدانتهم :

بأبي وروحي الناعمات الغيدا ... الباسمات عن اليتيم نضيدا
الراويات بكل أحور فاتر ... يذر الخلي من القلوب عميدا

إلى غير ذلك من الغزل « القديم » . وتجد نفس هذا الأسلوب الغزلي في قصيدة (لبنان) التي نشرتها (الأهرام) في ٣١ يوليه سنة ١٩٢٥

السحر من سود العيون لقيته ... والبابلي بلحظهن سقيته
الفاترات وما فترن رماية ... بمسدد بين الضلوع مبيته

وقد بلغ عدد أبيات الغزل في هذه القصيدة ستة عشر . وعدا ذلك فإن في القصيدة خمسة أبيات متتابعة تبدأ بكأن وبعضها يبدأ الشطر الثاني منه أيضا بكأن (وكأن أيام الشباب . . وكأن أحلام الكعاب . وكأن ريعان الصبا . وكأن أثداء النواهد . وكأن أقراط الولائد . وكأن همس القاع . وكأن ماءها) . أسرف شوقي في سنة ١٩٢٥ في استعمال كأن كما أسرف فيها في سنة ١٨٩٧ في بائيته الشهيرة عن الحرب التركية اليونانية فقد استعمل عشرين مرة (كأن) في ستة عشر بيتا متتابعة في (التلاق على سهل فرسالا) : "كأنا أسود رابضات . . كأن خيام الجيش . . كأن السرايا . . كأن القنا . . كأن الدجى ... الخ" . ولولا هذه المآخذ والمناحي لاحتل شوقي مكانه في الشعر العالمي كما احتله في الشعر العربي . .

(باريز) بقبس تستضىء به الآداب العربية " فصادفت هذه النصيحة العالية هوى فى فؤادى فترجمت القصيدة المسماة «بالبحيرة» من نظم (لامرتين) وهى من آيات الفصاحة الفرنساوية . ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إليه فى كراس ليطلع الجناب الخديوى عليها . وإذ كنت لا أتخذ لشعرى مسودات رجوت أنى أجدها عنده بعد العودة إلى مصر ثم عدت دون ذلك حواد .

" وجربت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير، وفى هذه المجموعة شىء من ذلك، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئا منها فيفهمونه لأول وهلة ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره " .

عرفنا أن حكايات شوقى على ألسنة الحيوان نظمت فى سنة ١٨٩٢ — ١٨٩٣ فى الفترة الباريسية ولكننا لم نعرف الكثير عن حياته الأدبية فى الفترة التى سبقت غربته . وهذا النقص الظاهر فى الفترتين قد حاولت أن تسده مجلة سركيس . جاء فى هذه المجلة فى العدد ١٣و١٤ من السنة الثامنة — ١٥ يوليه وأول أغسطس سنة ١٩١٥ — ما يأتى تحت عنوان (آراء شوقى من مفكرات سليم سركيس) :

"لما علم أمير الشعراء شوقى بك باستئناف صدور مجلة سركيس وعد أن يتحفنى بقصيدة لم تنشر ثم صدر العدد الماضى ولم تصل هديته فرجعت إلى مفكراتى ووجدت فيها محادثة بينى وبين شوقى بك تاريخها شهر فبراير سنة ١٨٩٧ أى منذ ١٨ سنة فعمدت إلى نشر خلاصة تلك المحادثة .

أول ما عرفته من الشاعر الكبير أنه مدين للمرأة بمقدمات نجاحه ذلك أنه ترجم فى أول أمره قصيدة عن المرأة كانت آية فى الرقة والإجادة، فلما عرضت على المغفور له الخديوى الأسبق أعجب بها وكانت السبب فى صدور أمره بإرسال شوقى إلى أوروبا . . سألته .

— متى بدأت تنظم الشعر . وهل تذكر شيئا من قديمه ؟

— وفقت لنظم الشعر وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى [1] وكان أستاذى يومئذ المغفور له الشيخ حسين المرصفى [2] ، وعليه قرأت الكشكول والبهاء زهير حتى إذا بلغت فى مطالعة الكشكول هذين البيتين :

---

(١) أى حوالى سنة ١٨٨٢ . . (٢) لأول مرة نعرف كيف تتلمذ شوقى للشيخ حسين المرصفى صاحب (الوسيلة الأدبية) وأستاذ البارودى . كان المرصفى أستاذا بدار العلوم وكانت دروسه تنشر فى مجلة (روضة المدارس) بين ١٢٩٢ و ١٢٩٤ هـ (١٨٧٥ — ١٨٧٧) وقد تخرج عليه من رجال الأدب فى عصرنا حفنى ناصف . وقد كان كتاب (الوسيلة الأدبية) الذى طبعته نظارة المعارف فى رجب سنة ١٢٩٦هـ ١٨٧٩ م (لا ١٢٩٢ كما كتب خطأ على صفحة العنوان) أكبر الأثر فى تكوين كبار الشعراء المعاصرين فى أوائل القرن التاسع عشر .

وممزّق عنه القميص تخاله ‏ ‏ بين البيوت من الحياء سقيما

حتى إذا حمىَ الوطيس رأيته ‏ ‏ عند اللواء على الخميس زعيما

استخف الشيخ الطرب وطلب إلىّ أن أشطرهما فقلت :

وممزق عنه القميص تخاله ‏ ‏ ملكا تسنم به السماء كريما

يحمى الحمى عف اللواحظ والخطا ‏ ‏ بين البيوت من الحياء سقيما

حتى إذا حمى الوطيس رأيته ‏ ‏ نارا على نار الوغى وجحيما

وإذا القبائل أطبقت ألفيته ‏ ‏ عند اللواء على الخميس زعيما

فاستحسن البيت الأول والثانى ، وأرشدنى إلى مواضيع التكلف من الثالث والرابع . ثم اقترح أن أجرب لسانى فى الحكمة فعملت هذين البيتين وهما أول عهدى بإنشاء الشعر :

قصارى العيش أن يذ ‏ ‏ هب إن حلوا وإن مرا

فإن شئت فمت عبدا ‏ ‏ وإن شئت فمت حرا

فأعجب الشيخ بهما كثيرا ، وبشرنى بمستقبل فى الحكمة غزير .

— متى بدأت مدائحك للبيت الخديوى ؟

— أولها فيما أذكر منظومة طويلة أنشأتها وأنا تلميذ بمدرسة الحقوق ، وسميتها (الدر المنظم فى مديح الجناب الخديوى المعظم) فكتبت فى مطلعها :

همم الملوك طلوها لا ينكر ‏ ‏ والخير يبقى والمآثر تذكر

وقدمتها بنفسى إلى المغفور له محمد توفيق باشا ، فقابلها بأحسن قبول ، ووعدنى أنى متى أتممت الدراسة يلحقنى بمعيته ، وقد كان ونجز وعده .[1]

---

(١) يوجد فى (الشوقيات) القديمة ص ٧٤ قصيدة « مما نظم فى أول زمن القول » وفى ص ٧٧ «وقال يمدحه وهى أول نظمه » :

سفر الحبيب فقلت ياعين انظرى ‏ ‏ وتنزهى فى حسن ذاك المنظر

وفى ص ٧٨ « وفيه أيضا وهى من نظم الصبا كذلك » :

هى الجزيرة فاحذر فتنة النظر ‏ ‏ وكيف والحب يأتى غير منتظر

وهذه القصائد جميعا ليس فيها من الشعر إلا النظم . ولعل أول قصيدة بدأت تبدو فيها ملامح شوقى الكبير هى القصيدة المنشورة فى صفحة ١٣٨ والمؤرخة (١٣٠٥ هـ — ١٨٨٨ م) . وهى تعزية للخديوى (توفيق) بأخيه الأمير حسن باشا الذى مات بالآستانة وحملت جثته إلى مصر :

وكم قاد جيشا ليس يحصى عديده ‏ ‏ فطاف به داعى الحمام وقاده

وسار على نعش من اليمن والرضا ‏ ‏ إلى روضة فيها استطاب انفراده

وخلف فى دار الخلافة وحشة ‏ ‏ وحزنا برى من قلب مصر سواده

ولو علم البحر الذى هو أبيض ‏ ‏ بذا شكت الغبراء منه اسوداده

=

— وهل ترجمت شيئاً من شعر الإفرنج ؟

— إنى أجل الترجمة وأستعظم فوائدها ، ولكن نفسى لا تميل إلى التعريب ، بل ميلى كله إلى انطلاق والإنشاء ، هذا مع كلفى بقراءة كتب الآداب الفرنسوية ، وعلى الأخص تأليف فكتور هوجو وموسيه ولامرتين ، ولقد كنت أغنى هذا الثالوث ويغنينى (!) ، ومع ذلك فلا أذكر أن خاطرى ارتاح مرة إلى نقل شىء عنه إلى اللغة العربية إلا مقطعات قد تصادف هوى فى النفس ، فيترجمها عنه اللسان وهو مار بها ، كقول هوجو فى الجنائز منكراً مبالغة الناس فى الاحتفال بها .

أرى زمراً مشيعة ... وأسمع أيما صوت
ولو عقلوا لما فعلوا ... جلال الموت فى الموت (١)

وكقوله يصف ظلمة المستقبل فى أواخر أيام نابليون الثالث :

سل الليل هل أضمر الغدر أم ... لأمر سوى الغدر يستجمع ؟
ظلام أناخ بلا كوكب ... يضىء ولا بارق يلمع (٢)

وكقوله فى الحض على حب الأطفال ورحمتهم :

أولى البيوت بغابط أو حاسد ... بيت يضم صغيرة وصغيرا (٣)

وقد اقتفى شوقى فى هذه القصيدة أسلوب القدماء فى الرثاء فأجاد السبك . ولعل أول مرثية برزت فيها شخصية الشاعر هى قصيدته فى رثاء اسماعيل وقصيدته فى عيده الحولى :

ساجع الشرق طار من أوكاره ... وتولى فن على آثاره

(١) نشر هذان البيتان فى الديوان القديم دون الإشارة إلى أنهما مترجمان عن هوجو . جاء فى مجلة (الزهراء) . (رجب ١٣٤٤ يناير ١٩٢٦) : "أما الذكر الذى تضج به الحلوق أمام الجنائز فهذا من العار وليس من الدعاء . روى أبو موسى الأشعرى قال : كنا مع رسول الله فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم . إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إنكم تدعونه سميعاً بصيراً » إلخ . وما أجمل قول شوقى :

أرى زمراً مشيعة ... وأسمع أيما صوت
ولو عقلوا لما فعلوا ... جلال الموت فى الموت"

(٢) نشر أيضاً هذان البيتان فى الديوان القديم دون إشارة إلى أصلهما .

(٣) نشر هذا البيت فى آخر أبيات نظمها شوقى تحت عنوان (ولى عن لسان البكوات المماليك حكام مصر سابقاً وهى حقيقة تاريخية) :

إن الذى رزق المماليك الغنى ... وحباهم ملك البلاد كبيرا
لم يعطهم من نعمة الأولاد ما ... أعطى الخلائق مثريا وفقيرا
لولا التبنى ما عرفنا لذة ... للعيش يحسبه المحسود نضيرا
أولى البيوت بغابط أو حاسد ... بيت يضم صغيرة وصغيرا

وهذه الأبيات منقولة من رواية على بك القديمة (١٨٩٣) ومنشورة مستقلة فى الديوان القديم صفحة ٧ .

— ما هو أحسن قولك فى المرأة عموما ؟

— لى فى المرأة على العموم كلام كثير ، ولكنى لا أرانى وفيتها الوصف إلا فى قولى :

ثق بالنساء فإن وثقت فلا تثق فحبالهنّ على الزمان هباء

فعيونهنّ إذا أخــذن توارك وقــلوبهنّ إذا هــوين هواء"

هــذا أهم ما جاء فى حديث شوقى سنة ١٨٩٧ . وقــد جرى ، بمناسبة مهرجان الشعر الذى أقيم بعــد ظهر يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧ لتكريم أمير الشعراء، حديث آخر مع شوقى نشرته (الأهرام) فى صباح ٣٠ أبريل جاء فيــه : " قلنــا حدّثنا عن أوّل عهــدك بالشعر وقرضه ، وعن أوّل بيت قرضته ، وعن الحادث الذى أوحى إليك البيت :

فقال أمير الشعراء : كنت طفلا ، وكان لنا جار اسمه حسيب بك ، طيب كريم الخلق من بيت مجد، وأظنه يمت إلى دولة ثروت باشا بصلة المصاهرة، وكان صديقا حميا لوالدى وخالى رحمهما الله ، وكان له أخ اسمــه عطا بك كان وكيلا لأوقاف الخديو عباس ، وقــد اعتاد حسيب بك أن يرسل لى من وقت لآخر بعض كتب فرنسية مصوّرة ، وحدث مرّة أن أهدى إلىّ كتابا كثير الصور حسنها ، اغتبطت به أشــدّ اغتباط ، ثم أرسل بعــد قليل يستردّه فبكيت بكاء مرا ، ورددت الكتاب إليه مصحوبا ببيتين وهما :

حسبت حسيبا زاده الله رفعــة لمــا نظرت عيناى منــه أخا عطا

فخالف ظــنى ما رأيت فإنــه لكالدهر سلاب من الناس ماعطا

وبقــدر ما حزنت على الكتاب فرحت بهذين البيتين فرحا عظيما ، فقــد كانا موضع إعجاب الجيران على ما فيهمــا من خطأ ، وتناقلتهما الألسن من مندرة إلى منــدرة ، وكانا أوّل ما قرضت من الشعر .

قلنا : فحدّثنا عما قرضت بعد ذلك من الشعر، وعن أوّل قصيدة لفتت إليك الأنظار؟

فقال : لقــد شجعنى ما قوبل به البيتــان السابقان من الإعجاب على نظم أبيــات مختلفة لإخوانى فى المدرسة . ومن أوائل شــعرى فى زمن الدرس قصيدة طويلة طبعتهــا فى مدح المغفور له توفيق باشا مطلعها :

همو الملوك علوّها لا ينكر والخير يبقى والمآثر تذكر

وكانت أوّل قصيدة لفتت الأنظار إلىّ ، لا سيما نظر الخديوى توفيق ، حتى كان يسال عنى دائما إلى آن عينى بالسراى .

قلنا : من أستاذك فى اللغة والأدب ؟

فقال : أستاذى الوحيد الذى أعد نفسى مدينا له هو الشيخ حسين المرصفى صاحب (الوسيلة الأدبية) ، وتتلمذت سنتين لحفنى بك ناصف ، وهما أستاذاى حقيقة اللذان استفدت منهما .

قلنا : وما هو أول كتاب قرأته فى الأدب العربى ؟

فقال : كتاب الكشكول قرأته على الشيخ حسين المرصفى فى دروس خاصة ، وكان هو أيضا يحبه كثيرا ويفضله على غيره من الكتب " انتهى .

لقد ورد مضمون ذلك الحديث فى حديث سركيس وهو على أية حال يؤكده ويوضحه .

الشوقيات

ا - الجزء الأول ، طبعة قديمة

١٨٩٨

طبع الجزء الأول من « الشوقيات » بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٨٩٨ م . وكتب عليه أنه يشتمل على القصائد (من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٨) . وأعيد طبع هذا الجزء بنصه (الطبعة الثانية) فى مطبعة الإصلاح بشارع محمد على بمصر سنة ١٩١١ . والواقع أن تاريخ طبع الجزء الأول (١٨٩٨) ، وهو التاريخ المكتوب ، غير صحيح لأن تاريخ القصائد المنشورة ينتهى فى سنة ١٨٩٩ لا ١٨٩٨ وبيان ذلك : فى آخر الديوان تأريخ لظهوره :

مجموعة لأحمد معجزة فيها بهر
تعدّ فى تاريخها أليق ديوان ظهر

١٣١٧

وأول محرم سنة ١٣١٧ يوافق ١٢ مايو سنة ١٨٩٩ . وتنتهى سنة ١٣١٧ فى ٣ أبريل سنة ١٩٠٠ . فما لا شك فيه أن الديوان ظهر بين مايو سنة ١٨٩٩ وأبريل سنة ١٩٠٠ ، وفى آخر الديوان قصائد نشرتها الصحف فى سنة ١٨٩٩ منها (تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر) :

عظيم الناس من يبكى العظاما ويندبهم ولو كانوا عظاما

نشر المؤيد هذه القصيدة ضمن المقالة (١٥) من « بضعة أيام فى عاصمة الإسلام » بإمضاء (سائح) فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩ . ومنها قصيدة (المرأة العثمانية) :

يا ملكا تعبـدا ... مصليا مُوحدا

نشرها المؤيد ، كالسابقة ، ضمن المقال (٢٢) فى ٩ نوفمبر سـنة ١٨٩٩ . إذن أصبح ظهور (الشوقيات) محصورا بين نوفمبر ١٨٩٩ وأبريل ١٩٠٠ . وفى اعتقادنا بل يقيننا أنها ظهرت فى مارس سـنة ١٩٠٠ أى فى آخر سنة ١٣١٧ هـ . فقـد قرظ (اللواء) الشوقيات فى ٣٠ مارس سنة ١٩٠٠ . وكتب (المؤيد) فى أول أبريل سنة ١٩٠٠ مقالة تحتل الصفحة الأولى كلها وعمودين من الثانية تحت عنوان (الشعر فى هذا العصر) جاء فيهـا : « ظهرت الشوقيات للوجود ديوانا للعـرب جديدا ، فمرحبا به ديوانا ... » . وفى عدد ٣١ مارس سنة ١٩٠٠ من مجـلة (الموسوعات) — وهى مجلة نصف شهرية — ظهر مقـال نقدى تحت عنوان (الشوقيات . ديوان أحـمد بك شوقى) جاء فيـه « بشرى فقـد ظهرت الشوقيات ... » .

وفى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٠ نشر المؤيد إعلانا هذا نصه :

(الشـــوقيات)

(تطلب من صاحبها أو بواسطة المكاتب والقيمة عشرون قرشا صاغا)

* * *

أما فيما يتعلق بطريقة جمع الشعر ونشره فى (الشوقيات) ، فقد كتب شوقى فى مقدمة الديوان ما يأتى : " كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات ، فكان لى عجبا أن وجدت بين أوراقه شيئا كثيرا من مشتت منظومى ومنثورى ما نشر منهـا وما لم ينشر ، قـد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص ، والكل خط يد المرحوم ، وقد لفه فى ورقة كتبت عليها هذه العبارة : « هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوربا فكنت كأنى أراه ، وإنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس ، لأنه لا يجد بعدى من يعتنى بشؤونه » ، فبينما أنا ذات يوم تعب بهـذه الأوراق ، حيران لوصية الوالد كيف أجريها ، زارنى صديق مصطفى بك رفعت فحدثته حديثى ، فسألنى أن أعيره الأوراق أياما ثم يعيدها إلى ففعلت ، ثم لم يمض شهر حتى بعث بهـا إلى ، وإذا هى قـد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح ، بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى المطابع . على أن ما جمع من (الشوقيات) ثم طبع ليس هو كل ما قيـل ، فقد أسقطت منـه الكثير وعثرت على غيره ولكن فى الزمن الأخير ،

فأما ما أسقط عمدا فأكثره من قولى فى زمن الصبا الذى لا يؤمن فيه على المرء الغرور . لكنى حرصت على إثبات بعض الشىء منه ، وأما ما عثرت عليه والمجموعة فى أيدى الطباع فلم يكن فى الوسع أخذه ، على أنه محفوظ لينشر فى الجزء الثانى إن شاء الله تعالى مع سائر القصائد التى قيلت بعد الإعلان عن الشوقيات ، ولم يتيسر إدخالها فى أبواب هذا الجزء ، وقد عزمت بحول الله ومشيئته على أن أنشر فى آخر كل عام هجرى ما يحصل عندى من منظوم ومنثور . . » انتهى .

ظهر أول نقد للشوقيات فى (مصباح الشرق) حيث نشر محمد المويلحى عدة مقالات متتابعة ولكنه لم يتمها . أول مقالة فى عدد ٢٠ أبريل سنة ١٩٠٠ تحت عنوان (أمر مبكياتك لا مضحكاتك) : « قيل لأفلاطون مالك تعارض سقراط فى أقواله وأنت تحبه ؟ قال : أحب سقراط ولكننى أحب الحق أكثر منه . وعلى ذلك نبدأ فيما بدا لنا الكلام عليه من ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقى بك . صدّر الشاعر ديوانه بمقدمة طويلة تكلم فيها عن الشعر وعن نفسه . أما المقدمة من حيث صناعة الإنشاء ومن حيث اللغة ، فإنها تدل على أنه شاعر لا ناثر[1] ، وتدل على أنها كانت تحتاج إلى إعادة نظر للتنقيح والتصحيح ، فإذا نظرت فى الصحيفة الأولى وحدها وجدته يقول فيها عن الشعر « قاله امرؤ القيس واصفا وحاكيا . وضاحكا وباكيا . وناسبا وغازلا » والغازل هنا من قولك غزلت المرأة القطن والكتان وغيرهما غزلا مدته وفتلته خيطانا أما إذا كان غرضه الغزل محركا فلا يأتى اسم الفاعل غازلا وإنما يقال رجل متغزل وغزل ككتف وغزيل . وقال فى الصحيفة نفسها عند كلامه على قصيدة أبى فراس :

أراك عصىّ الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهىٌ عليك ولا أمر

« ليست إلا عقدا توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه . تعاونت فيه ملكة العربى وسليقة الشاعر على حسن الحكاية » وكان الصواب أن يقول : « سليقة العربى وملكة الشاعر » لأن الملكة لكل الناس والسليقة للعربى خاصة . قال بعض شعرائهم :

ولست بنحوىٍّ يلوك لسانه   ولكن سليقىٌّ أقول فأعرب

هذا من حيث اللغة . وأما من حيث الكلام عن الشعر فإنك تراه فى المقدمة مضطربا متناقضا فتارة يرفع الشعر العربى إلى درجة عالية . . وتارة ينزل به إلى أدنى دركه فيقول :

(١) كان شوقى يتألم من القول إنه شاعر لا كاتب . والواقع أنه ليس كاتبا كمطران مثلا يعالج فنون القول ولكنه ناثر وله آيات من النثر الشعرى المرسل والمسجوع .

«إنى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحا فى مقام عال» . ثم قال فى موضع آخر عن الشعراء حتى عن آخر المتأخرين: «وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى فى شعر الأمم كابن الأحنف مرسل الشعر كتبا فى الهوى ورسائل، وكابن خفاجة شاعر الطبيعة(١)، ومجنون ليلاها وواصف

---

(١) لو أن شوقى تشرب البيئة الأوربية وأدب الإفرنج لعرف الفرق بين الجديد والقديم فى مذاهب الإفرنج والعرب ولما قال إن ابن خفاجة شاعر الطبيعة . . إنى لا أجد لابن خفاجة شعرا يشف عن وجد بالطبيعة وتعلق بها . إنه يذكر الأشجار والغمام والجدول كما ذكرها غيره من المتقدمين — وربما كان أضعف منهم — وليس فى شعره إلا تشبيه وتكلف . يصف الليل فيقول :

وليل كما مد الغراب جناحه ... وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق والليل فحمة ... شرار ترامى والغمام زناد

أين هذا من قول البحترى :

والليل فى لون الغراب كأنه ... هو فى حلوكته وإن لم ينعب

وقد يأتى بالتشبيه الرائع ولكنه لا يلبث أن يفسده بتشبيهات أخرى وصور متراكمة من «بديعه» ووصفه . مثال ذلك : ذكر الجبل فقال :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح من كل وجهة ... ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى مفكر فى العواقب

هنا تمت الصورة كالقمر الممتلئ ولكن شاعرنا يأبى إلا أن يشوهها بعد ذلك بقوله :

يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت ... فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتل تائب

ويصف ابن خفاجة سرحة على نهر فيقول :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا ... أوفت عليه فلم تنقص ولم تزد
كما تدانيت من ثغر لمرتشف ... ثم انثنيت فلم تصدر ولم ترد
كأن أفنانها طيبا حمى ملك ... أغضى وأعطى فلم يوعد ولم يعد

هذا شعر غث . ولعل أجمل ما قاله ابن خفاجة البيتان اللذان رواهما لى المرحوم حافظ إبراهيم وقال إن إسماعيل صبرى معجب بهما .

يقابلنا الصباح ببطن جزوى ... فينكرنا ويعرفنا الظلام
فيا ظل الشباب وكنت تندى ... على أفياء سرحتك السلام

ولكن هذا الجيد نادر فى شعر ابن خفاجه . ولا جدال فى أن أرق قطعة شعرية فى الطبيعة عند الأندلسيين هى أبيات حمدة بنت المؤدب المشهورة فى وصف واد :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم

=

بدائعها وحلاها، وكالبهاء زهير سيد من ضحك فى القول و بكى، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى. وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثر فى سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو » .

ومن كان نظره فى البهاء زهير ورأيه فيه هكذا كيف يكون رأيه فى فحول الشعراء كسلم ابن الوليد وأبى تمام والبحترى وابن الرومى . ثم هو بعد ذلك ينزل بالشعر العربى إلى أن يقول: «ثم طلبت العلم فى أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أنى مسئول عن تلك الهبة التى يؤتيها إليه ولا يؤتيها سواه وأنى لا أؤدّى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها . وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغى إبادتها كالأفعوان لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح من أوربا مملوءة من جديد المعانى وحديث الأساليب بقدر الإمكان »[1] . ومعنى هذا أنه وجد

= وأرشفنا عسل ظلما زلالا ... ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها و يأذن للنسيم

وقد نظر شوقى إلى معنى البيت الأخير فقال يصف الخميلة :

وقف الحيا من دونها مستأذنا ... ومشى النسيم بظلها مأذونا

والواقع أن شوقى درس الأدب الافرنجى دراسة عابرة لا دراسة استيعاب وأنى له ذلك وهو كالنحلة المتنقلة من زهرة إلى زهرة . . فهو ليس بالأديب الذى يحكم وحسبه أنه الشاعر العظيم الملهم الذى ملأ الدنيا بأغاريده . روى لى نابغة الخط الأديب سيد إبراهيم أنه كان فى مجلس ضمه هو وشوقى والمغفور له كامل كيلانى فى الإسكندرية ، وجاء ذكر الشاعر ابن زيدون ، وكان ديوانه قد ظهر مطبوعا لأول مرة فى مصر بعناية كامل كيلانى وذلك فى منتصف سنة ١٩٣٢ فقال شوقى «إن جميع معانى ليالى موسيه فى ابن زيدون» . وهذا قول غريب . لأنه ، بصرف النظر عن أن الشعر ليس مجرد معانى ولكنه قبل كل شىء شعور وتعبير، فما لا ريب فيه أن ليالى موسيه من شعر الحب الصادر من أعماق القلب الحزين الواله . وهى صيحات متفجرة كلها لوعة وضرام وأنين ينتظمها نفس عال كنفس مجنون ليلى وكثير عزة وجميل بثينة . والفرق بين موسيه وشعراء الحب فى الجاهلية أن الشاعر الفرنسى جمع أنفاسه كلها وحنينه وتحنانه فى سمط الليالى الأربع التى هى من أصفى الشعر الغنائى جوهرا ، وأن شعراء العرب لم يكن تغريدهم تغريد سرب متجوق فى الفضاء ولكن تغريد أطيار متفرقة ينطلق الواحد منها تلو الآخر فى الأعالى بين الفينة والفينة و يصدح . . ولاشك أن ابن زيدون شاعر رقيق حلو النغم ولكنه ليس من طبقة الفحول . .

(١) مثال من بعض قصائد المديح التى أرسلها من باريس فى سنة ١٨٩٣ وهى آخر سنة له فيها : جاء من قصيدة نشرتها له (الأهرام) فى ٢٢ أبريل سنة ١٨٩٣ :

دام ذا الوجه مقصد الأجواد ... ساهيات بتهنئات العباد

فإذا دام فالرجاء بخير ... والندى سالم وتلك الأيادى

يا بديع الطريف فى كل مجد ... وعريق التليد فى الأمجاد

هل سبيل إلى شفائك إنى ... ضاقت السبل فى فمى بالضاد

وأنا ابن الرياض والظل والما ... ء ودادى ما زال خير وداد =

نور السبيل إلى الشعر العربى فى أوربا من أول يوم وأنه وجد فى مصر أوهاما كالثعبان لا يؤخذ إلا بالحيلة فاحتال عليه بقصائده على الأسلوب العربى الجديد الأوربى لإبادة تلك الأوهام التى تمكنت من الأمة العربية. وهذا أغرب ما روى لأن الشعر ألفاظ ومعان فالرجوع إلى العربية والأخذ عن أهلها واجب من جهة الألفاظ . أما من جهة المعانى فقد طالعنا ما قدرنا على مطالعته من شعر الغربيين فلم نجدهم أطول باعا من الشرقيين فى المعانى بل الشرقيون يفوقونهم فيها، وهم إلى الآن لا يزالون فى المعانى عيالا على اليونانيين والفرس والعرب، ينتحلونها ويزينون بها أشعارهم . وأما من جهة المواضيع الشعرية والتغنى بالطبيعة ووصف الكون مما يشير إليه فى مقدمته فهو يشهد نفسه «أن شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادئ العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها فى أجلى وأجمل صور البيان » .

ثم ختم المويلحى مقاله قائلا : « وقد قال شعراء الشرق ما قالوا فى هذه الأبواب فما على الشاعر الجديد إلا أن يتصفح دواوينهم فيجد فيها ضالته التى ينشدها فإن رآهم قد فاتهم شىء أو أغفلوا بابا فى الشعر لم يفتتحوه فليقرعه وليتحف به أهل زمانه والكون والطبيعة أمامه فى كل زمان ومكان وهو فى غنى عن التطوح بالشعر العربى إلى أرض أوربا ليستنير بنور هداها ويحتذى الصراط المستقيم بها . هذا ما رأيناه فى مقدمة القسم الأول من الديوان وستتبعه الخ » . انتهى .

الواقع أنه لا شوقى ولا المويلحى تشرب الأدب الغربى، وليس فى مقدور أحدهما الموازنة بين الأدبين، ومن هنا نشأ الاضطراب والتناقض فى أقوالهما . ليس فى شعراء

= وفى ٦ يوليه سنة ١٨٩٣ نشرت له الأهرام قصيدة تهنئة للخديوى بالعيد والسفر إلى الاستانة مطلعها :

بصوتك حاجنا الممالك والعصرا وقلنا فيا تت مصر فى مجدها مصرا

وفى ١١ أغسطس سنة ١٨٩٣ نشرت له الأهرام قصيدة يمدح فيها الخديوى ويشير إلى زيارته الأولى لدار السعادة . وهذه أهم وأول قصيدة سياسية نظمت فى تلك السنة . ولذلك أعاد نشرها شوقى فى الجزء الأول من (الشوقيات) طبعة سنة ١٩٢٦ . ويلاحظ أنه فى سنة ١٨٩٣ بدأ الصراع على السلطة بين عباس وكرومر وكانت صحف الاحتلال تندد بعباس الذى أخذ يتقرب إلى تركيا لتعينه على انجلترا . وقد سافر إلى الاستانة فى أول زيارة له فى يوليه وعاد فى أغسطس . وكان خليل مطران مراسلا للأهرام فى الاستانة إبان هذه الزيارة . وقد نشرت الأهرام مقالة لمحررها خليل زينيه فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٣ تحت عنوان (مصر للمصريين) كما أن الأهرام والمؤيد كانتا تحملان على الانجليز وتطالبان بالجلاء وتحقيق الوعود المتكررة :

رضى المسلمون والإسلام فرع عثمان دم فداك الدوام
وإلى السيد الخليفة نشكو جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعودا كبارا هل رأيت القرى علاها الجهام

العرب لذ بلوته أو شكسبير ، وليس فى الشعر العربى ذلك السبح الطويل فى أجواء الطبيعة والحياة ، ولكن للشعر العربى خصائصه وميزاته . فقد استبحر فى الحب ، وصوّر أدق العواطف . كان الأعرابى خبيرا بالمرأة لمخالطته إياها حرة سافرة كالغربية اليوم ، وقد أبدع الإفرنج فى تحليل الحب ، ولكن القليل منهم انقطعوا لشعر الحب ، وأفنوا العمر فى التشبيب والتغنى بالمحبوبة كما عند العرب ، كما أن شعر الحكمة والحماسة والفخر عند العرب لا نظير له عند الإفرنج ، لأن العبقرية العربية وحدها هى التى فاضت به . ولهم فى بكاء الديار والأيام والنعيم الزائل صرخات فى الكون ، لا تقل فى بيانها وروعتها عن صرخات الإفرنج أمام سرّ الوجود المغلق ، والسكون المزعج فى الفضاء ، كما أن تصوير الحيوان والبادية فى الجاهلية — وهو ما فصلناه فى الشوامخ — لا مقابل له عند الإفرنج . وإذا كان الشعر الغربى يمتاز بمطولاته وبناياته العالية المتناسقة ، فإن الشعر العربى يمتاز بمقطعاته وأبياته « الغنائية » التى تهز أجنحة الحنين إلى السماء الناضر ، وبقصائده القصيرة المتلائمة مع نزعة العربى الذى تسيطر عليه فى كل العصور روح التفجع والارتجال . وعلى أية حال لم يحسن المويلحى تفسير قول شوقى : « وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغى إبادتها كالأفعوان لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان إلخ » . يريد شوقى أنه لا يمكن مفاجأة الأمة التى ألفت القديم وقدسته بالجديد دفعة واحدة ، فاحتال لذلك بإرسال قصائد المديح التى يأنس إليها القوم ، ولكنه ملأ هذه القصائد بجديد المعانى وحديث الأساليب . ويقيننا أن حديث شوقى عن التجديد مجرد ثورة كلامية سطحية ، فالمدائح تتنافى مع التجديد ظاهرا وباطنا ، وبعبارة أخرى تتنافى مع روح التجديد والشخصية فى كل عصر . لا ينكر أن بعض قصائد هذا الديوان الأول وبعض القصائد التى أهمل ضمها الديوان كانت تنم على شخصية قوية ونجم صاعد فى عالم الشعر ، ولا ينكر أن شوقى حاول التجديد فى مواضيع القول ، فنظم همزيته الخالدة فى تاريخ مصر فى سنة ١٨٩٤ ، ونظم رواية على بك الكبير والقصص المختلفة على ألسنة الحيوان ، وهو وإن لم يوفق كثيرا فى هذه أو تلك ، فقد عاد فى آخر سنيه وألف روايات تمثيلية رائعة ، كما نظم قطعا شعرية جديدة على ألسنة البهائم والطير ، وكلها تدل على نضج الشاعر الذى أضاف ثروة جديدة إلى رأسمال الأدب العربى .

ب ـ الشوقيات ـ طبعة نهائية كاملة في أربعة أجزاء
(١٩٢٦ — ١٩٤٣)

أعلن شوقى مرارا فى السنوات التى أعقبت صدور الجزء الأول من الشوقيات (طبعة سنة ١٨٩٨) عن نيته فى إصدار الجزء الثانى . وفى سنة ١٩١١ ظهرت الطبعة الثانية من الجزء الأول ، وهى ، كما قلنا ، صورة طبق الأصل من الطبعة الأولى ، وكان المفروض أن تشمل هذه الطبعة الجديدة القصائد الكثيرة التى أغفل الشاعر نشرها فى الطبعة الأولى .

وقد نشرت مجلة (الزهور) لصاحبها الأديب الكبير الأستاذ أنطون الجميل فى عدد أكتوبر سنة ١٩١١ تحت عنوان (ملحق بالشوقيات) ما يأتى : أهدى إلينا شاعر من أصدقاء (الزهور) وعشراء شوقى فى عهد الصبا الأبيات الآتية ، وكان قد نظمها شاعر الأمير فى مدح المغفور له توفيق باشا الخديوى السابق ولم نعثر لها على أثر فى الشوقيات ، بل وجدنا هناك أبياتا من وزنها وقافيتها . أما الأبيات المفقودة فهى :

مضنى وليس بـه حراك ... لكن يخف إذا رآك
ويميـل من طرب إذا ... ما ملت يا غصن الأراك
إن الجمال كساك من ... ورق المحاسن ما كساك

إلى آخر الأبيات ، وهى تبلغ اثنى عشر بيتا ، وهذا كل ما أخرجته الزهور بعد التمخض الطويل مع أن خليل مطران صاحب (المجلة المصرية) و (الجوائب المصرية) ، وحافظ عوض صاحب (الموسوعات) وجريدة (المنبر) ، وأبو شادى صاحب (الظاهر) ، وعلى يوسف صاحب (المؤيد) ، وغيرهم من أصحاب الصحف والمجلات التى كان ينشر فيها شوقى شعره بإمضاء صريح أو مستعار كانوا لا يزالون أحياء ، وكان فى وسع المرحوم أنطون الجميل أن يعرف منهم ما غاب عن شوقى منذ سنة ١٨٨٨ وهو كثير ..

وفى عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢١ من (مجلة سركيس) أعاد صاحب المجلة نشر مقال ظهر فى (الكشكول المصوّر) تحت عنوان : « شعر شوقى وجائزة نوبل . اقتراح على سليم سركيس » ، وكان مضمون هذا الاقتراح أن يقوم سركيس بمعونة إخوانه وأصدقائه الأدباء بجمع منتخبات من أقوال شوقى وترجمتها ونشرها بين أدباء الغرب ، وكان ردّ سركيس : « إن شوقى نفسه لسوء حظ الأدب العربى لا يهتم بشىء مما يهتم له سائر الناس ، فمنذ نحو

عشرين سنة انتشر بيننا ديوان (الشوقيات) ، ولا أدرى من جمعه وطبعه ، ولكنى أعلم أن الإقبال عليه كان عظيما . من ذلك الحين نضج شعر شوقى .. ثم إن العشرات من أصحاب المكاتب والمطابع طالما توسلوا إليه وطلبوا منه بإلحاح أن يسمح لهم بطبع ديوانه الثانى وهو لا يفعل . ومما أذكره أنه كان عائدا من أوربا قبل الحرب ، واجتمع فى الباخرة بسعيد باشا شقير ، وجرى لهما حديث عن شعر شوقى والسبب فى عدم نشره ، فاعتذر شوقى بأنه يحتاج إلى ذى عزيمة ونشاط يرتب الديوان ويقدمه للطبع ويعتنى به ، فقال شقير باشا إنه فى سليم سركيس الغنى وهو القادر على كل ذلك . روى لى هذا الحديث شوقى نفسه ، فوافقت وعرضت أن أفعل إذا هو دفع إلى قصائده ، فأجعلها فى أحسن نسق وأجمل طبع مع الشروح اللازمة فشكر ووعد ، وكان ذلك منذ عشر سنوات ولا أزال أنتظر . فإذا كان شوقى لا يهتم كل هذا الزمان بنشر ديوانه ، مع علمه بميل الناس واستعداد أصحاب المكاتب والمطابع ، فكيف ينتظر صاحب الاقتراح أن أكلف أنا نفسى كثيرا من وقتى ونشاطى وإلحاحى لأتوسل إلى شوقى أن يساعدنى على قضاء هذه المهمة » .

وأذكر أنى رافقت شوقى فى رحلته إلى أوربا فى صيف سنة ١٩٢٣ ، وكان يفكر وهو فى باريس فى الذهاب إلى شاطئ البحر فقلت له : « أريد أن أنتهز هذه الفرصة لتاريخ حياتك وشعرك » ، فبادهنى بسؤاله : « عايز كام ؟ » فأجبت : « مش عايز حاجة » ، وانتهى كل شىء .

كان موت شوقى فى سنة ١٩٣٢ بعد صدور أهم جزأين من أجزاء الديوان ، وقد أرصدت مجلة أپولو عدد ديسمبر من تلك السنة لذكرى الشاعر . جاء فى ختام « ذكريات » داود بركات صفحة ٣٦٦ ما يأتى بالنص : « ولو أن قصائد شوقى ومنظوماته جمعت بالتتابع ، مع مراعاة زمن نظمها ، والظروف التى دعت الشاعر إلى النظم ، وبيان ما فيها من إشارة وتلويح وتلميح ، لكان من ذلك فى نظرى وعقيدتى أجمل ديوان ، ولكان هذا الديوان أصدق تاريخ لحوادث مصر منذ عهد الخديوى توفيق إلى اليوم . وأما جمع ديوانه على الطريقة التى جمع فيها بعض شعره فى العهد الأخير ، فعمل لا يفى شعر شوقى مقامه من الشعر والتاريخ معا ، وربما كان الأمر سهلا بعض السهولة اليوم ، ولكنه يصبح مستحيلا بعد بضع سنين ، إلا إذا كان شوقى قد دوّن ذلك بيده كما كان يعد » .

وفى نفس العدد (أپولو ، ديسمبر سنة ١٩٣٢) جاء فى مقال الأستاذ على محمد البحراوى عن (الشعر الفنى فى نظم شوقى بك) : « وستلاقى غير قليل من الجهد وأنت تتلمس الشعر

الفنى فى الشوقيات . ولست أدرى كيف جاء ترتيب جمع القصائد فيه ، فلا هى جمعت بالقافية والروى كما كان يفعل الشعراء والناشرون القدامى ، ولا هى جمعت حسب تقسيم الموضوع كما يفعل بعض المحدثين . ولكن الواقع أن عدم نشر شعر شوقى بالترتيب التاريخى جناية أدبية على شعر شوقى ذاته ، فسيقف الذى لا يعرف مناسبات شعره بعد ذلك موقف الحائر لا يدرى متى قال هذا ومتى نظم ذاك ، لأن كل شعره فى صياغته وقوة نسجه سواء » .

وفى أواخر سنة ١٩٢٢ كان حسن السندوبى أعلن عن طبع كتاب (الشعراء الثلاثة) شوقى ومطران وحافظ ، فهاج فهيم قنديل صاحب جريدة (عكاظ) ، وكتب فى عدد ٧ يناير سنة ١٩٢٣ : « لم يضنّ شوقى بك كما يزعم السندوبى افندى بطبع شعره مجموعا فى سفر ، ولم تقف به همته عند تلك القطعة التى طبعت منذ عهد بعيد ، فقد رخص لنا منذ ثمانى سنوات بطبع الجزء الثانى من الشوقيات ، فأخذنا ننشره فى « عكاظ » استعدادا لطبعه تحت عنوان (الشوقيات) أخذنا فى جمعه وترتيبه وفى تشكيله وتبويبه ، وفى شرح بعض مفرده وغريبه . ولكن ظروفا وأحوالا حالت بيننا وبين ما نريد : الحرب التى داهمتنا فغيرت كل شىء فى مصر حتى عرشها ، إخلاص أمير الشعراء لمولاه ، ذلك الإخلاص المبعثر المبثوث فى جميع قصائده ، قلم الرقيب الذى كان يجد مجالا فسيحا فى صحيفتنا ، فيعمل عمله فى الشوقيات شطبا وحذفا وتشويها وإفسادا . كل هذه أمور جعلتنا نعدل عن طبع الجزء الثانى من الشوقيات إلى حين » انتهى .

لا شك أن صاحب « عكاظ » مغالط ، لأن لشوقى شعرا كثيرا رائعا ، لا علاقة له بمدائح عباس ، ولا سلطة للرقيب عليه ، لأنه شعر وجدانى أو وطنى ، لا يجد الرقيب فيه مساسا بمصالح البلاد . وقد نشر السندوبى مختارات من شعر الشعراء الثلاثة المتداول المشهور ولم يأت بجديد .

وفى مايو سنة ١٩٢٦ أصدر شوقى الجزء الأول من الشوقيات (المجموعة الجديدة الكاملة) . وفى سنة ١٩٣٠ أصدر الجزء الثانى ، وبذلك تم صدور أكبر وأهم جزأين فى حياته وتحت إشرافه . وقد كتب رئيس تحرير (الأهرام) فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٣٠ تحت عنوان (دولة الشعر والشعراء . شوقى أمير البيان وصاحب الصولجان . فى جزء ديوانه الثانى) . أهم ما قاله : « وتجد إهمال التاريخ فاضحا فى هذا الديوان » .

مات شوقى فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ . وفى سنة ١٩٣٦ صدر الجزء الثالث (المراثى) بعد وفاته . وفى سنة ١٩٤٣ أصدر الأستاذ سعيد العريان الجزء الرابع ، وهو جزء على غير نمط الأجزاء الثلاثة الأولى التى طبعها أو أعدها شوقى للطبع قبل وفاته .

كتب الأستاذ سعيد العريان فى مقدمة الجزء الرابع يقول : «و بعد فهذا هو الجزء الرابع من الشوقيات ، دفعه إلىّ من دفعه قصاصات من صحف وجزازات من ورق وبقية من مطبوعات أو محفوظات أكلها البلى ، لأنظر فى ترتيبها وتبويبها و إخراجها ديوانا ، ومن التجوز أن نسمى ذلك جزءا : فما هو إلا بقية أو شىء من البقية التى لم تنشر فى الأجزاء الثلاثة الأولى من الديوان ، فليس يجمعها باب ولا تضمها وحدة ولا تميزها خصيصة من خصائص شعر شوقى ، وإن منها لآخر ما قال وأوائل ما نظم من شعر الصبا . ولقد تكون هذه وحدها خصيصة لهذه المجموعة من شعر شوقى . على أن ذلك الجزء ليس هو كل ما بقى من شعر شوقى بعد الأجزاء الثلاثة الأولى . ولكنه كل ما دفع إلى بما تهيأ لجامعه أن يجمعه ، وأرى شيئا ما قد فاته أو قد أغفل نشره استجابة لبعض الدواعى العامة أو الخاصة ؛ أو لعل الشاعر ، رحمه الله ، كان له رأى فى إغفال شىء من نظمه لحدة أسباب أو زوال أسباب ، ومهما يكن من شىء فهذه حقيقة ينبغى أن أذكرها . . . » .

وكتب أحمد عبد الوهاب أبو العز سكرتير شوقى فى كتابه (الإثنا عشر عاما الأخيرة) الذى صدر سنة ١٩٣٢ ما يأتى عن مؤلفات شوقى التى (تحت الطبع) : كتاب عظماء الإسلام ، الشوقيات جزء ثالث ، الشوقيات جزء رابع ، رواية السيدة هدى ، رواية البخيلة ، كشكول جامع لقصائد لم تنشر وقصائد سهلة للأطفال والأغانى الخ ، وربما أخذت ثلاث مجلدات» .

وقد نشر الأستاذ سعيد العريان بعض قصائد شوقى الأخيرة التى لم تنشر فى ديوانه كما نشر قصائد الأطفال التى سبق نشر معظمها فى الجزء الأول القديم . وظاهر أن أبناء شوقى وسكرتيره لم يتمكنوا من إمداد الأستاذ العريان ببعض القصائد الكبرى التى نشرها شوقى فى العشر سنوات الأخيرة كقصيدة (الله) (١٩٢٤) ورثاء على بك بهجت (١٩٢٤) ورثاء عبد اللطيف الصوفانى بك (١٩٢٥) ، وقصيدته فى الاحتفال الخمسينى بدار العلوم (١٩٢٧) ، وقصيدته فى الحفلة الختامية لمؤتمر الموسيقى (١٩٣٢) الخ . . . وأذكر أنى قلت

(١) أخبرنى الأستاذ الأديب الشاعر محمود أبو الوفا الذى أصدر الجزء الثالث فى سنة ١٩٣٦ أنه اشتغل فى دار الكتب زمنا طويلا فى جمع (المراثى) وكان النساخ ينسخونها له ، وأنه أيضا جمع مواد الجزء الرابع وتركها عند الأستاذ أبو العز سكرتير شوقى . وقد نشرت المكتبة التجارية الجزء الرابع تحت إشراف الأستاذ سعيد العريان .

للأستاذ حسين شوقى إن هناك قصائد كثيرة عظيمة متأخرة لم تنشر فى الديوان فأبدى شكه فى صحة قولى وأضاف «لعلها قصائد سياسية أغفل أبى نشرها» . فقلت « إنها أبعد القصائد عن السياسة ، وهى من أروع شعره» ، وقد نشرنا لشوقى فى هذه المجموعة حوالى ثلاثين قصيدة نظمها فى الفترة الأخيرة فقط (١٩١٩ — ١٩٣٢) ولم تنشر فى ديوانه ، وهذا عدا الأغانى وقصائد الغناء التى نشرناها على حدة فى آخر المجموعة، والتى كلفنا جمعها وتحقيقها عناء كبيرا ، وقد يبدو ذلك غريبا فى عصر الطباعة والنشر ! ، ذلك لأن هذه الأغانى غير مجموعة فى كتاب ومعظم (الإسطوانات) والأصول لا وجود لها عند الشركات التى سجلتها .

أما فيما يتعلق بالشعر القديم الذى نظمه شوقى فى الفترة الأولى (١٨٨٨ — ١٨٩٩) والفترة الثانية (١٩٠٠ — ١٩١٤) ولم يظهر الكثير منه لا فى الجزء الأول القديم ولا فى ديوانه الأخير فما لا ريب فيه أن البحث عن ذلك الشعر كان يتطلب البصر والسن والتجارب والإلمام بالعصر من كل نواحيه إلمام من عاش فيه . وهذه صفات قل أن تتوفر عند المتصدين لنشر الديوان فلا لوم عليهم ، ولكن الملوم الأول هو شوقى نفسه الذى اعترف فى مقدمة أول ديوان ظهر له بما يعتوره من نقص ، كما أنه ظل السنوات الطوال بعد ظهور ذلك الديوان يعلن عن إعداد الجزء الثانى من الشوقيات للطبع ولكنه لم يعدّ شيئا . روى الأستاذ أحمد محفوظ فى كتابه (حياة شوقى) ص ٥٤ : « حتى أنه (شوقى) لما أراد طبع ديوانه محى كل ما يتصل بعباس وبتوفيق عنه ، ولم تظهر هذه المدائح إلا فى السفر الرابع من الديوان وقد نشرها بعد موته أولاده ، وفى هذا الشعر الذى نبذه فى حياته جمال فنى وتاريخ خليقان بالتسجيل » .

وفى صفحة ١٤٤ من الكتاب المذكور قال محفوظ : « ولبث قرابة سبعة وعشرين عاما لم يطبع له ديوانا ، وظل أفخم شعره وأروعه وأخلده منثورا فى الصحف وعند عشاقه من الأدباء والقليل عنده فلو مات شوقى قبل أن يطبع ديوانه الثانى لضاع هذا الذخر الخالد ولكنه عنى بطبع ديوانه الجديد، فكان يطلب إلىّ أن أبحث له فى الصحف المحفوظة عن قصائده ، فأنطت هذا العمل برجل يعمل نساخا فى الدار يبحث، حتى إذا عثر على قصائده نسخها ، وقد جعلت له عشرة قروش يدفعها له شوقى عن كل قصيدة يعثر عليها وينسخها ، فجمعت له قصائد عديدة ، فكان يرضى عن بعضها فيلحقها بالديوان ويطرح بعضا آخر، وكان أكثر هذا المطروح فى مدح توفيق وعباس ، وبدأ فى طبع ديوانه ، فاختص الجزء الأول بما قاله فى السياسة والاجتماع والتاريخ ، واختص الثانى بالوصف والغزل وببعض قصائده

وسماها المتفرقات، ثم مات ولم يظهر له إلا جزآن : الأول والثانى . ثم نشط أولاده من بعده فأخرجوا جزأين : الثالث والرابع ، تضمن الثالث مراثيه كلها إلا قصيدتين إحداهما فى فتحى زغلول والثانية فى عبد اللطيف الصوفانى ، وتضمن الرابع متفرقات من المدائح التى أغفلها ، وبعض إخوانياته مع محجوب ثابت وقصص عن الحيوان ، وشعره فى أولاده وغير ذلك » .

وكتب محفوظ فى صفحة ١٤٦ : « وقد وقف على تصحيح الجزء الأول : الدكتور سعيد عبده ، ووقفت أنا ونجله على شوقى على تصحيح الجزء الثانى ، ووقف على مراجعة الثالث الشاعر محمود أبو الوفا ، ووقف على تصحيح الرابع الأستاذ سعيد العريان » .

ظاهر مما تقدم أن الفوضى التى سادت طبع ديوانه الأول القديم زادت واستفحلت فى ديوانه الأخير (الكامل) بأجزائه الأربعة ، وظاهر أنه لم يكن موفقا فى اختيار بعض أعوانه واختيار الطريقة التى كان يجب اتباعها فى جمع شعره ونشره ، مثال ذلك تكليف أحد النساخ بالبحث عن قصائده فى مجلدات الصحف القديمة ونسخها نظير عشرة قروش القصيدة ! كأن شوقى لم يكفه ما جناه النساخ بجهلهم على الشعر العربى قديمه وحديثه ! ولئن كان مجرد النسخ يحتاج إلى عين أديب فإن البحث عن الشعر فى بطون الصحف يحتاج إلى نظر فاحص وأدب واسع وصبر مضنى . .

و إذا تركنا جانبا إهمال تاريخ القصائد ، وما فى بعض القصائد القليلة المؤرخة من أخطاء وما إلى ذلك من عدم ذكر المناسبات ووضع الشروح الوافية فقد ظل شعر كثير لشوقى ، من جيد شعره وأحسنه ، مجهولا . ففى المراثى مثلا لم يغفل الديوان قصيدتين فحسب — كما زعموا — وهما رثاء فتحى زغلول ورثاء الصوفانى بل ست عشرة قصيدة حتى بلغ مجموع القصائد المجهولة حوالى المائة والثلاثين أو قرابة . . . ٥ بيت من الشعر يجدها القارئ بين دفتى هذه المجموعة ، وقد وجدنا ما وجدنا بعد أن نشرت مجلة (أبولو) فى عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ بضع قصائد لشوقى قالت إن معظمها لم ينشر ، وقد انتظم الجزء الرابع هذه القصائد .

وفى سنة ١٩٥١ قامت ضجة فى مجلة (الرسالة) بسبب عثور الأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى على قصيدتين اثنتين ، نشر الأولى منهما فى عدد ٢٨ مايو سنة ١٩٥١ تحت عنوان (شوقية لم تنشر فى الديوان) وهى فى عيد الجهاد :

خطونا فى الجهاد خطى فساحا   وهادنّا ولم نلق السلاحا

ونشر الثانية فى عدد ٢ يولية سنة ١٩٥١ تحت عنوان (شوقية أخرى لم تنشر) وهى فى تكريم سامى الشوا :

يا صاحب الفن هل أوتيته هبة   وهل خلقت له طبعا ووجدانا

والخلاصة أن مجلة (الزهور) فى سنة ١٩١١ طنطنت بإيراد قصيدة هزيلة فى مدح توفيق غير منشورة فى الديوان القديم ، كما أن كاتب (الرسالة) ضرب الطبل حول قصيدتين لم تنشرا فى الديوان الكامل الأخير ، هذا كل ما وفق إليه البحث والباحثون قبلنا [١] .

ج - الشوقيات المجهولة
أضواء على البحث الحالى ومنهاجه

تمهيد : كنت أقرض الشعر منذ صباى وقد أصدرت فى سنة ١٩١٠ الجزء الأول من (شعراء العصر) ، وفى سنة ١٩١٢ الجزء الثانى ، فكنت فى تيار الحركة الأدبية الكبرى التى بدأت فى أوائل القرن ، وكنت على اتصال برجالها جميعا . أذكر أن أول معرفتى بالمرحوم إسماعيل باشا صبرى كان فى سنة ١٩١١ فى أثناء حرب طرابلس ، وكنت نظمت قصيدة فى هذه الحرب عنوانها (يا بنت روما) فاختار داود بركات وعبد الحليم المصرى منها تسعة أبيات نشرتها (الأهرام) فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩١١ بإمضاء (إسماعيل صبرى) فاضطر إسماعيل صبرى فى اليوم التالى (١٧ أكتوبر) إلى نشر أبيات من نظمه أولها :

بعض هذا الجفاء والعدوان   راقبى الله أمة الطليان

كما نشرت (الأهرام) فى نفس العدد (١٧ أكتوبر) فى الصفحة الثانية فى آخر العمود الثالث ما يأتى : « قصيدة أمس — كتب إلينا محمد افندى صبرى أن قصيدة أمس بعنوان (يابنت روما) هى له فورد فيها اسم (إسماعيل صبرى) خطأ » .

وقد نشرت (اللواء) فى عدد ٢١ أكتوبر سنة ١٩١١ القصيدة كاملة وهذا نصها :

---

(١) القصيدتان نشرتا ، كما قلنا ، فى سنة ١٩٥١ ، أى بعد طبع الجزء الرابع من الديوان بثمانية أعوام . مع أنه كانت هناك قصائد أخرى عظيمة لم تنشر فى الديوان ، ومن الإنصاف أن نقرر أن مجلة الرسالة فى سنتها الأولى (١٩٣٣) خدمت الأدب خدمة كبرى بنشرها قصائد عديدة تحت عنوان (شوقيات لم تنشر) ، وذلك قبل صدور الجزء الرابع الذى تضمن أكثرها .

يا بنت روما

يا بنت روما لا تكونى كما ... كانت أثينا بين قيل وقال[1]
دفنت عدل الله فى أرضه ... فاستوثقى من شر ذاك المآل
أعلنت حربا فاصطلى نارها ... فأنت للنار وقود حلال
أهلك قوم ينحتون الدمى ... ويزجرون الطير طير الخيال
لا بدع أن طاروا بألبابهم ... وأصبحوا من غيهم فى خبال

❖

هذى طرابلس وأبناؤها الـ ... ـشجعان يزجون صفوف القتال
دوارع الطليان لم تستطع ... صبرا على النسف ورشق النبال
حتى هوت للقاع معمودة ... فدنست مثوى نفيس الآل

ياليث

قد آن أن أصلت سيف الردى ... فقد عدا الذئب علينا وصال
إن لم أذد عن موردى بالقنا ... فلا صفا عيشى بتلك الليال
حلمت ياليث ولما تثب ... فأزأر فقد حان وضوح الهلال
فى يدك (المنجل) فاحصد به ... أعمار أقوام طغوا فى الضلال
غدا يروى بالدماء الثرى ... وينبت النصر فترعى الشبال

يا شرق

يا شرق ضاع المجد فى غمضة ... والعيش يمضى بين حال وحال
كم استباحوا حرمة بيننا ... وكم أذاقونا صنوف الوبال
ياحبذا لو عاد عيش لنا ... كان فأمسى فى ربيع الزوال

« صبرى »

وعلى أية حال ظلت الأبيات التسعة التى سبق نشرها فى (الأهرام) بإمضاء (إسماعيل صبرى) منسوبة له . وهى فى ديوانه فى صفحة ١٨٦ تحت عنوان (الحرب الإيطالية فى طرابلس) . وقد ذهبت بهذه المناسبة عقب نشر الأبيات ، لأتعرف بإسماعيل صبرى

---

(١) القافية ساكنة وليست مكسورة كما جاء فى ديوان اسماعيل صبرى الذى جمعه ونشره الأستاذ أحمد الزين .

حاملا خطابا من حافظ إبراهيم يقدمنى فيه إليه . فلما التقيت به وكان جالسا فى حديقة قصره رحب بى وبسط ذراعيه كما يبسط الصقر جناحيه قائلا « مستقبلك واسع . واسع » ثم علمت منه أن شوقى أرسل إليه برقية من الأسكندرية يهنئه بقصيدة (يا بنت روما) .

وقد كنت أتردد منذ سنة ١٩٠٩ على المنفلوطى الذى أرشدنى إلى (الوسيلة الأدبية) وشعر البارودى المنشور فيها . وهو الذى كتب مقدمة الجزء الأول من (شعراء العصر) . وكنت منذ سنة ١٩١١ كثير التردد على إسماعيل صبرى . وكان كلاهما (صبرى والمنفلوطى) يتذوق الشعر ويميز جيد الكلام من رديئه . لذلك كان أسلوب المنفلوطى من أنق الأساليب وأصفاها ديباجة [١] . وكان أسلوب صبرى كالدر المتخير يمده خيال خصيب وثقافة عالية . وكان كلاهما يتشهب [٢] بذكر البحترى فى المتقدمين وشوقى فى المتأخرين .

كان شوقى صناجة العرب حقا لا حافظ . كان حافظ إبراهيم يلقى قصائده ويجيد التطريب فى إنشادها [٣] . ولكن غناءه لم يكن يتجاوز الآذان إلى أعماق النفوس . وكان أثر

---

(١) إنصافا للتاريخ نقول إن المنفلوطى يستعمل أحيانا تعبيرات وصورا ركيكة ، وقد كان سيد كتاب العصر محمد المويلحى . ويخطئ الذين يقولون إن أسلوب المويلحى قديم استنادا إلى نثره المسجوع فى (عيسى بن هشام) وقد نسوا أن (عيسى بن هشام) تصوير للمجتمع المصرى وأول تجديد فى روح الكتابة الحديثة بما يتفق مع العصر . كما نسوا أن للمويلحى كتابات كثيرة مرسلة غير مسجوعة فى (مصباح الشرق) . وهذه الكتابات جديرة بأن تجمع لينتفع بها المتأدبون وتخليدا لذكرى صاحبها .

(٢) تشبيت الحرب والنار : اتقدت .

(٣) كان حافظ يعرف أصول الإنشاد وقد سمعته مرارا . كان لا يقف إلا عند إتمام معنى من المعانى ولم يكن مثلا كبعض شعرائنا وأدبائنا الذين يقطعون البيت والمعنى تقطيعا فمثلا أنشد بيته المشهور :

مشبع الحوت من لحوم البرايا   ومجيع الجنود تحت البنود

على مرتين : الشطر الأول ثم الشطر الثانى . ولكن (ممثلى) اليوم الذين يريدون ترويق شعرهم بالتطريب الزائف يقرأون هذا البيت على أربع دفعات يتخللها وقف وسكون : (مشبع الحوت . من لحوم البرايا . ومجيع الجنود . تحت البنود) . والواقع أن حافظ كان صناجة حقا كما قال الأستاذ العقاد . كان كالأعشى من حيث التجويد فى فن الإلقاء والسيطرة على سامعيه الذين كان يهزهم طربا . ولكن الأعشى كان يعيش فى عصر الخطابة لا عصر الكتابة التى هى أبعد أثرا وأعظم انتشارا . عصر السماع والرواية لا عصر الصحف السيارة فى شعب يقرأ . ومن يقرأ شعر شوقى يسمع من ثنايا ذلك الشعر غناءه وموسيقاه .

ولا شك أن كمية الموسيقى والأنغام العميقة فى شعر شوقى أضعاف أضعاف موسيقى حافظ اللفظية الطافية التى هى أقرب إلى الضجيج الخطابى منها إلى الموسيقى . ولا يستطيع التطريب وحسن الالقاء ، مهما بلغا من الاتقان ، إلا خلق موسيقى صناعية وقتية تنطفئ بمجرد الالقاء . وإذا كان الأعشى لا يزال إلى اليوم صناجة العرب فلأن شعره لا يزال يحتفظ « بجلبته الموسيقية » منذ كان الشاعر يترنم به ويتناقله المغنون . وحسب الأعشى قصيدته الميمية فى مدح قيس بن معدى كرب . ففى هذه القصيدة من الرقة وحلاوة النغم وجمال الحوار بين الشاعر وابنته — حوار لا نظير له فى لغتنا — ما يجعلها خليقة بأن تكون إحدى المعلقات . جاء فى ختام ذلك الحوار وهو ختام القصيدة : =

غنائه أو شعره محصورا فى دائرة ضيقة . أما شوق فكان لا يلق شعره بنفسه ولا يعرض شعره على أحد ولا يتغنى به ولكن كانت كل قصيدة أو أبيات له تحدث دويا كلما خرجت بها صحيفة من صحفنا ، وتنطلق هوائية كما ينطلق سرب الطير شاديا ومغردا فى كل أفق . كانت كل قصيدة لشوق تهزنا وتضرم فى نفوسنا نار الحماسة والحب والوطنية والإيمان والشوق والحنين والأسى على مجد غابر أو حبيب مولّ . . كان شوقى ينقلنا على غنائه من عالم البؤس والشقاء والنفاق والرق إلى عالم الحرية الى عالم الجمال والسحر . وإذا كان شوق يضرب بشعره على جميع أوتار قلوبنا فما ذلك الا لأن العبقرية كامنة فى شعره كائنة فيه . وقد ينطوى أحيانا الغثاء والطحلب وبعض آثار القديم المستهجن ولكن ينبوع الشعر الخالد ينبوع العاطفة والوجدان لا يلبث أن يتكشف ويطرح غثاءه . وما مثل أولئك الذين يقولون عن البحترى إنه منمق ألفاظ — وفى مقدمتهم الرصافى — إلا مثل أولئك السطحيين الذين يقولون إن موسيقى شوق فى لفظه وموسيقى مطران فى معناه . إن النغم الذى يشع من شعر شوق ويطرد ويتحدر فى سلاسة يأتى من أسلوب شوق، من أعماق ألفاظه ومعانيه معا، من كيانه وشخصيته ، من جوه وعصره . وقد تتجلى تلك السليقة الشعرية فى صورة واسعة مؤثرة من صور الحياة وأنغامها الحزينة فى ثنايا كلمة واحدة ككلمة (استأخرا) فى قصيدة حريق ميت غمر :

والأمهات بغير صبر : هذه تبكى الصغير، وتلك تبكى الأصغرا

من كل مودعة الطلول دموعها من أجل طفل فى الطلول استأخرا

والقصيدة كلها مؤثرة تنم عن وجدان عميق وحس صادق . وقد نشرتها (مجلة المجلات العربية) فى عدد مايو ١٩٠٢ . وقالت بهذه المناسبة : " إن شوق اهتم بحادثة ميت غمر اهتماما زائدا فسافر لمحل الحادثة ونظم قصيدته التى اختص بها مجلة المجلات" . وشتان بين ما تمليه العاطفة وما يمليه الخيال . لذلك كانت قصيدة شوق أروع من قصيدة حافظ المشهورة التى يقول فيها :

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف أمسى رضيعهم فقد الأ م وكيف اصطلى مع القوم نارا

كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتجارى

= ففى ذاك للؤتسى أسوة ومأرب قفى عليها العرم

رخام بنته لهم حمير إذا جاءه ماؤهم لم يرم

فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤهم ، إذ قسم

فعاشوا بذلك فى غبطة فجار بهم جارف منهزم

فطار القيول وفيلاتها بيهماء فيها سراب يطم

وهى طويلة تبلغ الأربعة وعشرين بيتا ، كلها تكلف وضجيج لفظى لا موسيقى فيه لأنه عاطل من الحياة . فعاطفة شوقى ، التى خلق منها خياله صورة بل عالما من الصور فى كلمة ، هى وحى الشعر الصادق فى جميع عصوره مهما اختلفت الأشكال وتنوعت الأغراض .

لقد بكى الشعراء الشباب فى جميع البلدان والأزمنة ، وبكاء الشباب موضوع قديم مطروق ، ولكنه يتجدد دائما بقوة النبرات والنغم المستمدة من أعماق الشخصية والوجدان . بكى شوقى شبابه فى باريس فقال :

يا مكتبى قبل الشباب وملعبى ... ومقيل أيام الشباب النوك

ومراح لذاتى ومغداها على ... أفق بجنات النعيم ضحوك

لما احتملت لك الصنيعة لم أجد ... غير القوافى ما به أجزيك

وقد أتت هذه الأبيات الحرة بعد بيت « تقليدى » :

ومن العجائب أن واديك الشرى (١) ... ومراتع الغزلان فى واديك

لكن روائع القصيدة تنسينا مثل هذا البيت .

ولشوقى قصيدة خالدة من أمهات قصائده عنوانها (مصاير الأيام) نظمها حوالى سنة ١٩٢٦ مطلعها :

ألا حبذا صحبة المكتب ... وأحبب بأيامه أحبب

وهى منشورة فى الجزء الثانى (ص ١٨٢ — ١٨٦) ، ومؤلفة من ثمانية وستين بيتا كلها درر لا أستطيع اختيار شىء منها فليرجع إليها من يشاء . هذه القصيدة لا أعرف لها نظيرا فى الشعر قديمه وحديثه فى بكاء الشباب وزمن الدرس والمكتب . وفيها تبدو شخصية شوقى المجددة . وليست الشخصية ، بحال من الأحوال ، صورة مادية « فتوغرافية » تبرز فى القصيدة ولكنها مجرد ملامح وخطوط روحانية تدلنا إلى شخصية الشاعر التى تزداد مع مرور الزمن قوة وتوهجا .

***

دعانى المجلس الأعلى للفنون والآداب إلى المساهمة فى مهرجان حافظ فى صيف سنة ١٩٥٧ وفى مهرجان شوقى فى أكتوبر سنة ١٩٥٨ ، وفى أثناء إعداد المحاضرة الأولى عن (حافظ وعصره) دلنى الأستاذ الأديب عباس حسن على قصيدة أو على أبيات مختارة

---

(١) الشرى مأسدة بجانب الفرات يضرب بها المثل .

من قصيدة (المنار) وهى من جيد شعر شوقى والعجيب أنها كانت من مختارات الكتب المدرسية ولكنها غير موجودة فى الديوان . وفى أثناء إعداد المحاضرة الثانية (التاريخيات والوطنيات فى شعر شوقى) وجدت بين أوراقى قصيدة (رواية فشوده) كان المؤيد نشرها فى سنة ١٨٩٨ بإمضاء مستعار . والقصيدة بلا شك من شعر شوقى الذى لم ينشر فى الديوان كما أنى وجدت قصائد ثلاثا فى عرابى بإمضاءات مستعارة ولكننى ما شككت لحظة فى أنها لشوقى ، وقد أغفلها الديوان كغيرها مع أن الأمانة التاريخية بل والأدبية تحتمان علينا إظهارها . وما كدت انتهى من محاضرتى عن شوقى حتى التقيت بصديق الأديب النبيل اللواء على سرى فاطلعنى على قصائد مهمة نظمها شوقى إحداها فى (الله) وأخرى فى رثاء على بهجت ووضع تحت تصرفى بسخاء مجموعة طيبة من شعر شوقى الذى لم ينشر فكان ذلك أكبر حافز لى على مواصلة البحث والاستقراء فى مكتبة القلعة حتى بلغ ما جمعته حوالى مائه قصيدة وأكثر . وكانت مفاجأة كبرى لنا .

وسيتبين القارئ النهج الذى اتبعناه فى تأريخ القصائد ، وذكر ظروفها ومناسباتها وشرحها . إننا لم نهمل وسيلة من وسائل التحقيق ، فرجعنا مثلا إلى الأستاذ طاهر حقى مد الله فى عمره ، فقد كان يصدر (الجريدة الأسبوعية) من أكتوبر سنة ١٩٠٦ إلى ٣١ مايو سنة ١٩٠٨ . ولعله أقدم معاصر وصديق حى لشوقى ، فقد مات تقريبا كل معاصرى شاعرنا الذين كانوا ينشرون شعره و يعرفون أسراره . مات خليل مطران وكان يصدر (المجلة المصرية) التى ظهر منها ثلاث مجلدات بين أول يونية سنة ١٩٠٠ ومايو سنة ١٩٠٩ ، وجريدة (الجوائب المصرية) التى كان أول صدورها فى ٦ فبراير سنة ١٩٠٣ ، واستمرت حوالى ست سنوات . ومات أبوشادى المحامى الشاعر الذى أصدر (الظاهر) فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٣ ، ومات حافظ عوض الذى أصدر مجلة (الموسوعات) فى سنة ١٨٩٨ ، كما أصدر جريدة (المنبر) فى سنة ١٩٠٦ و (خيال الظل) فى سنة ١٩٠٧ ، وقد رجعنا بطبيعة الحال إلى الصحف والمجلات جميعا من سنة ١٨٩٢ لغاية سنة ١٩٣٢ .

ومما زاد من وعورة البحث أن شوقى كان كثيرا ما يستعمل إمضاءات مستعارة ، لسبب أو لغير ما سبب . مثال ذلك نشر (اللواء) رثاءه فى مصطفى كامل فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ دون أن ينص القصيدة وقائلها :

(الحياة فى الموت)

« إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة . تجلت صفات فقيدنا العظيم فى سماء كمالها لصديق من أصدقائه الذين عاشروه طويلا ، وعرفوا صدق طويته وطهارة سريرته ، فأخذت تملى على وجدانها ما فيها من الحقائق ، وهو يترجمها بما عهد فيه من البلاغة الشعرية فجاء بالآيات البينات ، وأتى من ضروب الحكمة بالمعجزات » .

ونشر المؤيد واللواء قصيدته الشهيرة (وداع اللورد كرومر) التى يقول فى مطلعها :

أيامكم أم عهد إسماعيلا　　　أم أنت فرعون يسوس النيلا

وكان ذلك فى ٩ مايو سنة ١٩٠٧ تحت عنوان « صحيفة سوداء هنا . بيضاء هناك . لذات كابر جليل . وشاعر من شعراء إسماعيل » (١) . وقد تكون هاتان القصيدتان وأمثالهما من الشعر السياسى الذى يخشى شوقى أن يحرج الأمير بنشره بإمضائه لصلته به . ولكن ما الحكمة فى نشره بإمضاء مستعار (سائح) فى المؤيد سنة ١٨٩٩ اثنين وعشرين مقالا أو قصيدة فى التاريخ والطبيعة تحت عنوان (بضعة أيام فى عاصمة الإسلام) ، ثم ما هى الحكمة فى نشر قصيدته (ضج الحجاز وضج البيت والحرم) التى رفعها إلى السلطان عبد الحميد استصراخا من الشريف وأعوانه فى ١٤ إبريل سنة ١٩٠٤ بإمضاء « الحاج ش » . وقد كتبت جريدة (الواعظ) لصاحبها محمود سلامه بهذه المناسبة فى عدد ٢٢ أبريل سنة ١٩٠٤ تقول : "إن شاعر الدارين أنشا قصيدة سماها « ضجيج الحجيج » ، ونشرها اللواء الأغر بإمضاء « ش » والجوائب الغراء والظاهر الزاهر بإمضاء « الحاج ش » ، فرأى قراء تلك الجرائد أن توارى الشاعر بحجاب « ش » أو « الحاج ش » ، مع علمه أن أنفاسه نمامة عليه لسرا عظيما ، وتوالت علينا كتبهم تسألنا كشفه وبيان حكمته ، فراجعنا القصيدة لعلنا نتوفق لإجابة سؤلهم فإذا أول بيت منها :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم　　　واستصرخت ربها فى مكة الأمم

وهو مسروق من أسه لرأسه ، وليس من التضمين فى شىء ، لأن التضمين إنما يكون أخذ شطر والشاعر جار فأخذ الكل ، على أنه لو قصد التضمين لوضع البيت بين قوسين ، كما هى عادته وعادة شعراء العصر .

---

(١) لشوقى قصائد كثيرة كهاتين القصيدتين بلا توقيع كما أن له قصائد كثيرة بامضاءات مستعارة منها (سائح) و (النديم) و (ش) و (أنا) و (شرم برم) و (محتفل) و (أريحية شاب مصرى) و (شاب مصرى) . . الخ . . وكان شوقى يوقع أحيانا بامضاءات مستعارة مختلفة على قطع شعرية متنوعة متتالية فى صفحة واحدة من (خيال الظل) .

وكان خليل مطران يوقع على بعض قصائده فى (المجلة المصرية) تارة بامضاء (خليل) وأخرى بامضاء (نجى النفوس) . . الخ .

" ولما كان أول القصيدة . . . ومطلعها مسروقا ، والسرقة لا تخفى فى المطالع خفاءها فى المقاطع وغيرها خاف شاعر النيل من « شرطة التأديب » أن يبصروا به فيقبضوا عليه ويسوقوه إلى من يأخذ الجارم بجرمه فتوارى بذلك الحجاب " .

وهذه القصيدة منشورة فى الجزء الأول . طبعة سنة ١٩٢٦ ص ٢٣٦ . وهى من أجود شعر شوقى بعلو النفس وقوة السبك . وتبلغ تسعة وثلاثين بيتا . ولا يضير شوقى أن يفقد بيتا منها، ولو كان المطلع، إذا صح أنه مسروق . وعلى أية حال مثل هذا التعليل لا يقبله عقل . وأغلب الظن أن هذا الاحتجاب وراء إمضاءات مستعارة متنوعة فى شعر شوقى وكتاباته نوع من الدلال، دلال شاعر الأمير ونابغة العصر وشاعر الدارين . . خصوصا إذا كانت « أنفاسه نمامة عليه » كما قال محرر الواعظ نفسه .

وهذه «الأنفاس النمامة» التى تؤلف، بامتزاجها بالأسلوب امتزاج الروح بالجسد، ملامح الشخصية ، قد دلتنا فى كثير من المواطن على شعر أحمد المنشور بإمضاء مستعار . كما أن ذلك الشعر « المجهول » كثيرا ما كان ينبه الأصداء البعيدة النائمة فى فؤادنا فنستدل بها عليه . أذكر حين بدأ يتكون عندى الوعى الأدبى فى سنة ١٩٠٨، أى فى سن الرابعة عشرة، وبدأت أتصل بالأدباء والشعراء كانوا يتكلمون فى أحاديثهم وسمرهم عن عام الكف سنة ١٩٠٢ وعام الكفء سنة ١٩٠٤ وما قاله شوقى فى مولاى عبد العزيز سلطان مراكش وفى « الزغاليل » أو أسرة سعد زغلول ، عقب حادثة دنشواى . وكانت أبيات وقصائد شوقى جميعا تنشر بلا إمضاء صريح . . . وكنا قد نسينا كل ذلك ونسينا أنه كان ينشر فى (الظاهر) وفى (الجريدة الأسبوعية) وفى (خيال الظل) . . . فما كدنا نراها حتى استيقظت أصداؤها فى عالم من الإبهام بين النور والإظلام . .

أذكر أنى فى أثناء مطالعتى الثانية فى (الجريدة الأسبوعية) وجدت دورا غنائيا فى دنشواى فيه أنفاس شوقى وروحه وريحه وريحانه . فاتصلت على عجل عند عودتى من القلعة بطاهر حقى وأسمعته فى (الهاتف) أول الدور . . فإذا به ينشده حتى أتى على آخره . قلت لماذا لم تنبئنى به ؟ . قال : لا أتذكر .

والواقع أن التوفيق ساعدنا كثيرا . وليس فى مقدور القارئ، مهما بلغ علمه، أن يدرك المشقة التى يلقاها الباحث فى بحثه لأن القارئ لا يرى من البحث إلا النتيجة ولكن الطرق والمصاعب التى كابدها الباحث وعاناها وشق فيها تظل متوارية وراء الغيب لا تدرك إلا بالظن . . .

وقد حذفنا المديح من قصائد كثيرة . ونحن موقنون أنه ما دعا شوقى إلى إسقاط معظم المديح والاكتفاء بالنسيب — كما فعل فى الجزء الثانى — لم يكن الرغبة فى تحاشى ذكر عباس فى عهد فؤاد، ولكن كراهيته الطبيعية للمديح الذى تكلف فيه القول . وأخيرا أغفلنا قصائد كثيرة غير منشورة فى الديوان ولكنها ليست من جيد شوقى أو مما يستسيغه مريدوه . ولم ننشر من (المحجوبيات) إلا قصائد معدودات عليها مسحة من ملاحة شوقى . وبالجملة أسقطنا كل ركيك أو غث . ولو أتيح لنا إعادة طبع الجزء الرابع من الشوقيات لما أبقينا منه إلا القليل بل إن الجزء الثانى الذى أشرف على طبعه شوقى نفسه فيه غث كثير . مثال ذلك : صفحة ١٧٠ ، قال :

شغلته أشغال عن الأرام ... وقضى اللبانة من هوى وغرام

كلمة (أشغال) هنا عامية وقد حلت محل (آونة) فى الأصل وهذه أيضا ضعيفة .

ومضى يجر على الهوى أذياله ... ويلوم حامله مع اللوّام

الشطر الثانى فيه ثلاث لامات ثقيلة :

ويذم عهد الغانيات كناقه ... بعد الشفاء يذم عهد سقام

(كناقه) كلمة غير مستحسنة .

لا تعجلن وفى الشباب بقية ... إن الشباب مزلة الأحلام

شوقى وحده يقول لا تعجلن، وكل شعراء العالم وفلاسفته يقولون إن الشباب قصير فيجب التعجيل بالاستمتاع به قبل فواته .

كانت إنابتك المريبة سلوة ... نسجت على جرح بجنبك دام

إن الذى جعل القلوب أعنة ... قاد الشبيبة للهوى بذمام

البيتُ الثانى جيد .

يا قلب أحمد والسهام شديدة ... ماذا لقيت من الغزال الرامى

تدرى وتسألنى تجاهل عارف ... أرنا بعين أم رمى بسهام

قال سركيس فى مجلته فى عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٨ : " سمعت شوقى ينشد قوله فى صباه ويعجب برقة معناه " ، ثم ذكر البيتين الأخيرين (يا قلب أحمد ..) وهما من قصيدة نشرها (المؤيد) فى سنة ١٩٠٠ ، والبيتان سقيمان ككل الأبيات .

وهذه أبيات أخرى من الغزل (جزء ٢ ص ١٤٧) :

لحظها، لحظها، رويداً رويداً ... كم الى كم تكيد للروح كيداً
كفّ أولا تكفّ إنّ بجنبي ... لسهاماً أرسلتها لن ترتدا
تصل الضرب ما أرى لك حداً ... فاتق الله والتزم لك حدا
أو فصغ لي من الحجارة قلباً ... ثم صغ له من الحدائد كبدا
واكف جفني دافقاً ليس يرقا ... واكف جنبي خافقاً ليس يهدا
فمن الغبن أن يصير وحيداً ... ما قطعت الزمان أرجوه وعدا

الأبيات الأربعة الأولى من سقط الشعر والبيتان الأخيران وحدهما جديران بالبقاء . وعلى أية حال مثل هذا الشعر المزيل يشين ديوانه . ولعل أكبر نقص في ديوانه بأجزائه الأربعة — فيما عدا كثرة الشعر المجهول — هو كما قلنا إغفال تاريخ القصائد وذكر مناسباتها . وقد حاولنا جهدنا سدّ ذلك النقص فيما نشرناه .

على أن نثر شوقي كان أيضاً موضع اهتمامنا لأنه نثر شعري أو شعر منثور وهو على أية حال مظهر من مظاهر عبقرية الشاعر . ولا يسعنا إلا أن نذكر بهذه المناسبة ما كتبته مجلة (الصباح) سنة ١٩٤٨ تحت عنوان (شوقيات مجهولة) قالت : " أحسنت كلية الآداب بجامعة فؤاد صنعاً باقتراحها إنشاء (كرسي شوقي) لدراسة آثار أمير الشعراء الأدبية على ضوء النقد الحديث والتنويه بآثاره المجهولة والعمل على ذيوعها ونشرها وتفسيرها . على أن ما نودّ أن نلفت الأنظار إليه هو أن هنالك مخطوطات لشوقي لم تنشر بعد . وزوائد ومخلفات أدبية كتبت معظمها في طور الشباب ، وبعض هذه الآثار طمست معالمها وطواها الزمن في جوفه ولم يشر إليها دارسو شعر شوقي والمستقصون سيرة حياته ، ومن جملة ما عثرنا عليه من هذه الآثار المجهولة :

١ — رواية عذراء الهند ، وقد طبعت في القاهرة في أواخر القرن الماضي .

٢ — رواية ورقة الآس ، وقد نشرت في ذيل جريدة (الأهرام) أولا ، ثم طبعت على حدة فيما بعد .

٣ — رواية لادياس أو آخر الفراعنة ، وقد طبعت على حدة حوالى عام ١٨٩٨ .

٤ — رواية دل وتيمان ، وهي تتمة رواية لادياس ، وقد تولت نشرها وطبعها مجلة الموسوعات في عام ١٨٩٩ . كتبها شوقي متأثراً برواية وضعها العالم المصرولوجي جورج إيبرس ، ووصف فيها حالة مصر في عهد الملك أمازيس ، ونوه فيها باستبداد اليونان بشئون مصر .

٥ — مذكرات بنتاؤور ، وقد نشرها على صفحات (المجلة المصرية) التى كان يصدرها شاعر القطرين خليل مطران بك فى عام ١٩٠١ .

٦ — شذرات من الحكم والأمثال نشرها على صفحات (المجلة المصرية) بتوقيع « نديم » .

٧ — مقطوعات غنائيـة وضعها لعبده الحمولى والشيخ سلامة حجازى . وفى وسع الدارس المطلع أن يميزها عن غيرها من أسلوب شوقى وألفاظه[1] .

" بقى أن نذكر أن « صورة شـوقى » أو « وجه شوقى » كما يعبرون عن ذلك أحيانا لم تنشر بعد وافية واضحة . ونعنى « بالصورة » و « الوجه » سـيرة حياة الشاعر أو الكاتب فى ضوء التحليل النفسى الحديث وتطبيق قواعد النقد الأدبى ، وأصول علم المنطق فيما يعرض لهذه السيرة من أحداث ، وما شاع فيها من وميض العبقرية[2] " انتهى .

وقد نشرت فيما بعد روايات شوقى كلها ما عدا رواية عذراء الهند (بند ١) ودل وتيمـان (بند ٤) . أما فيما يتعلق بشذرات الحكم والأمثال (بند ٦) التى نشرتها (المجـلة المصرية) فقد عثرنا عليها بطبيعة الحال وأضفنا إليها شذرات الحكم والأمثال التى نشرتها (الظاهر) .

---

(١) كتبت مجلة (مصر الحديثة المصورة) فى ٩ يناير سنة ١٩٣٠ بمناسبة افتتاح معهد الموسيقى الشرقى رسميا : « وألقى الأستاذ على الجارم قصيدة شوقى بك أمير الشعراء . وليس بكثير على شوقى أن يرحب بمليك فن الموسيقى فشوقى الذى « متن » مطرب عصره « سى عبده » بالأدوار والمقطوعات المختلفة والذى ساعد نبوغ عبد الوهاب على الظهور بعدما كان فى صدفه متواريا . . . والذى يعضد جميع هيئات الموسيقى باشتراكه فى مجلس إدارتها . . ليس ببعيد على شوقى وهذه مكانته فى الفن . . وهذا عشقه للأصوات المشجية المرددة لأغانيـه أن يقدم له هذه الدرة الثمينة ويقول فى فن الموسـيقى :

لـولا ابتسام الفن فيما حـوله ... ظل الوجـود جهامة وجفـاء
جرد من الفن الحياة وما حوت ... تجـد الحياة من الجمال خلاء
بالفن عالجت الحيـاة طبيعـة ... قـد عالجت بالواحة الصحراء
تأوى إليه الروح من رمضائها ... فتصيب ظـلا أو تصادف ماء

(٢) نورد هنا بيانا دقيقا لمؤلفات شوقى وتاريخها (ما خلا الشوقيات) : رواية (على بك أو ما هى دولة المماليك) ألفها وهو نزيل باريس فى أكتوبر سنة ١٨٩٣ . رواية (عذراء الهند) سنة ١٨٩٧ . رواية (لادياس) سنة ١٨٩٩ . رواية (دل وتيمان) سنة ١٨٩٩ . رواية شـيطان بنتاؤور نشرتها (المجلة المصرية) سـنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ . رواية ورقة الآس سنة ١٩٠٤ ضمن روايات (مسامرات الشعب) . رواية (مصرع كليوباترا) سنة ١٩٢٩ . رواية قمبيز سنة ١٩٣١ ، ورواية قمبيز هى فى الواقع رواية دل و تيمان القديمة مع إعادة بنائها شعرا لا نثرا . رواية (مجنون ليلى) سنة ١٩٣١ . رواية (على بك الكبير) الطبعة الثانيـة مع تعديل شامل فى الطبعـة الأولى فى مارس سنة ١٩٣٢ . رواية (عنترة) و (أميرة الأندلس) سنة ١٩٣٢ . رواية (الست هدى) . طبعت طبعة هزيلة و (البخيلة) لم تطبع بعد . ولشوقى كتاب (دول العرب وعظماء الإسلام) وهو ملحمة شعرية تاريخية طبعت سنة ١٩٣٢ . وكتاب (أسواق الذهب) وهو نثر مسجوع ظهرت الطبعة الأولى منه (الهلال) سنة ١٩٣٢ والثانية سنة ١٩٥١ .

كما نشرنا قطعا نثرية أخرى متفرقة ظهرت فى (المؤيد) و (المنبر) و (اللواء) وغيرها . وفيما يتعلق بالمقطوعات الغنائية (بند ٧) فقد تمكنا بعد اتصالات عديدة وأبحاث من الاهتداء إلى المقطوعات أو الأدوار الحديثة كلها وبعض القديم منها ، كما أن شعر الشباب الذى انطمس الكثير منه (١٨٩١ — ١٩٠٨) لتشتته نعتقد أننا قد وفقنا فى استقصائه إلى حد كبير؛ ولا تزال هناك قصائد ضائعة لشوقى لم نتمكن من الاهتداء إليها : مثال ذلك قصيدته فى عيد الجلوس الخديوى (٨ يناير سنة ١٩٠٩) أشارت إليها (المجلة المصرية) عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٩ ونشرت منها :

عيد المسيح وعيد أحمد صادفا ... عيد الأمير ثلاثة لا تكفر
كاد الولىّ لدين عيسى يهتدى ... فيه وكاد المهندى يستنصر

وكذلك قصيدة شوقى فى رثاء أسما صيدناوى، أشارت إليها (مجلة سركيس) فى عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠، قالت إنها توفيت فى مصر فى ٧ ديسمبر ولها من العمر ١٨ سنة ، ثم ذكرت هذين البيتين لشوقى :

ملَك أعيد إلى ربوع حجابه ... ما قولكم سكن الثرى وثوى به
ما زال عنه إلى الفناء شبابه ... لكن إلى الخلد ارتحال شبابه

ثم عادت المجلة فى نهاية المقال وذكرت بيتين آخرين بدون ذكر اسم (شوقى) هذه المرة، وظاهر أنهما أيضا لشوقى ومن نفس القصيدة . قالت : "ليس فى اللغة ما يخفف الأحزان ولكن فى الثقة بالله ما يحمل على الصبر وفى حكمة الشاعر يخاطب الأب الحزين" :

من للخشوع إذا استفزك للأسى ... أجل تولى الله طىّ كتابه
فاصبر وكان الصبر شيمتك التى ... تدنى إلى أجر الرضى وثوابه

وكذلك قصيدة لشوقى فى رثاء البارودى أشارت إليها (الصاعقة) فى عدد ٢٣ يناير سنة ١٩٠٥ مطلعها :

هذا ثرى مصر فنم بسلام ... كم روعتك حوادث الأيام

وهذا بخلاف قصيدته فى زواج صديقه ونديمه حسن رضا المحامى التى أشار إليها محفوظ فى كتابه عن شوقى .

⁂

كان يوجد فى مصر حوالى سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ جرائد أسبوعية صغيرة مهمة جدا لبحثنا وتبلغ الثلاثين ولكنا لم نجد إلا عددا واحدا أو أعدادا متفرقة من كل جريدة، وبعضها

لا أثرله فى دار الكتب ... ولعل أهم هذه الصحف (الإقدام) وهى صحيفة أدبية راقية ، جاء فى عدد ٢٢ يونية سنة ١٩٠٨ : " ... وأعجب من ذلك كله أن حافظ مثل بين يدى العميد السابق بينما كان المصريون يلعنونه وأنشد :

قصر الدبارة ما لليثك رابض ... فالذئب فى قصر الإمارة يحجل

ولقــد سمعت بعابدين عواءه ... فعجبت كيف يسود من لا يعقل[1] "

وقد قالت الجريدة بعــد نشر هــذين البيتين — وهما ليسا فى الديوان — إن كرومر أعطى حافظ خمسين جنيها . وقد وعد حافظ الجريدة بنشر ما قاله شــوقى فى هجو الأمير فى العــدد القادم منها ، ولكننا لم نعثر ضمن المجموعة التى كانت فيها الجريدة على ذلك العدد (التالى) . وهذه ولا شك خسارة للأدب .

نحمد الله على أية حال إذ استطعنا إنقاذ طائفة طيبة من شعر شوقى وآثاره ، وبذلك يبدو وجهه كاملا ، كما تبدو عبقريته الوضاءة ضاجعة فى أقصى حدودها كالمرج الواسع فى أبهى آفاقــه .

***

وإنها لحركة مباركة أن يعمل المجلس الأعلى للفنون والآداب على إحيــاء ذكرى شوقى وكبار معاصريه ، ولكن أكبر ضمان فى اعتقادنا لتخليد العبقريين هو خلق بيئة أدبية وذوق أدبى . وقد كانت هــذه البيئة موجودة فى الثلاثين أو الأربعين سنة الأولى من هــذا القرن فى الكتابة والخطابة والشعر . كانت بيئــة شعبية حرّة لا تتأثر بالأدب الزائف ، وكانت لهـا دولة يهابها كل دعىّ ، ولا يرتفع له صوت بين جدرانها ، وقــد انقرضت فأصبح الأمر فوضى . لذلك لا نعجب إذا تفشى الشعر التافه والأدب الفج فى بعض صحفنا . والذى نعلمه أن لكل شاعر نَفَسا وأسلوبا ، وأن الحكم على نَفَس الشاعر وأسلوبه يتطلب ممارسة طويلة للشعر نظما ودراسة ونقدا . والذين فى مقدورهم الحكم على الشعر فى مصر اليوم أقل من عدد أصابع اليد . قرأت أخيرا فى جريدة (الجمهورية) مقالا لأديب عن الشاعر عمر أبو ريشة

---

(١) هذان البيتان تحفة أدبيــة ولا يمكن أن نستخلص منهما إذا صحت نسبتهما أن حافظ كان ضــعيف الوطنية أو مائلا للاحتلال فله سجل باهر فى تاريخ الوطنيــة ولكنها نزوة من نزوات الحياة يدفع إليها ضــيق العيش أحيانا أو السأم الذى يعترى النفس .. ومهما كان من الأمر فإنه لمـا يبعث الأسى أن الصحف والمجلات التى تدون تاريخ العصر وأدبه معظم مجموعاتها فى دار الكتب ناقصة مشوهة و بعضها لا وجود له إطلاقا .. وهذه جرائد الثورة العرابية لا يوجد منها إلا بعض الأعداد ضمن مجموعة ..

(الجمهورية فى ٦ - ١٢ - ١٩٥٩) بمناسبة ظهور ديوانه الأخير، فذكر له الكاتب قصيدة (بعد النكبة) التى نشرت سنة ٤٨ بعد نكبة فلسطين فأشعلت ثورة :

أمتى هل لك بين الأمم
منبر للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفى مطرق
خجلا من أمسك المنصرم
ويكاد الدمع يهمى عابثا
ببقايا كبرياء الألم
أين دنياك التى أوحت إلى
وترى كل يتيم النغم
كم تخطيتُ على أصدائه
ملعب العز ومغنى الشمم
وتهاديت كأنى ساحب
مئزرى فوق جباه الأنجم
حُلُم مر بأطياف السنا
وانطوى خلف جفون الظلم

* * *

أمتى : كم غصة دامية
خنقت نجوى علاك فى فمى
أى جرح فى إبائى راعف
فاته الآسى فلم يلتئم
ألإسرائيل تعلو راية
فى حمى المهد وظل الحرم

* * *

أمتى : كم صنم مجدته
لم يكن يحمل طهر الصنم

لا يلام الذئب فى عدوانـه
إن يك الراعى عدوّ الغنم
فاحبسى الشكوى فلولاك لما
كان فى الحكم عبيد الدرهم

وقد أشار الكاتب إلى قصائد أخرى من هذا الطراز الجيد ، وختم مقاله قائلا : " وبعد لقد كنت دائما من المؤمنين بأن عمر أبو ريشة هو شاعرنا المعاصر الأول ، وأحد العمالقة الكبار فى تاريخ الشعر العربى كله ، وزادنى ديوانه الأخير إيمانا بهذا الرأى " .

لا شك أن عمر أبو ريشة شاعر كبير مجدّد ، ولكن القول إنه أحد العمالقة الكبار فى تاريخ الشعر العربى كله مبالغ فيه ، لأنه لا يعلو بنفسه الشعرى وأسلوبه إلى سمائهم ، وهذا الكاظمى ليس شاعرا مجددا ، ولكنه عالى النفس محلق . قال يصف قصور بعض مدن الشرق وأربابها :

وأرى هذه القصور بعينى (م)	كقبر من البلى جنب قبر
ساد فيها الخمول وامتلك الضيـ	ـم عليها الآفاق من كل ثغر
رقد المصلحون تحت دجى الخسـ	ـف وقام العاثى يقدّ ويفرى
وعقار الهموم غالت ذوى الفضـ	ـل فراحوا من الهموم بسكر

وقال شوقى بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون :

سافر أربعين قرنا عدّها	حتى أتى الدار فالفى عندها
انجلترا وجيشها ولوردها	مسلولة الهندىّ تحمى هندها
قامت على السودان تبنى سدّها	وركّزت دون القناة بندها

* * *

فقال والحسرة ما أشدّها	ليت جدار القبر ما تدهدها
وليت عينى لم تفارق رقدها	قم نبّنى يابنتؤور ما دها
مصر فتاتى لم توقّر جدّها	دقت وراء مضجعى جاز بندها
وسحبت على جلالى بردها	ليت جلال الموت كان صدّها

هذه القطع الشعرية الثلاث فى موضوع اجتماعى سياسى واحد ، ولكن قوة التصوير فى القطعتين الأخيرتين تميزهما عن الأولى ، والتصوير يمتزج بروح الشاعر ونفسه وأسلوبه .

ومعايير الحكم ومقاييسه فى الذوق ، والذوق هبة من الله ، وإن كانت الصناعة تساعد على صقله وتهذيبه .

ومهما كان من الأمر فإننا نعلن بوضوح أننا لا نغمط حق أحد من الشعراء الحديثين ففى الشعر الجديد روائع واتجاهات يجب العناية بدراستها . وحسب أبو القاسم الشابى ، وهو أحد أولئك الشعراء الذين نعنيهم ، أنه أول شاعر أمكنه التحلل من القديم وإحداث ثورة كاملة فى التجديد . تقرأ شعره فيخيل إليك أنك تقرأ ديوان شاعر من شعراء الغرب ، وشعراء الطبيعة . وقد نبع شعره من صميم حياته ووجدانه . وهو مرآته الصافية . مات فى الخامسة والعشرين وترك شعرا نضج قبل الأوان . يمتاز بعلو النفس وصدق العاطفة . قال :

فى جبال الهموم أنبتُّ أغـ ـصانى فرفّت على الصخور بجهد
وتغشّانىَ الضباب فأورقـ ـت وأزهرت للعواصف وحدى
وتمايلت فى الظلام وعطّر ت فضاء الأسى بأنفاس وردى
وبمجد الحياة والشوق غنيـ ـت فلم تفهم الأعاصير قصدى
ورمت للوهاد أفنانىَ الخضـ ـر وظلت فى الثلج تحفر لحدى
ومضت بالشذى فقلت لتغنى ستغنّى الرياح بالعطر مجدى
وتغنزلت بالربيع وبالفجـ ـر . وجاء الردى فما تم بعدى

وقوله عن قبره :

هاته . فالظلام حولى كثيف وضباب الأسى منيخ عليّا
وكئوس الغرام أترعها الفجـ ـر ولكن تحطمت فى يديا
والشباب الغرير ولّى الى المـا ضى وخلى النحيب فى شفتيا
هاته يا فؤاد . إنا غريبا ن نصوغ الحياة فنا شجيا

⁂

فى ظلام الفناء أدفن أيا مى ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمت محزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة ياقلبىَ البا كى .. فهيا نجرب الموت هيا

فى هذا الشعر تسمع أنين مطران وقيثارة موسيقيه الباكية . ثم انظر بعد ذلك إلى قول أحمد محرم :

وجودى ما عرفتك غير معنى ... تغلغل فى الخفاء فما يبين
غريق فى الظلام ولا مغاص ... ولا جسر يُلاذ به أمين
أُقيم عليه سور من عباب ... تضل على جوانبه السفين
أُطل ويضرب التيار وجهى ... فأين أنا ؟ أحر أم سجين

وقوله فى قصيدة « همومى » :

بين عينىّ وما حولها ... صحف منشورة للقارئين
يعطف السطر على السطر كما ... يعطف الباكى على الباكى الحزين

محرّم شاعر « قديم » والشابى « جديد » . ومع ذلك ففى شعرهما يلتقى طرفا الشعر قديمه وحديثه لأن النفس واحد والجوهر واحد وراء الصور والأشكال المتباينة التى يقف عندها النظر السطحى . فامرؤ القيس والبحترى وشوقى ومحرّم والكاظمى ومطران والشابى وغيرهم من كبار الشعراء على اختلاف نزعاتهم يلتقون جميعا فى سماء الشعر الخالد .

وإلى القراء مثل آخر . قال أديب ناقد : ” ولعلنا نستطيع أن نلمس المزاج الرومانسى الذى كان مسيطرا على المازنى فى قوله :

إنى أرانى قد حلت وانتسخت ... مع الصبا سورة من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى ... إذا رآنى صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبتّ أنكره ... كأننى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا ... فى العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازنىّ ثم أتى ... من مازن غيره على الأثر“

هذا مثل من الشعر « الرومانسى » الجديد . والواقع أن المازنى أراد أن يجارى ابن الرومى فى قصيدة له من نفس البحر والروى فى رثاء بستان المغنية كان محمد السباعى وكثيرون من أدباء وشعراء « باب الخلق » يتغنون بها حوالى سنة ١٩١٠، وقد جاراها المرحوم عبد الحليم المصرى . ولا شك أن أبيات المازنى جيدة ولكن نفسه الشعرى فيها ضعيف إذا قورن بابن الرومى :

إنا إلى الله راجعون فقد ... غال الردى سيرة من السير
ما أولع الدهر فى تصرفه ... بكل زيْن له ومفتخر
أطار قمرية الغناء عن الأر ... ض فأى القلوب لم يطر

إن تبغ سمعا لمزهر وترا   عن فهاتيك عولة الوتر

بستان أحمرها على زهر في   لك من اللهو بل على ثمر

بستان مامنك لامرئ عوض   من البساتين لا ولا البشر

إن لا أكن مت فانقرضت لكم   من موتة للفؤاد فى الذكر

هذا النفس العالى تجده عند شوقى فى رثاء عبده الحمولى :

يسمع الليل منه فى الفجر يا ليـ   ـل فيصغى مستمهلا فى فراره

هذا بيت واحد لشوقى فى شعر الوجدان تتضاءل بجانبه قصائد ودواوين بعض المجددين فكيف بالقصائد الغر التى حلق بها فى سماء الخيال والوجدان .

نحن لا ننكر أن فى الجديد روائع فالعبقرية ليست حكرة واحتكارا لأحد ولكنى أكره التعميم والحكم السريع الذى خفت موازينه ، ولا يعجبنى من أحد النقاد قوله عن مدارس الشعر العربى الحديث : "وقد كان أول هذه المدارس ظهورا وأوسع أصحابها شهرة المدرسة التقليدية التى تزعمها أمير الشعراء أحمد شوقى ، وكان من فحولها شاعر النيل ! حافظ إبراهيم ، وشاعر البادية ! محمد عبد المطلب ، وشاعر رشيد ! على الجارم ، والشاعر محمد الأسمر ، ولا يزال من أنصارها الأحياء الشعراء محمود عماد ، وعلى الجندى ، وعزيز أباظة " .

يجب أن نلاحظ أولا : أن محمود سامى البارودى ، وإسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى يكون كل منهم طبقة وحده ، وأن شوقى على الرغم من وجود المجددين بين معاصريه من الشعراء لق راية الإمارة بيمينه وفرض زعامته عليهم . ثانيا : أن أكثر الشعراء الذين ذكرهم الناقد كعلى الجارم ، ومحمد الأسمر ، وعلى الجندى ليسوا من فحول الشعراء ، وأقصى ما يطمح إليه بعضهم أن يكون من شعراء الطبقة الثانية فمن العبث أن نجامل على حساب الحقيقة الأدبية . والأنكى من ذلك أن رابطة أدبية فى مصر قررت فى العام الماضى « إقامة احتفال للشعراء الذين هم من طبقة واحدة وجيل واحد أمثال : أحمد محرم ، الكاظمى ، على الجارم ، المزاوى ، محمد الأسمر ، أحمد الكاشف ، محمد عبد المطلب ، وغيرهم » . فالأسمر والمزاوى وغيرهما فى نظر الجمعية من طبقة الكاظمى ومحرم والكاشف . ما هذا ؟ أبأمثال هذه المقاييس والموازين يحكم ناقد على شوقى بأنه « لم يستطع قط أن يكون شاعرا وجدانيا ، وأن شعر المناسبات هو الذى غلب على شعره » . وهل منع شعر المناسبات البحترى صاحب قصيدة الإيوان ورثاء المتوكل ، والمتنبى شاعر الملحمة ، وابن الرومى وغيرهم أن يكونوا شعراء وجدان ؟ ارفضوا شعر الوجدان من دواوين أولئك الشعراء ومن شوقى تحولوا جميعا إلى

شعراء من الطبقة الثالثة وتفنى معالم شخصيتهم . ثم اعكسوا الآية وارفعوا شعر المناسبات من مدائح وما إليها يظل أولئك الشعراء كالجبل الذى لا يتزعزع ، وإن سقطت بعض صخوره الناتئة .

ينعى النقاد على البحترى ، كما ينعون على شوقى ، أنه أسرف فى بكاء الطلول والتغنى بالغيث وبدء قصائد المديح بالنسيب التقليدى ، ولكن هل منع ذلك الغثاء السطحى أو تلك الأسمال البالية القلب المتوجد من أن يخفق ويتأجج حنينا ؟ لقد ثبت أن أبيات شوقى (خدعوها بقولهم حسناء) كانت ابتداء لقصيدة مديح فى الخديوى توفيق ، ومع ذلك فإن هذه الأبيات أرق شعر غزلى حديث لأنها عصارة تجارب الحب واللهو والشباب فى باريس ، ولا يضاهيها فى قوة التعبد فى محراب المرأة والجمال إلا أبيات صبرى التى أولها :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

ومما لاشك فيه أن أبيات شوقى الغزلية من شعر المناسبات شكلا ، وشكلا فقط ، ولكنها من صميم شعر الوجدان . هذا ولشوقى شعر كثير لا أثر فيه للمناسبات كرواياته التمثيلية . صحيح أن شوقى لم يبلغ فى هذه الروايات القمة الشكسبيرية الشماء فى قوة التحليل والتصوير والبناء ولكنه أضاف إلى رصيده « التقليدى » فى الشعر رصيدا جديدا من الأدب الحديث وله فى كليهما آيات خالدات ، وستظل شخصيته مستوية على عرشها مهما تعددت المذاهب والأشكال فى مختلف العصور .



القسم الأول

(١٨٨٨ — ١٨٩٩)

* * *

أول ما قرأت لشوقى

كتب الأمير شكيب أرسلان تحت هذا العنوان ، فى كتابه الذى ظهر فى سنة ١٩٣٦ (شوقى أو صداقة أربعين سنة) فصلا جاء فيه :

" خرجت من مصر فى أواخر سنة ١٨٩٠ وأنا أسمع بشاعر اسمه شوقى فى مصر وكنت أوانئذ أراسل جريدة الأهرام . . وبينما كنت أطالع الأهرام فى ذات يوم وقع نظرى على أبيات لامية فى المديح فيما أذكر قال عنها الأهرام إنها من نظم « أحمد افندى شوقى » . ولما كان هذا الناظم مجهولا عندى لم أشأ أن أضيع وقتى بقراءة تلك الأبيات فلم أعلم منها كثيرا ولا قليلا . . إلا أنه لم يطل الأمر حتى قرأت شعرا آخر لهذا الذى يقال له أحمد افندى شوقى . . بجربت هذه المرة أن أقرأه فلما قرأته لم أمجه ووجدته من الشعراء الذين يقال فيهم : " من حقه أن تسمعه " . ولم يطل الأمر أيضا حتى قرأت لأحمد شوقى هذه القصيدة الآتية فى المديح[1] :

إن الوشاة وإن لم أحصهم عددا ... تعلموا الكيد من عينيك والفندا

لا أخلف الله ظنى فى نواظرهم ... ماذا رأت بى مما يبعث الحسدا

هم أغضبوك فراح القد منثنيا ... والجفن منكسرا والخد متقدا

وصادفوا أذنا صغواء[2] لينة ... فأسمعوها الذى لم يُسمعوا أحدا

لولا احتراسى من عينيك قلت ألا ... فانظر بعينيك هل أبقيت لى جلدا

الله فى مهجة أيتمت واحدها ... ظلما وما اتخذت غير الهوى ولدا

---

(١) نشرت القصيدة كاملة فى الجزء الأول من الشوقيات طبعة قديمة ص ٦٤ . وتاريخ القصيدة يرجع الى ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٢ كما قلنا . وقد أعيد نشر أبيات الغزل التسعة فى الجزء الثانى من الشوقيات صفحة ١٤٨ . وكان المرحوم صادق عنبر شديد الإعجاب بهذه الأبيات ولا شك أنها من جيد شعر الغزل لا الحب لأن الكثيرين لا يميزون بين شعر الغزل الذى يستمد بيانه من الصناعة العالية وشعر الحب الذى يأتيه الوحى من الطبيعة والوجدان .

(٢) فى رواية شكيب والطبعة القديمة من الشوقيات « بيضاء » لا « صغواء » والأخيرة أحلى وأدق . صغا : مال وفى القاموس والشمس مالت للغروب هى (صغواء) . ومنه أصغى إلى حديثه استمع أو مال بسمعه .

وموضع من أطلال الله غربتها ... يخاف إن رجعت أن تنكر الجسدا

ودع للواجد إن شئت من ظمأ ... والواجد ماء لا يبلّ صدى

من للعزيز بنائى روض نعمته ... إن أسكت الدهر هـذا الطائر الغردا

إلى آخرها قاله في ذلك اليوم فلبثت القصيدة من أولها الى آخرها ومن شـدّة ما طربت لها أعدت قراءتها مرارا وعلمت أن هنالك شاعرا مطبوعا وأيقنت أن فى تلك المغارة أسدا، وصرت كلما عثرت على شعر لأحمد شوقي أتهافت عليه . وأذكر الآن أنى كنت اطلعت له على قصيدة قبل هذه فى مدح الخديوى توفيق يهنئه فيها بشهر الصيام[1] لم تكن أقل رقة وانسجاما من القصيدة الدالية الآنف ذكرها وهى التى يقول فيها :

"يا حسنه بين الحسان ... فى شكله إن قيـل بان

كالبدر تأخذه العيون ... وما لهن به يدان

ملك الجوانح والفؤا ... د فبين يديه الخافقان

ومناى منه نظـرة ... فعسى يشير الحاجبان

فيها[2] يزكى حسنه ... من لا له فى الحسن ثان

خلوه[3] يعدل أو يجو ... ر فإنه ملك المثان

حـق الدلال لمن له ... فى كل جارحـة مكان

يا أصـغرىّ بأى آ ... لاء العـزيز تـكذبان

وبأى أنعمـه ولا ... حصر لهن تحدثان"

قال الأمير شكيب : " فعندما قرأت هذه القصيدة وجدتها من النـوع المرقص الذى لا يقع نظر أديب عليه إلا اهتز له طربا وراح نشوان وكما قال هو عن نفسه كانت أبياته هذه من السهل الممتنع أشبه بشعر البهاء زهير لو أنها بحثت فى ديوانه ولم يقل أحد لقارئ الديوان إنها من نظم شـوقى لكانت حقيقة بشعر البهاء زهير لا تقل عنه شيئا . ولو سمعها الحسن ابن هانئ لارتضاها لنفسه ولم يتكبر عليها . أما ابن هانئ الأندلسى الذى قال فيه المعرى إن شعره أشبه برحى تطحن قرونا فإنه بعيد عن هذا الأسلوب بعد الشرق عن الغرب . . " انتهى .

(١) تاريخ القصيدة ١٠ أبريل سـنة ١٨٩١ ولم ينشر من هـذه القصيدة فى الجزء الثانى من (الشوقيات) إلا سـبعة أبيات من ثمانية وعشرين . والقصيدة منشورة كاملة فى الطبعة القديمة من الشوقيات صفحة ١٢١ .

(٢) فى الطبعة الحديثة ص ١٧٣ من الجـزء الثانى (عسى) بدلا من (فيها) . فعسى فى أول البيت ثقيـلة غير مستساغة خصوصا وأنها وردت فى البيت السابق .

(٣) فى الطبعة الحديثة (فدعوه) بدلا من (خلوه) . والأخيرة أرق وأكثر انسجاما فى أسلوب القصيدة السهل .

⁂

لا ريب أن شوقى لا يقصد إلا الحسن بن هانئ المشهور بأبى نواس . وهــذا العربى الصميم (أبو نواس) كثيرا مايلتقى مع البهاء زهير فى السهل الممتنع حتى يصعب التمييز بينهما . مثال ذلك ما كتبه أبو نواس إلى الأمين :

بك أستجير من الردى ... وأعوذ من سطوات باسك

وحياة راسك لا أعو ... د لمثلها وحياة راسك

من ذا يكون أبا نوا ... سك إن قتلت أبا نواسك

ولشوقى شعر غزير من السهل الممتنع . وما برحت أذكر له قصيدته الشهيرة فى إعلان الحماية سنة ١٩١٤ وتولية السلطان حسين والتى يقول فيها :

الله يشهد ما كفــرت صنيعة ... فى ذا المقام ولا جحدت جميلا

والله يعــلم أن قلــبى موجــع ... وجعا كداء الثاكلات دخيلا (١)

مما أصاب الناس فى أبنائهم ... ودهى الهلال ممــالكا وقبيلا (٢)

أأخــون إسماعيل فى أبنــائه ... ولقــد ولدت ببــاب إسماعيلا

ومنهــا :

وانفضّ ملعبــه وشــاهده على ... أن الرواية لم تــتم فصــولا

أقول حين ظهرت هذه القصــيدة ، وكانت أكبر قصيدة « شــعبية » تناولها السوقة بالتفسير والتأويل قابلنى حافظ إبراهيم وقال : "هذه مقالة وليست قصيدة" . وفعلا كانت مقالة بسلاستها وسهلها الممتنع ولكنها من الشعر الحى الذى يبقى مدى الزمان .

---

(١) فى الجزء الأول طبعة سنة ١٩٢٦ ص ٢١٦ : «وهو العليم بأن قلبى موجع» بدلا من «والله يعلم أن . .» والأخيرة هى الصياغة القديمة التى حفظناها وهى أخف وأروع .

(٢) فى صياغة الديوان الجديدة كلمة الخلق بدلا من الناس والناس أفضل .

حوالى سنة ١٨٩٣

قال شوقى فى مقدمة الطبعة القديمة من الجزء الأول من (الشوقيات) : "جمعتنى باريز فى أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ فى طلب العلم والأمير حفظه الله فى التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة . وكنت فى أول عهدى بنظم القصائد الكبر . وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشورا فى صحف مصر فتمنى أن تكون لى يوما مجموعة . ثم تمنى على إذا هى ظهرت أن أسميها « الشوقيات » . ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم فى الكرى أو خلسة المختلس أو هى كما قلت :

صحبت شكيبا برهة لم يفز بها سواى على أن الصحاب كثير

حرصت عليها آنة ثم آنة كما ضنّ بالماس الكريم خبير

فلما تساقينا الوفاء وتم لى وداد على كل الوداد أمير

تفرق جسمى فى البلاد وجسمه ولم يتفرق خاطر وضمير"

* * *

نظم شوقى هذه الأبيات وهو فى الخامسة والعشرين . وهى من شعر الفحولة فى غض الشباب . وبينما تجد الكثير من شعره فى تلك الآونة كالبسر[1] إذا لوّن تجد فى هذه الأبيات زهو النضج ، وتجد لروعتها الأخاذة رنين الناى فى الوادى .

---

(١) البسر : التمر قبل إرطابه وذلك إذا لوّن ولم ينضج .

رواية على بك الكبير

ظهرت الطبعة الأولى من هذه الرواية فى سنة ١٨٩٣ بعنوان (رواية على بك أو فيما هى دولة المماليك) . وظهرت الطبعة الثانية فى مارس سنة ١٩٣٢ بعنوان (رواية على بك الكبير أو دولة المماليك) . وفى الطبعة الثانية تجديد وإضافات قضت على معظم معالم الطبعة الأولى ورفعت مستوى الرواية . ويلاحظ أن شوقى لم يُظهر إلا لمحا — وذلك فى الطبعة الثانية — عظمة الدور الذى لعبه على بك فى محاولته انتزاع استقلال مصر من الباب العالى وبناء دولة عربية جديدة تمتد حدودها شرقا . ولا شك أن العلاقة التى كانت تربط مصر بالخلافة وتركيا ونزعة شوقى العثمانية الدينية التى لازمته طول حياته قد حالتا دون تصوير شخصية على بك وحركته تصويرا صحيحا لا جفوة فيه . وإذا كان معظم طبعة سنة ١٨٩٣ ركيكا أشبه بروايات نجيب الحداد الشهيرة التى مثلها سلامة حجازى إلا أن بعض القطع التى حذفت منها كانت تستحق البقاء . وحسبها أننا نستروح فيها ريح الشباب :

الفصل الأول

غرفة فى قصر على بك

(المجلس الأول)

مصطفى الجلاب . أم محمود الماشطة . الجوارى : إقبال وشمس وصفية .

الجميع (لحن چركسى)

بين السيوف والخناجر — على الجبال

تلق الجراكسة عشاير — هم الرجال

يحمو النساء الحراير — مع الجمال

ومن عجب حكم جاير — فيهم محال

وليس ناهٍ وآمر — غير القتال

مصطفى

ألا يا شمس ياحسنا — ءُ غنينا بموال

أم محمـــود

يلهينا إلى أن يا ... نى السيد بالمـال

همس (تغنى)

(كوبك) بطير الجمال أقترت أيكاته ... فـــدا بشاته إذا ما مسن باناته

ما بهـجة العصر إلا جركسياته ... من كل هيفا لها عند الدلال إدلال

على مسلوكه وباشاته وبيكاته

فى هذه القطعة، وفى الفصل الأول من الرواية القديمة كلها، تبدو روح شوقى الغنائية. وينتهى الفصل بعد تزوج على بك بالجارية إقبال وسفره إلى الشام .

الفصل الثانى

إقبال وحيدة فى قصرها الموحش تتلوى فيه حزينة وتقول (أول المشهد الأول من الفصل الثانى) :

إن شئت تعرف حالتى فانظر إلى ... دارى فإن السر عنـــد الدار

تُنبيك عن كدرى وعن صفوى بمـا ... تبديه من ظُـلَمٍ ومن أنـوار

كان شوقى يمتز بهذين البيتين . على أن أروع ما فى الفصل الثانى هو المشهد الثانى الذى تقدم فيه الوكيل حنا الحساب . والعجيب أن هذا المشهد لا أثر له فى الطبعة الثانية مع أنه فى قوة التصوير والأداء المـنزلى ريحانة أو « ريحانية » لا تقـل عن تصوير نظام الضرائب والفردة فى الطبعة الجديدة . هنـا يبدو أثر موليير واضحا كما تبـدو شخصية شـوقى من مبتداه فى أيام الدراسة والشباب (١٨٩٣) إلى منتهاه فى شيخوخته (١٩٣٢) :

(المجلس الثانى)

إقبال ومرجان أغا . حنـا يدخل حاملا نحو عشرة دفاتر يلقيها بين يدى الأميرة .

إقبـال (واقفـــة)

أبطأت ياحنـا :

حنـا (بتكلف)

بـلوس الشـغل منـا ناخير ... بر شـــغل اليـــوم من عاداتى

إقبال (تنـظر إلى الدفاتر)

أين الحساب حساب بيت البيك هل ... أحضرته لـنراه فى نظرات

حنا (يريها الدفاتر)

هى ذى الدفاتر ناطقات فى يدى بكمال ضبط الدخل والنفقات
لخصتها لأميرتى وأتيت أعـ ـرضها على الأعتاب مختصرات

(تبتسم إقبال)

(يجس الدفاتر واحدا واحدا)

ذا «صادر» ذا «وارد» ذا «ساير» هذا «حسابات» أبو البركات
من بعد «إنعامات» «جمكيات» «يو ميات» «صرفيات» «توريدات»
هذا «جفالك» ذا «عمارات» كما هذا «مطابخ» ثم يا مولاتى

إقبال

لا رأى لى فى ثم ياحنا اختصر يا ضيعة الأيام والساعات

حنا (يتناول أكبر دفتر ويفتحه):

هذا الخلاصة يا أميرة فاسمعى لى بالقراريط وبالحبات

(تبتسم إقبال)

قد كان عند أبيك من عام مضى عشرون ألفا حلوة الطلعات
ألفان منها مال ذاك العام والـ باقى ضرائب تسعة لم تات

إقبال (ترجع الى خلف منزعجة)

لم تات كيف رأيتمو تحصيلها هذا لعمرى البغى فى الغايات
حنا لقد أقعدتنى وأقمتنى أكذاك يفعل سائر البيكات

حنا (لا تتغير هيئته)

لا إذ من العادات ما لا يستوى فيه البكات لكونهم درجات

إقبال (تتقدم خطوة)

وبأيما كيفية تحصيلها ومن الجباة فهن شر جباة
هل فى دم الفلاح سر الكيميا أم هل يدين لكل باغ عاتى

حنا (مبتسما)

تحصيلها سهل مع القرصات والـ ـكيات والجلدات والشنقات
والضرب فوق الظهر وهو مطاوع والضرب فوق البطن وهو مواتى
وأمر من ذا بيع واحدة النعا ج أو التى بقيت من البقرات

إقبال (تشير بوجهها نحو السماء باكية)

الآن بان لى الرشاد بوجهه وعرفت مصدر هذه الظلمات
وقنطت من مرجو عودك يا على ورجوع بيتك ظافر الرايات

(تطرق هنيهة . تتقدم نحو حنا ناظرة إلى الدفاتر)

حنا (يلق الخلاصة)

إنما المبلغ الذى قلت عنه لك لم يبق منه غير القليل
أخذ اليك نصف ذلك منى لاصطناع الرفاق عند الرحيل
وأتانى (محمد) أخذ الربـ ع بيأس حلو وعنف جميل
وصرفنا ثلاثة وبما يبـ قى نرجّى قضاء دين ثقيل
وأنا اليوم قد كبرت فمالى فى الوكالات فابحثى عن وكيل

(ينصرف وهو عند الباب)

هو ذا مذهبي وهذا شعارى وهو للناس من زمان شعار
لم أحاسب وكان فى البيت قط كيف أرضى وليس فى البيت فار

***

وقد ظهرت فى طبعة سنة ١٨٩٣ أبيات شوقى المشهورة فى المماليك (ونشرت بعد ذلك أيضا فى الشوقيات القديمة) :

إن الذى رزق المماليك الغنى وحباهم ملك البلاد كبيرا
لم يعطهم من نعمة الأولاد ما أعطى الخلائق مثريا وفقيرا
لولا التبنى ما عرفنا لذة للعيش يحسبه الحسود نضيرا
أولى البيوت بغابط أو حاسد بيت يضم صغيرة وصغيرا

وقال شوقى فى حديثه مع سركيس (المنشور فى المقدمة) فى فبراير سنة ١٨٩٧ أنه أخذ معنى البيت الأخير من قول هوجو فى الحض على حب الأطفال ورحمتهم (أولى البيوت بغابط أو حاسد).

ومن حسنات طبعة سنة ١٨٩٣ أيضا قول شوقى :

حنا الوكيل

تالله تفتا تزدرى بمحمد[1] وتسبه وتريد أن لا يعتدى
مولاى خذ للصلح جانبه فما تدرى الذى تأتى الحوادث فى غد

(١) محمد أبو الذهب .

قد أتعب الأعداء من داراهم فأقم عدوك بالليان وأقعد
أن الأراقم لا يطاق لقاؤها وتنال من خلف بأطراف اليد

والبيتان الأخيران منشوران أيضا فى الديوان القديم . وقوله :

أم محمود

فداها نساء الأرض من جركسية لها سيرة بين الملوك تدار
إذا برزت ود النهار قميصها يغير به شمس الضحى فتغار
وإن نهضت للمشى ودّ قوامها نساء طوال حولها وقصار
لها مبسم عاش العقيق لأجله وعاشت لآل فى العقيق صغار
وقطعة خد بينما هى جنة لعينيك يا رائى إذا هى نار

قلنا إن شوقى نشر هذه الأبيات فى الديوان القديم ، وقد أعاد نشرها فى طبعة الديوان الحديثة سنة ١٩٣٠ فى باب النسيب بعد حذف البيتين الأول والأخير وتعديل البيت الرابع هكذا :

لها مبسم عاش الخليج لأجله وعاشت لآل فى الخليج صغار

وكلمة الخليج هنا نافرة و (العقيق) أفضل منها بحلاوة لفظها وإن لم تعادلها فى معناها . العقيق هو الخرز الأحمر ، والخليج هو بلا شك الخليج الفارسي الذى يصاد فيه اللؤلؤ . يشير باللآلئ إلى الأسنان وبالعقيق إلى اللثات ومغارز الأسنان .

(الأهرام) فى ٢١ يناير سنة ١٨٩٤

تهنئة للجناب العالى برحلته

إلى الصعيد والعود منه

فى ذى الجفون صوارم الأقدار	راعِى البرية يا رعاكِ البارى
وكفى الحياةُ لنا شواغل فاغتنى	ملأ النجوم وعالم الأقمار
ما أنت فى هذى الحلَى إنسيّة	إن أنت إلا الشمس فى الأنوار
زهراء بالأفق الذى من دونه	وثب النهى وتطاول الأفكار
تتهتك الألباب خلف حجابها	فمهما طلعتِ فكيف بالأبصار
يا زينة الإصباح والإمساء، بل	يا رونق الآصال والأسحار
ماذا تحاول من تنائينا النوى	أنت الدُّنى وأنا الخيال السارى
ألق الضحى . ألقالتهم من الدجى	سبل إليك خفية الإغوار
ولقد أطارحك الغرام مؤيدا	بلُغى الوجود المائج الزخار
وإذا أنست بوحدتى فلأنها	سبى إليك وسلّمى ومنارى
إيه زمانى فى الهوى وزمانها	تالله قد كنت النمير الجارى
متسلسلاً بين الصبابة والصبا	مترقرقا بمسارح الأوطار
سمح الأزمة ما تريد تحولا	ونريد عمرك أطول الأعمار
حتى إذا سكنت إليك لنا منًى	كانت بظلك فى هنىّ جوار
عهد الفراق لظى أنسك غاشما	إن الفراق جهنم الأقدار

تعليق

هذه القصيدة سبعة وعشرون بيتا ، أسقطنا منها أثنى عشر بيتا من المديح . لم تنشر القصيدة فى الجزء الأول الطبعة القديمة . وقد نشر من أبيات النسيب الخمسة عشر أثنا عشر بيتا فى باب النسيب من الجزء الثانى فى صفحة ١٥٥ ، كما أن شوقى أحدث تعديلا فى بعض هذه الأبيات ، لذلك لم نر بدًا من إعادة نشرها . أما الأبيات التى حذفها شوقى فأولها البيت الثامن :

ولقد أطارحك الغرام مؤيدا	بلُغى الوجود المائج الزخّار

وهذا البيت فى اعتقادنا أروع بيت فى القصيدة ، لأنه قطب الأبيات التى جاوزت حدود الغزل الصناعى إلى شعر الحب ، ذلك الحب الذى يشع نوره وجاذبيته فى أرجاء الكون .

والبيتان الآخران اللذان حذفا هنا الثالث والرابع عشر ، تعقيبا على قوله : (إيه زمانى فى الهوى وزمانها) .

سمح الأزمة ما تريد تحولا ونريد عمرك أطول الأعمار

حتى إذا سكنت إليك لنا منى كانت بظلك فى هنئ جوار

وهذا الإسهاب فى وصف زمان الشاعر فى الهوى وزمانها، كان تمهيدا للبيت الأخير، والقوة الدافعة له ، الكاشفة عن مداه (عهد الفراق لطى أنسك غاشما ...) .

***

والآن نبين تعديلات شوقى فى الطبعة الأخيرة : فى البيت الثانى وضع شاعرنا كلمة (حوادث) بدلا من (شواغل) ، فأصبح الشطر الأول : (وكفى الحياة لنا حوادث فاقتنى) . وكلمة شواغل الأصلية أحلى . وفى البيت الحادى عشر فى الشطر الثانى وضع شوقى كلمة (النمير) مكان (الزلال) ، فصار الشطر (تالله قد كنت النمير الجارى) . وهذا هو التعديل الوحيد الذى أبقيناه لأنه أنسب . وقد غير شوقى الشطر الأول جميعه من البيت الأخير (بعد حذف البيتين السابقين له) فأصبح البيت :

نظر الفراق إليكما فطوا كما إن الفراق جهنم الأقدار

وهذا الشطر الجديد رقيق ، ولكن الشطر الأول القديم أقوى ، كما أنه أكثر التئاما مع بقية البيت ، وهناك سبب آخر كان يحتم على شوقى إبقاء ذلك الشطر الأول على حاله وهو عدم التكرار . فقد نشر شوقى فى (المجلة المصرية) فى عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٠ ستة أبيات « قالها وقد أشرف فى مدينة نابولى على الدار التى كان يقيم فيها الخديوى إسماعيل » ، ومعلوم أن إسماعيل بعد عزله فى سنة ١٨٧٩ أقام فى نابولى بإيطاليا لغاية سنة ١٨٨٥ ، ثم تنقل بين عواصم أوربا ، وأخيرا استقر به المقام فى الآستانة فى سنة ١٨٨٧ ، ومات فى سنة ١٨٩٥ . وأبياته (المجلة المصرية) منشورة فى الجزء الرابع من الشوقيات .

قال شوقى :

أبكيك إسماعيل مصر وفى البكا بعد التذكر راحة المستعبر

ثم قال يصف الدهر فى إخراجه :

ما زال يخلى منك كل محلة | حتى دُفعت إلى المكان الأقفر
نظر الزمان إلى ديارك كلها | نظر الرشيد إلى منازل جعفر

يشير إلى نكبة البرامكة المشهورة فى زمن الرشيد . ولا شك أن فى قوله (نظر الزمان) من الرقة والقوة والإعجاز ما فيه . ولكن شتان بين قوله (نظر الزمان إلى ديارك كلها) ، وقوله (نظر الفراق . . . . إليكما فطوا كما) . ثم إن قوله فى الصيغة الأصلية مخاطبا الزمان (عمد الفراق لعلى أنسك غاشما) أقوى من قوله مخاطبا الزمانين وهما واحد (نظر الفراق إليكما فطوا كما) .

والشطر القديم ، عدا ما فيه من قوة التعبير ، يتحدر بالنغم السريع تقليدا للزمن الذى يستعجل طى الشباب واللذات . وقد انتهى الشطر منحدرا فى كلمة (غاشما) ليصعد بالشطر الثانى ويسانده ، ويلتق على حكمته كل وجه :

عمد الفراق لطى أنسك غاشما | إن الفراق جهنم الأقدار

الأهرام فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٤

من قصيدة قالت عنها الأهرام « من نظم شاعر فاق فى بلاغته بديع الزمان وأزرى شعره بقصائد البحترى[1] وأنَّى ذاك من نابغة هذا الزمان أحمد شوقى » .

رضاكم بالعلاقة لى كفيل	وقربكم الزمان وما ينيل
هجرتم فاحتملت لكم فعدتم	وشحناء المحبة لا تطول
وما جاملتمو أهلا ولكن	ذهبتم مذهبا وهو الجميل
وكنت إذا التمست لكم بديلا	أعاتبكم به عز البديل
حفظت الود والود انتقال	وإن الحافظين له قليل
وبت أصون فى الحب اعتقادي	ورأى لا تغيره أصيل
فياكتبي أياديك الأيادى	ويارسلى جميلكم الجميل
ويا أملى سأذكر طول أنسى	بوجهك حين أوحشنى الخليل
ويا دهرى شكرت وكان منى	لما قد مر نسيان طويل
ويا عصرى و (للممدوح) تنمى	لك الغرر السنية والحجول
أرى سبل الرجاء إليه شتى	ولكن خيرها هذا السبيل
أمهما قام عزمك أو تصدى	دنا الأقصى ودان المستحيل
وتعلم أن بالحساد داء	وأن شفاءهم فى أن يقولوا
تزينت المنازل واستعدت	فأهلا أيها القمر الجليل
تودّ العين لو زيدت سوادا	وأنك فى سواديها نزيل
هرعنا والقلوب يثبن وثبا	وللعبرات بالبشرى مسيل
فهلل حيث كل العز يسمى	وحيث الفضل جملته يميل
ونبسط أيدى النجوى كأنا	سراة هزها النجم الدليل

---

(١) مبالغة غير مستساغة أن يقال أن شعر شوقى أزرى بقصائد البحترى . ولكن مما لا ريب فيه أن هذه القصيدة بالذات بحترية الأسلوب وحسب شاعرنا قوله .

و يا أملى سأذكر طول أنسى	بوجهك حين أوحشنى الخليل
تودّ العين لو زيدت سوادا	وأنك فى سواديها نزيل

وقوله ، وهو من السحر الحلال :

ونبسط أيدى النجوى كأنا	سراة هزها النجم الدليل

الأهرام — فى ٧ يناير سنة ١٨٩٠

(هناء النفوس بصبح الجلوس)

" لحضرة الشاعر المتفرد المجيد والكاتب المتفنن الألمعى أحمد بك شوقى "

سل الليل عن أفلاكه هل جرت سدى … وهيهات ما يجرين إلا إلى مدى

تنظّمن فى هام الفضاء وصدره … وحلينه فرقا وزنّ المقلدا (١)

ولُحن به للقارئين قصيدة … من الحكمة العلياء لم ترض منشدا

تسيل بها نورا خلال كتابه … وتجرى حواشيه لجينا وعسجدا

سماء الدجى حركت ساكن خاطرى … فهيجى بنات الشعر فيه لتسعدا (٢)

تبددت الظلماء والشهب قبلها … وشمل همومى ما يريد تبددا

فيا ندمائى شعشعوا الراح إننى … أرى الجام مهتزا بها متوقدا

ولا تشفقوا بى من [illegible] … إلى ضلتى فى شربها ينتهى الهدى

لقد نهلت كفى وعلت بكأسها … مرارا وصدرى لا يُبلّ له صدى

وما قصّرت بنت الكروم وإنما … مددتم بها الأيدى ومدّ الأسى يدا

ولست امرأ ترقى الهموم لصدره … ولكنها نفس تحاول مقصدا

أضيق بها حينا وطورا تضيق بى … كما عالج الغمد الحسام المهندا

وأشقى بها همّا وأعيا مطالبا … وأتعب فيها بالمحبين حسدا

ومن يك قد ذم الأعادى فإننى … لدانى من الأحباب لا أظلم العدى

وما كنت ممن يرجوهم لمهمة … ولكنما استقضيت حقا مؤكدا

وما مال ذو حق . وإن جل حقه … إلى الحقد إلا ضيع الحق واعتدى

ولو شئت جاءتنى المعالى مطيعة … ولكن وجدت الصبر أعذب موردا

أرى الصدق ملكا والرياء عبودة … وإن كان ملكا للكثير وسؤددا

وأعلم أن اليوم بالأمس لاحق … وأن لعباس وللأمة الغدا

---

(١) فرق الرأس ما بين الجبينين [illegible] ، والمقلد موضع القلادة ، والقلادة ما جعل فى العنق من الحلى .

(٢) فيه أى فى الدجى . صحة لتسعد لتسعدى إذا كان الشاعر يخاطب بنات الذمرة ولعلها ليسعدا و يكون الضمير عائدا على الدجى .

تعليـــــق

أسقطنا من هذه القصيدة اثنين وعشرين بيتـا فى المديح . ولم تنشر القصيدة أو أبيات منها فى أى من دواوين شـوقى مع أنها من الشعر الجيـد . وحسبها أن شعر « التأملات » فى الكون والحياة احتـل مكان الصدارة فيها بدلا من الغـزل . وإنه لأحب إلى النفس أن يكون المطلع (سل الليل عن أفلاكه هل جرت سدى) بدلا من (مضنى وليس به حراك[1]) . .
ويذكرنا مطلع قصيدة شوقى بمطلع قصيدة أخرى للبارودى :

سل الفلك الدوّار إن كان ينطق　　　وكيف يحير القول أخرس مطرق

ومن حسنات شوقى فى قصيدته قوله :

لقـد نهلت كفى وعلت بكأسها　　　مرارا وصدرى لايبل له صدى
وما قصرت بنت الكروم وإنمـا　　　مددت بها الأيدى ومد الأسى يدا
ولست امرأ ترقى الهموم لصدره　　　ولكنها نفس تحاول مقصــدا
أضيق بها حينا وطورا تضيق بى　　　كما عالج الغمد الحسام المهنــدا

وإذا كان هذا التعبير (كما عالج الغمد) لشوقى ، وأغلب الظن أنه له ، فإن فى ذلك دليلا على أن شاعرنا كان يملك ناصية اللغة كأبى تمـام والبحترى والمتنبى وغيرهم من شعراء العرب .
وإن من يقرأ قصيدة شـوقى فى تتابع أبياتها يحس كأنمـا تحمله سفينة فى بحـر لجى تغنى له أمواجه ورياحه غناء شجيا حتى إذا بلغ فى النهاية الشطر الثانى من قوله :

وأعلم أن اليـوم بالأمس لاحـق　　　وأن لعباس وللأمة الغــدا

أحس بغتة أن المـاء قد غيض من حوله وأنه غريق فى شبر من طين . .

---

(١) نشر (أبو طاقية) فى عدد ١٦ ديسمبر سـنة ١٩٠٦ من (الكوكب) يقول : " وكادت معجزات يراعه (شوقى) تقود سامعيه إلى السجود . وتجرى فى القلوب بجرى المـاء فى العود . فمن ذلك قوله فى قصيدته التى مطلعها :

مضـنى وليس به حـراك　　　لكن يخف إذا رآك

فلكم فى هذا البيت من معان تكتئب بالنـور . وينتفض لها العصفور . ولولا أن سعادته كثير الحركة . وفنـه كثير الحركة . . معتدل الصحة . . لطلبنا له الشـفاء من ذلك الضـنى . ولكن الشعر كلما كان مبالغا فيـه . نفخت على الأرواح معانيه الخ . . " .

(المؤيد) فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥

هــــلال الصيام

يا هـلال الصيام مثلك فى السا ... مين للعز من طـوى الأفلا كا

مرحبا بالثواب منـك وأهلا ... بليـال جمالهـا لقـيـاكا

كل عال أو كابر أو نبيــل ... أو وجيـه من النجوم فداكا

كيف يبلغـن ما بلغت وما حا ... ولن شأوا ولا سرين سراكا [1]

أنت مهد الشهور والحسن والإشـ ... ـراق مهد الوجود منذ صباكا

فوق هام الظلام ضوء جبين الـ ... ـكون تاج للكائنات ضياكا

غرة الليــل والركاب إذا أد ... همـه قام سابحا فى سناكا [2]

وإذا ما أناف يظهر أجيا ... لا وبيدى أطواقه كنت ذاكا [3]

ورقيب على الدياجى إذا الـ ... ـتف عصاها صدعتها بعصاكا

وجنــاح لطـائر صاده الليـ ... ـل فأمسى يعالج الأشـراكا

أيهـا الطائر المريد فما تقـ ... ـدر نفس عمـا يريد فكاكا

قسم الكائنات منـك بنون ... قـلم النور خطها فحـلاكا [4]

فى كتاب جعلت قفلا عليـه ... من يمـين ما أومأت بسواكا

---

(١) السرى السير بالليل . (٢) الركاب الإبل . والأدهم : الأسود يكون فى الخيل والإبل وغيرهما . فرس أدهم وبعير أدهم والعرب تقول ملوك الخيل دهمها . والضمير فى أدهمه عائد على الليل .

(٣) الحجـل : الخلخال والحجل : البياض . والتحجيل بياض فى قـوائم الفرس كلها . والطوق : حلى للعنق يحيط به . وأناف : أشرف وطال وارتفع يقال "أناف الجبل وأناف البناء" وناف البعير طال وارتفع . (النياف) بالكسر ، من الجمال والنوق : الطويل فى ارتفاع . يقال "جمـل وناقة نياف" و (امرأة نياف) تامـة الطول والحسن (٤) حلى الشىء (بكسر اللام) يحـلى حـلاوة ـــ فلان فى عينى وقلبى : أعجبنى ومنـه قول الراجز "تحلى به العين إذا ما تجهره" أى يحلى بالعين اذا أبصرته . وحلا الشىء يحلوه : جعله حلوا .

المؤيد فى ٣١ مارس سنة ١٨٩٥

وإنما الأمم الأخلاق

نشرت هذه القصيدة فى الجزء الأول من الشوقيات طبعة قديمة ص ٥٧ ، ولكنها أسقطت من ديوان (الشوقيات) الأخير ، مع أنها من أروع قصائد شوقى القديمة ، وحسبها ما ورد فيها فى وصف الطير فى الأبيات الستة التى تبتدئ من قوله : (وأسعدت مشرفات من مكامنها) ، وتنتهى إلى قوله :

وتبرح الفرع نحو الفرع جاذبة   بالغصن فالفرع نحو الفرع منجذب

ومن أبيات الحكمة الجيدة فيها :

وإن تحير بى قومى فلا عجب   إن الحقيقة سبل نحوها الريب

وقوله الذى يجرى على كل لسان :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذا البيت الضخم يليه فى الحكمة قول شوقى (رجل مات والرجال قليل) ، وهكذا يحلق شوقى فى سماء المتنبى . كتب المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى مقال ختامى عن شوقى (أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٥٠٠) يقول : " وحتى بيته المشهور :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ليس من الشعر فى شىء ، وإن كان آية من الحكمة الساذجة ، ولكن الشعر والحكمة تجتمعان فى مثل قول شوقى :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوانى

وقوله : فما العبد إلا كالدخان وإن علا   إلى النجم منحط إلى الأرض سافل

وقوله : ومن تبسم الدنيا إليه فيغترر   يمت كقتيل الغيد بالبسمات

وتوجد نماذج للحكم الشعرية أخرى نفيسة فى « شوقياته » ، كما يوجد بجانبها غير قليل من النظم الخبرى التقريرى الذى لا نعده من الفلسفة الشعرية فى شىء " .

لا نوافق الدكتور أبو شادى فيما ذهب إليه ، ونرى أن البيتين اللذين ذكرهما لشوقى (دقات قلب المرء .. فما العبد إلا كالدخان) بيتان جيدان من الناحية الشعرية فحسب ، لأن مادة كليهما صورة خيالية جوفاء وإن كانت جميلة . أما قوله (وإنما الأمم الأخلاق) فهو حكمة

عميقة ، ولو كان مثلا فقط — يقرر ويصوغ حقيقة شائعة فى النفوس يحس بها كل فرد صياغة محكمة ويصبها فى قالبها لكان من الشعر الباقى على الزمن ، فكيف بالحقيقة الكبرى التى صاغها شوقى فى أسلوب دقيق من السهل الممتنع ، وهذه السهولة هى التى تجعل البعض يتوهم أن البيت مجرد نظم جرى الحريرى ، وأنه لا عمق فيه ، فالسطح والعمق سواء فى الغدير الصافى . وقد كرر شوقى نفسه هذا المعنى أو هذه الحقيقة أو تلك الحكمة فى حوالى عشرين بيتا ، مع تغيير يسير فى الألفاظ أو القافية ، ولكنه لم يوفق إلا فى هذه الصياغة . كتب (ا . ش) فى (المجلة المصرية) فى عدد ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ تحت عنوان (الأخلاق) تعليقا على بيت شوقى قال فى بدايته : " كان يقال أعلى الممالك ما يبنى على الأسل ، وكان يقال بالعلم تتقدم الدول ، وكان يقال بالدين وحده تسود الملل ، واليوم يقال الأمم الأخلاق فإذا ذهبت ذهبوا . ذلك أن قليل القوة بالأخلاق كثير ، ونزر العلم بالأخلاق جم ، وبركة الدين بالأخلاق أتم وأعم ، فهى أفضل ما يهب الله للأمم ، يعرفون الأمر كيف يجمع ، والخطب كيف يدفع ، والعز كيف يسترجع ، والحق كيف يتبع ، والعدل كيف يشرع ، والسيف والندى كلا أين يوضع . مناقب عالية ، ومزايا سامية لا تنال بالسيف وحده ، ولا تدرك بالعلم على حدة ، ولا تبلغ بالدين على انفراد ، ولا تحرز بهذى الثلاث مجتمعات لكن لتكفل بها للأمم الأخلاق " .

الأمم الأخلاق تعبير أو مثل لا يضاهيه فى قوة الإيجاز ودقة الصياغة إلا قول شكسبير To be or not to be الذى لم تستطع لغة فى العالم نقله إليها نقلا صحيحا ، بالرغم من وضوحه وسهولته . وهذا هو سر العبقرية ، عبقرية اللغة وعبقرية النظم .

القصيدة

صحوت واستدركتنى شيمتى الأدب	وبت تنكرنى اللذات والطرب
وما رشادى إلا لمح بارقة	يرام فيه ويُقضى للعلى أرب
دعت فأسمع داعيها ولو سكتت	دعوت أسمعها والحر ينتدب
وهكذا أنا فى همى وفى هممى	إن الرجال إذا ما حاولوا دأبوا
ولى صبابة نفس حيث أجعلها	لا حيث تجعلها الأحداث والنوب
لها على عزة الأقدار إن مطلت	حلم الليوث إذا ما استأخر السلب

وإن تحير بى قوم فلا عجب ... إن الحقيقة سبل نحوها الريب
أوشكت أتلف أقلامى وتتلفنى ... وما أنلت بنى مصر الذى طلبوا
هم رأوا أن تظل القضب مغمدة ... فلن تذيب سوى أغمادها القضب
رضيت لو أن نفسى بالرضى انتفعت ... وكم غضبت فما أدنانى الغضب
نالت منابر وادى النيل حصتها ... منى ومن قبل نال اللهو والطرب
وملعب كمعانى الحلم لو صدقت ... وكالأمانى لولا أنها كذب
تدفق الدهر باللذات فيه فلا ... عنها انصراف ولا من دونها حجب
وجاملت عصبة يحيا الوفاء بهم ... فهم جمال الليالى أو هم الشهب
باتوا الفراقد لألاء وما سفروا ... عليه والبان أعطافا وما شربوا
وأسعدت مشرفاتٌ من مكامنها ... حمر المناقير فى لباتها ذهب
مستأنسات قمريات بأخبية ... من سندس الروض لم يمدد بها طنب
ما بين حام يهاب الجار ساحته ... وناشئ يزدهيه الطوق والزغب
وغادة من بنات الأيك ساهية ... ما تستفيق وأخرى همها اللعب
قريرة العين بالدنيا مروعة ... بالأسر تضحك أحيانا وتنتحب
وتبرح الفرع نحو الفرع جاذبة ... بالغصن فالفرع نحو الفرع منجذب
أبا الحيارى ألا رأى فيعصمهم ... فليس إلا إلى آرائك الهرب
لن يعرف اليأس قوم أنت حصنهمو ... وأنت رايتهم والفيلق اللجب
عوّدتهم أن يبينوا فى خلائقهم ... فأنت عانٍ بما عوّدتهم تعب
والصدق أرفع ما اهتز الرجال له ... وخير ما عوّد ابنًا فى الحياة أب
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تعليق

لقد أجاد شوقى تصوير الطير فى أبيات أخرى من قصيدة « الربيع ووادى النيل » :

ما بين شادٍ فى المجالس أيكه ... ومحجبات الأيك فى الأدواح
غرد على أوتاره يوحى إلى ... غرد على أغصانه صداح
بيض القلانس فى سواد جلابب ... حلّين بالأطواق والأوشاح
رتلن فى أوراقهنّ ملاحنا ... كالراهبات صبيحة الإفصاح
يخطرن بين أرائك ومنابر ... فى هيكل من سندس فياح

ويلاحظ أن شوقى مولع برسم حركات الطير وألوانها وألحانها ، التى تبدو فيها بهجة الطبيعة والحياة . وقال أيضا من قصيدة أخرى منشورة فى ديوانه :

كم فى الخمائل وهى بعض إمائها ... من ذات خلخال وذات سوار

وحسيرة عنها الثياب وبضة ... فى الناعمات تجر فضل إزار

وضحوك سن تملأ الدنيا سنى ... وغريقة فى دمعها المدرار

ووحيدة بالنجد تشكو وحشة ... وكثيرة الأتراب بالأغوار

وله أيضا :

ولقد أقول لهاتف سحرا ... يبكى لغير نوى ولا أسر

والروض أخرس غير وسوسة ... خفق الغصون وجرية الغدر

والطير ملء الأيك أرؤسها ... مثل الثمار بدت على السدر

ألوى الجناح وناء بالصدر ... ورنا بصفراوين كالتبر

كلم السهاد بيوت هدبهما ... وأقام بين رسومها الحمر

تهدا جوانحه فتحسبه ... من صنعة الأيدى أو السحر

وتثور فهو على الغصون يد ... علقت أناملها من الجمر

فى البيتين الأخيرين أبدع شوقى فى وصف الطائر فى حالتى سكونه واضطرابه . وللبارودى شعر رائع فى الطير وهو القائل :

خوارج من أيك دواخل غيره ... زهاهن ظل سابغ وغدير

وقد عاش الشاعران فى حجر النعيم بين الرياض والجداول والأغصان والطير، فظهر فى شعرهما أثر البيئة الخاصة التى هى مصدر الوحى الأول ، وأول عامل فى تكوين الشخصية .

المؤيد فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٥

(إن من الشعر لحكمة)

"بعث إلينا أحد أفاضل الشعراء بهذين البيتين فنشرناهما إجابة لطلبه" :

زعم المقطم[١] أنه ... ينشى وينشر فلسفه

صدق المقطم يا له ... من فيلسوف فى السفه[٢]

---

(١) أنشىء المقطم ليكون لسان الاحتلال فى سنة ١٨٨٩، وبعد ظهوره بشهور، فى نفس السنة، أنشىء المؤيد للدفاع عن مصر والخلافة والإسلام التى كان يعمل الانكليز على النيل منها . وقد اشتد ساعد المؤيد باشتداد ساعد الحركة الوطنية فى سنة ١٨٩٥، وبدأ شوقى ينشر فيه شعره بعد أن كان يخص به الأهرام . وكان مصطفى كامل يفكر فى إصدار جريدة له منذ سنة ١٨٩٧، ولكن وسائله لم تمكنه من ذلك فاكتفى بنشر مقالاته فى الأهرام أولا ثم فى المؤيد حتى سنة ١٩٠٠، وكان الصراع شديدا بين المؤيد والمقطم منذ البداية من ناحية وبين الأهرام والمقطم من ناحية أخرى . وكان (المؤيد) فى السنوات الثلاث الأخيرة من القرن التاسع عشر أقوى جريدة فى الشرق فاضطرت الأهرام، وكانت تطبع فى الإسكندرية منذ صدورها، إلى الانتقال إلى العاصمة فى نوفبر ١٨٩٩ لتتنافس فى المعركة مع المؤيد واللواء . وكانت المقطم تتناول المؤيد والأهرام بأخش أساليب السب والهجاء .

(٢) كتب شوقى عن الحقيقة فى (أسواق الذهب) يقول : « الحق أن افتتات الفلسفة على ضنائن الله سفه » .

من تهنئة

ملك بأفق الروض حل كريما | يدعو الجماد جماله ليهيما
أبهى من الدنيا وأزين طلعة | وألذ من عَرف[1] الحياة شميما
الريح تحضن بانة من قده | والبحر يرحم درّ فيه يتيما[2]
والشمس تغشى شعره وكأنما | خلعت عليه نضارها[3] الموهوما
والناس في شغل به وتعجب | لا يذكرون من الهموم قديما
يارملة الثغر[4] استرق واملكي | من بات من فتن الغرام سليما
تجمل الدنيا بشمس جمالها | وجمال أفقك بالشموس عموما
بالناعمات اللاهيات بحسنها | يتبلو أشم على المياه نحيما
الحاكيات عليه أندلس الهوى | عربا لنا طورا وحينا روما
الطالعات ولا أقول فراقدا | حذر العيون ولا أقول نجوما
والمائجات من الطلاقة بهجة | والمافيات من الدلال نسيما
واللافظات عن العقيق مرققا | والباسمات عن الجمان نظيما
والساحبات من الحرير مطارفا | ودّ الأصيل فشيبهنّ أديما
من كل مقبلة تخف لها النهى | وثبا ويأخذها الفؤاد صميما[5]
هيفاء تشدى بهجة في إثرها | هيفاء تقطر نضرة ونعيما
متجانسات في مساق وفودها | يحكين هذا اللؤلؤ المنظوما

---

(١) العرف بفتح العين الرائحة الطيبة .

(٢) اليتيم المفرد من كل شيء . يقال بيت يتيم وبلد يتيم — وكل شيء يعز نظيره .

(٣) النضار الذهب و— الفضة وقد غلب على الذهب .

(٤) الثغر الإسكندرية

(٥) الصميم المحض والخالص من كل شيء .

(المؤيد) فى ٢ نوفبر سنة ١٨٩٦

تهنئـــة

ها نحن أولاء ننشر القصيدة الآتية برمتها ، مع تقديم المؤيد لها بنصه ، لا لأهمية الموضوع فى ذاته ولكن لأهميته فى تاريخ النقد الأدبى ، فقد نشبت بسبب القصيدة شحناء امتلأت بها نفس شوقى وناقده داود عمون فتطاعنا بنوافذ من الشعر . . قال المؤيد :

"لقد جرت عادتنا وحضرة الفاضل نابغة عصره الشاعر المجيد أحمد افندى شوقى أحد موظفى السكرتارية الخديوية أن نشترك معا فى رفع شعائر التهانى على صفحات المؤيد فنكتب المقدمة نثرا ونكسوها بحلة كلامه البهية شعرا ، ولكنه بعث لنا هذه المرة كتابا خصوصيا مع قصيدته الغراء نثر فيه درر البلاغة نثرا ، فرأينا من العمل بالأكمل أن لا نقدم على شعره مباشرة غير نثره محافظة على مجاورة الأفضل للأفضل ، وهذا هو نص خطابه الخصوصى ، وإن لم يشر بنشره :

"عزيزى : إذا حل السعد فى مغانيه ، ونزل الغيث فى مشاتيه ، وشهد الهلال هذا البلد ومن فيه ، فأهلَّ لله حاضره وباديه ، وناجى الحافظ الأمين مناجيه . أن يسلم الحاكم للملة والملك لراجيه . فلا تنس للمؤيد الذاكر ، ولهذا الصديق الشاعر سُنَّة الاشتراك الحولى فى تحية المولى المحبوب ، اشتراك سرائر وقلوب ، وليس بالمفترى ولا المكذوب ، ولا بالمخلوق ولا المجلوب ، فإيه واشترك فى تهم الولاء لذاك المقام ، وإذا سرقت فاسرق الألباب والأفهام ، وأذقها فوق مذاق البشرى بالمقدم الأسعد والسلام ". المخلص (شوقى)

بات المعنَّى والدجى يبتلى — والبرح لا وانٍ ولا منجلى
والشهب فى كل سبيل له — بموقف اللُّوام والعذل
إذا رعاها ساهيا ساهرا — رعينه بالحدق النفَّل
يا ليل قد جرت ولم تعدل — ما أنت يا أسود إلا خلى
تالله لو حكِّمت فى الصبح أن — تفعل خفت الله لم تفعل
أو طلت سيفا فى جيوش الضحى — ما كنت للأعداء ما أنت لى
أبيت أشقى ويدير الجوى — والكأس لا تفنى ولا تمتلى
والخدّ من دمعى ومن فيضه — يشرب من عين ومن جدول

والشـوق نار فى رماد الأسى ... والفكر يذكى والحشا يصطلى
والقلب قـوام عـلى أضلعى ... كأنه الناقوس فى الهيكل
فدت برب النفس من شقوتى ... وبالركاب الأسـعد المقبـل
أهـلا برب النيـل رب القرى ... رب البطاح الكثر مما يلى
الجامـع العرشين فى واحـد ... واللابس التاجين فى المحفـل
والساحب الذيـل عـلى عصره ... عـلى مـلوك الزمن الأول
أهـلا بمولانا وسهـلا بـه ... ومرحبا بالسـيد المفضـل
المعتلى متن السها عـزة ... فلو أشار الدهر لـم يـنزل
المنعم المجزل من نفسـه ... عن جـده عن جـده المجزل
الجاعـل الأمة من عدلـه ... والفضل بين الظـل والمنهـل
عاصمـة النيـل آزدهى وآنجلى ... واتخذى اليوم صنوف الحلى
واستعرضى الخيـل ومـدّى الحـ ... ـيـد بالجحفـل فالجحفـل
وأنت يا قصـر ابتهـج وابتهـل ... وآهـد المـلا بالعـلم المرسل
وأزلف الوفـد إلى ربهـم ... وظلـل السـدة واظلـل
ويا بنى مصـر آمرعوا وآضرعوا ... بحفظ مـولى مصـر والمـوئل
هـذا لكم وجـه الندى والهدى ... فأستقبلوه خـير مسـتقبل

تعليـــق

نشر (المقطم) فى عدد ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٦ انتقادا لداود عمـون الشاعر جاء فيـه :
"نظم حضرة (أحمد بك شوقى) قصيدة لامية من البحر السريع فقرأتها متشوقا، فإذا هى من الشعر العادى إذ لا أظنّ أحدا يعتبر من المتانة قوله :

الجامع العرشين فى واحـد ... واللابس التاجين فى المحفل

فتخصيص الشاعر لبسه التاجين فى المحفـل لا معنى له ولا صحة لا فى الحقيقة ولا فى المجاز ولكنها القافية قضت فأطاع الشاعر . ومما يذكر فى موضع الركاكة قوله مخاطبا الليل : (ما أنت يا أسود إلا خلى) . ومما حكمت به القافية قوله : (والكأس لا تفنى ولا تمتلى)، فما ضره لو امتلأت الكأس التى يسقى بها والجوى مديرها، وهو مبالغ فى وصف شدة حاله بل أنه كان أصلح لوصف الحالة أن تكون الكأس دهاقا . ومن المعانى السقيمة المضطربة قوله فى الليل :

تالله لو حكَّمْتَ فى الصبح أن　　تفعل خِفت الله لم تفعل
أو طلت سيفا فى جيوش الضحى　　ما كنت للأعداء ما أنت لى

فالبيت الثانى تكرار لمعنى البيت الأوّل ، وذنب الليل إلى الشاعر طوله ، وزواله إنما يكون بالنسبة إلى الشاعر وإلى الصبح فى وقت واحد ، فهو لا يفعل بالصبح عدوه أكثر مما يفعل بالشاعر .

ومن محال الضعف قوله فى وصف المليك :

المتطى متن السهى عزة　　فلو أشار الدهر لم يـنزل

مبالغة . ومن ضعيف التعبير :

الجاعل الأمة من عدله　　والفضل بين الظل والمنهل

فإن عطفه الفضل على عدله ضعيف وإن كان جائزا . وفى الشطر الثانى من قوله :

وأزلف الوفد إلى ربهم　　وظلل السدّة واظلل

غلطة فى الوزن، وهى بلا شك من المطبعة .

ومطلع القصيدة حسن . والبيت الذى يليه جميل والبيت الثالث وهو :

إذا رعاها ساهيا ساهرا　　رعينه بالحدق الغفّل

بيت القصيد . وهو جميل جدا والتشبيه فيه بديع .

والخلاصة أن القصيدة تستوقف النظر ، ولو كانت لمجهول لاستحقت المدح ، ولكنها لا تستحقه وهى لأحمد بك شوقى .

وقلما قرأت له قصيدة إلا وجدت فيها بعض أبيات عامرة بارزة معنى ومبنى ، تحاكى أحسن أبيات المتنبى ، كقوله من قصيدة مخاطبا الأمير :

أمهما شاء عزمك أو تصدّى　　دنا الأقصى ودان المستحيل

وقوله :

تحبك يا ابن توفيق قلوب　　لغيرك ظهرها ولك الصميم
وترجو أن تدوم لها نفوس　　إذا تبقى لها يبقى النعيم
عن اللذات صامت لم تجادل　　وأما عن هواك فلا تصوم

وقوله من قصيدة كلها تستحق الذكر :

وإلى السيد الخليفة نشكو　　جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعودا كبارا　　هل رأيت القرى علاها الجهام

وقوله من قصيدة أخرى :

رب قد أنكروا الصراط علينـا   وهو الحق فآهدنا كيف تعبـد

ذنب مصر ومثـل مصر لديهم   أننـا المسلمون يا رب فآشهـد

فآتخذ من شبابك الغض عضبا   وآدع مصرا لك آدعها تتقـلد[1]

وكقوله من همزيته المشهورة :

إن ملكت النفوس فآبـغ رضاها   فلهـا ثـورة وفيهـا مضـاء

يسكن الوحش للوثوب من الأسـ   ـر فكيف الخـلائق العقـلاء

وكقوله منها :

إنمـا ينكـر الديانات قـوم   هـم بمـا ينكرونه أشـقياء

وهـذا البيت الأخير آية فى الصحة والجمـال . . وهذه الهمزية أجود شعر أحمد بك شوق ، وهى من أعلى الشعر وأنفسه " انتهى .

❖

هذا أهم ما جاء فى نقد داود عمون ، ولا نأخذ عليه إلا أنه أغفل بيتا جميلا فى القصيدة وهو قول شوقى :

والقلب قوام على أضلعى   كأنه الناقوس فى الهيكل

ذكر شوقى هذا المعنى بعد ذلك فى داليته الشهيرة :

ناقوس القلب يدق لـه   وحنايا الأضلع معبـده

غضب شـوقى من النقـد ، وعرض بالنـاقد فى قصـيدة نشرتها (المـؤيد) فى ٨ ينـاير سنة ١٨٩٧ تهنئة بعيـد الجلوس . . وهى فى الجـزء الأول ، طبعـة قديمة ، من الشوقيات ص ٧١

ويمنعنى من حاسـدى آبن محمـد   خلاف وشعب بيننا الدهر منسد[2]

فلا حكمى دعوى ولا منطق هوى   ولا مبـدئى لؤم ولا قلمى وغد

جعلت مديحى آية الود فى الورى   يجـاب به الدنيـا وما انتقل الود

قوافٍ لرب الشعر لا النظم طائل   إذا هى سارت فى البلاد ولا النقد

يهذبها العـلم الذى العـلم بعضه   وهذا البيان الوحى والحكمة الوقد

---

(١) العضب : السيف .   (٢) الشعب بالكسر الطريق فى الجبل .

أوانس أحيانا شـوارد تارة ... لها لعب آنا وآنا لها جـد

وتأوى يتيمات الدهـور بيوتها ... فتمسى ومن مبنى الجلال لها مهد

ومن روائع هذه القصيدة ، عدا الأبيات السابقة التى عرّض فيها بداود عمون ، قوله فى أوّلها يصف نجوم الليل :

سماء الدجى هل شف أجرامك السهد ... فباتت حيارى لا حراك ولا جهد

ضئال وما حلت عزائمها النـوى ... ولا هدّها بينٌ ولا راعها بعـد

هواف ولا شوق . شواكٍ ولا جوى ... سهادى ولا فكر . هيامى ولا وجد (١)

غوائب فى الآراد صـفر كأنها ... يواقيت زهر حفها لؤلؤ نضـد (٢)

كأن الدجى بحـر كأن نجومه ... سفائن فوضى لا سبيل ولا قصد

تعـالج أشراك الردى مستغيثة ... فتهوى ولا عون وتطفو ولا عضد

البيت الأخير بيت ضخم ومأساة واسـعة تمثل حياة الأجرام والعوالم فى محيط اللانهاية . وهو صيحة شاعر تدوّى فى الفضاء الأصم .

ولشوقى فى نفس القصيدة أبيات غزلية يبدو فيها نفَس البارودى وديباجته :

وذات دلال من بنى الروم حولها ... إذا ماتبدّت إخـوة سـبعة مرد

عنيت بهـا حتى آلتقينا فهـزها ... فـتى عربىّ ملء بردته مجـد

فقالت اطيب بعـد عسر وشـدّة ... فقلت نعم مسك الأحاديث والنـد

عطلنا من النعمى وطُـوِّق غيرنا ... تداولت الأيام وآنتقـل العقـد

وما ضاعت الدنيا علينـا وحسنها ... ولكنّ عن أغصـانه رحل الورد

ومن ظن بالآباء مجدا يصيبه ... فإنا لنحن الوالدو المجدَ والولد

فكن للعلى فرعا وكن فرع من بشا ... فإنّ المعـالى حبـذا الأب والجد

⁂

اردّ الأستاذ داود عمون على تعريض شوقى به بأبيات عنوانها " داء ودواء " . قال :

أجب قلبى داعى الخصام فلا بدّ ... فقد بدت البغضاء وآنكشف الحقد

وأشرع قـوم للبـذاء وشيجهم ... سراعا إلى العوراء تعدو بهـم جرد (٣)

---

(١) لا أدرى كيف جمع شوقى ساهدة على سهادى وهيمى على هيامى .

(٢) آراد جمع رأد . رأد الضحى ورائده وقت ارتفاع الشمس وآنبساط الضوء فى شباب النهار .

(٣) الوشيج شجر الرماح وأصله عروق القنا سميت به لتداخل بعضها فى بعض يقال " تطاعنوا بالوشيج " .

على غير ذنب غير أني مدحتهم ... بنقدى والجعلان يؤلمها الورد[1]
أنابغة المصرين لا العصر وحده ... أمن ذاك هاج الضغن وارتحل الرشد
أكل الذى خطت يمينك منزل ... وكل الذى يلقيه فوك لنا شهد
حلفت لو أنى أرتضى الشعر حرفة ... لما كان لى ما بين أربابه ند
نجيبٌ إذا ما المرء عدّ بفضله ... نسيب إذا ما سمى الأب والجد
جموع لأشتات العلوم مفوه ... (فلا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد)
ولى قلم يأبى سوى الوعر مركبا ... فما شانه دك ولا عابه نقد
وما حط من قدرى صفات تكرمت ... على بها من عند أنفسها مرد
على أنه لو كان خصمى منصفى ... لكان جزائى عنده الشكر والحمد
فإنى قد داويته من غروره ... ولولاى كان الداء ينمو ويشتد

(١) الجعلان (بكسر الجيم) جمع جعل كعود وهو ضرب من الخنافس تضرّ به ريح الورد قال المتنبي "كما تضر رياح الورد بالجعل".

(الأهرام) فى ٤ مارس سنة ١٨٩٧

عيد الفطر

هذه القصيدة بلا شك من خالص شعر أحمد . فيها روح النواسى وأبى العتاهية . جمة الروائع : منها قوله فى الدار :

دار من أحببت آيتها — أنها تصغى بلا أذن

وقوله فى الفؤاد :

أوهنته الحادثات هوى — وهو خفاق على الوهن
كل ركن كل زاوية — هيكل يهفو على وثن
خلع الأسرار كاهنُه — وبغير الحسن لم يدن

وقد عرف شوقى كيف يبكى الدار التى كان يحبها كما بكاها الأقدمون ولكنه زاد عليهم وأبدع فى حسن انتقاله من الدار إلى الوطن وما أقرب المسافة بينهما .

عجبا توفى الديار ومن — لك بالوافين للسكن
فى هوى الأوطان معذرة — لذوى الأخلاق والفطن
أنت فى فقر إذا افتقرت — وإذا استغنت فأنت غنى
وإذا عزّت عززت بها — وإذا هانت فرح فهُن
إن إنسانا تقابله — ليس إنسانا بلا وطن

هذا مايقوله شاعر الوطنية وصدّاحها فى حب الوطن . ولعمرى أى شاعر غير شوقى يرتفع بجناحه من ذلك السهل الممتنع (إن إنسانا تقابله) إلى أعالى الذرى فى سماء الفكر والعاطفة فى قوله (ليس إنسانا بلا وطن) . .

قصيدة شوقى [1]

طوقتك السحب بالمنن — ووقيت الضير من دمن
وجزيت الخلد عن زمن — كان كل العهد بالزمن
مرّ فى تلك الظلال لنا — كمرور الحلم فى الوسن
منّة للدار نذكرها — بلسان المدمع المتن

(١) أصل القصيدة ٣٠ بيتا حذفنا منها أبيات المديح .

دارُ من أحببتُ آيتها ... أنها تصغى بلا أذن
عهدها لى والمنى آمتزجا ... كامتزاج الروح بالبدن
إذ عنان العيش منطلق ... بالصبا واللهو والددن [1]
لَيِّنٌ حال الهوى وإذا ... رضته للصحو لم يلن
وفؤادى لا رشاد له ... طالب اللذات ليس ينى
أوهنته الحادثات هوى ... وهو خفاق على الوهن
كل ركن كل زاوية ... هيكل يهفو على وثن
خلع الأسرار [2] كاهنه ... وبغير الحسن لم يدن
عجبا توفى الديار ومن ... لك بالوافين للسكن
فى هوى الأوطان معذرة ... لذوى الأخلاق والفطن
أنت فى فقر إذا آفتقرت ... وإذا آستغنت فأنت غنى
وإذا عزت عَزَزْتَ بها ... وإذا هانت فرُح فهُن
إن إنسانا تقابله ... ليس إنسانا بلا وطن

---

(١) الددا اللهو واللعب، ولامه واو محذوفة كلام الغد . ويقال فيه أيضا (الددا) بفتح الدالين وإثبات واوه وقلبه ألفا ، (والددن) وفى الحديث « ما أنا من ولا الددد منى » أى ما أنا فى شىء من اللهو واللعب ولا ذلك منى أى من أشغالى . (٢) السر ما يكتم ، والسر خالص كل شىء . والسر فى العرف المسيحى إشارة محسوسة تدل على شىء غير محسوس كالمعمودية ونحوها .

بين ١٨٩٠ و ١٩٠٤

١

فى ١٩ يونيه سنة ١٨٩٤ نشرت (الأهرام) قصيدة لشوقى يمتدح فيها الجناب الخديوى جريا على المألوف . وقد ظهرت هذه القصيدة فى الجزء الأول من (الشوقيات) الطبعة القديمة ص ٩٤ وهذا نص القسم الغزلى منها :

حلو الوعود متى وفاك	أتُراك منجزها تراك
من كل لفظ لو أذن	ت لأجله قبلت فاك
يروى الحلاوة عن ثنا	ياك العذاب وعن لماك[1]
رخصت به الدنيا فكيـ	ـف إذا أنالته يداك
ظلماً أقول جنى الهوى	لم يجن إلا مقلتاك
غدتا منية من رأيـ	ـت ورحت منية من رآك
والنفس تهلك مرة	والنفس يشفيها الهلاك
من علم الأجفان فى	أهدابها مد الشباك
وتصيّد الآساد بالـ	آجام تسلبها الحراك
يا قاسى القلب آتئد	وأقلّ جهدك فى جفاك
ماذا انتفاعى فيك بالـ	ـرحماء من بالك وشاك
نفس قضت فى الحب من	أولى برحمتها سواك

٢

وقد جاء فى مجلة (الزهور) عدد أكتوبر سنة ١٩١١ تحت عنوان (ملحق الشوقيات) ما يأتى : (وقد أشرنا الى ذلك فى المقدمة) :

« أهدى إلينا شاعر من أصدقاء (الزهور) وعشراء شوقى فى عهد الصبا الأبيات الآتية وكان قد نظمها شاعر الأمير فى مدح المغفور له توفيق باشا الخديوى السابق[2] . ولم نعثر لها على أثر فى (الشوقيات) بل وجدنا هناك أبياتا من وزنها وقافيتها » .

---

(١) اللمى (بفتح اللام) سمرة فى باطن الشفة أوشربة سواد فيها وذلك مما يستحسن »

(٢) نشرت هذه القصيدة فى (الوقائع المصرية) عدد ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٠

أما الأبيات المفقودة فهى (ونجترئ بالنسيب) :

مضنى وليس بــه حراك	لكن يخف إذا رآك
ويميـل من طـرب إذا	ما ملت يا غصن الأراك
إن الجمـال كسـاك من	ورق المحاسن ما كساك
فنبتّ بين جـوانحى	والقلب من دمه سـقاك
ليت اعتـدالك كان لى	منـه نصيب فى هـواك
ياليت شـعرى ما أما	لك عن هواى وما ثناك
ما همـتُ فى روض الحمى	إلا وأسكرنى شـذاك
والقلب مخفـوض الجنا	ح يهـيم فيـه على جناك

٣

وفى الجزء الأوّل من (الشوقيات) الذى ظهر سنة ١٩٢٦ اختار شوقى تسعة أبيات من القصيدتين السابقتين فصار النص كالآتى :

مضـنى وليس بـه حراك	لكن يخـف إذا رآك
ويميـل من طـرب إذا	ما ملت يا غصن الأراك
إن الجمال كساك من	ورق المحاسن ما كساك
ونبتّ بين جـوانحى	والقلب من دمـه سقاك
حـلو الوعـود متى وفاك	أتُـراك منجـزها تـراك
من كل لفـظ لـو أذد	ت لأجـله قبّلت فـاك
أخـذ الحلاوة عن ثنا	ياك العـذاب وعن لمَـاك
ظلمـا أقـول جنى الهـوى	لم يجن إلا مقلتاك
غـدتا منيـة من رأيـ	ـت ورحت منية من رآك

لا أظن أن شـوقى كان موفقا فى الاختيار وتركه أبياتا كانت جديرة بالبقاء . وقوله : « أخذ الحلاوة عن ثناياك . . » أقل روعه من قوله فى الصياغة الأولى : « يروى الحلاوة عن ثناياك . . العذاب » .

٤

وقد نشرت جريدة (الواعظ) « للشاعر المفلق أحمد شوقى بك » فى عدد ٢٤ يونية سنة ١٩٠٤، قصيدة من نفس البحر والروىّ فى توديع الخديوى عباس بمناسبة سفره إلى أوروبا هذا نصها :

يا قلب أحمد هل سباك	رِيم بسهميه رماك
نخفقت حتى لا قرا	ر وذُبت حتى لا حراك
أنا لا أقول جَنَت يدا	ى ولا أقول جنت يداك
ما لى ولا لك بالقضا	ء يدان فيما قد دهاك
عادتك عادية الهوى	الله حسبك فى هواك
ماذا لقيتَ من الغرا	م ومن بشدّته ابتلاك
وإذا القلوب تهالكت	دنت الجسوم من الهلاك
يا قلب قد ذهب الصبا	عنى ولم يذهب صباك
أبدا أراك . رضى الملا	ح . كما عهدتهمو . رضاك
حلو الشمائل فى الهوى	تُسبي فتَسبي من سَباك
لو همت فى بدر السما	ء لما أوى إلا سماك[(1)]
غصن الأراك وكم أقو	ل مغالطا غصن الأراك
مِل كيف شئت مع الريا	ح ففى طباع الغصن ذاك
فكرى جهاتك . أضلعى	واديك . أحشائى رباك
يا مالكى بجميله	وجماله . روحى فداك
لولا نوى (ابن محمد)	ما راعنى إلا جفاك
الله حاطك فى مسير	ك ثم حاطك فى سراك[(2)]
مصر وساكن مصر بالـ	ـصبر المودع ودّعاك
الخير فى بحر حويـ	ـت وليس فى بحر حواك

(١) إلا سماءك حذفت الهمزة للتخفيف .

(٢) حذفنا تسعة أبيات من المديح واجتزأنا بالأبيات الثلاثة الأخيرة .

شوق وصبري يتعارضان

وقد نظم إسماعيل صبرى باشا قصيدة تهنئة بالعيد الأضحى فى سنة ١٨٩١ من نفس البحر والقافية، أى بعد عام من نظم شوق قصيدته الأولى (مضنى وليس به حراك) التى نشرت فى الوقائع فى أغسطس سنة ١٨٩٠، قال :

شوق يهيّجه نـواك ... وجوى يؤججه هواك

كم ذا أراك تميل عن ... مضناك يا غصن الأراك

وتسومنى صبرا وصبـ ... ـرى عنك أقتلُ من جفاك

صيّرتَ بُعدك من محبـ ... ـك بعد وعدك من وفاك

يا فتنة العشاق حسـ ... ـب الناس ما جرّت يداك

وكفاك ما صنعت بأر ... باب الصبابة مقلتاك

أنت النعيم فما لقلـ ... ـبى ليس يسلم من أذاك

إنى وإن بالغتَ فى ... هجرى وآلمنى قلاك

أصبو إليك إذا النسيـ ... ـم سرى يمثل لى شذاك

أو دارت الكاسات بالصهـ ... ـباء تخبر عن لماك

وأعد قربك مشتها ... ى وغايتى القصوى رضاك

* * *

والواقع أنه منذ سنة ١٨٩١ توطدت الصداقة بين إسماعيل صبرى وشوق وكانا فى الشعر فرسى رهان يتباريان فى نظم القصائد فى الموضوع الواحد وعلى سنن واحد . نشرت الوقائع فى أول فبراير سنة ١٨٩٢ قصيدتين فى رثاء الخديوى توفيق — الذى مات فى ٧ يناير — إحداهما لاسماعيل بك صبرى مطلعها :

لحمد الله ما لحى بقاء ... وقصارى سوى الإله فناء

والثانية لأحمد افندى شوق « نزيل باريس الآن » مطلعها :

بين ماضى الأسى وآتى الهناء ... قام عذر النعاة والبشراء

وقد استمرت هذه « المعارضة » أو المباراة الشعرية فى ظل الإخاء الصافى حتى فرق الموت بينهما . ومن قصائد المعارضة عدا القصيدة السابق الإشارة إليها القصيدة التي نظمها

صبرى باشا تهنئة للخديوى بمناسبة إطلاق سجناء حادثة دنشواى فى عيد جلوسه ونشرتها (الأهرام) فى ١٣ يناير سنة ١٩٠٨ :

لو أن أطلال المنازل تنطق ... ما ارتد حران الجوانح شيق

وقد قدمت لها الأهرام فقالت : « نظمها أشعر شعرائنا بلا جدال وأبرع كتابنا بلا نزاع سعادة الألمعى المفضال إسماعيل باشا صبرى » . ثم عقبت على القصيدة بعد آخر بيت منها « نقرأ شعر شاعرنا الأستاذ فنقول بعد كل بيت من أبياته آمين آمين » .

وقد اشتهر من أبياتها قوله :

هل عند ذاك السرب أنا بعده ... فى الحى من آماقنا نتدفق

وقوله فى خلال المديح يخاطب عباسا :

سدد سهام الرأى (بالشورى) يحُطْ ... بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وافتح به ... ما شئت من باب أمامك مغلق
عوذت مجدك أن تنام وفى الحمى ... أمل عقيم أو رجاء مخفق

وقد كان لمطالبة صبرى بالدستور فى تلك الآونة بالذات ، إذ بدأ الخديوى يتنكر فى السر للحركة الوطنية ومطالبها ، أثر طيب فى نفوس الأحرار .

ومن محاسن هذه القصيدة أيضا ، وصفه لحوادث دنشواى :

وأَقَلْتَ عثرة قرية حكم الهوى ... فى أهلها وقضى قضاء أخرق
إن أنَّ فيها بائس مما به ... وأرنَّ جاوبه هناك مطوق
وارحمتا لِجُنَاتهم ماذا جنوا ... وقضاتهم ما عاقهم إن يتقوا [1]
مازال يقذى كل عين ما رأوا ... فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا

وفى يوم السبت ١٨ يناير نشرت (الأهرام) تحت عنوان (تهنئة الأمير بعيد الأضحى المبارك) ما يأتى : « ننشر اليوم قصيدة شاعر الأمير وأمير الشعراء — ومن وصفه فقد سماه — يعارض فيها قصيدة العالم الفاضل سعادتلو إسماعيل باشا صبرى التى نشرناها يوم الاثنين الماضى وتخاطفتها الأيدى حتى باتت اليوم على كل لسان وفى ذهن كل أديب . قال شاعر الأمير ملتزما فى المعارضة الوزن والقافية وعدد الأبيات » .

---

(١) عدل صبرى الصياغة الأولى لهذا البيت وكانت كالآتى :

واحسرتا لقتيلهم وسجينهم ... ويتيمهم وسليمهم كم أرهقوا

ويلاحظ أن عدد أبيات قصيدة شوقى المنشورة فى الجزء الأول من ديوانه (طبعة سنة ١٩٢٦) ثلاثون بيتا فى حين أن قصيدة صبرى سبعة وثلاثون بيتا (صفحة ٥٤ من الديوان) . وبيان ذلك أن قصيدة صبرى التى نشرت فى ١٣ يناير كان عددها ثلاثين بيتا ثم أضاف إليها إسماعيل صبرى سبعة أبيات من أول (شكرتك مصر . .) إلى (فاحكم بغير العنف . .) . ونشرت هذه الأبيات الجديدة فى عدد الأهرام الذى ظهرت فيه قصيدة شوقى (١٨ يناير) كما أن (المؤيد) أعاد نشر القصيدة كاملة فى نفس اليوم (١٨ يناير) . تبتدئ قصيدة شوقى بأربعة أبيات من الغزل التقليدى ثم بقطعة من ثمانية أبيات فى الشباب المولى، وباقى القصيدة مديح تقليدى . ليس فى القصيدة إذن إلا أبيات الشباب، ومن قال الشباب قال باريس . وربما كان أثر باريس فى حياة شوقى الأدبية أثناء مقامه فيها أقل قوة من أثر الذكريات البعيدة المتخلفة عنها كالشفق المتوهج . وبعبارة أخرى إن أثر باريس البعيد أبلغ من أثرها القريب وخير ميدان لذلك الأثر هو ذكريات الشباب وأكاد أقول إن هذا الأثر كان رجعيا أى أنه كان له رد فعل فى ذكريات أيام المكتب والصبا الأولى . لذلك كان كل ما قاله شوقى فى ذكرى الشباب وأيامه فى باريس وقبلها من خير ما جادت به قريحة شاعر لأنه نابع من صميم الوجدان . إن أصداء ضحى الحياة فى باريس قد اختلطت بأصداء الحياة كلها فى الغديات والآصال وعبأها قلب شاعرنا نغما ساحرا وغناء شجيا :

قلبى أذكرت اليوم غير موفق ... أيام أنت مع الشباب موفق
خفقت من ذكرى الشباب وعهده ... لهفى عليك ! لكل ذكرى تخفق
كم ذبت من حرق الهوى، واليوم من ... أسف عليه وحسرة تتحرق
كنت الشباك . وكان صيدا للصبا ... ما تسترق من الظباء وتعتق
خدعت حبائلك الملاح هنيهة ... واليوم كل حبالة لا تعلق
هل دون أيام الشبيبة للفتى ... صفو يحيط به وأنس يحدق

ولا شك أن قصيدة شوقى فى مجموعها بعيدة عن الموضوع لأن شاعرنا لم يشر إلى أمانى البلاد ولم يعطف على حوادث دنشواى والعفو عن سجنائها . وإنصافا للحق نقول إن شوقى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨، أى قبل صبرى بخمسة أيام فقط، نشر فى (اللواء) قصيدة رائعة، بغير إمضاء، وفى نفس المناسبة، مطلعها :

شكرتك فى أجداثها الشهداء ... وترنمت بثنائك الأحياء

والقصيدة منشورة فى القسم الثالث من هذا الكتاب . وطبيعى أنه وقد وفى الموضوع حقه لم يشأ الرجوع إليه .

وقد نشرت (الأهرام) فى ٢٢ يناير سنة ١٩٠٨ قصيدة لحافظ إبراهيم « معارضا بها قصيدة حكيم الشعراء وأمير الشعر » :

سكن الظلام وبات قلبك يخفق   وسطا على جنبيك همٌّ مقلق

وقد قالت عنها الصحيفة مجاملة إنها « الدرّة الثالثة » مع أنها صدفة .

* * *

وعارض شوقى قصيدة الحصرى المشهورة (ياليل الصب متى غده) بقصيدة رائعة نشرتها مجلة (الزهور) فى أوّل يوليو سنة ١٩١٠، وعدد أبياتها أربعة عشر :

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحّم عُوّده

عارضها إسماعيل صبرى بقصيدة من نفس الوزن والروىّ والعدد أوّلها :

أقريب من دنف غده   فالليل تمرّد أسوده

وآخرها :

(شوقى) جوّد فى الشعر وقل   آمنت بأنك أوحده

كما عارضها ولى الدين يكن والأمير نسيب أرسلان وشعراء كثيرون . وقد زاد شوقى بعد ذلك على قصيدته أبياتا كثيرة حتى بلغت خمسة وستين بيتا : منها فى الغزل، ومنها فى مدح الأمير، وختمها بنشيد وطنى :

يا مصر سماؤك جوهرة   وثراك بحار عسجده
والنيل حياة دافقة   ونعيم عذب مورده
والملك سعيد حاضره   لك فى الدنيا حر غده
والعصر إليك تقرّبه   وإلى حاميك تودّده
والشرق رقيك مظهره   وحضارة جيلك سؤدده
لسريرك بين أسرّته   أعلى التاريخ وأمجده
بعلو الهمة نرجعه   وبنشر العلم نجدّده

نشرت القصيدة كاملة فى كراسة على حدة فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٠ ونشرها (المؤيد) فى عدد ٢٦ نوفمبر . وقد اكتفى شوقى فى ديوانه (الجزء الثانى صفحة ١٥٢) بالقسم الغزلى كله وعدده سبعة وعشرون بيتا وأسقط أبيات المديح والنشيد .

❖

وقد تحدث المعارضة فى الوزن والروى وحدهما مع اختلاف الزمن والموضوع مثال ذلك . نشر شوقى قصيدته الشهيرة فى ليلة راقصة (حف كأسها الحبب) فى مؤيد ٣١ يناير سنة ١٨٩٧ . وفى ٢٥ يناير سنة ١٩١٠ نشرت الجريدة لصبرى تهنئة بقدوم الخديوى من الحج :

كم تهيم كم تجب ... كم تهى وتضطرب
كلما أقول « سلا » ... جد ذلك اللعب
كلما أقول « حبا » ... شب ذلك اللهب
هل رأيت من ذهبوا ... قافلين ، لا ذهبوا
لا عدمت ركبهمو ... فى الصباح إذ ركبوا
والحجاز قبلتهم ... والفروض والقُرب
هات يا بشير أدر ... ذكرهم ، ألا اقتربوا

فى هذه الأبيات عبق من الشعر الجاهلى فى وداع الركب والظاعنين .

❖

ولا مراء فى أن كلا الشاعرين تأثر بالآخر . قال صبرى مؤرخا وفاة عبد الله فكرى باشا (مؤيد ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٠) .

الفضل أصبح زائلا فى إثر من ... جلت مناقبه عن الأشباه
فبكى الزمان وقال فيه مؤرخا ... الفضل زال بفقد (عبد الله)

لم ينس شوقى موسيقى ذلك الروى فى رثاء عبد الله بك الطوير (أهرام ٢٨ مارس سنة ١٩١٥) :

ياقلب ويحك والمودة ذمة ... ماذا صنعت بعهد (عبد الله)

والقصيدة فى الجزء الثالث من الديوان صفحة ١٨٣ .

وكان أحمد نسيم الشاعر يقول إن شوقى فى بيته المشهور :

صونى جمالك عنا إننا بشر ... من التراب وهذا الحسن روحانى

أغار على إسماعيل صبرى فى قوله :

أنت روحانية لاتدعى ... أن هذا الجسم من طين وماء

وقد أخطأ نسيم لجهله بتاريخ القصائد . صبرى هو الذى أغار على شوقى . فقد نظم هذا الأخير قصيدته (الله فى الخلق من صب ومن عانى) والتى يقول فيها :

صونى جمالك عنا إننا بشر ‏ ‏ ‏ من التراب وهذا الحسن روحانى
أو فابتغى فلكا تأويه ملكا ‏ ‏ ‏ لم يتخذ شركا فى العالم الفانى

فى سنة ١٨٩٤ (وقائع ٧ مارس) . ونشرت (المجلة المصرية) فى عدد يونية سنة ١٩٠١ قصيدة صبرى التى مطلعها :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى ‏ ‏ ‏ أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

والتى يقول فيها :

أنت روحانية لا تدعى ‏ ‏ ‏ أن هذا الشكل من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن ‏ ‏ ‏ للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك ‏ ‏ ‏ خلف تمثال مصوغ من ضياء

وقول صبرى فى المطلع (يا لواء الحسن) مأخوذ من موال قديم لا يعرف قائله :

حامل (لوا الحسن) لحظه فى فؤادى صاب ‏ ‏ ‏ سلم عيونه الكمال اللى بهم منصاب
نار الخدود حلتنى فى الهوى أوصاب ‏ ‏ ‏ والقد كالغصن فى روض البهى مايس
من شاف لحاظه صبح من نبلهم منصاب

⁂

وقد اقتفى شوقى أثر صبرى فى نظم الأغانى لعبده الحمولى وغيره من كبار الفنانين . ومن أغانى صبرى وهو طالب ما نظمه لعبده الحمولى حوالى سنة ١٨٧٢ (ولد صبرى فى سنة ١٨٥٤ ، وشوقى فى سنة ١٨٦٨) :

خلى صدودك وهجرك ‏ ‏ ‏ واطفى لهيبى ووجدى
ساعة وصالك وأربك ‏ ‏ ‏ أغلى من العمر عندى

ومن أغانى صبرى أيضا :

الحلو لما انعطف ‏ ‏ ‏ أخجل جميع الغصون
والخد — آه — ما انا طف ‏ ‏ ‏ ورده يغير العيون

وهذه الأغنية منسوبة خطأ فى كتاب (تراثنا الموسيقى) ، الجزء الأول ، إلى الشيخ محمد درويش .

ولا شك أن بعض الأغانى التى تُعزى إلى الشيخ درويش هى من نظم صبرى وشوق، ولكنها لا تزال إلى اليوم مجهولة النسب .

⁂

كانت الصداقة التى تجمع بين الشاعرين خصبة مثمرة كلها نماء وبركة، وقد لمّح الكاشف الشاعر إلى حدب الصديقين فى مقال كتبه عن الشعر فى مجلة (أنيس الجليس) عدد ٣١ مارس سنة ١٨٩٩ . قال فى كلامه عن الشعراء المعاصرين : " ولكن معظم أولئك الشعراء مقتصرون على استعمال نظمهم فى سبيل الاستجداء والمديح والرثاء والغزل فكادت تذهب الفائدة، وأتعب منه لذلك أهل المراتب والمناصب والهمم، كما سمعنا أن سعادة الكريم إسماعيل باشا صبرى لما بلغه خبر اهتمام شوقى بك بطبع نظمه ضمن (الشوقيات) أرسل سعادته لهذا يعتذر عن عدم رغبته فى أن ينسب إليه نظم، مع ما هو عليه من الدقة والبلاغة وأسلوب العصر . أما هو القائل :

إنما الأرض والسماء كتاب   فاقرأوه معاشر الأذكياء(١)

ولكنهم معذورون فى ذلك لقلة موارد ارتزاقهم الخ " .

ونشر (ناصف طه) فى جريدة (مصر الفتاة) عدد ٥ مارس سنة ١٩١١ قطعة من « جواب » أرسله إليه صبرى باشا ردًا على طلب قطعة من شعره : " كنت إذا قلت قولا فى الشعر أو النثر أخفيه عن الناس كما يخفى المرء عوراته، ثم مزقت ما أودعته فيه خشية أن يدوّنه مدوّن عدا النزر الذى عرفه الناس عنى، وهو ليس من الشعر إلا فى كونه موزونا " .

ولعل زهد صبرى فى نشر شعره ناشئ من اعتقاده أن شوقى وحده هو الشاعر بين المحدثين — كالبحترى بين القدماء — ومن حبه للإتقان ونظمه الشعر لنفسه لا للناس، كالهاوى الذى لا يريد أن يحشر بين زمرة المحترفين . وإن أكبر إساءة إلى صبرى كانت فى نشر ديوانه بقضه وقضيضه من شعر الصبا إلى شعر الكهولة . ولو أن الناشر اكتفى بمقطعاته التى يحتل بها — على قلتها — مكانا فريدا بين جميع معاصريه، لظهرت شخصية صبرى، ذلك « النجار الدقى » كما يقول حافظ، وأستاذ الشعراء .

وخلاصة القول كان صبرى وشوقى كوكبين يدوران فى فلك واحد من الصداقة والفن، ولا يمكن درس شعرهما إلا فى ضوء العلاقة القديمة الخالصة التى ظللتهما زمانا، وشتان بين هذه العلاقة والعلاقة التى كان حافظ يعمل على خلقها خلقا ليصعد إلى شوقى فى فلكه .

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة نظمها صبرى سنة ١٨٩٣ تقريظا لكتاب (السفر إلى المؤتمر) من تأليف أحمد زكى بك (باشا) .

(الوقائع المصرية) فى ٧ مارس سنة ١٨٩٤

قالت (الوقائع) إن هـذه القصيدة « تهنئة بشهر الصيام » و إنها « كلها غرر نظمها شوقى على هذا الطراز الجديد فى الشعر » . ونشرت (الأهرام) القصيدة فى اليوم التالى (٨ مارس) . ثم نشرها (المؤيد) فى ١٠ مارس وقال أيضا : إن القصيدة « كلها غرر نظمها على هذا الطراز الجديد فى الشعر » ، مما يبعث على الاعتقاد أن الوحى واحد .

نشرت القصيدة فى الجزء الأول من الشوقيات الطبعة القديمة صفحة ١٢٦ . وقد اكتفى شاعرنا فى الجزء الثانى صفحة ١٧٥ بأبيات النسيب التى اشتهر منها قوله :

صونى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهـذا الحسن روحانى

أحسن شوقى صنعا بإسقاط المديح ، خصوصا وأنه من الناحية الأدبية لا قيمة له ، ولكن القصيدة فى مجموعها كان يجب نشرها كاملة لأهميتها السياسية . وإليك البيان :

قال الأستاذ داود بركات فى ذكرياته (أبولّو ديسمبر سنة ١٩٣٠) : " كان شوقى لا يتعرّض للسياسة فى شعره ، فلما قربه الخديوى ووكل إليه الكثير من الشئون السياسية تحولت قصائده من الخيال البحت والحكم والوصف الخ إلى السياسة التى كان يتأثر بها ، كمدحه السلطان عبد الحميد ، لأنه شاعر أمير مصر ، وكحملته على رياض باشا فى حادثة الحدود ، وقد زار الخديوى الجيش وانتقد نظام إحدى الأورط ، فعدّ اللورد كرومر ذلك إهانة لكتشنر باشا طلب من أجلها الترضية ، وكان رياض باشا رئيس الوزارة فتبرأ من عمل الخديوى وذهب إلى الفيوم حيث قابل سموّه ، واستصدر منه تلغرافا إلى كتشنر باشا يثنى فيه عليه وعلى نظام الجيش " .

تكلم المرحوم داود بركات عن « حملة على رياض باشا فى حادثة الحدود » سنة ١٨٩٤ ، وتكلم عن قصيدة سياسية ، والظاهر أن تعبيراته لم تكن دقيقة ، لأننا عبثا فتشنا فى مجلدات جميع الصحف التى ظهرت فى تلك السنة ، فلم نجد شيئا يشبه أن يكون حملة ، حتى قرأنا فى أهرام ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٤ مقالا عنوانه : (حادثة الحدود وما هى ؟) قال محرره فى ختامه : " وقد نظم أمير الشعر شوقى بك قصيدته المشهورة ومطلعها :

الله فى الخلق من صب ومن عانى تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى

صونى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهـذا الحسن روحانى

ومنها :

رب الصعيد ورب الريف ثب بهما للفرقدين وطاول شأو كيوان

ومنها :

فياحوادث مهلا فى تضحيتنا ... فما تركت لنا لبا لعرفان

وإن حلمى لتستكفي البلاد به ... كالعين تمت معانيها بإنسان " انتهى.

والظاهر أن هذه القصيدة ، على الرغم من كونها لم تتضمن إلا تلميحا إلى حادثة الحدود ، خصوصا فى البيتين الأخيرين (فيا حوادث مهلا ..) أضفى عليها موقف الصراع بين الخديوى واللورد كرومر شأنا خاصا ، وكانت (الأهرام) فى عدد ١٨ يولية سنة ١٩١١ (أى قبل موت رياض بشهرين ونصف) قد كتبت مقالا عن (رياض باشا وحادثة الحدود) جاء فيه : " إن المعتمد البريطانى جاء رياض باشا بمطالب ثلاثة : (١) ترضية الجناب الخديوى الضباط الانكليز ترضية رسمية قبل وصوله إلى العاصمة . (٢) عزل ماهر باشا . (٣) اعتبار الضباط الانكليز فى الجيش المصرى تابعين لجيش الاحتلال ، وأن تناط الملاحظات عليهم بالقائد العام لذلك الجيش " .

كما أن (المؤيد) فى عدد ٢٢ يونية سنة ١٩١١ خصص صفحة كاملة ونصف صفحة لرياض باشا بمسألة الحدود فى سنة ١٨٩٤ ، وقد حاول المؤيد بلباقة الدفاع عن رياض .

وعلى أية حال لم نر أثرا لحملة على رياض لأى كاتب فى الصحيفتين الكبيرتين (الأهرام والمؤيد) فى سنة ١٨٩٤ ، مما يدل على أن المعارضة كانت لا تزال خافتة أمام بطش الاحتلال ، أو على الأقل إنها كانت تستجمع قواها .. وقد كان كل مدح للخديوى ، وخصوصا للسلطان يضايق الاحتلال ولسان حاله (المقطم) لا سيما فى تلك الآونة بالذات ، لأن الانكليز كانوا يعملون على الفصل بين تركيا ومصر لينفردوا بالسلطان فى وادى النيل ، كما أن كرومر كان يريد أن يكون وحده فى مصر كعبة القصاد من كبار المصريين وصغارهم ، من الفلاحين إلى كبار رجال الدين .. إلى خزنة الأمة والأعيان .

فى هذا الضوء يجب أن تقرأ قصيدة شوقى ، وهذا نصها :

(قال يمتدح الخديوى ويهنئه بشهر الصيام ، وإهداء مولانا الخليفة له قصر بك العامر)

الله فى الخلق من صب ومن عانى ... تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى

صونى جمالك عنا إننا بشر ... من التراب وهذا الحسن روحانى

أو فابتغى فلكا تأوينه ملكا ... لم يتخذ شركا فى العالم الفانى

الستر يحرسه والذكر يؤنسه ... والشهب حوليه بالمرصاد للجان

ينساب للنور مشغوفا بصورته ... منعما فى بديعات الحلى هانى

إذا تبسم أبدى الكون زينته ... وإن تنسم أهدى أى ريحان

وأشرق من سماء العز مشرقة ... بمنظر ضاحك الآلاء فتان

عنى تكف دموع فيك هامية ... لا تطلع الشمس والأنداء فى آن

يا من هجرت إلى الأوطان رؤيتها ... فرحت أشوق مشتاق لأوطان

أتعهدين حنينى فى الزمان لها ... وسكبى الدمع من تذكارها قانى

وغبطى الطير آتيه ، أصيح به ... ليت الكريم الذى أعطاك أعطانى

مُرِى عصىَّ الكرى يغشى مجاملة ... وسامحى فى عناق الطيف أجفانى

كفى خدودى من عينىّ ما شربت ... فمثل ما قد جرى لم تأت عينان

لئن ضننت فما لى لا أضنّ به ... على الفناء سوى آثار وجدان

ومنطق يرث التاريخ جوهره ... عن الزمان وعن عباسه الثانى

يا ابن النوال وما فى الملك من كرم ... ومن عفاف ومن حلم وإيمان

هذى المفاخر لم تولد ولا ولدت ... ولا رأى الناس شأنا كفء ذا الشان

هام الأنام وسادات الأنام بها ... وحرك العصر أعطافا كنشوان

رب الصعيد ورب الريف ثب بهما ... للفرقدين وطاول شأو كيوان

سارت بمسماك الأخبار وانتقلت ... بها الركاب وشاق القاصى الدانى

تريد مصر بما تبدى حوادثها ... ليعرف الناس حلمى هل له ثانى[1]

فيا حوادث مهلا فى نصيحتنا ... فما تركت لنا لبا بعرفان[2]

وإن حلمى لتستكفى البلاد به ... كالعين تمت معانيها بإنسان[3]

لما بدا الشهر واستقبلت غرته ... لاح الهلال ولاح البدر فى آن

وقمت تسطع بالأنوار فى أفق ... بالمسلمين وبالإسلام مزدان

كأنك البدر فى غايات رفعته ... لو كان للبدر كرسى وتاجان

فاهنأ مكانك واهنأ ما يلوح به ... لرب يلدز من آثار إحسان

إذا الخلافة فى أمصارها نهضت ... رأت بمصركم روحا لأبدان

---

(١) إشارة لبقة إلى كرومر . (٢) إشارة إلى تصرفات كرومر فى حادثة الحدود .

(٣) قوله (وإن حلمى لتستكفى البلاد به) إشارة أخرى إلى كرومر وعدم حاجة البلاد إلى «قيصر قصر الدوبارة» وقوله بعد ذلك (كالعين تمت معانيها بإنسان) من رائع التشبيه والخيال . وكلمة «بإنسان» مفردة فى آخر البيت أجمل «تورية» وأدق غمزة أو طعنة سياسية . . الكلام عن إنسان العين ولكنه قد ينصرف إلى أن كرومر ليس إنسانا ، وأن الخديوى فى مصر هو «إنسانها» الذى تستكفى به .

وإنها لعصور الإسلام ضاحكة ... تزهو ممالكها منها بعنوان

أهدى الخليفة ما أهدى يبشرنا ... أن الوداد بآساس وأركان

وإن ما تشتكى الأوطان من أود ... إلى صلاح بنعماه وعمران

قصرا على اللج لولا أن مهديه ... عبد الحميد لقلنا قصر نعمان[1]

يبيت من عزة الفسفور صاحبه ... على مكان من الدنيا وإمكان

إذا الأكارم سنوا الندى سبلا ... سنت أجلها يا فرع عثمان

رد النجوم أبا ساسان والعجم ... ومن بوالدك العالى بساسان

يظل يسجع فى الإسلام شاعركم ... كأن أيامه أيام حسان

ويشتهى الدولة العليا[2] معززة ... من الوئام بأنصار وأعوان

وبالمعارف تعليها وتورثها ... فى الأرض بنيان فخر عند بنيان

ركن الخلافة ضاق الذيل منهدم ... على السلام فمش للركن يا بانى

التعليق

لا شك أن جو الحوادث والصراع الكبير الذى قام بين الخديوى وكرومر، الذى يمثل فيه جبروت الاحتلال، جعل الشاعر السياسية التى تضمنتها هذه القصيدة قوة « الحملة » الجريئة السافرة :

سارت بمسعاتك الأخبار وانتقلت ... بها الركاب وشاق القاصى الدانى

تريد مصر بما تبدى حوادثها ... ليعرف الناس (حلمى) هل له ثان

فيا حوادث مهلا فى نصيحتنا ... فما تركت لنا لبًّا بعرفان

وإن حلمى لتستكفى البلاد به ... كالعين تمت معانيها بإنسان

ظاهر أن القصيدة قد اشتهرت بشعرها الغزل الجديد وبشعرها السياسى، والمهم أنه لم يمض شهر على هذه القصيدة التى نشرتها (الأهرام) فى ٨ مارس سنة ١٨٩٤ حتى نظم شوقى قصيدة أخرى نشرتها (الأهرام) فى ٦ أبريل سنة ١٨٩٤ مطلعها :

هل تنسم البان فؤاد الحمام ... فناح فاستبكى جفون الغمام

---

(١) لا شك أن إهداء السلطان قصراً إلى الخديوى بعد حادثة الحدود مباشرة (الحادثة كانت فى يناير ١٨٩٤) كان له مغزاه .

(٢) الدولة العليا هى الدولة العلية .

والقصيدة فى صفحة ١٠٩ من الشوقيات الطبعة القديمة ، وأعيد نشر أبيات الغزل فى باب النسيب صفحة ١٦٧ من الجزء الثانى . قال شوقى خلال مديحه :

لولا الليالى ما حملنا القذى ... ليتك عنا ياليالى نيام
هبك حييت النفس أن تشتكى ... لن تمنعيها أن تمج اللثام
نرجو بحلمى أن سنعلو وأن ... تبقى معالينا ليوم القيام
وأن نصون الحق عن معشر ... قد كتموا الحق وظنوا اكتتام
لعل أن ينصر من نصره الـ ... ـنصر ومن يرجى بـه الانتقام

عاد شوقى وضرب على نفس الوتر . والمهم أن مديحه ليس مجرد مديح ، لأن شاعرنا فى الواقع يتخذ من المديح ستارا يندد من ورائه بالاحتلال ، ويعبر عن أمانى الوطنية المصرية ، وينفخ فى نارها التى خمدت ، ولكنها لم تهمد ، منذ بدء الاحتلال .

⁂

وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤ نشرت الأهرام « تهنئة لولى النعم بعيد مولده الكريم من قلم حضرة الشاعر المنفرد والكاتب الألمعى أحمد بك شوقى » .

القصيدة تقع فى اثنين وثلاثين بيتا ، وقد أسقطنا منها اثنى عشر بيتا من المديح الذى ليس له أى مغزى خاص :

خل الأمور لأمر سابق جار ... وجار أهل الرضى فى نهجهم جار
هيهات تعدم نفس للرضى سببا ... إن النفوس بآمال وأوطار
قد ساعفتك رياح اللطف لو نظرت ... إلى السفينة بين الماء والنار
أكلما قام تيار تضيق بـه ... أغاثها الله ، فانقادت بتيار
فسر بها فى ظلام الليل معتصما ... لتخرجن إلى جودى أنوار (١)
تطوى له الهول حتى يستبين لها ... بحر السلام وحتى يحمد السارى
خفيفة بيد الألطاف تنقلها ... إلى شواطئ من تبر وأقطار
آمال أروع جم الصدق محتكم ... بالله فى جوهر الآمال مختار
هل فى الحوادث شك أم بإمرتها ... ريب ونحن لأحكام وأقدار

---

(١) جاء فى قواميس اللغة أن الجودى جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح . يريد الشاعر الوصول إلى « بر السلامة » . وفى هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى عن سفينة نوح (ثم استوت على الجودى وقيل سحقا للقوم الظالمين) . والظالمون هم البغاة الذين (أضاعوا حرمة الجوار) .

تأبى علينا المعالى حين نسألها ... فما تجود لنا إلا بمقدار
ولو أرادت كستنا هيبة وحمت ... فم الزمان فلم ينطق بإنكار

يا شاعر الخلق ما هذا الشقاء بهم ... إن البرية لن يحيا بها البارى
الله فى قبس من نور حكمته ... تضيعه بين أقذاء وأقذار
على خلائق فيهم بت مغتربا ... وعالم أنت فيه نازح الدار
أولى بصفك أفلاك محجبة ... بالنور ما بين وثاب ودوار (1)
ومستقل إذا يسرى ومنتقل ... وثابت فى مغانيه وسيار
تجرى بسعد الخديوى فى مطالعها ... وهموا به بين أعلام وأقمار
هل المفاخر إن حلت وإن بهرت ... إلا كتاب وأنت الحافظ القارى
أنت الضنين بعهد الجار تحفظه ... إذا البغاة أضاعوا حرمة الجار

وأنت بالله والأيام منتقم ... إذا هم انتقموا بالإثم والعار

أشار شوقى فى هذه القصيدة التى لم يسبق نشرها إلى الاحتلال والمحتلين فى مواطن كثيرة ، ويبدو أيضا أن هناك إشارة دقيقة إلى موقف تركيا من حادثة الحدود ، وسكوتها أمام سياسة الإذلال التى جرت عليها انجلترا إزاء مصر ، وذلك فى البيتين الآتيين :

تأبى علينا (المعالى) حين نسألها ... فما تجود لنا إلا بمقدار
ولو أرادت كستنا هيبة وحمت ... فم (الزمان) فلم ينطق بإنكار

المعالى فى البيت الأول رمز لتركيا ، والزمان فى البيت الثانى رمز للسردار أو المعتمد البريطانى الذى أرغم الوالى على شكر منظمى الجيش من الإنجليز بعد النقد الشديد الذى وجهه إليهم ، وقد يكون (الزمان) أيضا رمزا للخديوى نفسه الذى أنكر فى اليوم ما قاله بالأمس ، وحمت بمعنى منعت ، والإنكار يقال أنكر حقه : جحده ، وأنكر عليه فعله : عابه ونهاه .

⁂

وقد خلقت الظروف السياسية فى مصر نوعا جديدا من الشعر الرمزى أو الرمزية ، لأن مثل هذا الشعر يسمح للكاتب أو الشاعر أن يتنفس بما يضيق به صدره . نشرت الأهرام التى كانت تصدر فى الإسكندرية لغاية سنة ١٨٩٩ ، فصلا لمراسلها فى القاهرة الشاعر خليل مطران ، عن الميزانية فى عدد ٣٠ يونية سنة ١٨٩٤ هذا نصه :

---

(١) لعلها : أولى بصرحك (لا بصفك) والصرح هو البناء العالى .

الميزانيـــة

” عجيب من الدهـر العجيب مراده	بأن ألتق منـه المصاب وأشكرا
وأن أحسب الليـل الطويل كنعمة	لـه وأرى فيـه الظلام منـورا
وأن يتمشى بالحـوادث مثقـلا	عـلى صدرى الممنوع أن يتفجرا
وأن يتمنى مـنى السرور بـه إن	صبرت عليـه عُـدّ صبرى منكرا

يقول لنا الخبيرون أن الذى اقترحه مجلس الشورى على المالية من أن ترسل له مفردات الحساب الختامى عن السنة الماضية قـد ضيق صدور قوم على سعتها ، فقالوا : ماذا يفهم أولئك المزارعون من أرقام مرصوف بعضها فوق بعض ، كترصيف البقول فى الحقول ، أو الأقطان فى الأطيان الخ ” .

(خليل المطران)

إن ما كتبه مطران نثرا عن الميزانية ليس إلا تغطية تشف عمـا تحت أبياته الرائعة ، التى لم تنشر فى ديوانه ، من شكوى متأججة تومض إلى الحوادث العامة .

***

وفى عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٤ نشرت (الأهرام) القصيدة الآتيـة لخليل مطران بمناسبة عودة الخديوى من أوربا ، وقد حذفنا منها أثنى عشر بيتا من المديح :

حيـا محيـاك الصباح البـاسم	وفدى نداك ندى الصباح الساجم
يأبن (العلى) أتيت من توفيقه	لمـا تمادى فى آعتداه الظـالم
لتعيـده حيا فنشهد حكمه	بجميـل حكمته وأنت الحاكم
وتعيـد مجدا شـاده برماحـه	وظبـاه ، ثم سطا عليـه الهادم (١)
وتعيد مصـر عزيزة بعـزيزها	فيـذل حساد لهـا ومخاصـم
وتداس ألسـنة وأقـلام بهـا	يرمى الأمـير عـدوّه واللائم
أخلق بفكرك أن يساهر فى الدجى	نجمـا بـه تهديه إذ هـو هائم
وبحسن رأيك أن يحل مشاكلا	عظمت فتغدو وهى منك عظائم
يبغى بهـا تصغير مجدك طامع	فيـه فيرجع دون ما هـو رائم

(١) إشارة إلى انتصارات الجيوش المصرية على الأتراك فى الشام وآسيا الصغرى فى عهد محمد على وقضاء انجلترا على نتائج هـذه الانتصارات بالفتن والدسائس وتأليب دول أوروبا على مصر وتحطيم إمبراطوريتها بالقـوة أولا وبالسياسة فى مؤتمر لندن (١٨٤٠ — ١٨٤١) .

هذه القصيدة، شأنها شأن الأبيات الأربع، لم ينشرها مطران فى ديوانه الذى صدر فى سنة ١٩٠٨ ولا فى ديوانه الأخير — لأن فيها مديحا تعافه نفسه ولكننا نجد فيها النَفَس العالى الذى ألفناه فى شعر الكهولة والنضوج . والواقع أنى أحاول عبثا أن أرى فى القصيدة وجه مطران المادح على الرغم مما تنطوى عليه من مديح سطحى تقليدى ، ولكنى أرى فيها بجلاء ، خلف ستار المديح الشفاف ، وجه مطران الثائر وإباءه وكبرياءه ، وهو يسمعنا من خلال شعره القوى ، زأرة الأسد الضارى فى وجه الظلم والظالمين . وما أعظم مطران الشاعر حين يتلفت من عليائه إلى ذلك النفر من الكتاب المأجورين، من دخلاء ومصريين، فيدوسهم وهو من المعرضين (وتداس ألسنة وأقلام بها . .) .

إن المدائح والحكايات والميزانيات وماشا كلها من المناسبات فى شعر شوقى ومطران ، إن هى إلا رمزيات متنوعة ومعان كالتى قال عنها البحترى .

وركبن اللفظ القريب فأدركـ ... ـن به غاية المراد البعيد

(المؤيد) فى ٧ يناير سنة ١٨٩٦

تهنئـــة

نشرت هـذه القصيدة فى الجزء الأول من الشوقيات طبعة قديمة . وقـد ضنّ شوقى على نسيبها بإعادة نشره فى الطبعة الحـديثة مع أن فى ذلك الشعر من الحكمة وحسن الصياغة ماهو أعلى وأغلى من الكثير من مختاراته فى باب النسيب من الجزء الثانى .

وقد جارى شاعرنا المتنبى فى قصيدته الشهيرة فى مدح كافور التى مطلعها :

أودّ من الأيام ما لا تـودّه ‏ ‏ ‏ ‏ وأشكو إليهـا بيننا وهى جنده

وقصيدة (المتنبى) ٤٨ بيتا منها ١٦ نسيبا و ٣٢ مديحا . وأهم أبياتها :

أبى خلق الدنيـا حبيبا تديمه ‏ ‏ ‏ ‏ فمـا طلبى منهـا حبيبـا تردّه

وأسرع مفعـول فعلت تغـيرا ‏ ‏ ‏ ‏ تكلف شىء فى طباعك ضـدّه

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ‏ ‏ ‏ ‏ ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ‏ ‏ ‏ ‏ ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلبـا بين جنبىّ ما له ‏ ‏ ‏ ‏ مدى ينتهى بى فى مراد أحده

تولى الصبا عنى فأخلفت طيبه ‏ ‏ ‏ ‏ وما ضرنى لمـا رأيتك فقـده

٢

وقال (البارودى) من قصيدة فى الفخر على روىّ قصـيدة المتنبى . وفيهـا إشارة إلى حوادث العصر، وأغلب الظن أنها نظمت فى المنفى :

أبى الدهر إلا أن يسـود وضيعه ‏ ‏ ‏ ‏ ويملك أعنـاق المطالب وغـده

تداعت لدرك الثـأر فينا ثعاله ‏ ‏ ‏ ‏ ونامت على طول الوتيرة أسـده

لختـام نسرى فى دياجير محنـة ‏ ‏ ‏ ‏ يضيق بها عن صحبة السيف غمده

وأقتل داء رؤية العين ظالمـا ‏ ‏ ‏ ‏ يسىء ويتـلى فى المحـافل حمده

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ‏ ‏ ‏ ‏ بهـا بطـلا يحمى الحقيقة شـدّه

وإنى امرؤ لا أسـتكين لصولة ‏ ‏ ‏ ‏ وإن شد ساق دون مسعاى قِده

أبت لى حمـل الضيم نفسٌ أبيـة ‏ ‏ ‏ ‏ وقلب إذا سيم الأذى شب وقده

حسب أبيات البارودى أن شخصيته ماثلة فى كل لفظ ومعنى فيها . وما أروعه حين يقول :

وأقتـل داء رؤية العـين ظالمـا ‏ ‏ ‏ ‏ يسىء ويتـلى فى المحافل حمـده

وفى ذلك إشارة إلى توفيق وكل طاغوت من أعوانه .

٣

أما قصيدة (شوق) فتمتاز بعذوبة بيانها وقوة مبناها . ولله دره حين يقول :

فلو أن حالا دام لم ينقض الأسى ... ولكنها الأيام حال وضده

وهذه الرقة الموسيقية يلهينا جمال نغمها وضوضاها عن المديح وسؤله . قال شوق :

يرق من الأرواح ما لا ترقه ... ويفتك فيها مسرفا وهي جنده

تحير تواليه المحاسن وردها ... وتنهل منه النفس لو راق ورده

خذوه بنفسي إنه هو قاتل ... ولا تقتلوه إنني أنا عبده

ولا تسألوه ما ذنوبي وأطالوا ... قبيل متابي قبل ذنب أعده

ولا تحضروني عنده بشفاعة ... فإن شفيع الواجد الصب وجده

خلاي الذي لم يعرف السهد جفنه ... ولم تدر تقليب المضاجع كبده

وقاطعني من كنت أرجو وصاله ... وأين أخو الود الذي دام وده

فيا مدنيَ العذال ما شاء عطفه ... ويا مقصي العشاق ما شاء صده

أيُمنع منك القرب من سار فمه (١) ... ويمنع منك اللفظ من سار حمده

ويأوى لظل من سواك رجاؤه ... ويشقى بالحرمان من أنت قصده

أعوذ بسيد الملك من أن يمر بي ... فلا يلتقي بي في غرامك سعده

فتى تشرق الدنيا إذا ذكر اسمه ... ويهتز أشياخ الزمان ومرده

إذا ما الليالي ثمن لم يخف حزمه ... وفوق سهاد الدهر في الخطب مهده

وإن يرتجل وعدا وفي الليل هجمة ... تجلى على الصدق الصباح ووعده

فتى النيل أضحى عصمة بك ملكه ... وكان سلاما في يمينك عهده

وشعب أطاش الدهر ثابت جأشه ... نفار فلما جئته جاء رشده (٢)

فلو أن حالا دام لم ينقض الأسى ... ولكنها الأيام حال وضده

---

(١) في الديوان (أيمنع فوق القرب ...) بدلا من (منك القرب ...) . وهذا خطأ مطبعي ظاهر .

(٢) إشارة إلى الثورة العرابية والدور الذي لعبه عباس في محاولة محو ذكرى سيئات أبيه توفيق بانضمامه إلى الحركة الوطنية . وقد عبر شوقي من كل هذه المعاني في هذا البيت والذي يليه بلباقة وحنكة رغما من دقة الموقف .

(المؤيد) فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٦

من قصيدة فى وصف (البال الخديوى)

هذا أول وصف لحفلة البال التى كان القصر يقيمها سنويا . وقد وصف شوقى بعد ذلك البـال أو الحفلة الراقصـة بقصائد ثلاث من أجود شـعره . الأولى (أثر البـال فى البال) أو وصف ليلة راقصة فى قصر عابدين :

حف كأسها الحبب   فهى فضـة ذهب

نشرها (المؤيد) فى ٣١ يناير سنة ١٨٩٧ . وهى فى الجزء الثانى من الشوقيات صفحة ٨ . والتـالية :

مـال واحتجب   وادّعى الغضـب

وهى منشورة فى الجزء الثانى صفحة ١٣ . وظهرت فى (اللواء) فى ٢١ يناير سنة ١٩٠٤ .

وقد نظم شوقى أيضا قصيدة فى ليـلة راقصة أحياها رئيس النظار بطرس باشا غالى . نشرتها (المقطم) :

على منـازل غالى   نزنا بصفو الليـالى

والقصيدة فى أول القسم الرابع من هذا الكتاب .

⁂

يا ليـلة البال ما خالوك راقصة   إلا وأنت بجـال الدهر والحقب

كم لذة بك ولت وانقضت وجلت   وذكرها فيـه لم يبرح ولم يغب

بالله، بالكون، بالنجم الرفيع، بمن   أحياك شائقـة ، بالمنظر العجب

طولى لضيفانه الأمجاد واتصـلى   فما ألذ المنى موصولة السـبب

وفـود مولاى لولا أنهـا نزلت   بالحلم قلنا وفود البحر ذى العبب

ماج السراى وميدان السراى بهـا   وماج متسـع الساحات والرحب

وأقبلت ظبيات الإنس فى كنس   من الهوادج يسعى لا من الكثب [1]

تهفـو الرياح بهـا دفعا وهزهزة   وتقبل الخيـل بين الوخد والخبب [2]

---

(١) الكنس جمع كناس وهو مأوى الظبى . والكثب جمع كثيب وهو التل من الرمل .

(٢) الهزهزة التحريك . والوخد الإسراع وقيل هو سعة الخطو فى سير البعير . والخبب : خبب الفرس خبا وخبيبا وخبيبا : راوح بين يديه ورجليه أى قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة . وهـذا الضرب من الجرى من الحركات التى يصعب على المصور تصويرها على الطبيعة .

حتى إذا وقفت مالت إلى شرك ... من السواعد مأمون لها حدب

مستجمعات مريعات معاطفها ... إلى المعازف مهما تدعها تثب [1]

أهاجها هائج الألحان فانعطفت ... مثل النسيم سرى ساريه فى القضب

ودارت الراح بالأجياد مثقلة ... بالحلى فاستسلمت من شدة الوصب

وبالخصور فمن واهٍ ومن قلِق ... ومن سقيم ومن فانٍ ومن تعِب

والقصر نور وآفاق الوجود سنا ... والصفو بينهما زهو لمرتقب

والليل مزين الأطراف منطلق ... مكلل الهام حالى الجيد واللّبب

كأن أنجمه فوضى مبددة ... على الدجى بين مهزوز ومضطرب

آثار كاسية اللبات ساجية ... فى حليها فلتت من كف مغتصب [2]

---

(١) المعاطف الأعناق .

(٢) واللبة كاللبب : المنحر وموضع القلادة من الصدر من كل شىء . واللبب أيضا ما استرق من الرمل . وفى التهذيب « اللبب ما كان قريبا من حبل الرمل » . وقال الأحمر معظم الرمل العقنقل . فإذا نقص قيل كثيب . فإذا نقص قيل عوكل . فإذا نقص قيل سقط (بسكون القاف) فإذا نقص قيل عداب . فإذا نقص قيل لبب كقوله :

براقة الجيد واللبات واضحة ... كأنها ظبية أفضى بها لبب

(المؤيد) فى ٣٠ نوفبر سنة ١٨٩٧

من تهنئة بميلاد أميرة

إنما البنت وإن ضاقوا بها	نعمة يرزقها الله عباده
أثر الرحمة من والدها	ودليل البر عنوان الودادة[1]
يا سماء أطبقت هالاتها	أمطرى أقمار عز وسعادة
أمطرى مصر وشرق الأرض من	ولد الأمجاد أملاكا وسادة
ثم مدى من بنيهم سرحة	تملأ النيل قراه وبلاده
يسكن الناس إلى أفيائها	ويوافى تحتها الكل مَراده[2]
يا أمير الحلم لا تضجر فما	خاب من أيد بالصبر مُراده[3]
إننا نطمع من هذا الصبا	بالذرارى الكثير المستزاده
فهو للملك عماد وكفى	إن توالى النسل لم يرفع عماده
قد رضينا قسمة الله لنا	وقرنا بالرضا شكر الإرادة

(شوقى)

---

(١) الودادة مصدر كالمودة والوداد .

(٢) المراد : (بفتح الميم) مكان رياد الإبل أى اختلافها فى المرعى مقبلة مدبرة (ومراد الريح) هو المكان الذى يذهب فيه ويجاء . و(مستراد الرجل) مكانه الذى يجول فيه ويشح (مبنى للمجهول) به لنفاسته وتقول «هو مستراد ما عليه مستزاد» .

(٣) المراد (بضم الميم) الغرض أو المطلب .

رواية عــــذراء الهنــــد

نُشرت هـذه الرواية تباعا فى جريدة (الأهرام) تحت عنوان (عذراء الهنـد وتمدن الفراعنة) من ٢٠ يوليو إلى ٦ أكتوبر سنة ١٨٩٧ . وظهرت فى كتاب فى أواخر نوفمبر من السنة نفسها[1] . وهذه الرواية كغيرها من الروايات النثرية التى ظهرت بعدها : (رواية لادياس ١٨٩٩ — دل وتيمان ١٨٩٩ — شيطان بنتاؤور ١٩٠١ — ورقة الآس ١٩٠٤ — أميرة الأندلس ١٩٣٢) ركيكة فى مجموعها لاتبدو روح شوقى إلا فى بعض المواقف الشعرية التى تخللها . وهذا أهم ما ورد فيها من أبيات :

رأيت الجنـــون جديرا به	حريا أخو المهجة الحـاقدة
سلاح ثقيـــل بلا مضرب	وحمـل ثقيــل بلا فائدة

وقد أعاد شوقى نشر البيتين السابقين فى الشوقيات الطبعة القديمة .

* * *

ابنة (دهنش) وهى منوّمة تقول :

(آشـيم) يا من بحبـه تملو	وعن أديم السهى له نعـــل
عزت مع الشوق نحوك السبل	وبات صـعبا لقاؤك السهل
يا ليت شعرى والبعـد مجلبة	للترك والعيش كله شـــغل
أذاكـرٌ أنت أم نسيت لنا	إذ نحن طفلان والهـوى طفل
إذ تعجب الهنـد والديار بنـا	ويعجب النـاظرون والأهــل
وإذ يذنب الغـــرام مجتهــدا	ونحن لا فكـرة ولا عقــل
ما نحن قلنـا فالحب قائله	وما فعلنا فللهـــوى الفعــل
وإن هملنا لبقعـــة قـــدما	فللهـــوى لا البقعة النقــل
فإن تكن يا أمير ناسـيَنا	فنحن ما ننسى وما نسـلو
تلك سماء الهنــد شاهــدة	وأرضـــها والجبال والسهل
وأنجـم الهنــد ما طلعن لنا	وما رعتنا عيـــونها النجــل
أنى على العهـد ما حييت فإن	خلوت تبق العهود لا تخلو

---

(١) كانت توجد نسخة من هـذه الرواية فى مكتبة طلعت بالقلعة وقد استعارها أحد الأدباء من تسع سنوات خلت ولم يردّها إلى الآن .

تلاق ولا تلاق

أنا فى تطلابه وهو لدىّ ... مطلب مرّ ولم يلو علىّ
قد تركت الهند أطويها له ... وهو يطويها وما يدرى إلىّ
والتقينا ما خطا لى خطوة ... لا ولم أنقل إليه قدمى
يا لملك راح عنى نائيا ... كان، لوفتشت عنه، فى يدى

عذراء الهند فى قصر الأمير

ألا هل لى بلقياه يدانِ ... حبيب شأنه عجب وشانى
إذا دنت الديار به فناءٍ ... وإن نأت الديار به فدانى
يودّ الليل لو ندنو كلانا ... ويدخر النهار لنا التهانى
وتأتى شقوتى فالذنب عندى ... لها لا للزمان ولا المكان

* * *

ماذا تريد بإبعادى وإيعادى ... يا دهر ما أنت إلا جائر عادى
لم يكفك الرزء فى ملكى وفى وطنى ... وفى شبابى وفى صفوى وأعيادى
فرحت تبعد أحبابى وتقذف بى ... مع المخاوف من واد إلى واد
حتى مررت على الأيدى يد فيد (١) ... وطال فى عالم الأهوال تردادى
فمن شقىّ إلى لص إلى نفق (٢) ... إلى ظلام بروعى رائح غاد
إلى قفار إلى سهل إلى جبل ... إلى غلام من الفجار مصطاد
أروح فى أسر سلطان الهوى وأجى ... ولا أبى لى ولا سلطانه فادى

* * *

وقد نشر إبراهيم اليازجى نقدا لهذه الرواية فى مجلة (البيان) عدد ١٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧ "انتهت إلينا نسخة من هذه الرواية العذراء لحضرة منشئها الأديب المتفنن أحمد بك شوقى الشاعر المشهور وهى رواية غرامية غريبة السرد تنتهى وقائعها إلى زمن رعمسيس الثانى المعروف باسم سيزستريس أحد فراعنة مصر الأقدمين من عهد لا يقل عن ثلاثة وثلاثين قرنا من الدهر. والذى تبين لنا بعد تصفح جانب منها أن مؤلفها لم يقصد من وضعها إلا تمثيل

---

(١) اليد : الطريق . واليد : الذل .

(٢) (فمن شق إلى لص إلى نفق) شطر لا سلاسة فى معناه أو مبناه . وهو بلا شك موجز حوادث ومحن متتابعة .

ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخرافات والترهات ولذلك أكثر فيها من ذكر الجن والعفاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرُّقَى والطلاسم ، ووصف عجائب المخلوقات الوهمية والصور الخيالية من نحو « ثعابين خضر الألوان تنتصب على أطراف أذنابها فى صورة أمهات الموز وأخرى صفراء تعانق الأشجار وتتسلق الأسوار وأفيال عراض طوال فى أجرام الجبال تتخذ الطير فى آذانها وظهورها أوكارا وناس فى صورة القردة ولهم خفة المردة ، وشيخ كلما وقعت عينه على جماعة منهم . راحت نائمة وهى قائمة » إلى ما شا كل ذلك مما لا نطيل بتعداده ولا نتعرض لما وراءه من قصص الرواية وتخصيص وقائعها لأنا لم نجد ثَمَّة شيئا مما يتوخاه واضعو الروايات فى هذه الأيام من المغازى الحكيمة أو الأغراض الأدبية أو الحقائق التاريخية ولكنا إنما نتخطى موضوع الرواية إلى ما أُلبسته من العبارة العربية نومئ إلى بعض ما فيها من مطارح النظر قضاء لحق النقد . .

قال فى مطلع كلامه (يخاطب مقام السدة الخديوية) : « الكاتب وما كتب غراس نعمائك وجنى ظلك ومائك » وهو كلام غريب فى هذا المقام لأن مثل هذا إنما يصح من تلميذ لأستاذه لا من مربوب لولى نعمته . . وقوله « وجنى ظلك ومائك » لا محل لذكر الظل هنا لأنه لا يكون سببا للجنى بل أحرى بالغراس الذى يعيش فى الظل أن لا يُجنى ثمرا[1]

ثم قال « فإذا وفق ليرفع إليك عملا فقد أسند أفضالك فى الفضل إلى أسمائك » وهو كلام غامض لا يظهر الغرض منه . .

وقال فى الصفحة التالية فى الكلام عن ولى عهد رمسيس « كان أحب إخوته الكثيرين إلى الأم » وهو من التراكيب التى منعها أهل العربية كما نص على ذلك الحريرى فى درة الغواص ، وإن تعقبه الخفاجى بما لا يسلم من الرد لأن أفعل التفضيل لا يضاف إلا إلى ما هو داخل فيه فيقال زيد أفضل القوم وأفضل أهل بلده لأنه واحد منهم ولا يقال زيد أفضل إخوته كما لا يقال أفضل جيرانه مثلا لأنه غير داخل فى جملتهم .

ثم قال « وأجذبهم بإزكية الرأى الصائب وأمتنهم أعلاقا فى القلوب » يريد بالأعلاق العلائق وهى لا تأتى بهذا المعنى إنما الأعلاق جمع علق بالكسر وهو الشىء النفيس . وقوله

---

(١) يجب أن يلاحظ أن تعبير شوقى تعبير شاعر وهو على غرار قول ابن المعتز يخاطب الدار فى قصيدته المشهورة

لا تنس سكنى المطيرة منزلا ... يا دار جادك وابل وسقاك

أم برد ظلك ذى الغصون وذى الجنى ... أم أرضك الميثاء أم رياك

ولئن كانت الغصون وجناها هى أصل الظل إلا أن الشاعر جعل برد الظل هنا فى المحل الأول ، محل الأصل ، لأهميته وجعل الغصون والجنى التى تنشىء الظل وتعنو عليه من ملحقاته وتوابعه فى الصورة وإطارا لها .

« واجذبهم بأزمّة الرأى العام » يريد واجمعهم لأهواء النفوس ونحو ذلك فجاء بهذه العبارة الغريبة وإنما هى من المواضعات الإفرنجية درجت عليها لغة الجرائد العربية فى هذه الأيام ..
على أن هـذه ليست العبارة الوحيدة التى أخذها عن الجرائد أو سخر لهـا سجيته من ألفاظ الأعاجم فقـد ورد له بعـد ذلك فى الكلام عن الأميرة آثرت « وإن الملك مدين لنصحها الثمين » وهى من الألفاظ المعرّبة عن كلام الإفرنج يقولون أنا مديون لفلان فى هـذا الأمر أى له علىّ الفضل فيه . وفى ص ٢٩ « وقـد رؤيا (أى الرجلان) على نقط من المملكة » أى رؤيا فى مواضع منها . وفى ص ٤٣ « باحوا بسر المـامورية » أى بسر ما أمروا به .
وأمثال هذه العبارات فى الرواية لا تحصى فنكتفى منها بهذا القدر . بل ربما تنازل إلى استعمال أشياء من اللغـة العامية كقوله فى صفحة ١٤ « فاطرق المنجم برهة » يعنى هنيهة من الزمان وإنمـا البرهة الزمن الطويل واستعمالها للزمن القصير من أوهام العـامة . وفى صفحة ٢٩ « ويرى جيئة الهوادس وذهابها فى فؤاده » يريد بالهوادس خطرات الهموم وما يتخالج منها فى الصدر وإنمـا هى من تحريفات العامة وصوابها الهواجس بالجيم إلى غير ذلك .

وقال فى صفحة ٧ فى الكلام على التـاريخ المصرى « وإن الحقيقـة معه لا يستقربهـا خبر ، فهى عين تارة وأثر . تحيا بحجر وتموت بحجر » . يريد فهى عين تارة وتارة أثر فحذف إحدى التارتين ولا وجه للحذف فى هذا الموضع . ثم انظر ما أراد بقوله « تحيا بحجر وتموت بحجر » وماذا يفهم بالحجر هنـا وهل هذا إلا ضرب من الرُّقَى . على أن فى الرواية كثيرا من أمثال هذه المعميّات ..

وهناك ألفاظ وتراكيب ليست بأقل غرابة ممـا ذكر كقوله فى صفحة ٣٨ « أجهـد أذنيه » يريد أرهف أذنيـه وحدّد سمعه . وفى صـفحة ٤٢ « فأخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجفان » وفى صفحة ٤٨ « وبالجـملة وقعوا من الفزع فى أضيق من الشراك » يريد بالشراك الشَّرَك وهو حبالة الصائد وإنمـا الشراك السير الذى تشدّ به النعل ..

وبالجملة فإن هذه الرواية كلها غرائب .. أما شعره فى هذه الرواية فغالبه حسن رشيق النظم مليح السبك نورد منه فى صفحة الحب :

نظرة فابتسامة فسـلام   فكلام فموعـد فلقـاء
ففراق يكون منـه دواء   وفراق يكون منـه الداء

وانظر أين هذا النظم المنسجم والألفاظ المختارة من مثل ما ذكر من كلامه فى النثر وما ركب فيه من الغرابة والتكلف والتعقيد . وهـذا ولا جرم ممـا يدلك على أن كلا من النظم والنثر لغـة

قائمة بنفسها لا يحسنها غير أهلها . . ومن رشيق نظمه فى هذه الرواية وإنما نعنى الصناعة اللفظية قوله :

أنا فى تطلابه وهو شجى مطلب مر ولم يسلو علىّ

وقوله :

أذاكر أنت أم نسيت لنا إذ نحن طفلان والهوى طفل

إذ تعجب الهند والديار بنا ويعجب الناظرون والأهل

(لنا) فى صدر البيت الأول متعلقة بذاكر — ومنها :

ما نحن قلنا فالحب قائله وما فعلنا فللهوى الفعل

وإن تقلنا لبقعة قدما فللهوى لا البقعة النقل

وهو كلام فى غاية الرقة والانسجام إلا أن البيت الأخير مختلف الوزن من بحرين لأن الشطر الأول من المنسرح ووزنه « مستفعلن فاعلان مفتعلن » وهو بحر سائر القصيدة والشطر الثانى من ثالث السريع ووزنه « مستفعلن مستفعلن فعلن » ووقوع هذا الخلل البين من مثل هذا الشاعر مما يصعب تصوره ولذلك لم نشك لأول وهلة أنه غلط الطبع ولا سيما مع إمكان تصحيح الشطر الثانى بأدنى تغيير وهو أن يقال فى مكان البقعة « للبقعة » ليستقيم الوزن ولكنا لم نلبث أن رأيناه يقول فى البيت الذى يليه :

فلا تكن يا أمير ناسينا فنحن ما ننسى وما نسلو

وفيه نفس الخلل الذى فى البيت المتقدم ، ولا يتأتى فى هذا ما تأتى فى ذاك من احتمال غلط الطبع لأنه لا يستقيم وزن العجز إلا بعد تغيير كثير كأن يقال : « فنحن لم ننسكم ولم نسل » ثم قال وفيه ما فى البيتين السابقين :

تلك سماء الهند شاهدة وأرضها والجبال والسهل

غير أنه خالف هنا بين الشطرين بجعل الأول من السريع والثانى من المنسرح وهذا مع ما عرف به الناظم من طول الباع فى صناعة الشعر والاضطلاع عليه من أعجب العجب، ولعل عذره فيه أنه كان قليل الركوب لهذا البحر لقلة شيوعه فى الاستعمال مع ما فى ضبط أوزانه من الصعوبة لتباين صور أجزائه واختلاف قوالبها حتى كأن الشطر برمته قطعة واحدة بخلاف غيره من الأبحر التى ترى أجزاءها متساوية على وصف متماثل وأوزان مكررة كأجزاء الكامل والبسيط فإنها تأتى متزنة من غير تكلف ولا تسمّل لقصر الصور المتكررة فيها وقرب بعضها من بعض » .

حوالى سنة ١٨٩٧

القصيدة الآتية نشرت فى الشوقيات الطبعة القديمة فى صفحة ٢٠٠، وأعيد نشرها بنصها دون تعديل فى الجزء الرابع من الشوقيات ص ٧٣ . وهذا هو النص :

« وكانت ولادة بنته أمينة ووفاة والده فى ساعة واحدة فقال فى ذلك » :

يا ليلة سميتها ليلتى	لأنها بالناس ما مرت
أذكرها والموت فى ذكرها	على سبيل البث والعبرة
ليعلم الغافل ما أمسه	ما يومه ما منتهى العيشة
نبهنى المقدور فى جنحها	وكنت بين النوم واليقظة
الموت عجلان إلى والدى	والوضع مستعصى على زوجتى
هذا فتى يبكى على مثله	وهذه فى أول النشأة
وتلك فى مصر على حالها	وذاك رهن الموت والغربة
والقلب ما بينهما حائر	من بلدة أسرى إلى بلدة
حتى بدا الصبح فولى أبى	وأقبلت بعد العناء ابنتى
فقلت أحكامك حرنا لها	يا مخرج الحىّ من الميت

إن تفسير شوقى لموضوع قصيدته واقتصاره على القول إن ولادة ابنته أمينة ووفاة والده كانتا فى ساعة واحدة لا يكفى لتمثيل تلك الليلة التى سماها الشاعر ليلتى . والذى حدث كما يبدو من القصيدة ، أن آلام الوضع المستعصى من ناحية فى حلوان حيث كان يقيم شوقى وزوجته — كما أبلغنا الأستاذ الجديلى — وآلام النزع التى كان يعانيها أبوه فى القاهرة وفى نفس الليلة ، جعلت من تلك الليلة « بالناس ما مرت » ، ليلة ليلاء تتكاثر فيها عناصر الدراما والمأساة .

وما من شك أن شوقى كان يسكن فى حلوان بين سنتى ١٨٩٦ و ١٩٠١ يدل على ذلك :

أولا — نظم شوقى قصيدة عن لعبة طلبتها ابنته أمينة بمناسبة عيد المسيح ، الذى تكثر فيه اللعب ، فى ديسمبر سنة ٩٩ (لا بمناسبة عيد رأس السنة الميلادية كما ذكر فى الديوان) . وأول هذه القصيدة :

صغار بحلوان تستبشر ورؤيتها الفرح الأكبر

ثانيا — نشر (المؤيد) فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٨ مقالا بإمضاء (ش) تحت عنوان « شذرة أدبية فى حلوان » وأشار إلى عبده الحمولى الذى كان يقطن معه فيها آنئذ .

ثالثا — جاء فى رسالة من أمير الشعراء إلى المؤلف بمناسبة ظهور بحثه عن محمود سامى البارودى فى سنة ١٩٢٣ — والرسالة يجدها القارئ أيضا فى هذا الكتاب : « جاورته (البارودى) بحلوان الشهور الطوال بيتنا بيتنا طنب ويتنظم دارينا جدار . فإذا الجار كريم والشاعر عظيم . . . » ومعلوم أن البارودى عاش فى حلوان بعد عودته من المنفى فى أول سبتمبر سنة ١٩٠٠ وأن موته فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤ . وشوقى يقول أنه جاوره الشهور الطوال بحلوان فلا شك أن هذه الشهور تشمل الشهور الأربعة الأخيرة من سنة ١٩٠٠ وربما بعض الشهور الأولى من سنة ١٩٠١ . ولا ندرى إذا كان البارودى هو الذى انتقل بعد ذلك إلى سرايه بالقاهرة أو أن شوقى هو الذى انتقل إلى بيت الأسرة القديم بالهياتم فى خط الحنفى والذى انتقل منه بعد ذلك إلى « كرمة ابن هانئ » بالمطرية . وعلى أية حال يبدو أن البارودى كان له بيت وصلات فى حلوان قبل منفاه لأنه نظم فى المنفى قصائد كثيرة يحن فيها إلى حلوان :

أبيت حزينا فى سرنديب ساهرا طوال الليالى والخليون هجد
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة نزت بين قلبى شعلة تتوقد

ويظهر أن حلوان والجزيرة منذ أواخر عصر إسماعيل كانتا أجمل معاهد النزهة والصحة .
وقد ماتت أم شوقى فى حلوان سنة ١٩١٨ ، ونعتقد أن زواج شوقى فى سنة ١٨٩٦ كان فى حى الحنفى بالقاهرة ومنه ذهب إلى حلوان حيث ولدت ابنته أمينة فى سنة ١٨٩٧ فى صباح الليلة السمراء التى مات أبوه فى أخرياتها فى بيت الحنفى . وقد صور الشاعر حيرته بين حلوان والقاهرة فى بيت رائع :

والقلب ما بينهما حائر من بلدة يسرى إلى بلدة

فى النص المنشور « أسيرى » بدلا من « يسرى » ، وبين الكلمتين بون شاسع ؛ الأولى تنقص البيت وتذهب برواءه والثانية تزينه ، وظاهر أن قول شوقى قبل البيت المتقدم :

وتلك فى مصر على حالها وذاك رهن الموت والغربة

كلام قلق نافر لا يتفق مع سياق المعنى . ولعل هذا البيت ، مع بعض الأبيات الأخرى ، أضيف إلى الأبيات الأولى التى نظمها شوقى إبان الحادث ومن فوره . ونعتقد أن رواية الأستاذ الجديل أفضل الروايات وأصحها وأشدها تماسكا وقوة بناء ، وهى :

يا ليـــلة سميتهـا ليـلتى ... لأنهـا بالنـاس ما مرت
الموت عجـلان إلى والدى ... والوضع مستعص على زوجتى
هــذا فتى يُبكى على موته ... وهــذه فى أول النشـأة
والقلب ما بينهمـا حائر ... من بلدة يسرى إلى بلدة
حتى أتى الصبح فولى أبى ... وأقبلت بعـد العناء إبنتى
فقلت أحكامك حرنا لهـا ... يا مخـرج الحى من الميت

وعدد هــذه الأبيات ستة وعددها فى الديوان عشرة . وقــد أوردنا النصين للمقارنة والمفاضلة بينهما من ناحية الفن والذوق الفنى .

المؤيد فى ١٢ أبريل سنة ١٨٩٨

حكاية السودان

تهنئة الجيوش المظفرة على الحدود

بفتح زريبة الأمير محمود

نشر (المؤيد) تحت هذا العنوان القصيدة الآتية بإمضاء (شاب مصرى) وهى بلا شك لشوقى . وتبدو حكاية السودان واضحة من البرقيات التى كان يرسلها كتشنر سردار الجيش المصرى إلى مصر وتتلخص فى أنه فى سبتمبر سنة ٩٧ بدأ استرجاع السودان واحتلت الحملة المصرية بربر . وفى ٢٤ مارس سنة ٩٨ كانت الحملة تعسكر فى نواحى العطبرة ، وقد جعل الأمير محمود قائد الدراويش معسكره قرب ميلين فى أجمة كثيفة داخل الصحراء . وفى ٣٠ مارس تحركت الحملة شندى وضواحيها وسار اللواء هنتر باشا قاصدا التحرش بالأمير محمود قائد الدراويش ومعه السوارى والطوبجية الراكبة وفرقتان تحميهم أربعة مدافع مكسيم ، وقد تبين له أن الأمير محمود نازل فى زريبته ضمن أجمة كثيفة تبعد ١٨ ميلا عن رأس هودى . وفى ٨ أبريل سنة ٩٨ حدثت ملحمة كبيرة مع الدراويش انتصر فيها الجيش المصرى وتمكن من أسر الأمير محمود والاستيلاء على زريبته . وقد كان للدفع مكسيم دور حاسم فى تمزيق شمل الدراويش والقضاء عليهم . مدفع مكسيم أو المدفع الأوتوماتيكى (مترليوز) نسبة إلى المخترع الأمريكى (مكسيم) . اشتهر هذا المدفع فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وكان يطلق من خمسمائة إلى ستمائة طلقة فى الدقيقة أى أنه كان يحصد حصدا . وقد استخدمه الانجليز فى حروب السودان وفى كل المواقع خصوصا موقعة أم درمان الشهيرة التى فنى فيها الدراويش [illegible] . ويمكن القول [illegible] السلاح الجديد (مدفع مكسيم) كان له أكبر الأثر فى توطيد الاستعمار الأوروبى فى أفريقيا عموما فى القرن الماضى . وإذا كان الدراويش أو الزنوج لا يستطيعون بسواعدهم وحرابهم مقاومة الرصاص المنهمر ، فكذلك كانت زرائبهم . ليست الزريبة حظيرة غنم أو ماشية ولكنها قرية منيعة . الزريبة أو الديم عبارة عن نطاق محصن كان يستعمل فى الوقت نفسه متجرا أو مركزا لتجارة العاج والرقيق ولوازم المعيشة . وكان لمعظم تجار الخرطوم شركاء أو وكلاء لهم وظيفة ثابتة فى الزرائب . [illegible] اثنا عشر فى بحر الغزال وأهمها ديم زبير . وكان للوكلاء جنود [illegible] ، ووقتها كانت تجارة الرقيق من توابع اختصاصاتهم . كانت

الزرائب محطات تموين للقوافل المسلحة التى كانت تتوغل فى أراضى الزنوج للحصول على العاج بطريق المقايضة أو بطريق القوة . ولا ريب أن كل تعرض لتجارة العاج أو الرقيق أو للزرائب كان معناه التعرض لنظام قائم على المصالح الاقتصادية فى السودان خصوصا وأن هذه الزرائب رغما من عيوبها كانت مراكز تجارة ومدنية فى أقصى الجنوب منتشرة من بحر الغزال إلى الكنغو . وقد تقدمت الزرائب الحكم المصرى . فكان العقاد ووكيله أبو السعود من أصحاب الزرائب والكلمة والنفوذ فى مديرية خط الاستواء قبل إرسال حملة بيكر لإخضاعها (١٨٧٠ — ١٨٧٣) . ويمكن القول أن النفوذ العربى واللغة العربية والإسلام كانت تجد فى هذه الزرائب نقطة ارتكاز لها فى توغلها فى أراضى الزنوج حوالى البحيرات من أوغنده إلى الكونغو . لذلك كان أكبرهم غردون وأعوانه من الانجليز والأوربيين أمثال جيسى وكازاتى الإيطاليين وأشنترر الألمانى (أمين باشا الذى ادعى الإسلام وكان عدو الإسلام والعرب) هو القضاء على الزرائب وتجارة العاج تحت ستار محاربة الرقيق وطرد العنصر العربى من الجنوب بحجة حماية الزنوج حتى يتيسر للبشريين والمستعمرين (١٨٧٧ — ١٨٧٩) توطيد أقدامهم بلا مزاحم . وإلى ذلك العصر ترجع أسباب ومقدمات الثورة المهدية . وقد تركت انجلترا هذه الثورة تستفحل وتنشر الموت والبؤس والمجاعة فى أرجاء السودان ومنعت مصر من إخمادها بواسطة عبد القادر حلمى . وضحت بهكس وعشرة آلاف جندى مصرى كما ضحت بغردون ومنعت إرسال الزبير حتى لا يعود لمصر نفوذها فتنفرد بالسودان أو يقوى السودان من جديد ويستقل فلا تتمكن انجلترا من تحقيق أطماعها فيه .

وفى سنة ١٨٩٨ عادت انجلترا بالاشتراك مع مصر إلى احتلال السودان من جديد وفرض سيطرتها الفعلية عليه تحت ستار الاحتلال أو الحكم الثنائى . وقد كان الأمير محمود المنوه عنه فى هذه القصيدة أهم أعوان التعايشى وكبير قواد جيشه .

*
* *

تأمل فى الوجود وكن لبيبا ⠀⠀ وقم فى العالمين تقل خطيبا

بفوز جنودنا الفوز العجيبا ⠀⠀ بعيد الفتح قد أضحى قريبا

لقينا فى الزريبة يوم نصر ⠀⠀ كيوم (التل) فى تاريخ مصر [1]

---

(١) يقول إن انتصارنا على السودانيين والاستيلاء على زريبة الأمير محمود المحصنة كان أشبه بهزيمة التل الكبير لأن الموقعتين مهدتا الطريق لاحتلال الانجليز العسكرى فى قطرى الوادى وساعدا على توطيده . وفى هذا القول من التهكم ما فيه .

يجيئ البلاد جديد عصر ... ويكفيها القلاقل والخطوبا

فقم من طول نومك والغرور ... وخذ بالحزن أو خذ بالسرور

فسار صرف همك عن أمور ... ستأخذ من عواقبها نصيبا

بعثنا للدراويش السرايا ... تصب على رءوسهم المنايا[1]

فجاءهم عذاب الله آيا ... كما قد جاء قبلهم الشعوبا

وكم من قبل قد عادوا وعدنا ... وكم مال على هذا أبدنا[2]

وجيش إثر جيش قد فقدنا ... وكان القائد النحس الغريبا[3]

إلى أن قد مضى زمن التخلي ... وصار الجو أصلح للتجلي

قصدناهم على ذاك المحل ... وكان الشيخ (مكسيم) المذيبا

فما للقطر لا يبدو ظهورا ... و(لندن) لا تجاوبه سرورا

أرى الجيشين قد ظهرا ظهورا ... على غنم الزريبة لن يريبا[4]

و(روتي) من فحول لا يضاهي ... يباهي الأرض في شرق وغرب

ومن يزجي الجيوش فمن يضاهي ... ومن يستدرج القطر الخصيبا

(بسردار) البلاد ولا أبالي ... إذا ما قلت (كتشنر) المعالي

سقى (السودان) أي دم ومال ... ولم يبرح بعلته طبيبا

لبثنا في التناوش خمس شهر ... والاستطلاع من نهر لنهر

وأنباء (الزريبة) ليس تدري ... بأن قد جيرت أسدا وذيبا

ظنناها أمرّ من السحاب ... وأمنع في الطوابي من عُقاب

فجئناها بالزريبة مصطحبا ... ووجدنا الجنود لها ضروبا

(بسود) كانت الزريبة فيها ... و(بيض) لا تميل في الحرب عنها

(وحمر) لاقت الأعداء وجها ... فكانت سهم راميها المصيبا

طلعنا والصباح على الطوابي ... بنار من جهنم لا تحابي

فكانا بينهم قسم الروابي ... وماء النهر والغاب الرهيبا

---

(١) السرية قطعة من الجيش حوالي أربعمائة رجل . (٢) المال ما ملكته من جميع الأشياء .

(٣) إشارة إلى القائد (هيكس الانجليزي) وأمثاله فقد فني جيش هيكس المصري بأكمله أي أن حوالي عشرة آلاف مصري [illegible] هذا القائد [illegible] السياسة الانجليزية العامة السياسية والعسكرية .

(٤) يشبه السودانيين بالغنم لأنهم [illegible] من مجاهدتهم ساعدت الأسلحة الحديثة على ذبحهم ذبح الشاة .

وأونا قبــل ما رأوا النهارا   فهبــوا من مراقدهم حيارى
فكا المــوت وافاهم جهاراً   وهبت ريحه فيهــم هبوبا
رصاص لا يفيض ولا يغيب   بعيــد فى مقاصده قريب
كأن مسيله مطر يصــوب   ولكن نقمــة وردّى صبيبا
دككنا حصنهم حرقا وكسرا   وأفنيناهم قتــلا وأسرا
أخذنا العرش من (محمود) قسرا   وقــد بل الأمــير العنقريبا
نعم فتــح رعاه الله فتحا   وقتــلى هم له ثمن وجرحى
ومال طائل أصــلا وربحا   بذلناه ولم نخش الرقيبا
ولكن ما وراءك يا عصام   وبعد الحرب ما يأتى السلام
فليت هياكلا درست تقام   فاسألها وأطمع أن تجيبا
بلى إن الحقيقة قــد تجلت   وإن تك بالزخارف قد تحلت
تولى عزنا الماضى وولت   بلاد الله ســودانا ونوبا
فيا سردار مصر لك الأيادى   فأنت لها المعين على الأعادى
وكل النـاس بل كل البــلاد   لسان بالثناء غدا رطيبا
نخذ من مالها حتى الوجودا   وجنِّــد كيفما شئت الجنودا
وأنى شئت ضع منها الحدودا   شمالا فى البسيطة أو جنوبا
فما لك فى الحدود اليوم رجل   وفى (الخرطوم) أخرى سوف تعلو
لأن السعد للقدمين نعــل   ومن ذا يغلب السعد الغلوبا

(شاب مصرى)

التعليـــــق

هــذه قصيدة من غرر قصائد شوقى . وقد بلغ فى الإثنى عشريتها الأخيرة أعلى أسمية الخيال والوجدان وتنقل بين أبراجها من الدراما إلى المأساة إلى المزلية فى سلسلة من المفاجآت التى درج الشاعر إليها باقتداره وتبرزه فى التمثيل والتصوير . وكأنى بالشاعر يهبط بك ويعلو بين السهول والجبال والوهاد والنجاد والأودية التى تؤلف وحدة رائعة فى الحسن قال :

أخذنا العرش من (محمود) قسرا   وقــد بل الأمير العنقريبا
نعم فتــح رعاه الله فتحا   وقتــلى هم له ثمن وجرحى
ومال طائل أصــلا وربحا   بذلناه ولم نخش الرقيبا

وسرعان ما يتساءل في جزع مبرح :

ولكن ما وراءك يا عصام ... وبعد الحرب ما يأتى السلام

فليت حيا كلا درست تمام ... فأسألها وأطمع أن تجيبا

وسرعان ما يجيب على السؤال في حزن بالغ :

بل إن الحقيقة قــد تجلت ... وإن تك بالزخارف قد تحلت

تولى عزنا الماضى وولت ... بلاد الله ســودانا ونوبا

كانت نتيجة ضحايا مصر وتضحياتها في السودان استيلاء انجلترا عليــه . وخسر السودانيون أنفسهم الملايين من النفوس التى فتكت بهـا المجاعة والأوبئة ومدافع المكسيم . وقــد أراد الشاعر أن ينتقم للسودانيين والمصريين بتهكمه اللاذع وسخريته الضارية من الانجليز فسلط بيانه عليهم . وهو قاطع كالسيف . نافع كالسم . لاذع كالنار :

(فياسردار) مصر لك الأيادى ... فأنت لهـا المعين على الأعادى

وكل الناس بل كل البــلاد ... لسان بالثنـاء غدا رطيبـا

فقد من ملكها حتى الوبيرا ... وجنّــد كيفما شئت الجنـودا

وأنى شئت ضع منهـا الحدودا ... شمالا فى البسيطة أو جنوبا

فما لك فى الحدود اليوم رجل ... وفى (الخرطوم) أخرى سوف تعلو

لأن السعد [illegible] ... ومن ذا يغلب السعد الغـلوبا

وقد صدر حديثا عن السردار كتشنر كتاب لفيليب ماجنوس (نقده الدكتور السمرة فى عدد يونية ١٩٦١ من " العربى ") جاء فيــه : " ومن أمثلة قسوة كتشنر أنه لمـا انتصر على الأمير محمود جره وراءه مقيدا بالسلاسل فى رقبته وعنقه ، ويداه مقيدتان خلفه ، فإذا تعثر أو تلكأ انهال عليه الحراس بالسياط " . ويروى المؤلف أن كتشنر بسبب رصاصات طائشة انطلقت من نافذة فى أم درمان أمر بذبح الرجال والنساء ، وكان يفاخر بقتـل أكثر من أحد عشر ألفا [illegible] ، وأن ما بحوزته من الجرحى والأسرى يبلغون ستة عشر ألفا . كما أبرق إلى كرومر فى القاهرة ليزف إليــه بأن فى حوزته ثلاثين ألف سبية . .

(المؤيد) فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٨

عيد الجلوس الحميدى

يتيمة التيجان

فى مدح خير سلطان

جلوسك أم سلام العالمينا ... وتاجك أم هلال العز فينا

ملكت فكنت خير المالكينا ... وأنت أجلهم دنيا ودينا

سرير لم يكن بالمطمئن ... وملك غادروه بغير ركن

نهضت تقيم مائله وتبنى ... فكنت الركن والسبب المتينا

وَلِيتَ الأمر أقدرَ من يليه ... تخاف الله فيه وترتجيه

وتمحو آية العهد السفيه ... وتجمع كلمة المتفرقينا

بوقت فيه للملك انقلاب ... وللعرش اهتزاز واضطراب

فقمت فقرّ فى يدك العباب ... وأوشكت العواصف أن تلينا

بوقت فيه للأعدا دبيب ... إذا ماراح ذيب جاء ذيب

لكل حزبه وبه يريب ... وكنت لربك الحزب الأمينا[1]

عداوات يلشن الملك لدّا ... وأحزاب من الأتراك أعدى[2]

تحذت البعض ضد البعض جندا ... فنال المفسدون المفسدينا

تغيرت الرجال فلا رجال ... وزَيَّنَ للمغرورين الضلال

فراموا والذى راموا محال ... ومن يرم المحال فلن يكونا

تمنوا للعدو كما تمنى ... ولما يسألوا الأحياء عنا

فلا تتشبهوا ياقوم إنا ... عرفنا مصرع المتشبهينا

حجابك عند يلدزك الجلال ... وأنت لها وللدنيا جمال[3]

تنال الخافقين ولا تُنال ... إذا قلبتَ فى الأفق الجفونا

يرفّعك المقام عن ابتذال ... وعن عبث الحوادث والرجال

(١) رابه أوقعه فى الريب وأوصله إلى الريبة . والريب : الظنة والتهمة ، والشك . وأرابه شككه وجعل فيه ريبة . وأراب زيدا : أقلقه وأزعجه قال المتنبى « أيدرى من أرابك ما يريب » .

(٢) لده (تشديد الدال) لدا خصمه أو شدد خصومته .

(٣) يلدز قصر السلطان .

ومن يك حكمه حرب الليالي ... يجد لصروفها وله شؤونا

فتابعهن في سلم وحرب ... وقاهن في شرق وغرب

وتدفعهن من بعد وقرب ... وتثنيهن حتى ينثنينا

وحيداً تستعان ولا تعان ... كأنك في تفردك الزمان

ولكن أنت منه لنا أمان ... وأكبر أن تخون وأن تمينا[1]

تلذ بما يشق على العباد ... وتنعم بانفرادك والسهاد

ويهنأ في جفونك والسواد ... ومهلا يا (أمير المؤمنينا)

وقبلك لم ينم عمر الأنام ... وقد سهرت رعيته الكرام

وقومك عند مرقدهم نيام ... فهل تحمى على القوم السنينا

ترد على الليالي كل سهم ... ولا يرددن سهمك حين ترمى

تجير على حوادثها وتحمى ... ولا يحمين منك المحتمينا

فكم كرب كشفت وعظم هول ... بفعل منك لم يسبق بقول

و(أسطول) رددت بغير حول ... تشيمه الخلائق ساخرينا

جمعت الأمر حين الأمر فوضى ... وشرفت اللواء وكان أرضا

وحصنت القرى طولا وعرضا ... بآساد يهبن العرينا

وكم لك من فيالق من طراز ... غدوا خير الجنود لخير غاز

إذا زحموا الضياغم في مجاز ... أبادوها وكانوا العابرينا

سلاح من سلاح الموت أمضى ... إذا الإيمان يوم الروع أنضى[2]

وبأس يترك الأجبال أرضا ... ويركبها إلى الهيجا متونا

نظمت الجيش بالعلم المجيد ... كنظمى فيك أبيات النشيد

فإن فتشت عن بيت القصيد ... قرأت الفتح والنصر المبينا

وفتح في العدو لنا جليل ... شفعناه من الصفح الجميل

بأجمل منة من فضل الجليل ... فكنا القادرين الصافحينا

بطشت فلم تدع لهمو وجودا ... وكان البطش إشفاقا وجودا

صدقت قياصر العصر الوعودا ... تريهم كيف عهد الظافرينا

وقائع في الزمان هي الجسام ... إذا ذكرت لنا سأل الأنام

---

(١) مان يمين مينا : كذب (٢) نضا السيف من غمده وانتضاه : سله.

أجيش الخليفة أم غمام ... أظلّ « تساليا » سمحا هتونا[1]
وقبل النصر نصر قد تجلى ... عُلًا فى العصر آثارا وجلّى
ظهرت على الحوادث وهى جُلّى ... وأكمدت العدا والشامتينا
تخبط قومه فيك (الخطيب) ... يريبك فى المجامع ما يريب
فما سمع (الهلال) ولا (الصليب) ... بغيرك فى عقاب المعتدينا
يزيله سفاهة فتزيد حلما ... لأنت أجل أخلاقا وأسمى
فكنت لساكن (البلقان) سلما ... وكان محرك الشر الكمينا
كفيت الخلق نارا قد أثارا ... وللشرف الرفيع أخذت ثارا
وقد يمحو بك الإسلام عارا ... إذا الإسلام فى يوم أُهينا
بحزم ليس من قال وقيل ... وعزم ليس (بالرجل العليل)[2]
وبطش من يدى سمح منيل ... كريم معرق فى الأكرمينا[3]

⁂

أسود الترك هبى ثم هبى ... وهزى الأرض فى شرق وغرب
بمن يزجى الجيوش ومن يعبى ... ومن يحمى المواقع والحصونا
وحيِّ من أقامك يا قلاع ... ومن لك تحت رايته امتناع
فليس كهذه بشرى تذاع ... ولا بجلوس ربك تعلنينا
أشيرى يا أرامل للسماء ... ويا أيتام ضجوا بالدعاء
ويا شهداء ناجوا بالبقاء ... إذا سُمع الملائك هاتفينا
إذا شاقتكم الأوطان يوما ... أو اشتقتم بها أهلا وقوما
فناموا فى أمان الله نوما ... فكل عند خير الكافلينا
أربّ العيد هذا العيد يُجلَى ... وكم لك من دعاء فيه يتلى
ولكن « شاعر الإسلام » أعلى ... وأوقع فى نفوس المسلمينا

(١) يريد أن الصفح الجميل الذى صحب انتصار الجيش التركى جعل ذلك الجيش أشبه بالغمام السمح الذى يعم خيره البلاد فى تساليا . (٢) الرجل العليل أو الرجل المريض يقصد به تركيا فى القرن التاسع عشر .

(٣) المعرق : النبيل الحسيب .

لقد بعثت لملك الليالى   قليل الملك بالزينات حالى (١)
وكم لك فى القلوب من احتفال   يكاد الجسم عنه أن يبينا
وهذى مصر باسطة اليدين   تؤدى من ولائك خير دين
وتلحظ عينك الأسنى بعين   تناجى بالهوى تلك العيونا
فهل عند الإمام لها قبول   وهل نحو الإمام لها وصول
فتشكو من جراح ما تزول   وكيف يزول ما بلغ الوتينا
أتتك تنفض من طرف الحياء   تتوب إليك من ماضى الرياء
وتبسط فى ثراك يد الرجاء   وتُلقى فيه آمال البنينا
تقابلها بعطفك والنوال   وأنزلها بسوحك والظلال
أدام الله ذاتك للمعالى   وأيّد تاجها ورعى الجبينا

(محتفل)

التعليق

هذه القصيدة ستة وسبعون بيتا سلسة كالنهر الجارى من المبتدا الى المنتهى . بدأ شوقى مديحه السلطان عبد الحميد بالإشارة الى حالة السلطنة الداخلية وموقف العرش من الأحزاب والحزبيات :

بوقتٍ فيه للملك انقلاب   وللعرش اهتزاز واضطراب
قمت فقرّ فى يلدك المهاب   وأوشكت العواصف أن تدينا

والكل يعلم أن عواصف الحرية ما لبثت أن ثلت عرش الاستبداد . وإذا كنا لا نعجب من شوقى تسميته الأحرار العثمانيين بالمفسدين والمغرورين فإننا سرعان ما نجد مخرجا من ذلك الجو الخانق — الإغراق فى تمجيد عبد الحميد — حين يحلّق الشاعر فى سماء الإسلام والملة ويصيح بشعوبه النائمة لتنهض ، فقد طال رقادها قرنا بعد قرن فى الذلة والاستعباد . وهنا نجد أسلوب شوقى فى أجل بيان ناضحا بالتهكم المر الذى يحزننا ويشجونا . قال يخاطب الخليفة :

ومثلك لم ينم [illegible]   وقد سهرت رعيته الكرام
وقومك عند من قاموا نيام   فهل تحصى على القوم السنينا

---

(١) الشطر الأول من هذا البيت مكرر بنصه فى قصيدة (تحية الترك) التى نشرها المؤيد فى ٩ مايو سنة ١٨٩٧ بإمضاء (أرمينية شاب مصرى) وهى فى صفحة ٢٥٢ من الجزء الأول طبعة سنة ٢٦ . قال الشاعر :

لقد بعثت لملك الليالى   بسيف يفضح الفجر المبينا

انتقل الشاعر بعد ذلك إلى انتصارات الأتراك على اليونانيين ... وقد عالج هذا الموضوع فى قصائد كثيرة . وبالرغم من ذلك فإن الحماسة فى شعر شوقى تجعل فى هذا الشعر الفخم حياة دافقة متجددة :

وكم لك من فيالق من طراز ... غدوا خير الجنود لخير غاز
إذا زحموا الضياغم فى مجاز ... أبادوها وكانوا العابرينا

فى هذين البيتين وفى القصيدة كلها تنفح ريح من معلقة عمرو بن كلثوم (ألا هبى بصحنك فاصبحينا) . وكلتا القصيدتين قد لا تمتاز كثيرها بأبيات قلائل صاعدة كالقمم ولكنها تمتاز بقوة مجموعها كله المصبوب فى قالب واحد من السهولة المتدفعة كالخيل فى الطَّلَق . وقد فطن العرب إلى أسلوب قصيدة عمرو فجعلوها إحدى معلقاتهم ..

وفى ختام القصيدة خص شوقى عيد الجلوس بعشرين بيتاً تبتدئ عند قوله (أسود الترك هى ثم هبى) . ولم ينس شوقى فى هذا الختام مصر وآلامها وآمالها ، وما تنتظره من نصرة الخليفة لها ضد قوى الشر . وفى هذا الشعر أثر من استعطافات النابغة واعتذاراته وعتابه .

وهذى مصر باسطة اليدين ... تؤدى من ولائك خير دين
وتلحظ عيدك الأسنى بعين ... تفاجى بالهوى تلك العيونا
فهل عند الإمام لها قبول ... وهل نحو الإمام لها وصول
فتشكو من جراح ما تزول ... وكيف يزول ما بلغ الوتينا
أتتك تغض من طرف الحياء ... تتوب إليك من ماضى الرياء
وتبسط فى ثراك يد الرجاء ... وتُلقى فيه آمال البنينا
فقابلها بعطفك والنوال ... وأنزلها بسوحك والظلال
أدام الله ذاتك للمعالى ... وأيَّد تاجها ورعى الجبينا

ما أقدر شوقى على التشخيص والتمثيل وما أروعه حين يقول عن مصر :

وتبسط فى ثراك يد الرجاء ... وتُلقى فيه آمال البنينا

صورة جامعة مؤثرة تذكرنى بصورة زيتية فخمة للشاعر الفرنسى فرنسوا ميليه موضوعها (Le geste du Semeur) أو الفلاح وهو باسط يده يطرح الزُّرعة[1] فى الأرض . وكلتا الصورتين تستمد قوتها وجلالها من صميم الحياة .

---

(١) الزرعة (بالضم) البذر .

(المؤيد) فى ٨ نوفمبر سنة ١٨٩٨

رواية فشودة

شوقية عظيمة مجهولة عن حادثة فشودة التى كان لها دوى كبير فى مصر وأوروبا فى سنة ١٨٩٨ . وقد رأينا أن نقدم بعض التفاصيل التى لا بد منها لفهم الأرجوزة .

فى سنة ١٨٨٥ اتفقت أوروبا على تقسيم أفريقيا والاستيلاء على مواردها الضخمة ، وكانت انجلترا تطمع فى املاك مصر الممتدة من منابع النيل الى البحر الأبيض ومن سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى الى ساحل المحيط الاطلنطى . لذلك أرغمت انجلترا مصر بعد احتلالها على إخلاء السودان وأوغندة ومديرية خط الاستواء وبحيرة البرت وهرر وإرتريا والصومال . وقد سمحت لبلجيكا وإيطاليا وأثيوبيا بالاستيلاء على بلاد وأقطار مصرية واسعة . وكانت فرنسا توغل فى بحر الغزال فى سنة ١٨٩٦ وتعمل على احتلال أعالى وادى النيل أو جنوب السودان جميعه فلم تر انجلترا بدا من تسيير حملة مصرية إنجليزية على عجل لاسترداد السودان . وقد تمكنت هذه الحملة من سحق الدراويش فى أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ . وكانت خسارة الدراويش ما بين قتيل وجريح حوالى ٢٧٠٠٠ مقابل ٤٦٠ من المصريين والانجليز ! وهناك علم كتشنر أن مرشان القائد الفرنسى وصل إلى فشودة واحتلها فى ١٠ يوليه ورفع الراية الفرنسية على دار الحكومة كما أنه أقام على أنقاض القلعة المصرية القديمة حصنا مسورا ومخندقا وعقد مع الشيلوك معاهدة بسطت بمقتضاها فرنسا حمايتها على المنطقة . بادر كتشنر بصعود النيل بثلاث بواخر حربية وقوة مصرية حتى بلغ فشوكة فى ١٩ سبتمبر حيث وفد عليه مرشان فى زورق من زوارقه فتحادثا ولم يتفقا فما كان من كتشنر فى اليوم التالى إلا أن احتفل برفع الراية المصرية على ربوة تبعد ٥٠٠ ياردة عن الراية الفرنسية وغادر فشودة نحو الجنوب تاركا للمفاوضات السياسية تسوية الموقف . كان وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت دلكاسيه ووزير خارجية انجلترا سالسبرى ووزير خارجية مصر بطرس غالى . وقد جرت مفاوضات طويلة استغرقت أشهرا . كان سالسبرى يقول إن فشودة مصرية وإن مصر قد احتفظت بحقوقها على وادى النيل وجميع البلاد التى كان يحكمها السلطان . وكان دلكاسيه ينازع فى أن انجلترا تملك توكيلا رسميا عن مصر للمطالبة بحقوقها ، والملك أرسل (ناظر) خارجية مصر الى وكيل انجلترا السياسى كتابه الشهير الذى كانت خاتمته : نعلم الحكومة المصرية أن مسألة فشودة فى هذا الأوان موضوع مفاوضات

بين بريطانيا العظمى وفرنسا فإنها تكل إلىّ أن أطلب من سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد إليها الأقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد أحمد المتمهدى ". ولقد وقفت انجلترا موقفا حازما للدفاع عن مصالحها ودام الصراع طويلا بينها وبين فرنسا على أملاك مصر وتوزيع تركتها فاضطر الفرنسيون فى النهاية إلى التخلى عن فشودة فى ١١ ديسمبر وعاد مرشان أدراجه بعد أن أُسدل الستار على تلك الرواية الفاجعة أو على فصل من فصولها .

كان اهتمام الرأى العام فى مصر بتلك الحادثة أكثر من اهتمام الحكام والساسة الرسميين . نذكر على سبيل المثال أن (المؤيد) نشر فى عدد ١٣ سبتمبر مقالا عنوانه (الفرنساويون فى فشودة) ، وآخر فى عدد ٢٧ سبتمبر : (فشودة) ، وافتتاحية فى عدد ٢٢ أكتوبر : (فشودة . فشودة) . وقد نشر المؤيد فى عدد ٨ نوفمبر سنة ٩٨ فى صدر الجريدة قصيدة شوقى تحت عنوان (رواية فشودة) ثم مهد لها بقوله : " جاءتنا هذه الرواية البديعة من أحد الظرفاء " ولم يشر إلى اسم قائلها[1] ، وهذا نصها :

رواية فشـــودة

تمهيـــد

فشـــودة روايـــة للبصـــرين آيـــة

قـــد مثلت فى العصر ليهتـــدى فى مصر

فـما اهتدى ولا عقل ولا درى كنه الحيل

بل شهـــد التمثيـــلا ثم انثـــنى بخيـــلا

---

(١) نسبنا هذه القصيدة إلى شوقى ، فى البحث الذى ألقيناه فى مهرجان شوقى (أكتوبر سنة ١٩٥٨) ، لأن أسلوب أمير الشعر ينم عليه . وقد قرأنا بعد ذلك فى الجزء العاشر من مجلة الجامعة (عدد يناير ونصف فبراير) سنة ١٩٠١ فصلا عنوانه «فشودة وروايتها نظما ونثرا» ، قالت : «نشر فى فرنسا فى الشهر الماضى كتاب بشأن فشودة والبعثة الفرنسوية العسكرية التى سارت من الحبشة لملاقاة مرشان فيها . وقد قال مؤلف هذا الكتاب الذى هو أحد رجال البعثة المشار إليها أن سبب فشل فرنسا يومئذ هو عجز هذه البعثة عن الوصول إلى فشودة . وسبب عجز البعثة هو وكيل فرنسا السياسى فى الحبشة . فأفاد هذا الكلام ذكرى رواية فشودة» — وبعد أن فندت المجلة رأى المؤلف وسردت أسباب الفشل الحقيقية التى تتلخص فى ضعف قوة فرنسا البحرية وادخار صولتها لاسترداد الألزاس واللورين قالت : « وهذه أهم الأسباب التى دعت إلى فشل فرنسا فى الرواية الفشودية لا ما ذكره صاحب الكتاب . وقد نظم « شاعر النيل » هذه الرواية ملتزما فيها جانب الهزل والجد فرأينا نشرها على سبيل الفكاهة . ولم نسم الناظم لأن لقب (شاعر النيل) ينم عليه . وهذه هى الرواية الشعرية » :

فشـــودة روايـــة للبصـــرين آيـــة ... الخ

مولىَ الأكتاف ❊ فى ساعة الإسعاف

فلا تلم فرنسا ❊ وفضلها لا تنسا

وقل لمن رام السهب ❊ شقاء مصر قد غُلب

الفصل الأول

(مرشان فى قشودة)

مرشان فى النيل التقى ❊ من بعد ما عز اللقا

تقابلا فى سلم ❊ على الصفا الأتم

حيث المياه تجرى ❊ نهرا بجنب نهر

والأرض يكرم عيله ❊ كما دحاها فى الأزل

تخرج أصناف الثمر ❊ تنبت أجناس الزهر

تفيض بالمأكول ❊ من عدس وفول

ترابها التبر السنى ❊ وكم بها من معدن

وغرسها ابن يومه ❊ "لمرشن" وقومه

مرشان فيها قد ثبت ❊ كأنه عود نبت

يلين للعواصف ❊ فما له من قاصف

أخرجه دلكاس ❊ ألعوبة للناس

ألعوبة وتنقضى ❊ قد خاب فيها من رضى

وكيف كان العاقبة ❊ فإن مصر الخائبة

إذ لم يكن لبطرس ❊ من طاقة بدلكسى

ولا له من يورى ❊ يُسمع سالسبورى

ولا له من أمة ❊ تجده فى الغمة

ولا له من دولة ❊ تمده بالصولة

ولا له ولا له ❊ إلـه ما أجله

وبعد هذا فاسمع ❊ يا خالى البال وعِ

الفصل الثانى

مرشان والنيــل

النيــل كان نائمـا رأى (المجور) قائما
يضـربه فى رأسـه يحسـبه فى رمسـه
خاطبـه يا نيــل يا أيها القتيــل
يا تارك البــلاد لأفسـد الأولاد
يا ضائع الميراث والصبية الأحداث
ذُبحت بالسكين من غادر مهين
وكان أهلك المُدى والخيل كانوا واليـدا
لما صرخت صرخة بل قد ذهبت فرخة
قد سقطت فى زير أو وقعت فى البير
فلا تلمـنى بعـد ذا إذا تعمـدت الأذى
إنى أنـا المحامى عنــك لدى الأنام
لا بدّ لى من حصـة قبل ضياع الفرصة
إذ قـد غدا فى النيه أن تحفـظ القضيـه

***

فهب داعى النيـل من نومـه الطـويل
يقـول يا مرشان يا أيها الشـيطان
يا أسـد القفـار يا حيــة البرارى
يا سمـكا عـواما يا طـائرا حـواما
يا لبكة العجين يا بلة فى الطـين
يا ضجـة الطبـول على طريق الغـول
يا خارجا من عُلبـه يا حادثا من لُعبـه
يا مشـكلا لـمّا نزل ومشـكلين إن رحل
وإن أردت جِدى فأنت خير عنـدى
من كل ذى قلب بطل لجنّة الأرض وصل

ما كانت [illegible] لها طابور
ولا الحمام الأزرق[1] يعصم منه زورق
ولا الأسود السود يصدّها بارود
ولا مجاهل القرى تطوى كما تطوى القرى
ملكتها يا غازى أيبة الحجاز
حتى [illegible] [illegible] الغزال طزا
[illegible] [illegible] راية وعسكرى
لكن تعال قل لى ولا تكن مضلل
من ذا أباحك الحمى من ذا حباك المغنما
من [illegible] جرا من ذا عليه جرا[2]
بحر الغزال منى كيف يزول عنى
[illegible] لبيتى المعهودة
[illegible] وكيف تقتليها
فاندفع الماجور بسحره يدور
وقال قولا مقنعا أثبت فيه ما ادّعى
يا سيد الأنهار ومالك الديار
ماذا يهمك النقط من بعد ما الرأس سقط

الفصل الثالث

(سالسبورى ومصر)

وجاء سالسبورى لمصر فى سرور
يقول وهى تستمع يخدعها فتنخدع
يا مصر يا فتاتى يا زينة البنات
يا مشتهى انكلتره يا بنت أخت لندره

---

(١) الحمام الأزرق : الموت الأزرق ، [illegible] أزرق و (العدو الأزرق) قيل معناه الخالص العداوة من زرقة الماء وهى صفاؤه وخلاصه . وقيل معناه الشديد العداوة لأن زرقة العيون غالبة فى الروم والديلم وبينهم وبين العرب عداوة شديدة . والعرب تكنى بالزرق عن النصال لما فى لونها من الزرقة .

(٢) جرا الأولى بمعنى ساق وأدى . وجرا الثانية جرا مخففة .

يا منية التمايز والوطن العزيز
بل يا أتان للملكة يا ألف ألف سكة
يا ناقة السردار وجيشه الجرار
يا أصل ما قد اكتسب من ثروة ومن تعب
يا بلدا ما فيه ذو ناظر يبكيه
يا أمة ولا وطن يا منزلا لمن سكن
يا موطئ الأقدام يا فتنة الأقوام
إني أرى النشالا يختلس الخلخالا
هيا نصيح السارقا ونشهد الخلائقا
وبطرس والوزرا يحررون المحضرا
ويثبتون فيه تهمة سارقيه
وبعد عرض الشكوى نقيم نحن الدعوى
ونظهر النصوصا ونطرد اللصوصا
أو لا فقد خاب الأمل ولا سبيل للعمل
فما أتم قوله أن ضحكت مصر له
وأقبلت تقول يا أيها المأمول
يا سندي وعمدتي يا عدتي لشدتي
بطرس من عبيدكا والكل من جنودكا
فاقض بما تشاء لا ينقض القضاء
تالله ما أحرجتهم بالعنف إذ أخرجتهم
لكنني أردت ولجميع كدت
إني أنا الدهاء عني روى النساء
وسوف أنسى الناسا لوزين والأزاسا
هل علمت انكلترا أي لواء يزدرى
أي عزيز هانا أي قدير دانا
أي الشعوب تفضح أي الليوث تجرح
فلتجتنب الثأرات[1] ولترقب الساعات

(١) الثأرات : العداوة والحقد .

البالـــو

رقصـــة الختام

إليكم عن بطرس   نادرة فى المجـــلس

إذ قالت النظـــار   يا من لـــه الفخار

يا أسطى الوزارة   يا صاحب المهارة

ترى البيان [illegible]   فشب يمض ذئبا

فهات خلت عنه   كيف خرجت منـه

فقام فيهم مفصحا   يقـول ما قال جحـا

أنشـــودة تجعلنا   مثل اسمها فشوش

ما الخلف والنفاق   إلا عـــلى اللحاف

دفنتـــه فى الورد   وبت تحت جلدى

الإمضاء « شوم برم »

التعليـــق

أول ما يلاحظ فى هـــذه القصيدة أن روح الشاعر فيهـا مصرية صميمة ، روح النكتة والسخرية والتقريع ، بلغـة سهلة دارجة عاليـة ، كلغة عثمان جلال فى (العيون اليواقظ) ، وهـــذه بلا شك أنسب لغة للقصة والرواية ، وهى لغة جميع روايات شوقى التى ظهرت حتى موته فى سنة ١٩٣٢ . انظر الى قوله فى رواية على بك :

وقف الحـــاكم من   كل رخيص وثمين

مثلمـــا وقف الدا   ئن من مال المـــدين

وشريك الشعب فى كـ   ـدّ يديه والجبيـــن

وشريكا فى الأوراق   وشريكا فى الصحون

وقوله فيها أيضا عن الضرائب فى عهد المماليك :

كل يـــوم مطـــر   من الضرائب الجدد

وتلـــك الفـــردة ما   لا يعلمون من ولـــد

على الحمـــار فـــردة   وفردة عـــلى الوتـــد

وفردة على الجمام　　وهو حبل من مسد
وفردة على برا　　دع الحصير واللبد

والذى نحبه فى شوقى ، وهذا دليل على عبقريته ، أنه بينما يخاطبنا باللغة التى نفهمها ، ويجالسنا على أرضنا ، إذا به يرتفع بغتة بعاطفته وقوة بيانه إلى أعلا سماء . مثال ذلك فى الأبيات السالفة قوله :

وقف الحاكم من　　كل رخيص وثمين
مثلما وقف الدائن　　من مال المدين
وشريك الشعب فى كد　　يديه والجبين

ففى البيت الأخير نزعة عالية وتحليقة من تحليقات شوقى ، وهى كثيرة فى شعر لافونتين وحكاياته على ألسنة البهائم والطير . وفى رواية فنشودة حلق الشاعر فى كثير من أبياته ، قال على لسان النيل مخاطبا مرشان :

ما كانت الشهور　　يكفى لها طابور
ولا مجاهل الثرى　　تطوى كما تطوى القرى
سلكتها يا غازى　　أبية المجاز
حتى ملكت مجرى　　بحر الغزال طرا
تبيعه وتشترى　　براية وعسكرى

ففى قوله (تبيعه وتشترى * براية وعسكرى) تمثيل رائع لحقبة هامة من تاريخ الاستعمار الأوربى فى أفريقيا ، خصوصا فى مرحلة التقسيم الأولى . فقد كان ممثل الدولة الطامحة يذهب إلى الأرض المختارة ومعه حفنة من الجنود الأوربيين وراية ، وسرعان ما يعقد معاهدات مع شيوخ القبائل وزعمائهم ، ثم يرفع رايته ويستعين بالوطنيين فى توطيد سلطانه .

ومن روائع شوقى قوله أيضا على لسان النيل فى موقف من مواقف العزة الوطنية والشمم :

من ذا أباحك الحمى　　من ذا حباك المغنما
بحر الغزال منى　　كيف يزول عنى

وقوله على لسان (سالسبورى) [illegible] :

يا بلدا ما فيه ذو ناظر يبكيه

يا أمة ولا وطن يا منزلا لمن سكن

هذا التقريع المر لبنى وطنه على تقاعسهم عن نصرة وطنهم ، وتركه نهبا للأجانب ، ينم عن وطنية الشاعر ، المطمئنة المستكنة فى قرارة نفسه « كالغدير الصافى فى ألفاف الغاب » كما قال الشاعر نفسه .

ويعجبنى فى ختام هذه الرواية قول [illegible] لبطرس :

يا أكفأ الوزارة يا صاحب المهارة

نرى الجبال [illegible] فثب بعض ذنبا

(المؤيد) فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٨

شـــذرة أدبيـــة

فى حلوان

لحضرة الفاضل الأديب صاحب الإمضاء

طالما اعتقدت مع الناس ، واعتقد النـاس معى — وهـذا هو التقليد — أن حلوان ربوع الصحة ومنازل العافية . إلا أنها ربوع ليس للإنس فيها أعلام ، ومنازل ليس فيها بشاشة تبتسام . فهواؤها إنما هو الدواء يشرب فى كل كأس ، ومن كل يد ، وكيف كان المذاق . وما زال هذا اعتقادى فى مدينة الشمس القوية — وحلوان أحق بهذا اللقب من طيبة القديمة — وأنا من القطار إلى البيت ومن البيت إلى القطار . لا ألوى على شىء من نعم الله الكثيرة الكبيرة ، على هـذه البلدة القليلة الصغيرة . حتى لقيت من أرشدنى إلى مواضعها . وأشهدنى عروس الطبيعة فى بدائع حلاها وحلى بدائعها . وخصوصا منظر غروب الشمس فى النهر بين الرمال ، وبين النخيل والأهرام . فقد أخذ مرشدى على نفسه أن أجد أفق حلوان وهو يودّع النهـار ، فوق آفاق سويسرا جمالا وجلالا . وأن الطبيعة الصغرى تلوح لى وقتئذ عنـد غاياتها ، كما طالما شهدت الطبيعة الكبرى فى سويسرا عند نهاياتها . فخرجت إلى فضاء البلد فى يوم أقبلت الشمس عليه ، فانتهى الصحو إليه . أستقبل النيل وما يكتنفه من زرع ونخيل . وظل ظليل . وأنا على سفينة الرمال يجرى بى الأصيل . وأميل مع ملك النهار حيث يميل . فإذا أنا بسماء قد أخذت زخرفها وازينت للناظر . كأنها مجموعة صور تقلب من أحسن المناظر . بيد أن المنظر الواحد فى مجموعة المصوّر العظيم يتبدّل ويتحـوّل ويتلون ويتشكل . فيبيض الأسـود ويسود الأبيض ويزرق الأحـمر . ويحمر الأزرق . ويستميل المستقيم . ويستقيم المستميل . ويستطيل المستدير . ويستدير المستطيل . وتتمثل أشياء الأرض فى السماء أبدع تمثيل .

فكم من جبـال وكم من ظلال ... وكم من برور وكم من بحـــور
مـــداد من النور يجـــرى به ... على صـفحة النـور أقلام نور
تأمل تجـــد مبـدع الكائنات ... إذا كنت تقـرأ بين السـطور

والأرض تحت ذلك صفراء من قرب . حمراء من بعد . خضراء يمنة . سوداء يسرة . قد ذهّب الأصيل وجوهها باللآلئ فماجت كما تموج الصور بأثر الكهرباء . والرمل لجة عجب .

والنيل فضة ذهب . والزرع كالزبرجد فى أفق كالمسجد . والنخيل كالعرائس . أو عمد الكائس والفلك كالمنطاد . من رائح وغاد . والأهرام أم طغرى هذا الكتاب . وجلال هذا المنظر العُجاب . تلوح من بعد كأنها أجران على مزرعة . أو خيام وسط معممة . أو إبل مستجمعة . أو نهود الطبيعة المضطجعة [١] . وبالجملة فالمنظر فخيم شائق . يبدو عليه جلال القدم . ويلوح وقار الهرم [٢] .

فكأنما فرعون حىّ لم يــزل ... وكأن مصر جــديدة الأهرام

وكأنمـا خلت القـرون وما خلت ... وكأنمـا الأجيـال رهـــط نيام

النصف تحت الأرض فى سِنة الكرى ... والنصف فوق الأرض فى أحلام

حتى إذا اختصر النهار . وظهرت الظلم على الأنوار . وآذن ملك الشمس بالإدبار . مهد لها المنحدر . فانحدرت بالتؤدة والوقار . فأخذتها الأهرام حمراء . فكأنها علم فى رأسه نار . ثم احتواها النيل . فكأنه طار [٣] سقط فيه دينار . فوقفت أنتظر الليل . والليل لا يأتى حتى شككت أنى رأيت مصرع الشمس . وشهدت النهار ينزل إلى الرمس . فالتفت حولى .

(١) أخبرنى صـديق العالم الأثرى أحمد فخرى أن هـذا التشبيه للبغدادى ، وبالرجوع إلى كتاب عبـد اللطيف البغدادى (وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ الميلاد) وجدنا ما يأتى ص ٣٧ : « وأما الأهرام المتحدث عنها المشار إليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط . وبينها مسافات يسيرة زواياها متقابلة نحـو الشرق ، واثنان منها عظيان جداً ، وفى قدر واحد ، وبهما أولع الشـعراء، وشبهوهما بنهدين قـد نهدا فى صدر الديار المصرية » .

وروى لنـا الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، نقلا عن مسالك الأبصار ، الأبيات الثلاثة الآتية لأبى الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسى :

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرا ... على ما رأت عيناك من هرمى مصر

أناقا بأعنـاق السماء وأشرفا ... على الجو إشراف السماك على النصر

وقد وافيا نشزا من الأرض عاليـا ... كأنهما نهـــدان قاما على صـــدر

من ذلك يتضح أن المعنى قديم متداول ولكن شوقى أجاد صياغته ، لأن كلمة « مضطجعة » هنا كلمة شعرية فخمة المبنى والمدلول . الاضطجاع من شأنه أن يبرز النهدين فى أحسن صورة فيشع منهما ذلك النور العلوى الجذاب الذى يشحن الفضاء بالسحر حول الهرمين .

(٢) الهرم : الشيخوخة .

(٣) أخذ على شوقى أنه يستعمل (طار) بدلا من (إطار) وهى لغة يمنية حديثة ... قال شـوقى فى قصيدته التى وصف بها مدينة المؤتمر (جنيف) ومناظرها سنة ١٨٩٤

وتضىء أثناء الفضـاء بغـرة ... لاحت برأس الطود تاجا أزهرا

فسمت فكانت نصف طار ما بدا ... حتى أناف فـلاح طارا أكبرا

إذا أنا بالبـدر قد خلَف الشمس على الآفاق . فكأنما أومأ إلى النهار فوقف . واتصلت مادة الإشراق . وهكذا حلوان .

الليل فيها نهار لا عناء به والبدر شمس ولكن تجتلى أبدا

ولما كانت ليلة الأحد الآتى من ليالى القمر فى هذا البلد كان ميسورا للقادم عليه فيها أن يتمتع بجميع ما وصفنا الطبيعة عليه من الجمال والجلال . حتى إذا أخذت العين قسطها من ذلك كله سمعت الأذن (إسحاق) المشارق و (معبدها) حضرة الموسيقى الأشهر عبده أفندى الحمولى[1] مؤدّيا بصوته الجميل عملا خيريا محضا وقد خصصت ثمرته لإحياء (كُتّاب) فى حلوان يأوى إليه فقراء أبناء العزبة . و إن إنسانا يسعى بقدمه إلى البر الخليق أن تسعى به قدمه إلى الثناء فى الدنيا والأجر فى الآخرة .

(ش)

---

(١) كان عبده الحمولى وأحمد شوقى ومحمود سامى البارودى يقطنون فى ذلك الوقت فى حلوان و يتزاورون .

نشيدان لشوقى

يغنيهما محمد عثمان

١

(المؤيد) فى ٢٣ يناير سنة ١٨٩٩

"جاءنا من مراسلنا بحلوان أنه احتفل أمس فى كازينو حلوان (بسبوع) الكتّاب الأهلى الخيرى . وقد ظهر أبناء الكتّاب على المرسح ينشدون هذا النشيد من إنشاء أحمد شوقى .

يا سادة واسوا الفقير   طوقتمونا بالمنن
وكل من ربّى الصغير   مستوجب شكر الوطن
نحن صغار الأمة   هيا اغرسوا فينا الفطن
نحن لكم كصبية   إن لم تربونا فمن
لا يذهب الخير سدى   ومن يُعِنْ يوما يُعَن
والمرء لا بد غدا   يُجزَى عن الفعل الحسن

ثم تكلم خليل مطران وانتهت الكلمة الأخيرة فى حياة الليلة إلى حضرة العالم الموسيقى والمطرب الطائر الصيت محمد أفندى عثمان".

٢

(المؤيد) فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٩

"أحيت لجنة أصدقاء حلوان الخيرية ليلتها الثالثة التى أسفر صباحها عن يوم الجمعة أمس (يوم الأربعين للكتب) تحت رعاية أحد الأمراء" :

ترنم محمد عثمان وأعضاء التخت على المرسح بهذا النشيد لمناسبة تشريف دولة الأمير :

أشرقت حلوان   بابن محييها
بعلىّ الشان   بدر ناديها
زارها الغيث   مذ بدا فيها
وأتى الغوث   لأهاليها
يا شقيق المجد   يا أخا الأفضال
أنت نجم السعد   فى سما الإقبال
جاهك للجاه   والرعاية غال
صانك الله   وأدام الآل

(المؤيد) فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٩

(الاحتفال باقامة تمثال دلسبس)

القصيدة الآتية لم تنشر فى الديوان القديم . وقد اختار شوقى أبياتا ثلاثة فقط من نسيبها ونشرها فى الجزء الثانى من الشوقيات (ص ١٤٧) وهى :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ... ما خنت رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهمم ولا خطرت ... بالبال سلواك فى ماض ولا آتى
وخاتم الملك للحاجات مطلب ... وثغـرك المتمنى كل حاجاتى

والعجيب أن هـذه القصيدة من جيد شعر شوقى ورفيعه . نشرتها المؤيد تحت عنوان (تهنئة خديوية) بمناسبة عودة الخديوى من بور سعيد . العنوان لا يطابق المقام . وتوضيحا لذلك نقول إن شركة قناة السويس أقامت فى ١٧ نوفمبر، وهو اليوم السابق لنشر القصيدة، احتفالا فخما بإقامة تمثال دلسبس "مؤسس القناة" . وكان هذا اليوم فى مثل يوم الاحتفال بفتح القناة من سنة ١٨٦٩ . وقـد حضر الاحتفال الخديوى عباس والغازى مختار باشا والأمراء ونظار الحكومة ومستشاروها وقناصـل الدول الأجنبية ومندوبون عن الصحف . وعلى الرغم ممـا يتخلل القصيدة من نسيب ومديح «تقليدى» فإنها فى مجموعها قصيدة اجتماعية سياسية مالية . وظاهر بجلاء أنها نظمت بمناسبة الاحتفال بإقامة تمثال دلسبس ، ذلك التمثال الذى طوحت به ثورة الشعب إبان العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦ . لذلك ننشر القصيدة بعنوانها الصحيح فمـا كان عنوانها الأول (تهنئة خديوية) إلا سـتارا تختفى وراءه أغراض الشاعر :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ... ما خنت رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهمم ولا خطرت ... بالبال سلواك فى ماض ولا آتى
ولا أردت لسهم اللحظ فى كبدى ... ردا ولا رأى لى فى المستحيلات
ويذهب اللوم بى فى كل ناحية ... فـلا يبـلغنى إلا صُبابات (١)
وأنت تطرب للواشى وتطمعه ... كالطفل ألتى بسمع للخرافات
إن السهام إذا ما واصلت غرضا ... كانت خواطئها مثل المصيبات

(١) فى الأصل (صباباتى) . الصبابة بالضم البقية من الماء واللبن فى الإناء جمع صبابات يقال « لم أدرك من العيش إلا صبابة » .

وسهم جفنيك ما أرسلته عرضا ... أبى القضاء له إلا رميات

فن فؤادى إلى لبى إلى كبدى ... إلى رشادى فإغفائى فلذاتى

وما الغزالة إلا أنت فى نظرى ... حسنا ويفعل البعض بالذات

وخاتم الملك للحاجات مطلب ... وخصرك المتمنى كل حاجاتى

فقل له يمت فى الحب مهجته ... وأنت مأوى اليتامى واليتيمات

⁂

أهلا بركب العلى والعز قاطبة ... وفد المفاخر طرا والسعادات

ومرحبا بك فى حل ومرتحل ... وخصك الله منه بالتحيات

ما زلت تطلع مصرا ثم تعطرها ... والغيث أفضل ما يأتى بميقات

مشت ركابك من ثغر إلى بلد ... مشى الجدود[1] إلى محو الشقاوات

وإن مولاى من سارت مواكبه ... لراية الله فى أيدى الجماعات

إن شرفوها رأوا فى ظلها شرفا ... واستقبلوا الخير ثيات بنيات

يممت (ثغر سعيد)[2] خير محتفل ... تعيدها حفلات قيصريات

كم مثلت مجاليها ورونقها ... جد الشعوب وإقدام الحكومات

والقوم فى مصر ما طافوا بملعبها ... إلا كما شهد الغر[3] الروايات

حتى جرى الماء من أثنائها[4] ذهبا ... يسقى ممالك لا تروى[5] ودولات

فكل مائدة بالخلق حافلة ... ومصر من خلفهم طاهى الوليمات

هلا بررنا بسادات لنا سلفوا ... بر الغريب بأسلاف وسادات

إذا المدائح فاز المحسنون بها ... فاز الكرام لدينا بالمذمات

ما كان أعظم إسماعيل[6] لو سلمت ... له السعادة فى مصر وهيهات

إن شيدوا لسواه ما يمثله ... فجده فيه تمثيل بمرآة

قوم ينال جزاء السعى حيهمو ... فإن قضى شيعوه بالكرامات

وصيروه مثالا بعده حسنا ... يبقى مدى الدهر عنوان المكافاة

---

(١) الجدود: الحظوظ . (٢) ثغر سعيد: بور سعيد . (٣) الغر: الشاب لا تجربة له .

(٤) الأثناء: الأوساط . (٥) روى يروى ريا: شرب وشبع . إشارة الى جشع أوروبا .

(٦) الواقع أن إسماعيل ووزراءه وأجانب مصر ومصر ذهبوا جميعا ضحية لدليسبس والقناة . وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا (فضيحة السويس) ويتلخص حكمنا فى أن إسماعيل ظلم المصريين وظلمه الأجانب كما ظلموا مصر .

لولا مفاخر أفراد تعدّ هموا ... لعاش ذو العقل حيا بين أموات

فأحى ذكرك فى الدنيا بمأثرة ... وأدرك الخلد فى الدنيا بمسعاة

* * *

مولاى مصر بنوها اليوم فى طرب ... تدار بينهم كأس المسرات

قال المنجم أفوالا فروعهم ... أن لا يروك فيقضوا بالندامات

حتى إذا عدت يادنيا هموعرفوا ... قصد المنجم من تلك الإذاعات

أيظهر النحس أم يبدو له ذنب ... والسعد منك بأقمار وهالات

تساءل الناس حتى لا قرار لهم ... أتقصُر الأرض أم تجرى لغايات (١)

خافوا عليها وألهتهم قيامتها ... عما يمر عليهم من قيامات

أبى الإقامة للدنيا وساكنها ... يوم يدول وضوء ذاهب آتى

كل يمدّ حبالات الفناء لنا ... والكل من بعدنا رهن الحبالات

لا بدّ للنجم من يوم يزل به ... وإن تناول أسباب السموات

(شوقى)

تعليـــق

هذه القصيدة ثلاثة أقسام : (القسم الأول) — ويشتمل الغزل . وهو أحد عشر بيتا يمتد فيها النغم الموسيقى ويستطيل فى بحرها ورويّها استطالة الآهات والضراعات والحنين .

و (القسم الثانى) — وهو فى صميم الموضوع . بدأه الشاعر بتحية الأمير فى ستة أبيات (أهلا بركب العلى والعز قاطبة ..) . ولكنه فى الأبيات الثلاثة عشرة التالية : (يممت ثغر سعيد ..) مزق ستار الرياء عن هذه الحفلات ، وعن الأدوار الحقيقية التى لعبتها مصر وولاتها ، والدول وشعوبها على المرسح .

يممت (ثغر سعيد) خير محتفل ... تعيدها حفلات قيصريات

ولكن ما وراء هذه الأبهات والزينات ؟ تاريخ القناة ومآسيها :

كم مثلت بمجاليها ورونقها ... جد الشعوب وإقدام الحكومات

والقوم فى مصر ما طافوا بملعبها ... إلا كما شهد الغر الروايات

حتى جرى الماء من أثنائها ذهبا ... يسقى ممالك لا تروى ودولات (٢)

فكل مائدة بالخلق حافلة ... ومصر من خلفهم طاهى الوليمات

(١) قصر عن الأمر قصورا : انتهى وكف عنه مع العجز . (٢) روى يروى (باب علم) : شرب وشبع .

في تلك الحفلات القيصريات التي بدأها إسماعيل في افتتاح القنـاة سنة ١٨٩٦ وأعادها عباس ، بمناسبة نصب تمثال دلسبس ، كان عظماء الضيوف مجتمعين حول الموائد (ومصر من خلفهـم طاهي الولمات ..) أي أن مصر ، في نظر فرنسا والأمم الأوربية ، لم تلعب في تاريخ القناة إلا دور شخص من أشخاص الرواية التمثيلين لا الممثلين الحقيقيين ، دورا ثانويا من أدوار الرواية . وبحسبنا هنا أن نعيد ما ذكرناه من قبل : وهو ما قاله هتروفو، مندوب روسيا في مؤتمر باريس الذي انعقد في سنة ١٨٨٥ لعمل اتفاقية دولية لتأمين حرية المرور في قناة السويس . أعلن المندوب الروسي في جلسة ٩ يونية سنة ١٨٨٥ بعـد أن أشار إلى تضحيات مصر الجسيمة في سـبيل تحقيق مشروع القناة : « إن الامتيازات التي حصلت عليها الشركة شاهد عدل . ومع ذلك فإن الحقيقة الكبرى الصارخة هي أن هذا العمل الضخم الذي يعتز ربما لا حد له العالم أجمع ، فإن مصر وحدها هي الخاسرة فيه[1] » .

وقد شقيت مصر من جراء القناة وأصبحت بلاء المدين . وهي الآن (أي في سنة ١٨٩٩) تحتفل بإقامة تمثال لظالمها ومميتها .. وبحسبنا هو السر في أن شوقي تجنب الإشارة إلى ذلك الاحتفال في عنوان القصيدة . ويرى شاعرنا أنه كان الأحرى بمصر أن تبر بأبنائها أولا قبل الغرباء أسوة بالشعوب الحية ولكن :

إذا المــدائح فاز المحسنون بها ‏ ‏ فاز الكرام لدينا بالمـذمات

وهنا وضع شاعرنا إصبعه في موطن الداء الدفين الذي يئن منه مجتمعنا : عقل بنّاء وخلُق هدّام .

أما (القسم الثالث) والأخير فيبتدئ عند قوله :

مولاى مصر بنوها اليوم في طربٍ ‏ ‏ تُدار بينهم كأس المســرات

هذا البيت يفيض بالتهكم المر بنى مصر الذين ينعمون ويتساقون كؤوس المسرات بينما العالم يجد . ويشتغلون بالترهات وأقوال المنجمين عن سياسة الدول المتربصة بها :

تساءل النـاس حتى لا قرار لهم ‏ ‏ أتقصُر الأرض أم تجرى لغايات

خافــوا عليها وأهمتهم قيامتهـا ‏ ‏ عما يمر عليهم من قيامات

انتقل الشاعر بعد ذلك في الأبيات الثلاثة الأخيرة إلى فلسفة الحياة :

أبى الإقامة للدنيا وساكنها ‏ ‏ يوم يحول وضــوء ذاهب آتى

كل يمـد حبالات الفناء لنـا ‏ ‏ والكل من بعدنا رهن الحبالات

لابد للنجم من يوم يزل به ‏ ‏ وإن تناول أسباب السموات

---

(١) انظر كتاب (أسرار قضية التدخل في حالة ١٨٨٢) لمحمد صبري .

ومن مضمون هذه الفلسفة التى يردّدها الشعراء منذ القدم خرج لنا شوقى ببيت رفيع ظاهره حكمة وباطنه سياسة ، يشير فيـه إلى المصير المحتوم لتلك الدول التى تتطاحن فى تهيل تقسيم القارة الأفريقية واستعباد شعوبهـا والتى تقوم شركاتها ، وفى مقدمتها شركة القنـاة ، بمـدّ شباكها حول المصالح الوطنية فى طول البلاد وعرضها وبسط النفوذ الأجنبىّ ، وكأنما كان شوقى يتنبأ لهذه الشركات والدُّولات بالمصير المحتوم :

كل يمـدّ حَبالات الفناء لنـا   والكل من بعدنا رهن الحبالات

صورة رهيبة واسعة تمثل نهاية الصراع بين الإنسان والإنسان ، وبيننا وبين الدول التى كانت تتألب وتسلّط علينا جبروتها وطغواها .

مقتطفات من الشوقيات القديمة

تقـــديم الشوقيـــات

إلى مولانا أمير المؤمنين عبد الحميد الثـانى

سـلام الله لا أرضى سلامى ... فكل تحيـة دون المقـام
وعين من رسـول الله ترعى ... وتحرس حامل الأمر الجُسام
وتَنْجُد مقـلة فى الله يقظى ... وتخلفهـا على أمم نيـام (١)
تقلَّب فى ليال من خطوب ... تركْن المسلمين بلا سـلام (٢)
ومن عجب قيامك فى الليالى ... وأنت الشمس فى نظر الأنام
أحب خليفة الرحمن جهدى ... وحب الله فى حب الإمام
وأجعل عصره عنوان شعرى ... وحسن العقد يظهر فى النظام
فإن نفت الموانع فيه حظى ... فليس بفائت حظ الكلام
وقد يُرعى الغمام الأرض أذنا ... وأين الأرض من سمع الغمام

إلى ابن محمــد

إلى (ابن محمد) أهدى كتابى ... وقد يُهدَى القليل إلى الكريم (٣)
وما أهـدى له إلا فؤادى ... وما بين الفـؤاد من الصميم
وغرس طفولتى وجَنَى شبابى ... وما أوعيت من وحى قديم (٤)
وما حاولت من عصر عظيم ... من الآداب للوطن العظـيم
وكان (محمد) أوفى وأرعى ... لهـذا الدر من واعى اليتـيم (٥)
وإن الشعر ريحان الموالى ... وراحة كل ذى ذوق سـليم (٦)
وماشرب الملوك ولا استعادوا ... كهذى الكأس من هذا النديم

---

(١) تنجد : تعين . وتخلفها (الضمير عائد إلى عين الرسول) . يريد أن عين الرسول تجعل عين الخليفة مكانها للسهر على مصالح المسلمين والأمم النيام . . (٢) تقلب (مبنى للمجهول) يريد عين الخليفة .

(٣) ابن محمد هو الخديوى عباس بن محمد توفيق ولى نعمة الشاعر . وقد كانت سنو حكمه نقطة سوداء فى تاريخ البلاد . (٤) أوعى الشىء والكلام إيعاء حفظه وجمعه . وأوعى الزاد والمتاع جعله فى الوعاء وجمعه فيه .

(٥) لهذا الدر أى شعره ، واليتيم الدر اليتيم . وعى الدر جمعه وحواه . (٦) الراحة ضد التعب ، وتأتى بمعنى السرور .

المـــراثى

١ — قال يرثى خاله أحمد بك النجدلى :

ما زلت أسكب دمع عينى باكيا خالى وما خالى علىّ بعائد

حتى نظرت إلى الوجود بمقلة ذهبت غشاوتها وطرف رائد

فرأيت دهرا ناصبا شرك الردى والكل يدخل فى شراك الصائد

يرمى بسهم طالما حاد الورى عنه وما هو عنهم بالحائد

فهم البلى وبنو البلى خلقوا له وتوارثوه بائدا عن بائد

٢ — وقال يرثى الوزير عبد الرحمن رشدى باشا :

يقولون رشدى مات قلت صدقتم ومات صوابى يوم ذاك وآمالى

وركنى الذى للنائبات أعده وذخرى فى الماضى وعونى على الحال

وسعدى الذى خان الزمان وطالعى ونخرى إذا ألقى الرجال وإجلالى

أرشدى لقد عشت الذى عشت سيدا ولم تك عبد الجاه والأمر والمال

ولم تأل كتب العلم درسا ومطلبا ولم تك عنها فى الثمانين بالسالى

وكنت تحل الفضل أسمى محلة وتنزل أهل الفضل فى المنزل العالى

ولم تتخير ألف خل وصاحب ولكن من تختاره الواحد الغالى

حببتك والدنيا تحبك كلها وزدتك حبا عندما كثر القالى

وقست بك الأعيان حيا وميتا فوالله ما جاء القياس بأمثال

ولو أن إنسانا من الموت يفتدى فديتك بالنفس النفيسة والآل

٣ — وأنشأ هذا التاريخ ليكتب على قبر شهيد الغربة فى طلب العلم مصطفى عاكف نجل حسن باشا توفيق :

فى القبر أم فى فؤادى الواجف عكفت يا ابنى ولم تزل عاكف

آنست فى الترب خير والدة من حيث أوحشت والدا لاهف

فمن له بالحمام بعدكما يلقاه لا كارها ولا خائف

يا غربة فى العلوم ما طويت إلا بسيف المنية الخاطف

ويا شبابا بدا له ثمر ما كان غير الردى له قاطف

كونا لدى الله شافعين له ... وسلما نحو ظله الوارف

وأبـدا داعيا يؤرخه ... فى نعم الخلد مصطفى عاكف

سنة ١٣١٥ (١٨٩٧)

٤ — وقال من قصيدة يرثى بها فقيد الصحافة سليم بك تقلا مؤسس الأهرام وكان موته فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٢ :

زاحمته على الطريق عقول ... حسبت حكمة الإله بضاعة

واطمأنت إلى الرقاع ولكن ... لم تردها الرقاع إلا رقاعة

والواقع أن شوقى كان يشير إلى نفسه فى البيتين السابقين ، ومن خير ما قاله فى هذا المعنى بيتان آخران من قصيدة نشرها (المؤيد) فى ٣١ مايو سنة ١٨٩٦ وهى فى الطبعة القديمة من الشوقيات صفحة ١١٧ :

زاحمت كل أخى جهل وزاحمنى ... كالبدر غالب فيما حاول الظلما

ولاح لى من زمانى مظهر كذب ... حتى رميت على عُبّاده الصنما

٥ — وقال من رثاء المغفور له على حيدر باشا يكن :

العزاء العزاء يا (صـفر) الخيـ ... ـر فأنت الفتى اللبيب التقى

حكم الله فى أبيك وحكم الـ ... ـله فى الخلق سابق مقضى

كلنا من بكى أباه وكل ... بعد حين مودّع مبكى

غاية البؤس والنعيم زوال ... لم يدم فى النعيم والبؤس حى

٦ — وقال يرثى أمين فكرى باشا ويعزى فيه صديقه إسماعيل صبرى باشا « وكيل نظارة الحقانية » :

يا أقرب الناس من أمين ... وأفقـد النـاس للثمين

خطبك هذا أجل خطب ... نأخذ له الصبر باليمين

أسليك فيه ولى فؤاد ... يذوب اليك والحـزين

فقم بنـا نندب المعالى ... بجرحها اليوم فى الوتين

أمثـل فكرى أبا حسين ... يمـوت فى نضرة السنين

والناس فى حاجة إليه ... والقطر يرجوه للشـؤون

مؤمل الكل فى شباب ... ومرتجى الأهل والبنين

كذلك الموت كل يوم　　يبدى فنونا من الجنون
فلو علمت المنون شخصا　　لقلت لا عقل للنون

متفــرّقات

كم لنا من عجيبة　　طى هذى البسيطة
أمم قد تغيرت　　وبلاد تولت
وبحار تحولت　　من مكان لبقعة
ثم نابت جزيرة　　عندها عن جزيرة
أيها الأرض خبرى　　عن شباب البسيطة
حدثينا حديثهم　　وصفى القوم وانعتى
دول قد تصرمت　　دولة إثر دولة
وقرون تلاحقت　　وعصور تقضت
ذهب الدهر كله　　بين يوم وليلة

* * *

من يرد حقه فللحق أنصا　　ر كثير وفى الزمان كرام
لا تروقن نومة الحق للبا　　غى فللحق هزة وانتقام

* * *

غالب الأمر بالتوكل غالب　　واطلب العون فى جميع المطالب
رُبَّ أمر به تضيق المساعى　　لك منه إلى القضاء مذاهب

* * *

أرى دنيا ولا دنيا　　وناسا بعدهم ناس
سكارى نحن من كأس　　وموت هذه الكاس

* * *

وقال من قصيدة تهنئة بشهر الصوم نشرت فى (المؤيد) فى ١٥ فبراير سنة ١٨٩٦ وهى فى الشوقيات القديمة (ص ١١٨) :

تحبك صاحبى منا قلوب　　لغيرك ظهرها ولك الصميم
وترجو أن تعيش لها نفوس　　إذا تبق ما يبق النعيم

عن اللذات صامت لم تجادل فإما عن هواك فلا تصوم[1]

وقال :

قل لراج أن يسترق يراعى أنا لا أشترى بذا التاج قيدا
نومة السيف قد تكون حياة ورأيت اليراع إن نام أردى

البيتان من قصيدة «تهنئة بشهر الصيام» نشرتها (الأهرام) فى ١٨ مارس سنة١٨٩٣، وهى فى صفحة ٦٧ من الشوقيات القديمة، ومطلعها :

لحظها لحظها رويدا رويدا كم إلى كم تكيد للروح كيدا

وقد أعيد نشر الأبيات الغزلية الستة الأولى فى الجزء الثانى من الشوقيات فى باب النسيب ص ١٤٧ ، مع أن الأبيات سقيمة وقد أشرنا إليها فى المقدمة . أما أبيات المديح التى أسقطها شوقى فهى من الشعر الجدير بالبقاء . وحسبها أنها تكشف عن ناحية عظيمة من شخصية شوقى مادح الملوك ومقرظهم : هى اعتزازه بشخصيته ومكانته فى مخاطبتهم على حد سوى . وقد لا يكتفى بذلك فيهدى النصح إلى ممدوحه ، تحت ستار المديح ، ولا يتردد فى تقريعه على تقاعده من إعلاء شأن الملك الذى يستمد عظمته من عظمة البلاد وتختلط أبهته بأبهتها . ومن هنا صيحات شوقى للنهوض بالبلاد وحرياتها وطرد المحتل :

هذه مصر جاءها الدهر يسعى وهو ياطالما جفاها وصدّا
ليس للدهر من وفاء ولكن هاب فيها العباس أن يستبدّا
صاحب النيل فى البرية إيه جزر النيل للبرية وردا
وارفع الصوت إن عصرك حر لن يرى من سماع صوتك بدّا
إنما الملك أن تكون بلاد وتصيب البلاد بالملك مجدا
فتول الذى سننت ونجح لرعاياك فى المعارف قصدا
ومن العلم أن تزود بلادا مهدتها له الخلائق مهدا
واقدح الكهرباء فيه لتهدى واقمها على البخار لتندى
وأجل بأس الحديد فيها وجدد عهد بنائها الذى كان عهدا
وادع سودانها إليك يلبى إنه كان للأعزة عبدا

(١) فى الأصل المنشور فى (المؤيد) وفى الديوان (فداك) بدلا من (هواك) وفى رواية عمون (هواك) بدلا من (فداك) ونحن نفضل رواية أو تصحيح عمون لأنه يرفع البيت من الحضيض .

حسبه حسبه كفاه كفاه ... ما يراه العزيز عظما وجلدا
قل لراج أن يسترق يراعى ... أنا لا أشترى بذا التاج قيدا
نومة السيف قد تكون حياة ... ورأيت اليراع إن نام أردى

ليست هذه لغة رجل البلاط « والمعية السنية » . هذه لغة شاعر لا يخشى قلمه المغامر حين يقول (هاب فيها العباس أن يستبدا) ويقول (وارفع الصوت إن عصرك حر) ..

وقد أنتقل إلى البيتين الأخيرين وثبا وأعلن ، غير هياب ، أن القلم وحرية القلم أغلى وأثمن من التاج والصولجان . وإن فى قوله :

نومة السيف قد تكون حياة ... ورأيت اليراع إن نام أردى

لحكمة جليلة لا تقل شأنا عن أبلغ الحكم القديمة :

قال أبو تمام فى السيف والقلم :

السيف أصدق إنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجدّ واللعب

وقال المتنبى :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى ... المجد للسيف ليس المجد للقلم

ولكن ابن الرومى يقول :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت . والموت لا شىء يعادله ... ما زال يتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله فى الأقلام إذ بريت ... أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وأرى أن شوقى أسمى تفكيرا وأقوى بيانا من أولئك جميعا .

(المؤيد) في ٢٧ اغسطس سنة ١٨٩٩

بضعة أيام

في عاصمة الإسلام

١

همت الفلك باسم الله . وعلى بسم ولى حماه . كأنها الصرح إذا ماد . وكانت فى مرساها كالصخر بالواد . فما زال الزمام يطيبها . وهى تمهل بمن عليها . حتى استدبرت الميناء . واستقبلت الدأماء . فاندفعت تشق عباب الماء . كأنها بين الأبيض والأزرق . هلال الشك تلوح السماء[1] . أو وجناء[2] على بيداء . أو براية بأرض عراء . تقلب الثرى عن غذاء . أوكأن الأمواج جنازة هى فيها الآلة الحدباء .

وكان الوقت صحوا . وفضاء البحر زهوا . والسفر لهوا ولعبا . لحينما ذهبنا نتحى التيار . وصبر (البخار) . وألف الله بين الماء والنار . نسير فى لجة . لا ساكنة ولا مرتجة . تتلألأ رونقا وبهجة . ولدى فضاء مائج بالأصيل وضاء . فقد توحد أديمه الأزرق . وتمهد من كل الجهات ونأنق . كأنه حوض من زئبق . أو بساط من استبرق . أو معادن العسجد . اختلط بها الزبرجد . أو زرع تأخذه الفلك كالحصد[3] .

والماء يحدق من كل الجهات بنا	ويبسط الأفق للأبصار فالأفقا
إذا تأملتــه والفــلك تعــبره	بذلك البحر منسدا وما انفلقا
فتلك تسلك سهلا فيه منبسطا	والعين تنفذ من آفاقه حلقا
كأنمــا الفلك فيــه أينما ذهبت	إنسان أحول عين حير الحدقا

الى أن حيل بين الشمس والنهار . وحكم فيها الواحد القهار . فشهدنا مصرعها وهى تحتضر . حثيثة المنحدر . كأنها قطعة من سقر . مست الماء فاستعر . أو وجرن على مزرعة . تلتهمه النار مسرعة . أو جناح ملك . سقط من الفلك . فاحتواه البحر كالشرك . أو منطاد يحرق . لا يمسكه إلا زورق . الزورق فى الماء مغرق . وهنالك خاشن البحر بعدما ألان .

---

(١) لوح الشيب فلانا بيضه . (٢) الوجناء الناقة الشديدة . والأوجن : العظيم الوجنات .

(٣) الحصد كنبر المنجل الذى يجز به الزرع .

ودهم الظلام من كل مكان . فكأن البحر بحران . وكأن الليل ليلان . وإذا نحن بموج كالهضاب . لكنه متنقل وثاب . أو كالإبل الصعاب . أو كالآساد الغضاب . أو كالفيلة ماج بها الغاب . فكنت ترى المطية تدافع العبب . هوجاء الخبب . شديدة الصعد والصبب . يأتى بها الموج ويذهب . ويجد البحر وتلعب . ترقص على نقر الريح . بطاو الفضاء الفسيح[1] . فاستبق الركاب الخادع . يجتمعون فى المضاجع . وتخلفت أنا فى زاوية فوق سطح الجارية . حتى إذا خلت لى الناحية . شرعت أبالغ للبحر فى الخطاب . وأتلطف له فى العتاب فقلت :

« أيهذا الأبيض الزاخر . لحد الأوائل ومهد الأواخر . ودائرة المآثر . وحلقة المفاخر . وعيلم[2] معالم العلم الداثر . وروض الأدب الزاهر . من الزمن الغابر . ووعاء يتيم الفكر والخواطر . وكافل بنات الشعر للشاعر . ومهبط النواقيس الأول والمنائر . وموطن الحضارات الخالى منها والحاضر . أين نقراطيس عروس البحار . أين الإسكندرية ذات المنار . أين أثينا منبر الخطباء الكبار . وموضع إنشاد الأشعار . وأول مرسح وضع للتمثيل فى هذه الدار . أين صور وصيدا وما أخرجتاه من تجار . واتسعتا من استعمار . رفع الكل شراعك من قبل لا قبلة ولا بخار . وكنت وكانوا أول من مدن الأمصار . وحمل النور إلى سائر الأقطار . ممالك منيعة . ودول رفيعة . وأمم إلى داعى المجد سريعة . يقول فيها أفلاطون « نحن حيال هذه البحيرة كالضفدع حيال المستنقع » . فليته يرد إلى الحياة لينظر فيرى كيف انقسموا ففريق صليبيون . وآخرون أيوبيون . وهذا عربى لا ينبغى لسواه أن يسود . وهذا رومى لم يخلق إلا له الوجود . وهؤلاء أصحاب الفلسفة الأولى فهم أولى بالتقديم . وغيرهم له فى وضع العلوم اليد الطولى فإليه يرجع الطول من قديم[3] . أقوال ذاهبة . ودعاوى كاذبة . ملوك وجدوك رخيصا فباعوا . وأضاعوك وأى فتى أضاعوا . فنزلت عن عرش ملكك وسلطانك . وهبطت من هالة عزك وإمكانك . تصبح مطية الراكبين . وتمسى قنطرة الذاهبين والآيبين . تحمل للغرباء الأحمال . كأنك بغلة الأثقال . فسبحان المغير من حال إلى حال . ومن بيده الإعزاز والإذلال . ومن ملكه الملك لا يعتريه اضمحلال . ولا يرقى إليه زوال » .

وبينما أنا أذهب كل مذهب من الشكوى . وأنتقل فى السر إلى النجوى . اعتقل النوم لسانى . وأخذ الكرى بمعاقد أجفانى فما انتبهت إلا على نقل أقدام . وحركة إنسان

---

(١) طاو يريد إطار . (٢) العيلم : البحر . (٣) الطول : الفضل .

يدلف[1] إلىّ فى الظلام فرأيت شبح رجل شيخ هم[2] . يحبو إلى المائة أو يستتم . عليه رداء . يلفه كالقباء[3] . وهو مهيب فى الخفاء . كأنه من كهنة المصريين القدماء . وقد اقترب منى . يفتش الظلام عنى . فقلت فى نفسى مسكين الشيخ أحرجه البحر بدائه . وأخرجه يتداوى من مائه بهوائه . فما لى وله أزيده فى عنائه . وأتعب النفس بندائه . ثم عاودنى النوم فنمت لكنى ما هومت[4] . حتى استيقظت بحال شر حال . وما أيقظنى إلا صوت عال . قد دوى صداه فى موج كالجبال ، وإذا هو الشيخ يومئ بالأصبع . إلى الرياح الأربع . ويشير بوجهه نحو السماء . ويضرب الفلك بقدمه فتشقق ويخرج منها الماء . وهو يقول .

(المؤيد) فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٩٩

٢

" يا ريح أقصرى إقصارا . ولو كنت إعصارا . ويا ماء دن للانسان . ولو كنت الطوفان" . فكان ما أمر الشيخ أن يكون . واشتمل عالم الماء بالسكون . فدهشت لما رأيت وسمعت . قمت إلى الشيخ فقلت أيها الإنسان المجازى . والزائر الروحانى . من أنت وفيما جئت لعلك طائف المنون . أو عساك هاتف الطاعون . أم أنت نوح وهذا الفلك المشحون . أم تراك الخضر[5] أم أنت الدهر . أم ما يزعمون من سلطان البحر . وما هذا الموقف النكر . والنظر الشزر . وما لك عندى وطرفتنالنى بضر . وهيهات أن تضرنى أو يأذن الله . إنه لا ضار إلاه .

الشيخ — ما هذا الفزع . ومم يا ابن مصر الجزع . ألست فى ارتقابى . ولم تدعنى بأسمائى وألقابى . سميتنى بصفاتى . ووصفتنى بسماتى[6] . وذكرتنى شبيبة خالية . وذرية غالية . وكلمة كانت ولا تزال عالية . فقد زعمتنى خلعت ملكى العظيم . وجردت من عزى القديم . وسلبت كل نعمة وأى نعيم . وتالله ما هنت ولكن هنت أنت وقومك . ولا تخالف أمسى ويومى ولكن تنكر يومك . وإنما قعد شاطئ وقام شاطئ . وهان جانب . وعز جانب . وفسد بنون . وصلح بنون . وشقى أقوام وسعد آخرون . فما هومير بأعلى من هوجو مكانه . ولا زمان لسابق فى المجد زمانه . وأين أبقراط وإن حاز بسبق تفضيلا . ورتلت الأعصر ذكره ترتيلا

(١) دلف الشيخ والمقيد : مشى مشيا قارب الخطو وقيل مشى مشيا فوق الدبيب كما تدلف الكتيبة نحو الكتيبة فى الحرب . (٢) رجل هم بفتح الهاء أى ذو همة وبالكسر الشيخ الفانى . (٣) القباء بالفتح : ثوب يلبس فوق الثياب . وبالكسر المقدار . (٤) هوم : نام قليلا . (٥) الخضر نبى من أنبياء بنى إسرائيل . قيل إنه التقى بموسى عليه السلام بمجمع البحرين . (٦) السمة العلامة .

من بستور منار الطريقة . ومخرج الطب من ظلمات الريب إلى نور الحقيقة . وما رأت مراسح أثينا وإن جلت مثل سارا برنار حين تُبكى الطفل الناعم . وتُضحك الثكل الواجم . وتعتل فيجزع الطبيب . ثم تصح صحة لاتريب . وتشيب ثم تشب من بعد المشيب . ثم تموت ثم تحيا فى أمد قريب . من للاسكندر أسد الحروب الهائم . وآخذ العظائم بالعزائم . أن يقاس بنابليون قاهر ملوك الزمان . وطاعن الجيوش بالرأى قبل تطاعن الأقران . وكل هؤلاء لى أبناء . وأنا بهم أسعد الآباء . وجهى أبيض وعرنينى فى السماء (قلت) الآن اطمأن قلبي . ورد على لبي . فيا مرحبا بسيد الزوار . وأهلا وسهلا بأمير البحار . و إن يكن أزعجنى من مرقدى . وأطار سكينتى من يدى . فلو علمت بأنك قريب تدعى فتجيب . ما عرضت نفسى لهول هذا المقام . ولا بعت ذهب السكوت بفضة الكلام .

الشيخ — وأنا يشهد الله ما علمت أنك تنطق سدى . ولا تنفذ على العواقب المدى . وأنك كالطفل يدعو أمه للغمة ولغير الغمة . ويخرجها من الصلاة بأدمعه المستهلات (١) . ثم ينصرف عنها بعد ذلك لاهيا . كأن لم يجاذبها الثوب شاكيا باكيا . ما نقلت نحوك القدم ولاحفلت لك بوجود ولا عدم (قلت) ما بال الشيخ يبالغ فى الكلام . ويبلغ فى الملام إلى الإيلام . كأنه القيصر وأنا قد مزقت منشور السلام . أو أنه إديسون قد عطله معمله لأجل بضعة أيام .

الشيخ — ويحك يا ابن مصر قد كان لى غنى عن أن أعرّفك من أنا . فأين من ذكرت . ممن ازدريت واحتقرت . إن له مائة قرن لا سنة . لم يحزه مضجع ولم تأخذه سِنة . يمر نهاره بالشواطئ مرا . ويتعهدها بالليل برا فبرا . يخبر أحواله جيرانُه . و ينظر فى أعماله سكانه . يوكّل إحدى مقلتيه بالبر . ويلحظ بالأخرى أحوال البحر . وما القيصر بالآمر القوى . ولا منشوره بالنافذ المرعى . ما دامت هذه الأعلام . تخفق فوق هذى الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام . وما بقى هذا اللج يرج ويرج . وما أقام هذا الساحل يخرج نباته . ويقوت الأنام أقواته . وليس إديسون بالقادر على كهربائه . ولا الآمن فيها على أشيائه . مادمت أنا الطريق . والقرار السحيق . فوق الأفلاك . وتحت الأسلاك . إن شئت سلبت . و إذا شئت أوجدت . تيارى هو الأعلى . ومادتى لا تفسد ولا تبلى . هذا من أهنت . فمن أنت . يامن فخاره بغير قومه . واستشهاده بأمسه لا بيومه . وليس هو

---

(١) استهل المطر بمعنى انهل .

فى منخلية إلا كالفضلين بموكب الرؤية يبرز للناس فى ثياب لم يصنعها . وعلى مطية لم يصنعها . يركبها الى أجل . ويزجيها على عجل . ثم يزعم أنه السيد الأجل . وأنه يحسن ضرب الأمثال . ويزن مقادير الرجال .

ثم أمسك الشيخ مقتضبا . وراح عابسا مغضبا . فخشيت أن ينقلب عتبا . وما أخذت منه . ما أحفظ عنه . بغلت اللين لى عدة . أتق بها ما فى طباعه من حدة . وأستدفع ما فى لهجته من شدة فقلت .

(سائح)

(المؤيد) فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٩

٣

ماذا غيَّر سيد البحار . على وفيه الطائع البار . والخبير عنه كريم المقالة . حليم عن الجهالة . هاد من الضلالة . صفوح عن الزلات . يلتمس للمعثرات . ويتجاوز عن الهفوات .

(الشيخ) — قد كان ذلك يأتى لما كان العقل آية الناس . والإنصاف سمة الكل فى الأجناس . واليوم تقع أمور آراها . ولا سلطان لى على مجراها . تكاد تُفسد على أخلاق . ويكاد شهيدها يأخذنى بخناقى . ومما يزيد البلية أنى راع مسئول عن الرعية . أدبر الأمر جليله وحقيره . ولا تخفى على صغيرة ولا كبيرة . كأنى من هذا البحر فى فلك . أوكأنى عبد الحميد فى الملك (قلت) : لقد خُلقت يا مولاى عدو البطالة . أجدها مزرية مفقرة قتالة . وأرى صاحبها ميت الأحياء . لا جاه له وإن حكم فى الأمراء . ولا مال وإن انتهى إليه الثراء . ولا علم وإن انكشف له الغطاء . واطّلع على أسرار الأرض والسماء . وتعلم أن أيام الهجر طويلة . وأنها شديدة على النفس ثقيلة . لا حول للسافر فيها ولا حيلة . فلو استصحبتنى معك . أو أذنت لى أن أتبعك . لعلى أرتفع بخدمتك . وانتفع بحكمتك . فأقيم الدهر على شكران نعمتك .

(الشيخ) — على أن تلزم الصبر . ولا تكون معى ما كان موسى مع الخضر (قلت) : وأنت لا تكن معى ما كان النبى مع المصرى . غريب الغضب سريعا إلى الدم الزكى . فتبسم الشيخ ضاحكا ثم (قال) : الآن تظهر كأنك قادم على الكوثر . فإن لى رعية كاسبة عاملة دائبة . أشفق عليها من غبار الكسل . أن تختنق به فتمتنع عن العمل . إذ سرعان ما يدب دبيبه . ويعدى مكروبه . وتتفاقم خطوبه (قلت) الأمر لمولاى فلينظر ماذا يأمر (قال) كن مع القوم بشبحك وجثمانك . وكن معى بفؤادك ولسانك . وانغمس فى هذا الماء .

وليكن رأسك فيه ورجلاك إلى السماء (قلت) أما للشيخ عن هــذا المقترح . فإنه مردود مطّرح . إذ ما أنا من الأسماك . ولا أظن بنفسى الرغبة فى الهلاك . خصوصا ونحن الآن نسير فى لجة (أزمير) . وهم يقولون إن الحيتان فيها كثير . فلا آمن إحداها أن تفغر فاها فتلتقم الهامة وما تراها .

(الشيخ) — قالوا إن سوء الظن من أقوى الفطن . لكنه لا يكون فى الكبيرة والصغيرة . ولا يستعمل فى المواقف الخطيرة . فإنه حينئذ يكون آفة الإقدام وحيلولة دون بلوغ المرام . وأنا لا أجد ما يحملك عليه . ولا أرى من داع — يلجئك إليه . ألم أقل لك إنى معك . أضر نفسى لأنفعك . وأعصمك إلا من أمر الله . وأقيك إلا ما قدره وقضاه . فقلت فى نفسى وما يدريني . أنه قدر حيني . لكنى لم أجد بدا من التسليم والسكوت . فتلوت (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أبقرار البحر أم ببطن الحوت . ثم اغتَمضتُ[1] جفونى من نفسها . وتجردت أعضائى من حسها . فسقطتُ فى الماء . كمن به إغماء . وما هو إلا أن فتحت عينيّ . أنظر هل فارقتنى نفسى أم نفسى لدىّ . حتى رأيت اللجج . تنفتح لى فالج . وأنا أنفذ التيار . على القرار . فيتنحى لى الصخر . وتفسح لى السباع فى البحر . إلى أن مررنا بشبح جُسام مائل . كأنه البرج الهائل . قد اتخذت السمك فيه البيوت . واقتتلت على أطرافه فى طلب القوت . وهو يتحرك ثقيل الحركات . شبيه الكائن الحى ولا حياة . فعجبت مما رأيت . والتفت إلى الشيخ فسألت . لمن جثة بلا حراك . تقتتل عليها الأسماك . وما هذا الحيوان . وما باله قد سهل عليه الهوان . وهو لو تقلب لقهر وتغلب . ولو ضرب بالذنب . لأورد هذه العصب موارد العطب .

(الشيخ) — هذه يابنيّ الحوت الكسلانة . تصبح فى الذل وتمسى فى المهانة . ما زال الكسل بها حتى أكلت شحمها . وتوشك أن تلحق به لحمها وعظمها . أتتنا فارة من مياه الصين . لكثرة ما تختلف عليها السفين . فى هذا الحين . وعلم الله لولا أنها بغيضة إلى الخالق . وأن كاره السعى يكرهه الرازق . لأذقتُها لباس الأمان . ولأجرتُها من هذه الديدان . لكنى أخاف على رعيتى منها . فلا أذود جنودى عنها . وما هى بين حيوان البحر . إلا كالصين بين إنسان البر . وما أصدق روشفور حيث يقول : « لو خرجت أمة الصين . وفى يد كل واحد منهم غلق من طين . لردموا أوروبا والأوربيين » قلت . (سائح)

---

(١) فى الأصل : اغمضت .

المؤيد فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٩

٤

صدق روشفور وما صدق إذ من أين صنيع الخلق . لأمم خلق الله وما خلق . كالنمل لكن النمل تحسب للغد حسابه . وكالحصى لكن فى الحصى مقاومة وصلابة . والعصر يا مولاى عصر علم وعمل . وسعى وأمل . الأمر فيه للعُدد لا للعدد . والنهى للحديد لا للبطل . لمدمم ومكسيم . لا الجيش العظيم . والنصر كما قال الوزير الألمانى معقود بحذق الكيماوى . والدنيا لمن غلب . لا لمن طلب . والملك بيد الله من شاء أعطى ومن شاء سلب .

(الشيخ) — سبحان ربى . قتل اليأس الرجال . حتى بيعوا بيع النعال . هذه يا بنىّ معاذير مكسال[1] . وتعلات تنبال[2] . وأقوال يراد بها الإضلال . ويهيب بأمثالها الأطفال . لا تجرى بها الألفاظ إلا فى بلادكم . وما أعظم ما تجنى عواقبها على أولادكم . تلدونهم لليأس فياشؤم ما تلدون . وتنشّؤنهم فى خوف الذل فهم فى الذل خالدون . العصر يا بنىّ إباء واستعظام . وروح و إقدام . وحرب خلف ستار السلام . النصر فيها لمن استقام . ثم سعى ليدرك المرام . عصر نازل الهر فيه الأسد . وبرز الأعزل الأحد . إلى العديد والعدد . وقاتلت الضفادع الحيتان . واصطدم الفخار بالصوان . كل ذلك فى سنين معدودات . وحقب متعاقبات . تقرءون إجماله فى التلغرافات . وتجدون تفصيله فى الصحف السيارات . لكنكم بإزائه كالطفل تشجوه الحكايات . ولا يهتدى لما فيها من الرموز والإشارات . أو كالمقبلين على سيرة عنتره . فريق يتنصر للترنسفال وفريق مع انكلتره . إذا استقلت اليونان . قلتم حرتها الدول ذات الشان . و إذا ذهبت كريد قلتم لأن أهلها نصارى . ولأن لهم من المجموع الأوروبى أنصارا . و إذا مدّت أيرلندا إلى الله يدا . قلتم لن تفلت من مخالب الأسد أبدا . و إذا استقلت الترنسفال . فى طلب الاستقلال . قلتم زلة يأتيها الرئيس . ولا كزلة إبليس . يخلطون الجد والمجون . ويخبطون فى الظنون . ناسين أنفسا قتلت . وأموالا بذلت وطمأنينة سلبت . وخطوبا تألبت . وحوادث شيبت . إلى أن ساعفت المقادير الآمل . ووضعت العناية يدها فى يد العامل . فكم من ضعيف كان الله نصيره . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة .

---

(١) المكسال : الكسلان . (٢) التنبال : الرجل القصير .

(قلت) — لقد ذكرتنى القاهرة والأحاديث فيها . كأنك تجلس على قهاويها . وتلعب البوكر فى نواديها . فخلنى بالله مما أنا فارّ منه . لو لم يفتح الحديث بعضه بعضا ما سألتك عنه . وكنا قد بلغنا إلى القرار فنظرت وإذا أنا بملايين من السفين بين سافل وعال . وعاطل وحال . وجديد وبال . ومنهـا الفخام والضئال . والخفـاف والثقال . بعضها فوق بعض فالتفتُّ إلى الشيخ وسألته لمن يا مولاى هذه الأساطيل . إنى أخالك الملكة وهـذا هو اليوبيل . وما بالك تبلى سفينة . وتجيز أخرى على البلى . وتعطل واحدة . وتبقى على أختها الحلى .

(الشيخ) — تالله تفتأ تضرب الأمثال . وتذهب كل مذهب من الخيال . هلا تركت الملكة ويوبيلها . وبحارها وأساطيلها . ونظرت إلى سفن الإسكندر . عند جوارى قيصر . يليهن أسطول بختنصّر . فمنشآت سليمان . مشحونة باللؤلؤ والمرجان . بليت الجبال وفنيت الأجيال . وهى باقية لا تزال . تضحك من غرور الرجال . وتبكى من خشية الملك المتعال . ما كان منها هالكا فبظلم أهله . وما كان منها حافظا لشكله . باقيا على أصله . فلابن داود يدل على فضله . ويشهد على الأمد بتقواه وعدله . وها أنا أعرضها عليـك جمعاء . لتختار منها ما نصعد عليه إلى المـاء . ونركب فيه إلى حيث نشاء (فقلت) :

(سائح)

(المؤيد) فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩

٥

سبحانك اللهم خير المنعمين . من أنا حتى أحكم فى أساطيل الأوّلين . ووارث سليمان والإسكندر والمـلوك المتقدّمين . ثم حرت فى نفسى ماذا أختـار . وجدير أننى أحتـار . وخشيت إن أنا قبلت السفائن . عن ذات الكنوز والخزائن . والمرأى الفاتن . والرواء الزائن . واتخذتها يختى فى البحـر . كأنى أحد ملوك العصر . أن تبصر بها غول أوربيـة . فتغتالها ولو كانت أبيّة . فاقتربت من فلك خفيف الوزن . قليل الشأن . ضائع بين السفن ثم قلت للشيخ قد اخترت يامولاى هذه الجارية ، فهل تراها كافية . (الشيخ) — تعالى يا (بلفرون) . حدثينا عن المنفى الميمون — ماذا كشفت من حال . وعلام هذا السؤال (قلت) — أخاف يامولاى أن يهتدى الإنكليز إليها . أو يرانا الفرنسيون عليها . فتقوم قيامة الدولتين بسببها . وتجدّ كلتـا الأمتين فى طلبها . ويصبح دريفوس اثنين . وتعـاد فشوده مرتين . فضحك الشيخ من هذه المبالغة فى الحـذار و (قال) مضى يابنى زمن فيـه (تنصرت الأشراف من

أجل لطمة[1]) وقالت امرأة (وامعتصماه[2]) فجمع المعتصم بهمه[3]. وأضاق بها ذرع الأرض من أجل هذه الكلمة. وأخنت الحرب على (بكر) وجارتها. من أجل (عجوز[4]) وناقتها. وتفانت أساطيل الفرنسويين والإنكليز. على عهد لويز[5]. من أجل سفينة لم ترفع الأعلام

---

(١) جبلة بن الأيهم (٠٠ — ٢٠ هـ) من آل جفنة الذين خرجوا من اليمن وملكوا الشام. وأولهم الحارث ابن عمرو وكان جبلة آخرهم. وهو الذي تنصر في أيام عمر بن الخطاب بعد أن كان قد أقبل إلى عمر وأسلم. وذلك أنه كان في الطواف فداس رجل طرف ردائه فلطمه جبلة فأتى الرجل سيدنا عمر فطلب جبلة ليقيده منه فتنصر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية فأقطعه هرقل الأموال والضياع والرباع. ثم ندم جبلة على ما كان منه وقال:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة   وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفني منها لجاج ونخوة   فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمي لم تلدني وليتني   رجعت إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة   وكنت أسيرا في ربيعة أو مضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة   أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

(٢) بينا كان توفيل ملك الروم حوالي سنة ٢٢٣ هـ يغير على بلاد المسلمين ويغزوهم بجيوشه ويوقع بأهل زبطرة وملطية وغيرها ويقتل الرجال ويسبي الذرية والنساء، بلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو على سريره: لبيك. لبيك. ثم نهض لساعته على رأس جيش كبير واجتاح دروب الروم وقراها في آسيا الصغرى وفتح عمورية. وكان يصحبه أبو تمام الشاعر الذي نظم في ذلك الفتح قصيدته المشهورة (السيف أصدق أنباء من الكتب). وفيها يقول:

لبيت صوتا زبطريا هرقت له   كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
أجبته معلنا بالسيف منصلتا   ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منقعرا   ولم تعرج على الأوتاد والطنب

(٣) البهمة (بضم الباء وسكون الهاء): الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه ج بهم (بضم الباء وفتح الهاء).

(٤) إشارة إلى حرب البسوس وهي حرب بكر وتغلب ابني وائل. لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب وهم عامر وربيعة وكليب. والأخير هو الذي يقال فيه أعز من كليب وائل. وقاد معدا كلها يوم خزازى ففض جموع اليمن وهزمهم فاجتمعت عليه معد كلها وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته. ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه. وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة. وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جساس بن مرة. وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة. وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس. وكان لها ناقة يقال لها سراب ولها تقول العرب أشأم من سراب وأشأم من البسوس. فمرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة بفناء بيتها بجوار جساس بن مرة. فلما رأت سراب الإبل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الإبل واختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة. فلما رآها أنكرها فانتضل عليها بسهم فخرم ضرعها فنفرت الناقة وهي ترغو. فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت واذلاه واجاراه وخرجت فأحست جساس فركب فرسا له وتبعه عمرو بن الحرث بن ذهل بن شيبان حتى دخلا على كليب الحمى فطعنه جساس فقصم صلبه فوقع كليب وهو يفحص برجله. فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النهى. وتشمر المهلهل أخو كليب واسمه عدي بن ربيعة واستعد لحرب بكر. وكانت حربا طويلة ذات أهوال أشبه بالحروب التي كانت تذكى بين المدن اليونانية فتنشر المحن والفتن وتشق البلاد والعباد.

(٥) يوجد في فرانسا ثمانية عشر ملكا باسم لويز من الأول إلى الثامن عشر. ولا أدري أيهم يقصد شاعرنا.

للتحية والسلام . ولم تقابل راية الملك بالإكرام . وهذا يابنى زمن تاجر . لا يهمه فلك دائر . ولا يهمه ملك غابر . باب الحق فيه مبهم . ودينار الشرف عند بنيه درهم . فكأنهم القرصان . فى كل مكان . غزوهم غارة . وحربهم تجارة . وربحهم غير الأصفر الرنان خسارة . من استند إليهم فقد استنام إلى جدار مائل . ومن اعتمد دون النفس عليهم فما أمن الحبائل . ولا سكن الرجاء إلى ظل زائل . علقتم بهم الآمال . آمال المصاب بالسلال . كلما أعضل الداء . وعز الدواء . جذبه الرجاء . وتمثل له الشفاء . أمراؤكم عليهم متهافتون . وسراتكم إليهم متلفتون . وشبانكم بهم مفتونون . يحرم غنيكم فقيركم . ويعطيهم بكلتا اليدين . ويخذل كبيركم صغيركم . ومؤاساتهم عليه دين . من مشى منكم مع قبعة فكأن أبا بكر معه . ومن تكلم لهم بلسان . فكأنما جاء بقرآن . ومن شاركهم منكم فى رئاسة . زعم الذل من حسن السياسة . وحسب احتمال الهوان زيادة فى الكياسة . فنصيبكم من معالى الأمور . فى نظر الجمهور . ما لموتى البطارقة فوق كراسيهم فى القبور . وهيهات . تجردتم أحياء من الرئاسات . وما نزل البطارقة عن عروشهم وهم أموات . فإن كان لكم عند القوم جزاء فالسخرية والاستهزاء . أو مكافأة فالاحتقار والجافاة . أو قيمة معلومة . فقيمة الأمة المملوكة المحكومة . فاركب يابنى التى وقع عليها اختيارك . ولا تخف فأنت جار الله وأنا جارك . ثم أوما فأغمضت الجفون واحتوتنى (بلفرون) فما انتبهت إلا وقد صارت السفلى هى العليا وردتنى الآخرة إلى الدنيا فقلت سبحانك اللهم الملك لك . ولا حول ولا قوة إلا بك . أعطيت الشيخ مالم تعط سليمان . ووهبت لى مالم تهب للهدهد فى الزمان . أين أمسى من يومى . وهل نالها سواى من قومى . وهنالك التفت الشيخ إلىّ و (قال) الآن يقترح ابن مصر . وما عليه من إصر[1] . (قلت) إن لى نفسا مولعة بالجديد . متطلعة إلى المزيد . من كل شىء مفيد . وليست إسبانيا بالقاصية فلو أمر الشيخ بالجارية . فجاءت ساحلها راسية . لعلى أرى كيف نقضتها الحرب من الأسس . وانظر كيف لحقت اسبانيا بالأندلس (قال) :

(سائح)

---

(١) الإصر : الثقل والعهد و — الذنب .

(المؤيد) فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩

٦

ما أعجل المصرى إلى تناول ما لا يعنيه . وما أسرعه إلى الدخول فيما لا يعنيه . يستهزئ بالكبيرة . ويهتز من الصغيرة . ويذر القبة . ويبتدر[1] الحبة . ويقدم المهم على الأهم . ويشتغل عن الأخص بالأعم . ولا ينظر إلى الحريق فى داره . وينظر إلى شعاع الشمس المنعكس على الزجاج فى بيت جاره . ولا يهمه الدنيا كيف زالت . ولا الحال كيف حالت . ولا المصائب كيف انهالت . ولا الخطوب كيف جلت وهالت . ويلفته ويهزه . ويثيره ويفزه . خبر فى روتر عن الرئيس كروجر . أو نبأ فى هافاس عن القضية فى فرنسا . أو الروسيا فى الصين . أو أمريكا فى فيلبين . فما لك ولأسبانيا تنظر لحالها . وتهتم بمآلها . ولست من رجالها . ولا لك عيش فى ظلالها . فقلت فى نفسى اللهم صبرا جميلا . وحلما عريضا طويلا . فلئن دامت الحال . على هذا المنوال . فبينى وبين الشيخ أخذ ورد . وخلاف ممتد . وشعب[2] منسد . ثم (قلت) الشيخ إن كان يامولاى ولا بد فإنما المؤمنون إخوة . وإنما بعضهم لبعض أسوة . والمسلمين من أفريقيا شمالها . فلو أشهدتنى الجزائر كيف حالها . وأريتنى تونس كيف احتلالها . وخبرتنى عن طرابلس ما مآلها . ونبأتنى عن مراكش أيان زوالها .

(الشيخ) — هذا أعجب من تلك . تكاد وأيم الله تضحك منها الفلك . ويحك متى اهتم غريق بمبتل . أو سأل ميت عن معتل . وهل يغنى محزون عن محزون . أم هل يؤدى مفلس عن مديون . فلا تُطَبِّب يا جى واستطب[3] . وابدأ بنفسك ثم بمن تحب . واعلم بأنك إذا صَلَحْتَ صَلَحَتْ الأقوام . وإذا فسدت فالفساد عام . وأن مثل الإسلام فيما ينتابه من المصائب والآلام . ويتوالى عليه من الخطوب الجسام . كمثل الجسم فى حالة المرض يدفع الجزء المصاب بمقاومة سائر الأجزاء . ويستمد العضو السقيم بما يكون من قوة فى باقى الأعضاء . (قلت) : صدقت يا مولاى لو صادفت أذنا سامعة . لكنى من الذين يقولون (بالجامعة[4]) .

(١) يبتدر : يعاجل . (٢) الشعب (بالكسر) الطريق فى الجبل و — الناحية .

(٣) طبب : عالج . واستطب لدائه : استوصف الدواء أيه يصلح لدائه .

(٤) لعله يشير إلى الجامعة الإسلامية .

(الشيخ) — أغير الكتاب[١] جامعة يابنى . أم دون السُنَّة تبيين للرشـد من الغىّ . فإذا نشأ صغاركم فى حفظهما . وازدجر كبارکم بقوارع وعظهما . ونفضتم الأيدى من النفاق . وتحليتم بمكارم الأخلاق . وسرتم على نهج الأمة الغربية . فى المعاملات الأدبية . تعظمون الرجل العظيم . وتكرمون المحسن الكريم . وتختصون المستحقين بالتقديم . وتحقرون عالمـا لا يبرر أعماله . وتنبذون غنيـا يحبس عن البر ماله . وتلعنون الحاكم الكسلان . كما تلعن الملائكة الشيطان . كنتم أجمع لشمل الإسلام فى هذا المقام منكم فى تلك الدعاوَى والأوهام . وإلا فَمَثلكم فى حبكم المسلمين . ورقتكم لإخوانكم فى الدين .

كدجاجة حضنت لأخرى بيضها ... تحنـو عليـه وبيضها فى النـار

أو ذات عجل أرضعت تمثـاله ... وصـغيرها فى قبضة الجـزار

وفى هذه الهنيهة مرت بنـا بارجة . داخلة فى المـاء خارجة . كأنها حوت[٢] هائجة . فلم أدر إلا بالشيخ قد خف واستقبلها . ثم قال : يدعو لها " يايدى كونى زمامها . وياريح كونى وراءها . ولا تكونى أمامها . إنها رسـول العدالة فى البحار . وسفير الحق العالى المنـار" . فالتفت إلى الشيخ وسألته لمن يامولاى هذه الباخرة . وما يعطفك على هذه المـاخرة . (الشيخ) — لِأُمَّةٍ بالعدل قامت وبه تقوم . ولا ينام لها مجموع وبينها فرد مظلوم . ظنت بقضاتها الجور فى الحكم . واتهمتهم بالانحياز إلى الظلم . فانتفضت نساء ورجالا . وهبت شيوخا وأطفالا . تطلب إزالة الشك والأوهام . وتريد أن يتبين النور من الظلام . وهذه السفينة تنقل اليهودىّ[٣] من منفاه . إلى حيث يرفع عنه العقاب أو يوفّاه (قلت) لعلك تشير

(١) الكتاب : القرآن . (٢) الحوت : السمكة الكبيرة .

(٣) المسألة الدريفوسية : كان لقضية دريفوس دوى فى سياسة فرنسا الداخلية وفى أوساط الشعب الفرنسى الذى ثار كبار كتابه انتصارا للعـدالة التى انتهكت . دريفوس ضابط فرنسى حوكم بتهمة الخيانة بسبب كتاب بلا تاريخ ولا إمضاء إلى أحد العملاء الأجانب يشـتمل على أسرار حربيـة . وقد علمت به وزارة الحربية فى سبتمبر سـنة ٩٤ وفى ٢٢ ديسمبر أصدر مجلس عسكرى حكمه على دريفوس بالنفى إلى إحدى الجزر النائية وتجريده من رتبه العسكرية . ولكن المتهـم ظل يحتج على إدانته ويطالب بإعادة النظر فى القضية حتى قيض الله له فى سـنة ١٨٩٧ أحد أعضاء مجلس الشـيوخ الفرنسى الذى اقتنع ببراءته بنـاء على معلومات قدمها له رئيس مكتب المخـابرات تثبت أن قائد المشاة إسترهازى هو الخائن . كما أن أخا دريفوس شهر بهذا الأخير . فأخذ الشعب يضج ويتململ وقامت حركة عارمة تطالب بالنظر فى القضية من جديد . وقـد حوكم إسترهازى أمام مجلس عسكرى محاكمة صورية على وقائع متصلة بالحادث ، لا على وقائع الجريمة الأساسية نفسها ، وأعلنت براءته بالإجماع (١٨٩٨) . عندئذ قام إميل زولا كاتب فرنسا الأكبر واتهم علانيـة المجلس العسكرى بأنه أصـدر حكم البراءة المذكور بناء على تعليات وأوامر صادرة له فأحيـل بدوره إلى المحاكمة أمام هيئة المحلفين فحكم عليه بالسجن لمدة سـنة وبغرامة قدرها ٣٠٠٠ فرنك . ولكن ذلك الحكم ألغى فى ٢ أبريل سنة ٩٨ . وفى هذه الآونة تقدم الكولونيل هنرى أحد كبار شهود الإثبات فى قضية سنة ٩٤ واعترف =

إلى القضية . وتعنى الأمة الفرنسوية . فلا در در اليهودى . حتى فى البحر له دوى . لكن ماذا انتفاعى بحديثه . وماذا يهمنى معرفة طيّبه من خبيثه . وأنت قد علمتنى أن لا أشتغل بالبعيد عن القريب . ولا أنصرف عن النسيب إلى الغريب . وأن لا أدع أمرا واقعا وآخذ بآخر مريب . فضحك الشيخ من هذا الاستنكار . ثم (قال) من علّم المصرى أخذ الثار . فلو أنك قسمت الفلك بالفلك . لتعلم أنه لولا هذه ما كانت تلك . فهذه حملة طاغية الزمان . ومقوض العروش ومسقط التيجان [1] . وكان أقاربه يطلقون الرصاص على الخواص . ثم لا يلقون القصاص . كانوا ينفون الرجال المشاهير . بمرأى من الجماهير . فلا يمانعهم أحد . ولا تغـل لهم يد . كانوا يذلون من شاؤوا . ويُعِزّون كلما راحوا وجاءوا . كانوا يفضون المجالس النيابية . ويديرون دولاب الأغراض بالدوائر القضائية . وبالجملة كانوا يحولون بين الكتاب والأقلام . ويجعلون أعواد المنابر نعوشا للخطباء العظام . وتلك يا بنى ترد إلى الأمة من اتهمته بالجناية عليها . والإساءة بالخيانة إليها . وإطلاع العدو على مالديها . وهى مع ذلك تتطوح فى المهالك . وتقتنى عداوة الدول والممالك . لا من أجل در يفوس . ولا حبا بشخصه النحيس . لكن فى سبيل آية يجلها الله ويكبرها . ولا يخذل أمة تنصرها . وهى (لا جناية لمن لم تثبت جنايته) . وما بين السفينتين إلا جيل [2] . وهو زمن ليس بالطويل . وأمد فى حياة الأمم قليل . فانظر كيف بلغ القوم فيه أوج العلاء . وأصبحوا عرشهم كرسى القضاء . وتاجهم العدالة الشماء . وغيرهم لا ينفك عن حالاته . يصبح فى جهالاته . ويمسى فى ضلالاته . يغدو بالنير مسرورا . ويروح بالقيد فخورا . يضع الخد ليلطم . ويبذل النفس لتظلم . ويسامح فى الحق أن يهضم . ويتم على أخيه . ولو كلف لوشى بصاحبته وبنيه .

(سائح)

= بأنه كان زور الوثيقة التى كان تلاها رئيس الوزارة فى مجلس النواب فى ٧ يوليه سنة ٩٨ وأكد صحتها . وكانت الوثيقة تثبت خيانة در يفوس . فلم يسع سلطات الجيش إلا أن ألقت القبض على الكولونيل هنرى ونفته . . فانتحر . وقد أعادت وزارة بريسون النظر فى القضية أمام دوائر النقض مجتمعة فقررت إلغاء حكم سنة ٩٤ ثم حولت القضية من جديد إلى مجلس عسكرى فى مدينة (رنّ) فظل ينظرها من ٧ أغسطس إلى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٩ وانتهى إلى إدانة در يفوس « مع الظروف المخففة » وحكم عليه بالحبس عشر سنوات . ولكن رئيس الجمهورية وقتذاك لم يسعه إلا إصدار العفو عن در يفوس والتنازل له عن المدة المحكوم بها .

(١) إشارة إلى نابليون الذى نفى فى سنة ١٨١٥ إلى جزيرة سانت هيلين .

(٢) الجيل : أهل الزمان الواحد . قال المتنبى " وإنما نحن فى جيل سواسية " يقابل بالفرنسية génération ومعناها فى المعجم الفرنسى « أولئك الذين يعيشون فى زمان واحد » .

(المؤيد) فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٩

٧

وكانت حدة الشيخ تزداد . كلما تدفق فى الإيراد . حتى بلغ إلى الإرغاء والإزباد . فأردت أن أخرجه من الكلام . وأن أغير من مقام إلى مقام (فقلت) أرى يا مولاى . ذات شراع لها فى الموج اندفاع . وهى بين وثوب واستجماع . كسرب الطائر المرتاع . أو كنفار الظبي فى القاع . أو كخيمة أطارتها الرياح . فتقاذفتها البطاح . أو كلجّة متطايرة الرشاش . تنساب أحيانا وتحاش . فماذا لديها . ومن يا ترى عليها . فلم يكن من الشيخ إلا أن رفع يمينه . فاقتربت السفينة . فأشرفت أنظر من فيها . وأطّلع على باديها وخافيها . فإذا أنا بأطفال قعود بينهم رجل قائم . يسق هذا ويطعم الآخر ويسهر على ثالث نائم . وهو يخدم إشارة الجميع . كالعبد الوفىّ المطيع . ويحنو عليهم حنو الوالد الشيخ الكبير . على ولده الواحد الصغير . (فقلت) للشيخ لعلهم يا مولاى أبناء بعض الملوك . وهذا الرجل خادم لأبيهم أو مملوك .

(الشيخ) — بل هم صبية من بنى الإسلام . فقراء منذ الولادة أيتام . وهذا قسيس يؤويهم . ويطعمهم كما ترى ويسقيهم . قد جمعهم من تونس والجزائر . وهو بهم إلى بلاده سائر . حتى إذا كملت نشأتهم فيها . وأخذوا العلوم على معلميها . كان لهم العذر أن يحبوا من البلاد ما نشئوا لديه . وأن لا يعرفوا عن الدين إلا ما فتحوا العين عليه . وكم لهذا من أمثال . يجوبون جبالا تشهد أنهم الجبال . وبحارا شاهدة أنهم الرجال . رجال العظائم والأهوال . لقد رأيتَ يا بنى شيئا وغابت عنك أشياء . ولم تعلم إلا ظاهرا من أمر هؤلاء . إنهم هم الجنود الفاتحون . والسفراء الناجحون . والعلماء العاملون . والأغنياء الباذلون . ودعائم السلام فى الأنام . وكهوف الأرامل وملاجئ الأيتام . عهدتهم لا تخلو منهم فى البحر سفينة . ولا تقفر منهم فى البر مدينة . ولولا أن المسلم لا يفارق دينه . ما تركوا نفسا مطمئنة بدينها أمينة . والآن ألا أطلعك على نظرائهم من الفقهاء . والسادة حملة الدين الأجلاء . (قلت) بلى . ولم لا . فأمرنى الشيخ أن أغمض عينىّ فامتثلت . ثم قال افتحهما ففعلت . فسألنى ماذا ترى . ولمن هذا الثرى . (قلت) أهلا بالبلد الحبيب . وألف سلام أيها الشاطئ الخصيب . هذه الجزائر فهل أوافيها . ولك الشنطة وما فيها . ومدة الهجر تقضيها عنى وتوفيها . فقد زرتها مرة فى الدهر . وأقمت بها شهرا أو بعض شهر . فيا طيب ما بلوت يوم ذلك .

وتلهيك بمآرب قضاها الشباب هنا لك . فلما رأى الشيخ أنى أودع الصبر . من طول برهة الهجر . وأجود بالقطر . على البحر . تبسم ضاحكا ثم (قال) أراك مللت الغربة . وسئمت من الصحبة . وأضاقت ذرعك الأسفار . وغالبتك البحار على الاصطبار . واشتقت إلى الاستقرار لدى الدار . والاقتصار على الجار . تزور وتزار . وتنفق أيامك القصار . فى جمع الأحاديث والأسمار . ويحك هل العمر عمران . أم هل لخرابه عمران .

أم أنت تحب أن تكون مثل هؤلاء . وأرانى الشيخ منزلا على الماء . فيه ثلاثة من العلماء . أحدهم صاحب الدار . والآخران من الزوار . وهم جلوس فى حجرة . يأنف الضب أن يتخذها جحره . قد سمج شناؤها وانحط سماؤها . وفسد هواؤها . وأظلمت أرجاؤها . وخلت من النظام أشياؤها . وخلعت النعال لدى الباب . ووضع فى الحجرة نحو ألف كتاب . يمرح الفأر فيها ويحجبها التراب . والقوم هناك قعود . لكنهم رقود وسجود . وما صلوا لذلك المعبود . عيونهم فى الأرض من الإطراق . وتكاد رؤوسهم تسقط من الأعناق . وقد لزم الباب فتيان . يقومون لصاحب الدار مقام الغلمان . وهذا يجىء بمتن ويرجع بحاشية . وما يحملها إلا كالماشية . فالتفتُّ إلى الشيخ و (قلت) — تالله لميتة فى قرار الماء . خير من حياة هؤلاء . هذا الفضاء حولهم فهلا خرجوا إليه . وهذا البحر دونهم فهلا جلسوا لديه . وما لهم ولكثرة الخدم . وقيام الإنسان لهم على قدم . وهم العلماء الأعلام . حملة آداب الإسلام .

(الشيخ) لو أن هؤلاء خدم كما ذكرت . لكان الشر أهون مما قدرت . لكنهم بنوه . وقرابته وذووه . فانظر كيف يستخدمهم . ويتعلم بهم ولا يعلمهم . ويحرم الدنيا منهم ويحرمهم . ويوجدهم الله وهو يعدمهم . ثم انظر يا بنى إلى البلوى كيف عمت . وإلى المقادير كيف حُمت . وكلمة الله على الشرق كيف تمت . إنى لأقيس هذا العالم بذاك القسيس . فأحار فى صنع الله وحكمته . وأعجب من اختياره وقسمته . وأسائل نفسى كيف يرزق دين . ويرزأ دين . ويمنح الله قوما . ويمنع آخرين . فلا يستوى الرجلان هذا ذئب يسترق الأمم لدولته . ويُدخلهم فى ملته . وهذا زاهد فى الصيد . كأنه عمرو بن عبيد [1] . وقد تقيد ولا قيد . فلم ير إلا زيدا ولم يرو إلا يزيد . شغلته البسملة . بسملة القرآن . ووقف

---

(١) عمرو بن عبيد (٨٠ — ١٤٤ هـ) شيخ المعتزلة فى عصره وأحد الزهاد المشهورين وفيه قال المنصور العباسى : « كلكم طالب صيد . غير عمرو بن عبيد وقال فيه يحيى بن معين : « كان من الدهريين الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع » .

به العلم حيث النملة . نملة سليمان . فاستوقف الإنس والجان . يسائلهم أمن الأناث هى أم من الذكران . فسبحان المنعم وتبارك الرحمن . خلق الإنسان علمه البيان . (قلت) .

(سائح)

المؤيد فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٩ :

٨

قلت إن لمولاى لعذرا . أن يضيق بهذا ومثله صدرا . على أننى أنظر الآن إلى مشهد من الغرابة بمكان . فلو أرشدنى الشيخ إلى السبب . لعلى أخرج من العجب .

(الشيخ) — إنما تنظر إلى الرجلين فى العمل . هـذا فى السهل وهذا فى الجبل . فأما رب السهل فنائم . فى وقت الغنائم . سالٍ سلو البهائم . تراه على الفطرة لم يتحـول . كأنه الفلاح الأول . أو قابيل فى زراعته . أو هابيل فى رعايته . قد حمّل دابتـه فوق الطاقة . وسامها الأشغال الشاقة . يقتلها وهى تحييه . ويجيعها وهى تطعمه وتسقيه . حتى أصبحت أرضه ياقوتة الجدب الصفراء . وحقها أن تكون زمردة الخصب الخضراء . نباتها من عندها لا من كدح اليد وكدها . وإثمارها من نفسها . لا من فعل اليد وغرسها . بحيث لو لم يكن هذا الميت(1) رَجُلها . لآتت من نفسها أُكُلها .

وأما رب الجبل فكما تراه . لا تنقبض يداه . ولا تسكن قدماه . موكلا بالذُّرى(2) يطلعه والصخر يقطعه . والحصى يحصيه ويجمعه . وفضاء الأرض يذرعه ويزرعه . قـد خرق قلل الأطواد . وجعل فيها التربة والسماد . كما تملأ السن النخرة فتصلح بعد فساد . حتى أصبح الجبل متنزها وجنة . وقرية آمنة مطمئنة . الهبوط منـه ميسور . والصعود إليـه مقدور . والنعيم كل النعيم لديه موفور . فمن كهرباء . يراح عليها ويجاء . وتجلب للزرع المـاء . وتضىء منه الحواشى والأثناء . فهى بالنهار سخرة وبالليل ضيـاء . ومن بخار أراح الأنعام . وأقعد الإنسان وقام . تغنى الساعات معه عن الأيام . ويستوى عنده اليـد الناعمة والساعد العبل الجسام . ومن ماشية عنى بها فى التغذية . وبولغ لهـا فى التربية . ورفق بها فى الأشغال . وحيـل بين قواها وبين الأثقال . فبلغ بها السمن . وبلغت من الثمن . فأصبحت مرجوة النسل مع الزمن . وبالجملة فلولا هـذه العين الراعيـة . والقدم الساعيةُ . والهمة العاليـة .

(١) الميت : المستثقل فى النوم والعرب تسمى النوم موتا .

(٢) الذرى نسبة إلى الذروة وهى للعلو .

والعزيمة الماضية . ولولا هذه الشمال الغارسة . واليمين الجانية . ما نبت الشجر من الحجر . ولا جُنى من الصخر الثمر . ولما أصبح للجبل الفضل على السهل . وما الفضل فى الحقيقة إلا للعقل .

الرجلان يا بنىَّ أخوان . يتجاوران . منذ ستين عاما لدى هذا المكان . هذا جزائرى . وهذا فرنسوى . وفى الجزائر اليوم من معامل الصناعة لمن أراد أن يتعلم . أو رغب فى أن يستخدم . ما لا ينقطع تشييده . ولا يحصى عديده . ولا يرد مريده . وفيها من المدارس العالية . ما يرشح للوظائف السامية . ويؤهل للمحاماة والتطبيب فى كل ناحية . والشهادات التى تحصل منها . كشهادات باريز أو تقل فى النفقة عنها . يتخرج فيها الفرنسويون ويتربى بها الطليانيون . والمالطيون . والأهالى عنها عمون . وفى نماء العلم والتربية زاهدون . قد رضوا لأنفسهم الهُون(١) . وقنعوا من متاع هذه الدنيا بالدون . وأنا أرى هذه الأحوال وأشاهدها . وأعانى هذه الأمور وأكابدها . مأخلّ معرض المتعارضات . ومجمع المتناقضات ومجلى الآيات . ومرآة المدهشات . ههنا الظلام . وهنا النور التام . وأمامك الحياة والأمل والعلم والعمل . والممالك والدول . والمثال الأعلى الأجلى . لتعاون الأمم والملل . ووراءك الجهل والكسل . والعثار والزلل . والخطأ والخلل . والتخاذل والفشل . والأدواء والعلل . والتحاسد فى ساعة حلول الأجل . فحيث التفت رأيت النعيم ضافيا على أقوام . يقابله عند آخرين الشقاء العام .

وما كاد الشيخ ينتهى من المقال . ويفرغ من شرح الحال . حتى جاءته سمكة فى لون المرجان . كأنها سبابة الانسان . أو لسان الميزان . أو عقدة الشيطان . أو نملة سليمان . فسألها ما وراءك يا دودة البحار . وما أزعجك عن مثواك بالقرار . قالت جئت يامولاى إليك أمثل جاراتى لديك . لنستجير بك من حوت . دهمت البيوت تقلبها عن القوت . فدمرتها تدميرا . وأكلت منا شيئا كثيرا . قال هل تركتيها تفتك فيكن . أم أخذت الغيرة منكن . وأغنى الثبات بعض الشىء عنكن . قالت بل خلفت قومى يدافعونها دفاع أهل الفتوة . ويعدون لها ما استطاعوا من قوة . حتى أدموا لها عينا وبقيت عين . وغادروا ذنبها أثرا بعد عين . قال الآن استوجبتن عطف الله ورقة القوى . فلتُنصَرنّ على العدو والبغى . ثم إنه التفت إلىَّ وقال . أمّا أنت فلك فلكك . ولى فلك . فلن تشغلنى عن إجراء العدل فى الملك واعلم أن الليلة تحتفل مملكة الماء . بذكرى الولادة الزهراء . ولادة أشرف الأنبياء . فهل

---

(١) الهون (بفتح الهاء) : اللين والسهولة . وبضمها : المهانة والمذلة .

تريد أن تشاطرنا الهناء . أم تؤثر العودة إلى السفينة . وتكتفى بما تتخذ (المحروسة) من زينة فى مياه (كلازومينة) — (قلت) فداك أبى إن المحروسة وصفا البحر لمولانا ولنا على ممر الدهر . وإن ماذكرت من احتفال الدأماء . واحتفال عالم الماء . لمما لا يدرك . فإن أدرك . فمن الحق أن لا يترك . فكيف أكره أن أوخذ إليه . أو أوثر منظرا ، ولو كان الجنة ، عليه .

(الشيخ) — إذن فان الزينة لا يشرع فيها . ولا تأخذ زخرف مجاليها . حتى يعتلى القمر ويبلغ فى السمو المستقر . فاذا سفر . وأشرق وزهر . ودخل فى يومه الثانى عشر . هبطت بك (بلفرون) بعد صعود . وهنالك أطلعك على المشهد الموعود . (سائح)

(المؤيد) فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٩

٩

فلم أدر إلا بالشيخ قد غاب . فى ألفاف العباب . والسمكة بين يديه تنساب . كطليعة لشريف الركاب . فنظرت حولى وإذا أنا وحدى فى تلك كالمنار . المنصّب فى البحار . لا مجذاف ولا بخار . ولا مؤنس إلا الألطاف والأسرار . ثم تقصيت النظر ، فبدا لى من جانب الأفق شبح أغر . يتلألأ كعمود الفجر . فحققته فإذا هو (صفاء البحر) . قد أخذ زخرفه وازيّن . وتجلى فى رواء ما أحسن . تليه (المحروسة) ، منورة مأنوسة . يودّها البحر عروسة ، وهى تموج بأبهى زينة . كأنها فى البحر مدينة . فقلت فى نفسى هذا المولد السعيد . وتلك بشائر العيد . فكيف بها فى عالم الخفاء . ولجة اللطف والبهاء . وكان الغروب . فتمثل أيها القارئ اليختين وما يجاورهما من السفن فى الجحر لدى لجة تملك أطرافها جبال . الجبال ذات اليمين وذات الشمال . بعضها ناهض يناغى السماء . ومنها المنحنى على الماء . وغيره يحسب من الأرض وهو صخرة صماء . حتى إذا وفد الهلال على هالة الجلال والجمال . يحبو به السُّرى إلى الكمال . لم تر العين أحسن منظرا من سواد هذه الجبال . فى بياض الأفق لضوء البدر المتعال .

فديناه من زائر مرتقب بدا للوجود بمرأى عجب [1]

(١) اجتزأنا بهذا البيت لأن القصيدة منشورة فى الطبعة القديمة من الشوقيات ص ٢٣٩ وفى الجزء الرابع ص ٤١ تحت عنوان (القمر على آفاق كلا زومين ليلة النبى الأسنى) .

فبينما القمر يتجلى بجميع جماله . ويتكمل قبل أوانِ كماله . ويشارك الكون فى احتفائه واحتفاله . ويوفّى المولد الأسنى حق إكباره وإجلاله . مضت بى الفلك مضيا . تهوى فى الماء هويا . لدى لج كالعاج لو لطف . والمرمر لو شف . والبلور لو خف . وهى تنفذ من الماء . كما تخترق الطير الهواء . ويسرى شعاع الشمس فى الفضاء . حتى هبطت القرار . فألقت عصا التسيار . وهنالك ضحك الشيخ إلى . وأقبل من بين الصفوف علىّ . يسحب المطارف والأردان . كأنه كسرى أنو شروان . مقبلا من الإيوان . فبدأت بأذياله فلثمتها . ثم ثنيت بيده فقبلتها . فأعرض كالمشمئز . ثم نفر كمن استفز . فداخلنى من أمره العجب . وسألته عن السبب . فقال إن فى المجلس يا بنى من صحابة النبىّ ، ومن استشهد من بعدهم من الذرارىّ ، من كانوا يقولون يا محمد فى الخطاب . ويدعون عمر بيا ابن الخطاب . وأخاف أن تنزوهم هذه الآداب . فيفسدوا بعد الممات . وتلفظهم الجنة لفظ النواة . فإذا جئتهم فقل السلام . ولا تزدهم على تحية الإسلام .

ثم مشى الشيخ فتبعته وهو يلوى بى على سفن مصطفة . عندها زمر ملتفة . بالأعلام محتفة ، وهى بينهم مجلوة مترفة ، يتعلق بها الجنين والصبىّ ، واليافع والفتىّ ، والكهل القوىّ ، والشيخ المثنىّ ، والكل فى الثياب الخضر يرفلون ، وبذكرى مولد النبىّ يحتفلون . فقضيت العجب مما رأيت ، وهمست فى أذن الشيخ فسألت من هؤلاء الأقوام ، وفيم تعلقهم بهذه الأعلام .

(الشيخ) هؤلاء يا بنىّ شهداء البحار . من الأمم الإسلامية الكبار . وجلهم من أبطال الحروب الأندلسية . وجنود فاتح القسطنطينية . ومنهم من عرّضه طلب العلم للأخطار . فوقع فى مهاوى الدمار . وآخرون وقف لهم الموت فى سبيل الاستعمار . أولئك قوم جاهدوا فى الله حق جهاده . وزادوا الإسلام عمادا على عماده . أعطوا الأجنة وأخذوا الجنة . وقاتلوا الناس . ولو أمرهم الله لقاتلوا الجنة . فكم عروس زفت إلى الله بعلها . وذات حمل قربت لله حملها . وشيخ فانٍ كبير جاد بالرمق الأخير . حتى أعزوا آية الإسلام بين الأنام . ورفعوا دولته لأسمى مقام . إن شئت دعوت خطيبهم ليسمعك . لعل بيانه أن ينفعك . ثم أومأ الشيخ بالإصبع . ونادى فأسمع : « أيها الأشباح الغالية . والأرواح العالية . عودى سيرتك الأولى . وأشهدى المسلم تلك اليد الطولى . وليقم منك خطيب يعظ الناس . ويصف لنا تلك الشدة وذلك البأس » .

(سائح)

(المؤيد) فى ٢٤ سبتمبرسنة ١٨٩٩

١٠

فكان ما أمر الشيخ أن يكون . وخرجت الأشباح من السكون . فرأيت ما لم تره عين . ولا سمعت أذن . رأيت أساطيل تموج . كأنها البروج . قد ملأت البحر ترفع شراعه . وتحرج ثغوره وقلاعه . وهى بين غاد ورائح وهاوٍ وطافح . وجانح جامح . وهالك بيد أنه سابح . عليها المقاتلة . من الجنود الباسلة . والأسود المنازلة . تصيبهم الجائحات . وتصوبهم المقذوفات . فتزيدهم من إقدام وثبات . إذا بادت السفن قاتلوا على الألواح . وتكاد الجسوم تسبق إلى الله الأرواح . فملكوا وصالوا . وعزوا وطالوا . ونالوا من ملك البسيطة ما نالوا . وأنا أنظر إلى الممالك كيف تبنى . وإلى المعالى كيف تقنى . وإلى الدول كيف ترفع . وإلى الأمم بأى شىء تخضع . فلا أرى إلا الإقدام . ما يتفاوت به الأنام . ويتغلب أقوام على أقوام . فهو رأس أموال الأمم ، وما سواه فثمرات تأتى على قدر الهمم . لا تزال على الشعب المقدم . رهبة المنوم . ومهابة المعلم . وتأبى الرائض المطاع . فى نفوس السباع . تظن الوحوش به القوة . وتطيعه الطاعة المرجوة . حتى إذا أحجم إحجامها . أو تخبل مرة أمامها . ذهب عنه الملك والسلطان . وافترس الحيوان الإنسان .

ثم أقبل من الصفوف غلام . كأنه البدر عند التمام . تزدهى الجنة بشبابه . ويقتبس الأبرار من آدابه . كالمتنبى كبرياء وعزة . وكالبحترى إنشادا وهزة . إذا قام تلتف المجامع . وإذا قال امتلأت خروق المسامع . فهلل وكبر . وحمد الله وشكر . وذكر صاحب المولد ما ذكر . ثم قال كنا معشر الإسلام بالأندلس وثلاثة تجمعنا : الدرس والصلاة والجهاد . بالدرس تفتح البصائر المغلقة . وبالصلاة تثبت الأفئدة القلقة . وبالجهاد تُجمع الكلمة المتفرقة . وكان الأدب سر تقدمنا جُمعت لنا فيه مكارم الأخلاق . وعقدت من الفضائل حُبُك النطاق . يتواضع منا الكبير . ولا يستكبر الصغير . ولا يطغى الأمير . كان اعتماد الواحد منا على الله ثم على نفسه . ثم على أبناء جنسه . نعتمد على الله فيما لا نملك من الأخذ ولا نقدر من الدفع فلا يجدنا الله إلا شاكرين للنعمة . صابرين حالّ النقمة . وعلى النفس فيما نطلب من محيا . ونخطب من دنيا . ونتسع من رزق . ونحاول من حق : العمل . قبل الأمل . والمسعى قبل المدعى . والعزائم . قبل العظائم . والأفعال . قبل الأقوال . كل آخذ بعمل هو متقنه . والله بالنجاح يقرنه . من أصاب لم يقف به النجاح . ومن خاب لم يلق السلاح . وعلى

سائر المسلمين فيما لا يكون إلا بالتعاون والتآزر . ولا يتم إلا بالتكاتف والتضافر . من أمر نجمعه . وملك نرفعه . وجرم نمنعه . وبلاء ندفعه . وحق مسلوب نسترده ونسترجعه . فما زلنا بالمجد المؤثل نسعى له حتى انفردنا بالإنشاء . وأعجزنا فى فن البناء . وبثثنا فى الأرض العلماء . وشيدنا للاسلام دولة عرضها الثرى والسماء .

وبينما الكلام فى الكلام . أشرق المكان . وتألق البحر وازدان . فرفعتُ العين منذ هلا . ثم نظرت متأملا . وإذا أنا بنجفة . ألفية مزخرفة(١) . على العوالم مشرفة . تدلى بها يد ضلفة(٢) . لكنها مرتجفة . ثم إذا الرياح تخفق فيها . والعواصف من كل ناحية توافيها . فلا تطفىء لها قنديلا . ولا تؤثر فيها فتيلا . وحوالى هذا المصباح الأكبر . والسراج الأنور الأزهر . بضعة مصابيح متوهجة . لا يعدل مجموعها من النجفة مسرجة . ووراء كل واحد منها يد خفية . تدنيه من زجاج الألفية . ثم تصدم به صدمة قوية . فينصدع السراجان كلاهما . وما كان أغناهما . فوقفت وقفة مسحور . تلقاء هذه الأمور . وأنا ألتمس الشيخ بين الجمهور . ولعله يكشف لى المستور . عن سر هذا المنظور . وإذا به قد اقترب منى ثم سأل ما بال الفتى يفتش عنى . (قلت) أريد لأعلم ما هذه الأنوار . وما هذا المصباح الزارى على ضوء النهار .

(الشيخ) — هذا يا بنى نور عثمان . ومصباح دولته فى كل زمان . وهو يمثل فى المقام . مكانها من الإسلام . ويظهر فضل القوم على سائر الأقوام . وهذه الرياح الضاغطة . والعواصف المساقطة . إنما هى عداوات الغروب البينات . وثارات الصليب المثارات . وما ترى كل يوم من تعصب الممالك والدولات . لكن ذلك لا ينقصها من قوى الحياة ولا يغلبها على الصبر والثبات . إنما تصيبها المصائب . وتنتابها النوائب . من هذه المصابيح الرديئة . فى هذه الأيدى المسيئة . وهى إنما تمثل سائر الأقوام ، ومن فى يديه الزمام . من أمراء الإسلام . كأن لم يكفهم ماصنعوا بأنفسهم . وما جروا من البلاء لأبناء جنسهم . حتى اشتغلوا من أمرها بما لا يملكون . وحاولوا من ملكها ما لا يدركون . هذا ينأى بجانبه عنها . وهذا ينفض اليدين يأسا منها . وهذا يغضها بقلبه ولسانه . وهذا يجرحها بسيفه وسنانه . مختلفين مشتتين فى الأرض . منقسمين بعضهم على بعض . ينسون أنه لولا هذه النجفة . وهذه اليد القوية المرتجفة . ما وجدهم الوجود إلا ضالين حيارى . يمقتهم اليهود ويمقتهم النصارى . (سلم)

---

(١) الألفية لعله يريد ذات ألف مسرجة . (٢) ضلفة لا وجود لها فى المعاجم . ولعلها دالفة . الدالف : الماشى بالحمل الثقيل ، والدالف الكبير الذى احتضنته السن . ودلف الشيخ والمقيد مشى مشيا قارب الخطو .

(المؤيد) فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٩٩

١١

وأخذ الاحتفال بعد ذلك مأخذ جده . واتخذ الجلال والجمال واسطة عقده . فجعل الشيخ يقدّمنى لدى المحفل . ويمثل بى فى الجمع فأتمثل . وهو يكثر من الإيماء . و يذكر من الأسماء . ما لا يحيط به الإحصاء . من كبار قواد الإسلام . وساسة دولته العظام . وعلمائه الأعلام ورقاة المنابر فيه وحملة الأقلام . فألفيت أكثرهم من الأتراك والأعجام . ولم أر بينهم مصريا . رفعه الله مقاما عليا . فأخذ منى العجب وسألت الشيخ عن السبب . فقال : هؤلاء يا بنى هم الآحاد . لا أمة إلا بهم ولا بلاد . حيث كانوا فالحق متحقق . ونهار العرفان مشرق . ومنار الهدى متألق . وغيث الرحمة مغدودق . والله لا يختص بهم بلادا دون بلاد . ولا يهبهم لفريق دون آخر من العباد . لكنكم تقتلونهم أجنة فى الأرحام . بجهل الأمهات الجهل التام . فإن سلموا فسوء التربية لهم حمام . فإن سلموا قتلهم الحسد العام . حسَد الغنى للفقير . والكبير للصغير . والآمر للمأمور . والمولى للأجير . فلم لا يسلب الله من عقلائكم العقول . ولا تقف لهم الشقاوة فى طريق الوصول . انظر يا بنى إلى أمم العصر . هل ترى بلادا مثل مصر . عاملت الغرب وعاملها . وواصلته قرنا كاملا وواصلها . تأخذ من تعاليمه وآدابه . وتشب على الحضارة مثل شبابه . يأتيها منه الأساتذة . و يوافيه منها التلامذة . وتنظّم جنودها على مثال جنوده . وتكاد تجمع فى بنودها أشكال بنوده . وتأخذ الأوبرا عنه . وتجلب الممثلين منه . وتبنى الكلوب مثل بنائه . وتنشئ السباق مثل إنشائه . وتنافسه فى الإيتيكيت . وتزاحمه على البسكليت . وتستعمل مثله السونيت . وتوصل البخار إلى المطبخ والكرار . وتدخل الكهرباء . فى الخباء . وتستعيض بالصودة عن الماء . وهى مع كل هذا الارتباط والاختلاط والاختباط . تستحضر المسْطَرة . من انكلترة . والأجندة من إرلندة . والفوتبول من لفربول . والإبرة من دوفر . والدبوس من الإيكوس . والنكة من سوريا . واللحاف من تركيا . يا للعار . ثم يا للعار . وقبح من عيش مستعار . أخف منه النار . أين الطبيب الذى اخترع علاجا . أين الأصولى الذى اشترع منهاجا . أين الصانع الذى امتاز . أين الكاتب الذى انفرد بطراز . أين الخطيب الذى استنهض واستفز . أين القائد الذى حمى وأعز . وارتفع به اللواء واهتز . أين الاسم الذى سجل فى التاريخ . اللهم إلا فى صحيفة اللوم والتوبيخ . أين غنىّ مثر . أطلق يده بالخير . وأرصد ماله للبر . أين شاعر مدح الكرام . وذم اللئام . وفضح الظلام . ومزق بنور الحقيقة ظلمات الأوهام . و بينما الشيخ فى المقالة . يرمينى وقومى

بالجهالة . والتمادى فى الضلالة . مر بنا رجل كالملاك . فى زى الدراويش الأتراك . قد ضحك برأسه المشيب . فزاد فى منظره المهيب . ومظهره الرهيب . فاستوقفه الشيخ فوقف . ثم بالغ له فى التحية وتلطف . وقال له بعد ذلك وهو يقدمنى لديه . و يعرض آسمى عليه . هذا ابن النيل . الشريف النبيل . الآخذ بنصيب من مدنية الجيل . المتردد بين القرآن والإنجيل . المستذرى بظل الملكة الظليل . المرتاح للاستقلال عما قليل . قد دعانى فى الفجر حين خانه الصبر . فلبيت نداءه . واستجبت دعاءه . وحققت رجاءه . لا لأنه قطب وأنا أكرم فى الله أولياءه . لكنى آنست فيه الرغبة فى الصحبة . والاجتهاد فى الاسترشاد . والوفاء لقومه وبلاده . والإخلاص فى محبة الله وعباده . أما الآن وقد انقضت المدة . وزالت الشدة . وأمست الفلك مستعدة . فإنى أتركه لك يا ابن العم . وأسالك أن تعنى بأمره وتهتم . وأن تكون مرشده الأمين . وصاحبه المعين . وذخره الثمين . وراحته وهناءه فى جوار أمير المؤمنين . (قال) الدرويش سمعا يا مولاى وطاعة . فلأخدمنه الخدمة المستطاعة . وأنت ألف سلام . يا ضيف الإسلام . وجار النوال والإكرام . وعندئذ التفت الشيخ إلىّ وقال هذا يا بنى ملك البرين . وأمير القارتين . وحامى حمى الحرمين . ومفتاح الحرب والسلام . وميزان السياسة فى الأنام . والعلَم الباقى من الأعلام . والملاذ الأوحد للمسلمين والإسلام (قلت) : لعله البوسفور فلقد والله عرفت يوسف بجماله . واستدللت على الشهر بهلاله . وسبقت إلى الموصوف أوصاف كماله . فأهلا بآية الله المشهورة . ونعمته المشكورة . وعظمته المقدورة . وكلمته المنصورة . ودروعه المعمورة . جعلنى فى ذراها وظلها . وسيوفقنى لأؤدى شكر فضلها .

وما هو إلا أن فرغت من قولى حتى نظرت حولى . وإذا أنا على الباخرة . وهى بى وبالدرويش ماخرة . فى اللجة الزاخرة . تؤم بنا الجنة الفاخرة . جنة الدنيا والآخرة .

(سائح)

(المؤيد) فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٩٩

١٢

البسفور كأنك تراه (١)

على أى الجنان بنا تمر وفى أى الحدائق تستقر

... ...

(١) القصيدة منشورة فى الشوقيات طبعة قديمة ص ٢٣٣ وفى الجزء الثانى من الشوقيات ص ٤٨ .

(المؤيد) فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٩٩

١٣

وكان الدرويش يرعانى بعين الحكيم . ويراعينى وأنا أهيم . عالما بأن الطبيعة قد شغلت الشاعر . وهيجت وجدا لهذا الخاطر . وأنى إنما أعبد الله . وأمجده فيما صوره وجلاه . فتركنى فى فكرى . ولم يخرجنى من سكرى . حتى أخذت العين قسطها من المشاهدة . وبلّ صدى النفس الواجدة . والتفتُّ فالتقت اللحظة باللحظة . وسبق الدرويش باللفظة . فقال كيف ترى هذه المناظر . وما أثرها فى الخاطر . إن الطبيعة الكبرى لَطِلْبَةَ ابن النيل . وإن عهده بها لعهد طويل (قلت) ولكن أين يدُ الإنسان . كيما تجلو آثارها . وأين فكرته كيما تذيع أسرارها . وأين لسانه كيما يحدثنا أخبارها . فإن من حق هذه الجواهر . أن يُصنع منها القرط الفاخر . ويصاغ التاج الزاهر . وأن تحمل فى النحور والخناصر . لتزداد قيمة على قيمة . وتظهر فى الجدة وهى قديمة .

— الدرويش — إن أصحابها أهل أدب ولطافة . فلا تزال أيديهم عليها بالنظافة . وزيادة ما تحتمله الطبيعة من الإضافة . انظر إلى البيت الفقير . بجنب قصر الأمير . هل تراهما اختلفا فى الرسم . أو تفاوتا إلا فى الجسم . ظاهرهما واحد فى البهجة والرواء . وباطنهما فى النظافة على حد سواء . على أنهم أصحاب الضفتين . ولهم وحدهم جَنَى الجنتين . ولَفص فى خزانة مصون . خير من عقد مبيع أو تاج مرهون . فلا تخلط أشياءك وأشيائى . وإياك أن تفسد علىّ أبنائى .

(فقلت) فى نفسى مالى أدخل فيما لا يعنينى . فأسمع مالا يرضينى . وكان المرسى اقترب . ودخلت السفينة فى قرن الذهب . فالتفت الدرويش إلىّ وقال : مالنا يا أخى للجمارك . وما تقتضينا من زحام ومعارك . ووقفة بين آخذ وتارك . فإن جئتها بعدى وحدك . ودعيت لتبرز ما عندك . فلا تلق القوم مريبا . ولا تكن عدوا وكن حبيبا . فإنك واجد من المجاملة . ومزيد التلطف فى المعاملة . ما تذكره فى هذا الباب . ولا تنساه لهذه الرحاب . والآن هل لك فى طريق غير طريق الناس . وما عليك من باس . والمروق من حيث لا يمرُق الطير . وما عليك ضير . فلم أخل من فرح . عند هذا المقترح . وقلت للدرويش لبيك . الأمر لك وإليك . فلم أدر إلا وأنا على جناح ملَك . وهو يخف بى فى أثير الفلَك . حتى اقتربنا من بناء عال . بادى العظم والجلال . مشرف على سائر المحال . إشراف النفس على الآمال .

فدنونا من ذروة المغنى . فكنا قاب قوسين أو أدنى . وهنالك أحسست بالجناحين يتثاقلان . ثم وجدتهما يضطربان . كأنهما فى شرك يتخبطان . ورأيت الدرويش يسبح فى العرق . وينتفض من الغرق . فأخذنى القلق . وخشيت أن أسقط منه فى مهواة الأفق . فسألته ما بالك تضطرب اضطرابا . ومالى أراك وجلا هيابا . وأنت قد أمنتنى من أن أخاف . وزعمت أنى فى جناح الألطاف .

الدرويش — ما بصاحبك من خوف ولا رهبة . إذ ليس للملك أن يخشى إلا ربه . وإنما كنت أصلى لله فى حرمه وحماه . وأرجوه فى بيته وأخشاه . وأستأذنه فيه هل أغشاه . ثم أشار فهبطنا من قبة لم يشد مثلها شائد . ولا الدهر بمثلها على الناس عائد . وهى تناغى بهلالها السماء . وتتهدد بخنجره لبانة الجوزاء . فنظرت أتأمل ما فيها . وأقلب الطرف فى نواحيها . فوجدت ريح كنيسة قديمة . ورأيت آثار نقوش رمية . ثم نظرت دونى فى فضائها الفسيح . وأنا أتوهمه معبدا للسيد المسيح . فكان لى عجبا أن رأيت تحت القبة محرابا للصلاة ومنبرا للخطبة . وبساطا لسجود الموحدين . ومصلى للخلفاء السلاطين . ودراويش هنا وهناك . ومجاورين من الأتراك . وامرأة تصلى فى ناحية . وأخرى تقرأ القرآن فى زاوية . وقدسرت جلالة المعبود فى المعبد . فأغنت عن صورة منقوشة وتمثال مشيد . فلم يبق عندى ريب أن المكان مسجد . وكنا قد نزلنا نمشى على الحصير . لا على السندس والحرير . ونلوى على الآيات والسور . لا على التماثيل والصور . ونميل خاشعين حيث تعنو الوجوه وتدين الجباه . وحيث تضج الأفواه بأن لا إله إلا الله . فقلت للدرويش أما المسجد فرفيع البنيان . مشيد الأركان . ليس له فى الإسلام ثان . فهلا ملأتموه من الزخارف . وغرزتم هذا التالد من عندكم بطارف . إن عهدى بالمساجد الطاهرة فى القاهرة . كأنها القصور العامرة . لكثرة ما فيها من الأمتعة الفاخرة . وهى وإن تكن بيوت الملك الديان . تختلف سعادة وشقاء كبيوت بنى الإنسان . فمنها الواسع اليسار . الكثير العقار . المتقلب فى صنوف النعم . المزدحم بالخدم والحشم . الضافى السجوف والستائر . من خالص الحرائر . المفروش من المقاصير إلى المنائر . وبعضها عُطْل قفر . من شدة الفقر . ومساس الضر . يشتهى الحصير فلا يجده . ويلتمس السراج فلا تناله يده . فإن وجده لم يجد من يوقده .

— الدرويش — ثلاثة يا بنى عِظَمها فيها وجلالها بالذات يكفيها . الموت ومشاهده . والعلم وموارده . والله ومعابده . فالموت جد لا لعب فيه . والعلم فرقد نوره الذاتى يحليه . والعبادة تجرد يأبى الزخرف وينفيه . ولو أن للزخرف موضعا فى المساجد . أو للحلى محلا

فى المعابد . لكان الأحق بذلك . الأجدر بما هنالك . هـذا البنيان . الذى شيدت فيـه للإسلام أركان . وآل المشرقان والمغربان . إلى أعظم سلطان . من آل عثمان . (قلت) أفى أيا صوفيا أنا . لقـد توج الإسلام هنا . وشيدت لأول مرة دولتـه . وامتدت إلى الشرق والغرب صولته . وطلعت وهلال العز على الخافقين رايته . وكأنى بالفاتح وقد وقف قبلنا هذا الموقف يأخذ الشرق باليمين والغرب بالشمال . وتميل الوجوه خاشعة حيث مال . وأنى شاء نصب المنبر ورفع الهلال . فأشرقت هـذه الآفاق بعدله . وشهد الأعداء وسيفه على رقابهم بفضله .

وبشر الناقوس بالمسـلم الـ   ـعادل من قبل بشـير الأذان

— الدرويش —

ما هيج البسفور مثلك شاعرا   بين الطبيعة فيـه والتـاريخ
فجعلت شعرك فيهما ولطالما   قد كنت عبد المدح والتأريخ

فلما كشفت مراد الدرويش من هذه الإشارة . وعرفت موضع اللوم من هـذه العبارة . لم أجد بدا من الامتثال . فأنشدته فى الحال .   (سائح)

التعليـــق

البيتان الأخيران (ماهيج البسفور ...) اللذان نظمهما شوقى على لسان محدثه الدرويش لهما دلالة قوية تاريخية وأدبيـة فى حيـاة شوقى . فقـد كان التأريخ والتشـطير والتخميس والمديح وما إلى ذلك سائدا فى البيئة فى أواخر القرن التاسع عشر . وكانت روح التجديد من ناحيـة أخرى فى الجـو — جو عصر الانتقال — إذ كتب الشاعر نجيب الحـداد أحد محررى (الأهرام) مقالا بتلك الجريدة ، بتـاريخ ٢٩ أبريل سـنة ١٨٩١ ، تحت عنوان (نظرة فى الشعر العربى) جاء فيه : " وبعد فالذى أراه للشعراء ، وأشير به عليهم وأبدأ فيـه بنفسى من بينهـم ، إن كنت أهـلا لأن أعدّ منهـم ، أن يتخلوا عن نظم المدح والثناء إلا فى حيث تدعو إليه الضرورة القصوى ويطلقوا شعرهم فى الاكتشافات والاختراعات والحكم وتقرير القواعد العلمية أو التاريخية " .

أحسن الحداد فى النصح بالتخلى عن المديح الممجوج الذى لا يتفق مع روح العصر، ولكن حين أراد تحديد الشعر الجديد الذى يتفق مع روح ذلك العصر لم يحسن القول ووقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيـه كثيرون بعده وهو نظم الشعر فى الاختراعات والاكتشافات ظنا منهـم

ان هذا هو «الشعر المصرى» . ولو قال بنظم الشعر الذى توحى به السليقة والوجدان ومشاهد الكون والطبيعة من مرئيات ومسموعات لاتضح الطريق للشعر الصحيح الذى يلائم كل عصر .

وظاهر أن شوقى كان يريد التحرر من البيئة التى كان يضيق بها والتحليق فى آفاق الطبيعة والحياة، وهو القائل فى مقدمة قصيدته التى نشرتها (المجلة المصرية) فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ "الشعر ابن أبوين : التاريخ والطبيعة" وقد أخطأ خليل مطران فى تعليقه على القصيدة والمقدمة إذ فسر الطبيعة بالسليقة مع أن شوقى يريد (الكون) وهذا ظاهر .

وقد نشر شوقى فى أول مارس سنة ١٩٠١ فى (المجلة المصرية) نفسها "شيطان بنتاؤر" على أجزاء متتابعة ، جاء فى حديثه عن الشعراء الذين كثيرا ما يمدحون زيدا ، ويعنون عمرا : «ما كانوا لى أصحابا وهم يتزلون بالشعر عن رتبته ، ويحلونه حيث لا يرضاه الأدب ، لا يمدحون محمدا ولا يهجون مذمما ، ولا ينظمون فى الطبيعة والتاريخ اللذين هما أم الشعر وأبوه» .

فى المقال (١٤) الذى يلى المقال الحالى — موضوع التعليق — نشر شوقى بإمضاء «صائغ» قصيدة (أيا صوفيا) ، وهى منشورة فى الجزء الأول ، طبعة قديمة ، ص ٢٣٦ والجزء الثانى من الشوقيات ص ٢٧٠ .

كنيسة صارت إلى مسجد   هدية السيد للسيد

وقصيدة (أيا صوفيا) تدخل فى باب التاريخ . أما الطبيعة فتدخل فيها قصيدة (البسفور كأنك تراه) التى نشرت ضمن المقالة (١٢) من «بضعة أيام فى عاصمة الإسلام» .

على أى الجنان بنا تمر   وفى أى الحدائق تستقر

وفى المقال (٩) نشر شوقى قصيدة "القمر على آفاق كلازومين ليلة المولد النبوى الأسنى" .

فديناه من زائر مرتقب   بدا للوجود بمرأى عجب

ويمكن أن يلحق بهذه القصائد قصيدة (كوك صو) وقد نشرتها (المجلة المصرية) فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٠ ، قال مطران عن (كوك صو) أنه "موقع جميل فى الإستانة العلية تنساب فيه قناة ماء متخبئة فى خمر[1] من الخضرة النامية" .

تحية شاعر يا ماء جكسو   فليس سواك للأرواح أنس

---

(١) الخمر (بفتحتين) : ما واراك من شجر وغيره . تقول «توارى الصيد منى فى خمر الوادى» .

ومنها :

غشيتك والأصيل يفيض تبرا ويسنج للربى حللا ويكسو

وتذهب فى الخليج له وتأتى أنامل تنثر العقيان خمس

وقد نظر فى البيت الأخير إلى قول المتنبى :

وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيرا تفر من البنان

ومن روائعها :

تلألأت الجبال فضاء سفح يسر الناظرين ونار رأس

وهى منشورة فى الجزء الثانى من الشوقيات ص ٦٢ — ٦٤ .

وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٤ نشرت (اللواء) قصيدة لشوقى أرسلت إليها من دار السعادة، وهى مرفوعة إلى السدة السلطانية . والقصيدة ٧٠ بيتا نشر منها ٢٤ فى الجزء الثانى (ص ١٥٣) وهى حنين إلى مصر :

بالله يا نسمات النيل فى السحر هل عندكن عن الأحباب من خبر

ومنها :

ذكرت مصر ومن أهوى ومجلسنا على الجزيرة بين الجسر والنهر

واليوم أشيب والآفاق منعبة والشمس مصفرة تجرى لمنحدر

والنخل متشح بالغيم تحسبه هيف العرائس فى بيض من الأزر

وما شجانى إلا صوت ساقية تستقبل الليل بين النوح والعبر

وقد أشارت (الواعظ) فى عدد ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٤ إلى هذه القصيدة إشارة جائرة بمناسبة الكلام عن قصيدة حافظ إبراهيم :

سكت فأصغروا أدبى وقلت فأكبروا أربى

قالت : « وقد رأيناه (حافظ) عاف الغزل وعف عن التشبيب وورد بنا موارد الاجتماعيات الصافية فليت بقية شعرائنا يأتمون به فى هذا السبيل ويقتفون فى هذه المأثرة أثره لا أثر شاعر الأمير الذى كان يتغنى على ضفاف البوسفور فى الإستانة بوصف ناعورة (ساقية) بجوار الهرم فى مصر ولم تسعده مناظر ذلك الملك التى تزاوجت فيها الأبهة والجلال بخيال يكون أسمى وأولى من النوح على ذكرى ليلة قضاها تحت جدران الأهرام مع تلك الغانية التى لم ير غير النخل وليفه شبها لقدها وشعرها » .

وقد رأينا أن شوقى حاول أن يكون شاعر التاريخ وشاعر الطبيعة . ولا شك أن التاريخيات تحتل المكان الأول فى شعره . أما الطبيعة فقد تغزل فيها وهتف بها ولكنه علم الله لم يكن من عشاقها الخلص فلم يهم بها هيان المحب الوامق . ولم يتعبد فى محرابها كما يفعل الإفرنج . وإن كانت له فيها حسنات وفلتات .

(المؤيد) فى ١٨٩٩/١٠/١٢

١٤

(أيا صوفيا)

كنيسة صارت إلى مسجد ، هدية السيد للسيد

(المؤيد) فى ١٨٩٩/١٠/١٤

١٥

فلما فرغت من الإنشاد واستحسنه الدرويش واستجاد . وقال ليس بعد الخلفاء الراشدين أفضل من محمد الفاتح وصلاح الدين . فأما الأيوبى فدرع الإسلام ووقاه . وعرينه وحماه . وسيفه الذى انتضاه . فنجاه من الغم . وكفاه البلاء الجم . وجعله مهيبا فى ماضيه . رهيبا فى نفوس أعاديه . وأما الفاتح فحياته . المنبعثة ووجدانه المتجدد . وشبابه العائد . ودولته الكبرى ولواؤه الأعلى سمك بنيانه . وشيد أركانه . وأعلى مكانه . وأظهر عزه وإمكانه . وأيد ملكه وسلطانه . وكلا الملكين أبى همام . كريم فى الولاء والخصام . عظيم فى الحرب والسلام . رءوف بصنوف الأنام . شريف القناة عفيف الحسام . وإنى أعجب للكتاب الحاضرين . والشعراء المعاصرين . كيف غفلوا عن تجديد ذكرهما . وقعدوا عن تأبيد فخرهما . وفى ذلك مايوقظ راقد الهمم . ويحيى موات هذه الأمم . ويدعو إلى التعلق بكبير الآمال . ويحمل على التشبه بعظيم الرجال . وحين نرى غابر الملوك الغربيين . وموتى الأقيال الأوربيين . مذكورين بكل لسان . أحياء وإن مضى بهم الزمان . لكثرة ماشحنت بأسمائهم الآثار . وامتلأت من وقائعهم الأشعار . وسرت بهم الأحاديث وسارت الأخبار . هذا نابليون ملك ثم خانه الفلك . ثم هلك . وذكره لا يزال يسير مسير الشمس والبدر . ويهب هبوب الريح فى البر والبحر . فما من غربى إلا ويحفظ نادرة عن نادر ذكائه .

بل مامن شرقى إلا ويروى شيئا عن مدهش إقدامه وعجيب دهائه . يستوى فى ذلك النساء والرجال . ويشترك فيه الشيوخ والأطفال . وتعدو عليه الأعصر وتروح الأجيال . وليس الفضل فى بعث هذا المجد حيا . وبقائه بعد الممات مثالا للأمم عاليا . إلا لقومه الفرنسويين . وبنى جلدته الشارفين به المتفخرين[1] . فإنك لا تقرأ لهم جريدة إلا وفيها نادرة عنه جديدة . أو طرفة من غرائب سيرته المجيدة . وكلما نفد الوطاب . واظمأت الكتابة الكتاب . وضعوا الغريب . واختلقوا العجيب . وأدخلوا على الناس الأكاذيب . أما نحن معاشر المسلمين فما زال تسعة أعشارنا جاهلين . حتى عرفنا غليوم من صلاح الدين (قلته) لى يامولاى أبيات قليلة أصدرتها لهذه الحادثة الجليلة . فهل لك فى أشعارى الضئيلة .

الدرويش — هات عجلا ولو مرتجلا . فوالله ما تجمل تاريخ المسلمين بمثلك ياصلاح الدين . فأنشدت فى الحال . وأوردت هذا المقال :

عظيم الناس من يبكى العظاما ويندبهم ولو كانوا عظاما[2]

(المؤيد) فى ١٨٩٩/١٠/٢٢

١٦

ثم كان منى التفات إلى النسوة المصليات . والأخريات التاليات . فرأيت لهن فى الإسفار . جمال الأقمار . فى جلال الأبرار . أو هن الحور العين فى هذه الدار . قد أخذن ما أمرت الشريعة الطاهرة . فلم تبد منهن إلا وجوه ناضرة . إلى ربها ناظرة . ليس بحسنها تطرية . ولا بلونها تطلية . تنبئ عن صحة كاملة . وقوة للجسم شاملة . فلما فرغن من صلاتهن . وانتهين من تلاوتهن . خففن للذهاب . وابتدرن الأبواب . فرأيت الرجال يتنحون حتى تعبر النساء . وقد ملئوا وقارا كأنهم جند والمرأة بينهم لواء . فعلمت حينئذ أن سعة الآداب أغنت المرأة العثمانية عن ضيق الحجاب . وإن إغضاء الرجال قد ناب لهن عن النقاب . فقلت فى نفسى ياعجبا خرجت من الصدف الجمانة . إلى أصداف من التكريم والصيانة . وسبحانك ربى جعلت مضار الحجاب فى الاستانة . منافع فى مصر الكنانة . وكان الدرويش يصغى لى بفؤاده . وينفذ الضمير على مراده . فالتفت إلى يقول أهكذا عهدت

---

(١) تفخر الرجل : تعظم وتكبر .

(٢) القصيدة منشورة فى الجزء الأول ، طبعة قديمة ، ص ٢٤٠ تحت عنوان (تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر) ، وفى الجزء الرابع ص ٤٠ .

بيوت الله فى هـذا العصر . وشهدت الكنائس فى الغرب والمساجد فى مصر . (قلت) كلا بل عهدت الأولى فى أكثر البلاد . لا يخلو زوارها من غواية وفساد . وإساءة إلى المعبود والعباد . يأوى إليها كل فاسق النظر . ساع لموعد منتظر . يرقب من غاب ويغازل من حضر . أما مصر فطالما جمعت فيها الموالد . على المساجد . وضاقت الزوايا عن الخبايا . وانقلبت الخلوات فصارت للشهوات . وعصى الله جهرة فى الحضرة . وأصبحت الزيارة . حيلة مختارة . وحلة مستعارة . وآفة البيوت . توهنها كالعنكبوت . فكم شقاق أوجبت . وطلاق سببت . وفضيحة جلبت . وجارة تدفع جارة نحو زار وزيارة . بدع فى مصر شتى . ما خلت منهن حارة . صدق القائل مصر للسخافات قرارة .

وبينما المرأة تأخذ من قوت العيال . ما تنفق فى القرط والخلخال . وتقتصد من خميس الكتّاب . ما تنافس به على الثياب . ترى الرجل يتمسح بالباب . ويقبل الأعتاب . ويستلم الشباك . ويسكب دمع النساك . ويخشع للولى . لا لله العلى . ويصلى لحاجة فى النفس . ويترك الصلوات الخمس . ولو كانت العامة هى المخصوصة بهذا البلاء . الممنوة وحدها بهذا الداء . لخف محمل هـذه الداهية العمياء . ولقلنا نحن والناس فى هذا سواء . لكنها أمور . ينزل إليها من شاهقة القصور . ويشتغل بها فى رفيعات الدور . وتقتل بسمها الفريق المتوسط من الجمهور . حتى لترى الأفندى الذى يقرأ المؤيد والمقطم . ويستغرب ما ينقل عن القوم ويترجم . ويندهش من أخبار الترنسفال . ويعجب كيف هبت النساء للقتال . ويدافعن عن أوطانهن دفاع الرجال . لا يستحى أن يبعث بطفله المعتل . إلى أقذر محل . ليقرأ الشيخ على رأسه . فيطرد الشيطان بيأسه . أو ليلحس عمودا تتناوب عليه الشفاه . وتزدحم عليه بلعابها الأفواه . حتى أصبح مركبة القاذورات . ومغرس المكروبات . ومستودع العلل والآفات . — الدرويش — الآن عرفت من أين مأتى الضرر . واستدللت على الحريق بالشرر . فهلا أخذتم من عواقبه الحذر . فسلطتم عليه مطافئ الأقلام . قبل أن يكون ضرام . ويكون وقوده الحشف والهام . ثم غير الدرويش من كلام إلى كلام . فسألنى كيف رأيت رفع الحجاب . وهل تعده من الخطأ أم من الصواب . فهالنى هـذا السؤال وأشفقت منه . وأبيت بادئ بدء أن أجيب عليه . لعلمى بما يكون من عواقب الخوض فيه . والتعرض لانتقاد العالم المتجاهل . وتحامل الجاهل السفيه فأردت أن أخدعه (فقلت) .

(سائح)

(المؤيد) فى ٢٣ أكتوبر سنة ٨٩٩

١٧

لقد أفادتنى تجاربى القلائل . فى هـذه المسألة التى هى من أكبر المسائل . أن للحجاب المرفوع فى الغرب مضار لا تحصى . كما أن له منـافع لا تستقصى . فمن فوائده عنـد القوم نصف السعادة التى هى فيها اليوم فإن التجارة الصغرى وهى أعظم موارد الثراء لا يدير دولابها فى فرنسا إلا النساء . فالمرأة هى البقال والعطار والخباز والجزار والفكهانى والزهار والخردجى حين الرجل يشتغل بتجارة أخرى . أو يمارس صناعة هى باستعداده أحرى . وبديهى أن ذلك يضاعف للعـائلة موارد كسبها . ويزيدها ربا على ربها . ويلقى بالمـرأة فى الجمعية . ويمر بها على مدرسة الحيـاة العملية . فتتعلم كيف تورد وتصدر . وتقول وتفكر . وتقتصد وتدبر . وكيف تتقى السنوات العجاف . إذا مات الزوج عنها وعن ذرية ضعاف . ولم يترك لهم من بعده الكفاف . ومن الأدلة الجلية . على صحة هذه القضية . ما أثبتـه الإحصاء على أثر حادثة بنـاما من كون معظم الثروة التى ألقاها الفرنسويون فى تلك الهوة إنمـا هى ثمرات اقتصاد الأرامل . وجَنَى متاعب هذا العضو الحى العامل . ومنها أنه يوجد ببـاريز صندوق للتوفير . تشرف عليه الحكومة لتحمل الأهالى على الاقتصاد والتدبير . ولا يودع فيه إلا المبلغ اليسير . ولا يقبل من ذلك إلا ما خرج من جيب الفقير . وهذا الصندوق يستغل الآن أربعة مليـارات من الفرنكات . تؤول بأكثر من النصف إلى الفرنسويات الفقيرات . ومنها أن « صناعة الزخرف » التى تكاد تنفرد بها الأمة الفرنساوية . والتى هى أكبر قوى حياتها التجارية ترجع بمعظمها إلى النساء . وتقـوم بالذوق الحسن من الحسناء . وبالجملة فما أصدق من قال يصف منزلة المرأة من الأمة الفرنسوية " فرنسا الاقتصادية كائن كبير الحيـاة جسمه الفلاح وروحه المرأة " على أننى أنا أتكلم عن بلاد جاورتها . وأمة خالطتها وعاشرتها . ولا أحسب الفرنسويين إلا كغيرهم من الأقوام . ولا أظن القسم إلا كسائر الأقسام . فما أوروبا إلا شمل والحضارة له التئام . ولا ممالكها إلا عقد والمدنيـة له نظام . ومن فوائد الحجاب المرفوع . عند هذه الجموع . بقاء الصحة على النساء . وتمتعهن بالصحة الكافلة للبقاء . المعينة على الدفع والإيجاد والإنماء . إذ لا يخفى أن الحركة تنشط الجسم وتوقظه . وتجدد قواه وتحفظه . وتجعل المرأة بحيث إذا حملت حملت مقتدرة . وإذا وضعت وضعت ميسرة . وإذا أرضعت أرضعت مشبعة مروية . مقومة مقوية . فحياتها إذًا حياتان . والمسئولية اثنتان . ولا يخفى أن مسألة النسل وتكثيره . وأمر السهر على حفظه وتدبيره . مما عنيت به شريعة الاسلام . واهتم به

صاحبها عليه الصلاة والسلام . والإحصاء فى مصر شاهد عدل . ودليل فصل . على أن النسل أبرك فى الأرياف ونواحيها . منه فى المدائن الكبرى وضواحيها . وأن الموت أشد فتكا بالأطفال فى مصر . منه فى قرى القطر . ولا يمكن نسبة ذلك إلا لاختلاف حظوظ النساء . فيما يباح لهن من نعمة الحركة ويتاح من تناول الهواء . وأذكر أن حكيما من الأطباء النطس الأذكياء . قال لى أنه ما دُعى فى مصر لمباشرة ولادة . إلا وجد ريح الخطر وزيادة . وأشفق من النفاس وبلاياه المعتادة . وأنه لا ينسب ذلك إلا لحرمان النساء من الحركة وسكونهن إلى الأجواء الراكدة المهلكة . فنشأ عن ذلك دبيب الضعف فى الجسم . واستعداده بذلك للسقم . وانتشار أمراض الرحم فى المدن المصرية . إلى درجة باندهاش الأطباء حرية .

(قال الدرويش) : حسبى ما ذكرت من المزايا والفوائد . و بينت من الخصائص الفرائد . فليس يحتاج رفع الحجاب إلى برهان . بعد ما تكفل بسعادة الأمم وصحة الأبدان . والآن ما هى المضار . وما ذا يلحق منها بتلك الديار .

(قلت) منها يا مولاى أنه جهنم العائلات . وهادم اللذات . والمفرق بين الجماعات . فكم من نظرة بعثت من الزوج الغيرة . أو خيلت للمرأة أن لها ضرة . ولو كانت المنظورة إليها شريفة حرة . فواها لها يومئذ من جمرة تهدم معالم الراحة البيتية . وتحل نظام السعادة المنزلية . وتجرح الشرف الرفيع بغير سهم . وتجعل بين المرء وزوجه مهواة من الوهم . ومن لطيف ما سمعت فى هذا المقام . أن أحد كبار الأدباء والحكام . ذكر عنده تحرير المرأة واستُنزل رأيه فى هذا الشأن . فقال أما أنا فلا أكون زوجا و بوليصا فى آن . يريد ما أشرت إليه من دوام المنازعات . وامتداد سبب المشاحنات . ما دامت الغيرة أمرا طبيعيا بين الأزواج والزوجات . ومن مضار رفع الحجاب ونقائصه التى هى آية على الإنسانية وعاب . تطاوله على الآداب . وجنايته على الأنساب . وهذه المضرة بل المعرة إنما نشأت عن تجاوز حد الاعتدال وتغلب النساء على حلم الرجال . حتى تكدر صفوه . وغام صحوه . وأصبح الرجل عبد زوجته وأسير إشارة امرأته . إذا ارتاب بصاحب طال انتيابه[1] . وكثر جيئه فى البيت وذهابه . لم ينفعه ارتيابه . ولم يغلق دون هذا المريب بابه . وإلا عرض نفسه لتهمة القذف . ووصفه الجارات بأقبح الوصف . فيقال عنه أفريقى ويقال شرقى . ومعناه متبربر وحشى . فانظر لحال الزوج المسكين . وتأمل فى موقفه الحرج المهين (قال الدرويش) ألا أدلك على المرأة التى هى فى وسط من الأمرين . والتى تقى نفسها وزوجها كلا الخطرين (قلت)

(سائح)

(١) انتيابه : نزوله وتردده .

(المؤيد) فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٩٩

(١٨)

ومن تلك الآخذة بالقصد المعتدلة . التى لا بالمائتة حية ولا بالمبتذلة . أتراها التى صلت . ثم رتلت . ثم تولت . (قال) والآن ستراها . وهى تعمل لدنياها . فإذا لقيتها فلا تدن منها . وغض البصر عنها . كذلك تعودت الحياء من الرجال . وعهدت تقوى الله فى الأبطال . ثم مشى الدرويش وأنا على أثره . أنظر ما سيكون من خبره . حتى خرجنا من باب المسجد . وصدرنا عن ذلك المورد . بجعل ينتقل بى من حارة إلى زقاق . ويجتاز الشوارع ويخترق الأسواق . وينتاب الأحياء شرقيها والغربى . ويغشى المواطن أهليها والأجنبى . فكنت أرى نساء الترك من كثب . وانظر إليهن فى الحجب عن شأن عجب . إذ ألفيتهن جمعاء متجلببات . لكن منهن السافرات والمنتقبات . فمن سفرت فمثل سفور الأخوات الراهبات . لا يبدو منها إلا محياها . وإن كان ولا بد فيداها . ومن انتقبت فبالسواد الشفاف الهافى . أو بالبياض المسبل الصافى . كما تفعل المتقبات من الأفرنجيات . لا ليصنّ الوجوه عن اللحظات . ولكن كى يذدن عنها الأتربة والحشرات . فعلمت من هذا الأخذ والترك . أن النقاب عند نساء الترك . ليس بالضرورى اللازم . ولا بالمنبوذ المحتقر . ولا تركه بالقاضى قاسم . ولا استعماله بالقاضى عمر . حتى لقد تتخذه الفتاة الحسناء . ولا يستحق أن تنبذه القبيحة الشمطاء . إلا أنهن يطولن من الجلباب . بقدر مايقصرن من النقاب . ويجتنبن مخالطة الرجال التى ينعدم معها الحجاب . والتى هى باب الندامة فى ذلك الكتاب . فقد عهدتهن لا يقتصرن فى معاملة الرجال . على ترك الخضوع فى المقال . لئلا يصيبهن ما أصاب من قبل الأمثال . فيحسبن فواجر من لين الكلام . ويصدهن عن الخنا الإسلام . بل هن يسرفن للباعة فى النهر . ويبالغن للتجار فى الزجر . ولا يتجاوزن فى البيع أو الشراء . حدود الأخذ والعطاء . فلا تقدم لإحداهن القهوة كأنها فى قهوة . ولا تجمد يداها على الفنجان . كأنها فى مخازن سمعان . ولا تلحق الغداة بالعشية . كأنها فى الجوهرجية .

فكنت أراهن يمررن بالحوانيت مرا . يأخذن زادا ويعطين وفرا . محترمات عند الباعة . وقرات لدى الجماعة . سواء فى ذلك حرم الوزير . وامرأة الرجل الفقير . لما دانت النظافة بين الجميع . وسوى حسن المنظر بين الرفيع والوضيع . واحتشمت النساء . فتشابهت الأزياء .

وامتنع باطل البطر والفخر . فتشا كل الغنى والفقر . فكما أن طبقات الرجال فى الإستانة أشباه . ولمولانا السلطان وحده الذكر والفخر والمظهر والجاه . كذلك النساء لا تفاوت أقدارهن . اللهم إلا فى مقر دارهن . بين الخدم والحشم . ولدى معالى النسب والنعم . وأما فى طرقات الإستانة . فلا يشار إلى راكبة أن هذه فلانة . ولو كانت سلطانة . ولما كان لجو العاصمة بغتات . وكانت شمسها شديدة الهاجرات . اعتاد النساء حمل المظلات . ويسميها بعضهم بعصيهن . اللاتى يتوكأن عليهن . ويضربن بخرة الأجانب بهن . وقد رأيت بعينى شيئا من ذلك . وشهدت ما جرى هنالك . فقلت :

شمس النهار وأختها ... فى الأرض منها مستظلة
هذى لدى أفق وذى ... من أفق عصمتها مطلة
رام الجهول نزولها ... والجهل يركب ألف زلة
فترفعت عنه ولم ... تنزل عليه سوى المظلة

وكان الدرويش قد أمهلنى برهة . كى أمتع البصر والبصيرة من هذه النزهة . ولم يسر معى على نهج الأدلاء . الذين يحدثونك بكاذب الأنباء . ويشغلونك عن مسألة المعالم والأشياء . بكثرة كلامهم الذى كله تلفيق وافتراء . فحين فرغت من النظر والاختبار . وبلغ بى التأمل والاعتبار . ابتدر خطابى يقول أرأيت ربة السوق كيف تذوق وتدرى . وتساوم وتشرى . وتكاشف وتغطى . وتأخذ وتعطى . كيلا تطعم الزوج والأولاد . إلا ما صلح من الغذاء وجاد . ففى خروجها إلى السوق وتدقيقها الحساب وبحثها عن الحقوق . فوائد اقتصادية جمة . ومنافع تدبيرية مهمة . يعيش بفضلها الفريق الفقراء من الأمة . وتظل الطبقة المتوسطة راضية المعيشة مغتبطة . فإن قليل الفقير . فى القليل كثير . ولا قوام للطبقات الوسطى إلا بالتدبير . وهذه المرأة إنما تقتصد من الخادم وأجر خدمته . وتأمن الخطرين من غباوته وسرقته . وتذيق البيت من هذه الجهة راحة الخاطر . وسكينة السرائر . وطيب الرضا بالخاطر . ومن جهة أخرى فإنها تهيئ لأولادها الغذاء . كما وجب لا كما جاء . وتعتنى بصحة الجميع من هذا السبب أشد الاعتناء . هذا وإنها تعلّم أولادها القراءة والكتابة . وتلقنهم منذ الصغر الدين وآدابه . فقد علمت أن عائلة مصرية . نزلت فى الإستانة بأخرى عثمانية ، فكانت الأولى تستعير الثانية طفلة فى الثامنة من العمر . تستعين بها على مراسلة من لها فى مصر .

(المؤيد) فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩

١٩

وهنا اقتضب الدرويش فسألني : الآن استنزل رأيك فى كتاب ، وضعه قاض فى مصر [١] عدوّ الحجاب . ثم احتجب كالمقصر فى الطلاب . أو الغير الراضى لكلمة قالها أن تعاب ، مع أن الله سبحانه وتعالى طالما أنكرت كلماته . وعيبت رسالته . وجحدت من القيّام [٢] آياته . وحل الأذى بأنبيائه ورسله ، وقتل سقراط وألف سقراط من أجله . وإن أحق الناس بالصبر على أذى الناس . وأولاهم أن يجاهدوا جهاد أولى العزم والباس . أفراد ينتدبون القلم . لتغيير ما بنفوس الأمم . ويحاولون الإنحراف بالزمن والأخلاط . عن صراط فى الأخلاق إلى صراط . وليخرجوهم من ظلام يزعمونه . إلى نور يتوهمونه . إلا من رشد من هؤلاء . وكان من الحقيقة تحت اللواء . ثم لم يتقهقر الوراء . فذلك هو الرجل الأحد . العظيم على الأمد . الحى إلى الأبد (قلت) إن بعض الظن إثم أو أنت عندك بالسرائر علم . إذ ما يدريك أن الرجل يستعد ليؤيد كلمة اقترحها . ويسد فتحة فتحها . فكانت حينئذ من الدرويش ابتسامة ثم قال أى مصرى فتح ثم سد . وأيكم الذى طلب ثم جد . ومن منكم الذى بلغ من عمل . إلى حيث يبلغ بالعاملين الأمل . وهل منكم من صبر على مباديه ، صبر الحر على العيش الكريه . إنى أراك تعمل لنفسك . من حيث تمهد عذر ابن جنسك . فلا تكثر جدالى . وأجبنى عن سابق سؤالى فقد كشفت حالا عن نساء الأقوام . وعرفت اليوم ما هى المرأة فى عاصمة الإسلام . وأصبحت عليك فى الحجاب الحكم وليس عليك الأحكام . (قلت) إذن فالرأى عندى أن مثل صاحب تحرير المرأة كمثل من سلّط على الحريق المهول . خراطيم من غاز البترول . يحسبه ماء . وهو لا يزيد النار إلا إذكاء . أو هو فيما قصدت نياته الحسنة إليه . ولوت سرائره الطاهرة عليه . يريد لأمته المأخوذة بخناقها . المصابة فى أخلاقها . أن تكون حالها كحال المرأة التى تقولون عنها معاشر الترك فى أمثالكم (أرادت أن تنظف دُبُرها فلوثت قُبُلها) ثم استحوذ علىّ الخجل ، من إيراد هذا المثل . فقلت للدرويش عذرا يا مولاى إذا قدمت هذا المثل . فإن الحقيقة ظاهرة فيه ظهور الشمس فى الوحل . (قال) لا لنا ولا علينا . بضاعتنا ردّت إلينا . فأتم الآن كلماتك . وفرج عنا غماتك . (قلت) نحن

---

(١) إشارة إلى قاسم أمين الذى أصدر فى سنة ١٨٩٩ كتابه (تحرير المرأة) وكانت له ضجة كبرى .

(٢) القيام (بالتشديد) لغة فى القيوم من أسمائه تعالى . وجحد الآيات : كفر بها و— كذبها .

اليوم غادون على ثلاثة أخطار . أيسرها عاقبة أسوقها إلى الدمار . وكلها آت لا ريب فيه . أو يتدراك الله هذا الوطن بتنبيه بنيه . أولها انحلال العائلة المصرية . بجميع أحوالها المادية والأدبية . فإنه لا يمضى يوم إلا ويتحادث القوم عن ثروة طائلة أطارها التغرير . أو بيت كريم هدمه التبذير . أو شرف رفيع آذاه الفساد . أو نسب شريف دنسه الأولاد . فهل على الرجال من حجاب فتنحصر فيه الأسباب . ويقال هو الجالب لكل مصاب . على أن هذه المحن تقع وتماد . وتتوالى شدائدها على البلاد . والمرأة لا تزال بين التقنع والسفور . نصفها فى الشوارع ونصف فى الخدور . وهى مع ذلك تشارك زوجها فى التوقيع على الكمبيالات . وقد تجمل إمضاءها بإحدى اللغات . ليعلم المقرضون أنها أشبه شىء بالأوربيات . وتعين زوجها أو أخاها أو أباها على التزوير فى بعض الحالات . فأى يد هنا للجهل . حتى يقال هو الأصل . والمعلوم أنه ما من مصيبة انفطر لها الفؤاد . وتفتتت من وقعها الأكباد . إلا تأتت من بنات البيوتات . اللاتى تعلمن فى المدارس صغيرات . وتهافتن على أسباب التمدن كبيرات . كل هذا وهن لم ينزعن بعد النقاب . ولم يرفعن البقية الباقية من الحجاب . فكيف بهن إذا خلعن العذار . وركبن البسكليت والدوكار . واعتدن القهوة والنادى والبار . أيرجى منهن يومئذ اعتدال . أم هل يكن أصلح حالا من الرجال . كلا بل تكون البلية ثنتين . وتكون الفأس الهادمة فأسين . ويكون البلاء أنزل . والخراب أعجل . والفساد أعم وأشمل . والأمر يومئذ لله .

أما الخطر الثانى فنتيجة الأول . وخلاصته والمحصل . وذلك أن الأهلى والأجنبى فى مصر اليوم كلاعبى ميسر مستمرين . لا يتجاوز المال بينهما يدين . كلتاهما لكلتيهما فرض عين . فما تفقده إحداهما تكسبه الأخرى . وما كان ربحا لهذه كان للثانية خسرا . ثم لا تلبثان أن تفترقا . وقد امتلأت إحداهما من حيث تركت الأخرى صفرا .

وإذا كان الواقع المشاهد أن الجد والجد كليهما فى جانب الأجانب . فقد أصبح من محتوم العواقب . أن يكون يوم آت . يرث الأجنبى فيه الأحياء والأموات . ويستأثر بأنقاض تلك البيوتات . فيصبح وله النهى والأمر . والجاه والوفر . والمحاسن الكثر . فإذا عرضت عليه يومئذ النساء . ورفعت الحجب بين العمى والضياء .

فويل ثم ويل ثم ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء

وليس الخطر الثالث إلا ثالثة الأثافى . وهو كسابقيه بالتأمل حرى . وذلك أننا فى بلاد يحكم الأجنبى فيها نفسه بنفسه . ولا يسامح أحد القناصل فى أحد من بنى جنسه . وأن يجنب

هـذه الحكومة الدوليـة حكومة الاحتـلال الانكليزية . التى هى أينمـا حلت . وفى حيثما احتلت . تاجر لا يشغله إلا التجارة . ولا يراقب إلا الربح والخسارة . فلا تهمها مسائل الآداب، ولا تبالى رُفـع الحجاب . أم تمزق النقاب. ثم هى فى أخلاقها أن الإنسان على نفسه بصير. وأنه بصير نفسه . فحيث شاء لهـا كان المصير. فهب أن الحجاب قـد ارتفع . وأن الاختلاط قد وقع . وأن ضعف الرجال منا أضاع النساء . وصارت الغلبة فى أمرها لمن هو الغالب فى سائر الأشياء . فأصبحنا هذا يبكى أخته. وهذا يندب زوجته. وهذا يسائل الناس هل رأوا ابنتـه . وتوالت المصائب . وانهالت النوائب . وأصبح قليل ما يقع فى أوروبا من الفساد بالعقل . كثيرا فى مصر بالغفلة والخور والجهـل . فأى باب يومئـذ نطرق . و بأى ذيل نتعلق . أبباب القنصل وهو لا تستطيع الحكومة دخـوله . أم ذيل الحكومة . وهى بالشركات عنا مشغولة (قال) الدرويش . (سائح)

(المؤيد) فى ٧ نوفبر سنة ١٨٩٠

٢٠

الآن أسألك عن التعليم . وما أُرصـد له فى ذلك السفر الكريم . وأستخبرك كيف نزل الجهـل بالمرأة فى مصر . عن نظائرها المتمدنات من نساء القصر . لعـلى أَخبُر زين المؤلف وشينه . وأسبر مهواة ما بينك و بينه (قلت) معاذ الله ما بيننا إلا عهد كريم . وذمام مرعى قديم . إذن ما أثم من اجتهد . ولا ظلم من انتقد . ولا صاحبى بالزرى ولا أنا من يُزرى بأحد . لكنى سئمت اقتراح المقترحين فى كل حين . وليسـوا فى كل شىء مفلحين . لنزول أكثرهم عن المركب الوسط . وذهابهـم كل مذهب من الشطط . وميلهم فى الأقوال . عن سـعة الاعتدال . إلى ضيـق الصعب والمحال . فإن الرجل الذى يسمر شبابيك الدار . مخـافة أن تسمو إليها الأبصار . أو أن تقع عليها عين الجار . ثم يحمى امرأته أن تزور وأن تزار . وأن تخرج فى العام إلا نهارا أو بعض نهـار . إذا قيل له ماذا عليك إذا اجتمع فى المنزل رفقتك . وكانت ربة المجلس امرأتك . لعلها تنتفع بمحادثة هذا العليم . أو تقتبس من أدب ذاك الحكيم ، لاجرم أن الرجل يصاب فى قرينه . إن لم أقل يخرج من دينه . بخلاف ما إذا قيل له أنت أيها الرجل قليل الثقة بمن هى أولى الناس بثقتك . كثير المقة لمن تؤذى طول الحياة من مقتك . فهلا أحسنت الظن . وأخرجتها من هذا السجن . وقنعت منهـا بالحجاب الشرعى . والحال الطبيعى . تحتشم فى الائتزار . وتختصر من الازديار . ولا يجمعهـا والرجال قـرار . فما هى

بالأمة الدنيئة . ولا خلقت لتموت جيفة . بل هى نفس أعز عليك من نفسك . تشاركك فى نعيمك وبؤسك . من عرسك إلى رمسك . فما بالها تحرمها نسيم الحياة . وما حرم الله منه الحشرات . ولا حبسه عن السباع فى الفلوات . فلعل الرجل يقتنع . أو عساه ينخدع . لأنه حينئذ يدرج على ترك العاده . حتى يغير اعتقاده . إذ النصيحة المعتدلة تلين الفؤاد . وتملك القياد . وتغلب الطباع الشداد . على النفار والعناد . ومن نظر فى كتاب الله المبين . وهو سبحانه وتعالى خير القائلين . وأحكم الحكماء والمؤدبين . وجد من القول الكريم . والتلطف فى الارتياد والتعليم . والتدرج فى الوصول إلى التحريم . وما يقتدى بمثله الوعاظ والنصاح . وتسرى فى ضوء مشكاته العقول الصحاح .

الدرويش — وهل فى مصر من تُسجن العمر، ومن تموت مئات من الأيام ثم تبدو مرة فى كل عام (قلت) أما الشبابيك المسمرة . كأنها منافذ المقبرة . أو بعض الغرف فى طرة فشئ حققته بنفسى . وشهدته بعينى رأسى . ولم أسمع بمثل هذه البلية . إلا فى بعض المدن الفرنسية . حيث يحرم البوليس بيوت الفساد أن تفتح شبابيكها على رؤوس العباد . مخافة أن تطل منها الجيفة . على الحرة العفيفة . أو أن تُسوّى الحجرة المدنسة بالحجرة الشريفة . فانظر يا مولاى كيف تفاوت البشر بالغرائز والطبائع . وتباينوا فى المشارب والشرائع . حتى أصبح ما يعمل هناك تضييقا وعقابا . يسمى هنا حجابا . ويعتبر كمالات وآدابا . وأما التضييق فى الخروج والدخول . والقضاء على نجم المرأة بالأفول . فبلاء مع الأسف واقع . ماله من دافع . لكن يخفف من وقعه علينا . ويقلل من مصائبه لدينا . كونه أصبح مختصا بفريقين من الناس . منحصرا فى جنسين من الأجناس . أولاد البلد الكبراء . والسادة العلماء الأجلاء . وقد يتعداهما فى الأرياف إلى بيوت العمد والوجهاء . على أنى لا أنسب ذلك إلى الجهل . ولا أحمله على قلة العقل . ولكنها العادة رسخت أقدامها . ونفذت أحكامها . واستبد بالعقول السليمة زمامها .

ولولا أن الضرورة أشد من العادة حكما . وأن الفقر أصم على ماخيلت أعمى . ماسارت الدهماء فى المدن والأرياف . إلا على نهج من ذكرنا من الأعيان والأشراف . ولما بالغوا فى الحجاب للنساء . ولو استطاعوا لصعدوا بهن إلى السماء . فإن العامة فى مصر أشداء على أزواجهن . من شدة الغيرة عليهن . وما نراه كل يوم من ضربهم النساء . أو نسمع به من من تفننهم فى الإيذاء . ليس إلا أثرا من آثار تلك العادة . التى يخفيها عندهم الشقاء . وتظهرها عند الآخرين السعادة .

على أن من تأمل فى حديث تاريخ الأمة المصرية . وتتبع مجرى أحوالها الاجتماعية . حكم لأول وهلة أن مرجع الفضل فى ارتفاع المرأة بعض المنزلة . وحصولها على الحرية المعتدلة . إنما هو للنساء العثمانيات . من تركيات أو جركسيات . أو كرديات أو أسيويات . فقد طالما تهافت المصريون عليهن . وثنوا انصبابهم إليهن ، فهذبن الأصل . وقومن النسل . وزدن البيت من عماد . وتدن العائلة بأوتاد . وبلغن إلى حد تبرأ المرأة عنده أن تستزاد . إلا أن هذا العدد قليل لا يكفى للقدوة . ولا يسير التقليد معه إلا خطوة خطوة . فليت صاحب تحرير المرأة لم يخلط العجم والعرب . ولم يقلب الشرق والغرب . بل نظر إلى هذه الأمة عن حقيقة حالاتها . وهابها فى أخلاقها وعاداتها . فسلك سواء الطريق . وأغار فريقا من الأمة بفريق . وضرب العضو مثلا للعضو . ثم دعاه ليحذو الحذو . لعل الساجن لزوجته . الآخذ بخناق امرأته . إذا عرف أن نساء غيرها علمن فتعلمن . وأكرمن فكرمن . وأرخى لهن الحجاب . فما ازداد الإطهارة ثياب . وأصبحن رياحين الأزواج . وأسباب الإنشراح والإبتهاج . عرف كيف يمتع زوجته ويستمتع بها . ويثق بها ثقة تزيد فى عقلها وحبها . نخرج من هذا إلى أن التعليم كذلك مبالغ فى أمره . وأن للامة عذرا أن ترمى على المؤلف ما ورد فى سفره . إذ من الحقائق التى لاتقبل المراء ، إنه بقدر الرجال يكون النساء . وأن النسبة بين الرجل والمرأة محفوظة . ودرجة التفاوت بينهما فى كل زمان ومكان ملحوظة . فكما أن امرأة المسيو ريبو ، الذى يقضى نهاره فى حمل أعباء الوزارة فإذا جاء الليل رأيته على كرسى التدريس فى "الكولليج دى فرانس" يخلب الألباب بسحر بيانه . ويفيض على العقول من علوم زمانه ، لا يمكن أن تزيد معارفها عن قراءة صحيحة . وكتابة فصيحة . والعلم بمبادئ العلوم الضرورية . وقسط وافر من الآداب الاجتماعية . مما يرجع إلى الزوج أثره . وينتهى إليه أكثره . كذلك الوزير الشرقى الذى لا يحسن كتابة كتاب فى لغته . ولا يأخذ من لغة الأجنبى غير ظاهر لهجته . ولا يعرف من العلوم فوق ما حصّل منها فى شبيبته . لا يحل مطالبة حرمه أو بناته . بالتقدم عليه فى معارفه ومعلوماته . بل مستكره منهن قراءة القرآن . عن ظهر القلب أو من طرف اللسان . ومقدار من اللغة الفرنسية يمكن من فهم الرومان[1] . فهم من لا معقول له ولا بيان .

بقدر الرجال تكون النساء ، ونساؤنا معشر المصريين على قدر أبوتهن وأخواتهن وبعولتهن .

(سائح)

(١) الرومان تعريب الكلمة الفرنسية Roman وهى الرواية أو القصة .

(المؤيد) فى ٨ نوفبر سنة ١٨٩٩

٧١

فكما أن الأب فى البيت شبح إنسان . وجثمان ولا وجدان . ضجر كسلان . يتلهى بقص أظافره . ويلتمس فى الضجعة الطويلة راحة خاطره . ولا يقرب خزانة كتبه ودفاتره . يفوته المجد والفخر . ولا تفوته نومة الظهر ولا ركعة العصر . وهو والله لم يعرف التعب . ولم يذق فى نهاره النصب . فإن كان فى وظيفة فقد أزاحه المحتلون عنها . وإن كان ذا أملاك فقد أراحه المستأجرون منها . علومه إلى نسيان . وآدابه فى نقصان . وأحاديثه فوضى . ومباحثه مرضى . وكتبه للتجليد والزينة . وإن كانت ثمينة . له فى البيت نفخة البو . وفى النظارة طأطأة الدلو . يستكبر على صغاره . وينأى بجانبه عن جاره . ويحتقر الناس والناس فى احتقاره . كذلك تنشأ البنت فى عداوة العمل . ومحبة الكسل . متقلبة الأهواء . متلونة الأخلاق كلون الحرباء . إذا تعلمت ذهب التعليم سدى . وإذا ربيت لم تفدها التربية على الحياة هدى .

وكما أن الأخ مشغول بلمته . مشغوف بجبه . ويبحث عن أحدث الأزياء ويتعلق بصغائر الأشياء . ولا تستقر به برهة[١] فى مدرسة . من السآمة والوسوسة . فمن ماريل إلى كليبير . إلى الجزويت إلى الفرير . ومن الفرنسوية وهى لسان الملوك والسلاطين . ولغة القصر بكل بلاد وفى كل حين . إلى الإنجليزية التى هى المحل الأول . ولها فى وظائف الحكومة الشأن المستقبل . إلى أن تكون النتيجة ضياع اللغتين . كما ضاع من قبل لسان الوالدين . كذلك البنت تشب على مثال من أخيها يحتذيه . وأثر من أحواله وأخلاقه تقتفيه فإذا تعلمت تعلمت مضطرة . وزارت كل مدرسة مرة . تألف العُجب والاختيال . وتعتاد الكسل والإهمال . وتعلّق بالصغائر الآمال . حتى إذا وجب الزواج وهى لم تستعدّ له . ولم يدخل هلالها بعد فى هذه المنزلة . اقترن بها مَن عقله كعقلها وأدبه كأدبها . ومن طابقت حالته منذ النشأة حالها . فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها . أخذها متعلمة قارئة . كاتبة متكلمة . وأخذته ليسانسيه . من إكس أو مونبلييه . تعرف الحساب لكنها لا تجد ما تحسبه . لأن رب البيت ينفق ما يكسبه وفوق ما يكسبه . وتتكلم بالفرنسوية لكنها

(١) البرهة قطعة من الزمان طويلة . وشوقى يريد هنيهة . وقد نبه اليازجى إلى هذا الخطأ فى نقده رواية عذراء الهند .

لا تجـد من تكلمه . لأن زوجها المتمدن فى مكان لا تعلمه . وقد حبس عنها حقيقة الحب وجلاله . وغادرها تأخذ من الروايات كذبه وخياله . و بالجملة فالمتعلمات فى مصر يا مولاى كثير . والتعليم فيها للبنين والبنات غزير . والنسبة بين الأزواج موفورة . والمنزلة بين الرجل والمرأة . من كل طبقة مقدورة . فالمتعلم لا يتزوج إلا متعلمة . والمظلم لا يتزوج إلا مظلمة . وقلّ شاب . نشأ فى المعارف والآداب . إلا وامرأته تناسبه حسبا ونسبا . وتدانيه عقلا وأدبا إلا أنها حركة تقطع بالأمة المدى . ثم لا تبلّغها إلا المبتدا . مادام البناء على المـاء . والتعلق بالهباء . إذ الرجل والمرأة كلاهما فى حاجة إلى أساسين عظيمين . وسببين وثيقين . ليبلغا الشأو المطلوب . ويحصلان من التعليم على النجاح المرغوب . لغة علمية يجتمعان فى التعلم لديها . وأخلاق قومية يرجعان فى التربية إليها . فإذا فاتنا هذا فات الأمل . من كل سعى وعمل . ولم نكن فى نهوضنا المزعوم . ورقينا الموهوم . إلا كالطير ارتفع ثم وقع . أو كالدخان تعالى ثم تبدد وانقطع . وقد أوشك إخواننا السوريون يجتازون العقبة الأولى . و يكون لهم فى إذلالها اليد الطولى . فان من عاشر شبانهم وخالط فتيانهم . بل إن من حادث أحداثهم وصبيانهم يندهش من تساويهم فى قراءة اللغـة صحيحة . و كتابتها فصيحة . والعناية بها . والدأب فى طلبها والتهافت على درس قوافيها . والإعجاب بما يغرب المغربون فيها . ولا جرم أن انشغالهم بالعلوم العربية . واجتهادهم فى تحصيل الفنون الأدبية . مما يلين لهم أزمة العلوم الأخرى . و يدين أعنة اللغات الكبر . و يبشرهم بمستقبل محجل أغر .

(سائح)

(المؤيد) فى ٩ نوفبر سنة ١٨٩٩

٢٢

الدرويش — نتهى من هـذا إلى أنك معجب بالمرأة العثمانيـة . وأنك تغبطها بلسان أختها المصرية . وأنك عرفت فى مصر آثارها . قبل أن أحدثك أخبارها . وأن ترى وطنها وتزور ديارها . فأى بِرّ أنت به جازيها . وهـل لك أن تقول شيئا فيها . فجعلت أتنصل وأعتذر . وأتوارى وأستتر . والدرويش يقترح اقتراحا . ويلح إلحاحا حتى وجد الامتثال . وحق المقال . فقلت فى الحال :

يا ملكا تعبـدا مصـليا موحـدا[1]

---

(١) القصيدة منشورة بعنوان (المـرأة العثمانية) فى الجزء الأول طبعة قديمـة ص ٢٣٨ وفى الجزء الثـانى من الشوقيات ص ٣٢ فلا داعى لإعادة نشرها هنا .

فلما فرغت من الإنشاد . أنشأ الدرويش ما أراد . قال جزيت عن النساء خير الجزاء ولا أضاع الله أجر الثناء . فهل من جديد ترتاح الآن إليه . وتريد أن تطلع عليه (قلت) وددت لو جمعني ببعض رجال الأدب . من خاصة الترك . لا من خاصة العرب . فما زالت القرائح مرآة الأمم والشعوب . وملتقط الكاتب من الأقوام بمنزلة النياط من القلوب .

(الدرويش) — إني جامعك برجل كبير الحياة الأدبية . جليل السيرة السياسية . مؤلفاته عند قومه لا تحصى . وآثار فضله بينهم لا تستقصى . حتى ليقولون عنه إنه أول من علمنا القراءة والكتابة . وبث فينا محاسنه ونشر آدابه . ولكن لا أكتمك أنهم بعد أن اشتدت سواعدهم . انسحب من الميدان قائدهم وأصبحوا يفتقدونه بالحق . ولا يرونه قد بلغ من الشهرة ما يستحق . فإنه في نظرهم كالأساتذة . قد سبقهم التلامذة . وإن كانوا هؤلاء جهابذة . فلا يبقى إلا فضل التعليم . وحق التربية القديم .

فذكرتني عبارة الدرويش هذه رجلين عظيمين . عزيزين على المصريين كريمين . ألا وهما المرحوم رفاعة بك أول من ترجم ومن علم بالقلم . والمغفور له علي باشا مبارك روض المعارف وظلها الوارف . ورافع لوائها . وعالي أساس بنائها . وإذ كنت أحب العلماء المجدين . وأختص بالحب العاملين منهم المرشدين . سألت الدرويش .

(سائح)

القسم الثانى

(١٩٠٠ – ١٩٠٣)

* * *

(اللواء فى ٢ رمضان سنة ١٣١٧ هـ الموافق ٤ يناير سنة ١٩٠٠)

(من تهنئة بإقبال شهر الصوم المبارك)

أفى هذا الشباب تعف نفس ... ولا يلهى الفتى هذا النعيم

ألا يدعوك للذات صفو ... وأكثرنا على كدر يحوم

كأن مكارم الأخلاق روض ... وأنت الزهر فيه والنسيم

فهلا اختار هذا النهج قوم ... خلالُ الدين بينهم رسوم

وما جهلوا فوائد ما أضاعوا ... ولكن ربما نسى العليم

تَغَيَّرْنا فلا ظن جميل ... بخالقنا ولا قلب سليم [1]

كأنا فى التلون قوم موسى ... وأنت بنا كما شقى الكليم [2]

فإن لم نرض أخلاقا فعذرا ... لعل ضلالنا هذا قديم

(شوقى)

---

(١) و (٢) فى هذين البيتين صور شوقى المجتمع المصرى من الناحية الدينية والاجتماعية والسياسية : الدينية فى قوله (تغيرنا فلا ظن جميل بخالقنا) ، إشارة إلى الشك الذى بدأ يتسرب إلى بعض النفوس ويحل محل اليقين . الاجتماعية فى قوله (ولا قلب سليم) . والسياسية فى قوله (كأنا فى التلون قوم موسى) : إشارة إلى تقلب كثيرين من الساسة المصريين فى ذلك العصر بين عابدين وقصر الدوبارة . والتلون كالشماتة من الكلمات العربية الصميمة التى لا مقابل لها فى اللغات الأجنبية .

(المؤيد فى ٣ مايو سنة ١٩٠٠)

الرد على هانوتو

كان الوزير المؤرخ الفرنسى الشهير جبرائيل هانوتو كتب مقالات طعن فيها فى الإسلام فرد عليه الإمام الشيخ محمد عبده بثلاث رسائل نشرها (المؤيد) تباعا فى ١٧ و ١٨ و ١٩ أبريل سنة ١٩٠٠، وقد جاء فى (المؤيد) عدد ٣ مايو سنة ١٩٠٠ ما يأتى: «إن ذلك العالم المفضال[1] والإمام المعظم الذى رد على مسيو هانوتو قد كتب أعلى ما يكتب الفيلسوف وأسد ما يحتج به المنطق وأبلغ ما يسطر البليغ ولذلك امتدحه شاعر من أبلغ شعراء هذا العصر[2] يشق كار الأمثال وأمثال البكار فقال»:

(محمد) ما أخلفتنا ما وعدتنا ... صدقت وقال الحق فيك ضمير

فأنت خضم العلم حال سكونه ... وأنت خضم العلم حين تثور

وأنت أمير الحفظ والقول والنهى ... إذا لم ينل تلك الثلاث أمير

ففوق عليم القوم منك معلم ... وفوق وزير القوم منك وزير

إذا جهلت يوما علينا خصومنا ... فإنك من جهل الخصوم مجير

وإن جردوا الأقلام جردت إثرها ... يراعا له فى الخافقين صرير

إذا صال لاقى ضيغم القوم شبها ... له فى نفوس الشانئين زئير

وأنت قريب فى الولاء مؤمل ... وأنت أبى فى الخصام كبير

ويعجبنى منك التقى حين لا تقى ... وجدك حين الهازلون كثير

---

(١) مقالات محمد عبده فى الرد على هانوتو لم تنشر باسمه فى (المؤيد) وكان معروفا أنها له. وقد جمعت فى كتاب على حدة فى سنة ١٩٠٠، ونسبت لـ «عظيم من عظماء الإسلام وإمام من أئمة الأعلام». والعجيب أن ينسى إمام الأئمة وسيد الشعراء.

(٢) إن شوقى على الرغم من ولائه الشديد للخديوى عباس الذى كان يرى فى محمد عبده خصما لدودا له كان أشد ولاء لحرية الرأى والحقيقة، فكانت لا تخلو قصائد المدح «والرسمية» من الغمزات والجهر بالحقائق صراحة أو تلميحا وفى هذه الأبيات التى يخاطب بها محمد عبده وضع الشاعر ممدوحه فى مرتبة أعلى من مرتبة الأمير والعالم والوزير.

(المؤيد فى ٣١ مايو سنة ١٩٠٠)

مدحة سـنية

بمناسبة سفر الخديوى إلى انكلترا فى شهر يونية

ظهرت قصيدة شوقى فى المؤيد فى حوالى ٣٩ بيتا . وقد أعيد فى الجزء الثانى من الشوقيات صفحة ١٥٩ من باب النسيب نشر أبيات الغزلى (١٦ بيتا) . ولكننا رأينا إعادة نشرها كاملة لأنها من غرر قصائد الشاعر ولأن أبيات المديح فيها قليلة ولأن النسيب الذى آختاره الشاعر قد أدخل عليه تعديلا ذهب بروعة أهم أبياته . مثال ذلك :

آفـة النصـح أن يكون جدالا ‏ ‏ ‏ ‏ وأذى النصـح أن يكون جهـارا

صار هذا البيت فى الجزء الثانى من الشوقيات الذى صدر فى سنة ١٩٣٠ :

آفـة النصـح أن يكون (لجاجا) ‏ ‏ ‏ ‏ وأذى النصـح أن يكون جهـارا

وكلمة (لجاجا) ثقيـلة . مع أن نص الحكمة كما ورد فى (المجلة المصرية) عدد غرة يونيـو سـنة ١٩٠٠ صفحة ٨ هـو : « آفة النصح أن يكون جدالا . وأذاه أن يكون جهارا » . وفى (أسواق الذهب) طبعة الهلال سنة ١٩٣٢ صفحة ١٣٠ وردت الحكمة بنصها القديم « آفة النصح أن يكون جدالا وأذاه أن يكون جهارا » . وفى صفحة ١١٦ من نفس الكتاب وردت الحكمة فى صيغة أخرى لا تختلف فى جوهرها عن الصيغة القديمة : « النصح ثقيل فلا تجعله جدلا، ولا ترسله جبلا » .

ومثـال آخر:

لم نفق منـك يا زمان فنشكو ‏ ‏ ‏ ‏ مدمن الخمر ليس يشكو الخمارا

هذا البيت الرائع طالما أطنب فى امتداحه الأديب الذواقة المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى وقد هبط به شوقى إلى الحضيض بصياغته الجديدة :

لم نفق منـك يا زمان فنشكو ‏ ‏ ‏ ‏ مدمن الخمر (لا يحس) الخمارا

ذهبت من البيت طلاوته وموسيقاه وجدة معناه .

هذا فيما يتعلق بالنسيب وما إليـه . أما فيما يتعلق بالمديح الذى أسقطه الشاعر فأهم أبياته ما قاله عن الملكة فكتوريا والانجليز:

لا يبالون بالحوادث ربحا حملت فى بطونها أم خسارا
جمعوا المجد والمفاخر طرا وجمعنا صغائرا وصغارا
إنما يبلغ الذى يقفوه من حذا الحذو واقتفى الآثارا
وبما العيل سيمز أبىّ يأنف الهون منزلا وقرارا

وإذا كان شوقى قد لام أمته على تقصيرها فى طلب العلى وعلى جمع « الصغائر والصغار » بينا يجمع الانجليز « المجد والمفاخر طرا » فإن إشارته بالأبى الذى « يأنف الهون منزلا وقرارا» ثم قوله بعد ذلك :

وإذا ما العزيز ساس بلادا علّم المجد أهلها والفخارا

يتضمن تعريضا مستترا « مهذبا » بالخديوى نفسه وحثا له على طلب المجد والرفعة لبلاده أسوة بالقوم . ولذلك لم يتجاوز مديحه الصريح للخديوى فى القصيدة أكثر من أبيات معدودات .

القصيدة

بدأ الطيف بالجميل وزارا يا رسول الرضى وقيت العثارا
خذ من الجفن والفؤاد سبيلا وتيمّم من السويداء دارا
أنت إن بت فى الجفون فأهلا عادة النور ينزل الأبصارا
زار والحرب بين جفنى ونومى قد أعد الدجى لها أوزارا (١)
حسن يا خيال صنعك عندى أجمل الصنع ما يصيب افتقارا
ما لربّ الجمال جار على القلـ ـب كأن لم يكن له القلب جارا
وأرى القلب كلما ساء يجزيـ ـه عن الذنب رقة واعتذارا
أجريح الغرام يطلب عطفا وجريح الأنام يطلب ثارا
أيها العاذلون نم ورام السـ ـهد من مقلتىّ أمرا فصارا
آفة النصح أن يكون جدالا وأذى النصح أن يكون جهارا
سألتنى عن النهار جفونى رحم الله يا جفونى النهارا
قلن نبكيه قلت هاتى دموعا قلن صبرا فقلت هاتى اصطبارا
يا لياليَّ لم أجدك طوالا بعد ليلى ولم أجدك قصارا

---

(١) الوزر (بكسر الواو) : السلاح لثقله .

إنّ من يحمل الخطوب كبارا ⠀⠀ لا يبالى بحملهن صغارا

لم نفق منك يا زمان فنشكو ⠀⠀ مدمن الخمر ليس يشكو الخمارا [(١)]

فاصرف الكأس مشفقا أو فواصل ⠀⠀ خرج الرشد من أكف السكارى

✦ ✦ ✦

شعراء الزمان مهلا رويدا ⠀⠀ إن فى مصر شاعرا لا يجارى

حاملا فى الصبا لواء القوافى ⠀⠀ مسترقا لملكه الأشعارا

قد بلغنا (أبا محمد) النجـ ⠀⠀ ـم كما يبلغ السُّراة المنارا

نرتجى منه للديار اعتزازا ⠀⠀ وجدير بأن يُعز الديار

ودّع الصبر أمة ودعت عبا ⠀⠀ سها المرتجى عشية سارا

بعثت إثره القلوب تراعيـ ⠀⠀ ـه وترعى وتأخذ الأخبارا

فأعدها قريرة يابن توفيـ ⠀⠀ ـق وهيِّء لقومك استبشارا

أنت فى نضرة الثلاثين كسرى ⠀⠀ قاتِلُ الدهر أو أجل وقارا [(٢)]

لا يزال الوقار فى الشيب حتى ⠀⠀ ترتدى المشيب ثوبا معارا

لتعيشنّ كالنجوم نراها ⠀⠀ جاوزت وهى فى الصبا الأعمارا

أفن إن شئت بالثواء الليالى ⠀⠀ وإذا شئت أفنها أسفارا

وجُب البر واركب البحر واسلم ⠀⠀ إن للبدر فى السرى أوطارا

فإذا جئت ملكة تملك البرْ ⠀⠀ رَ بيمنى وباليسار البحارا [(٣)]

صافح اليمن والسعادة والتوفـ ⠀⠀ ـيق والجد والحظوظ الكبارا

والقَ ما شئت من حفاوة شمس ⠀⠀ تُكبر الشمس عرشها إكبارا

كلما ألقت الشعاع بأرض ⠀⠀ شاطرتها العباد والأمصارا [(٤)]

وأحقُّ الأقوام بالعز قوم ⠀⠀ يقـدِرون الأمور والأقدار [(٥)]

---

(١) الخمار بالضم : صداع الخمر وأذاها وبقية السكر . وقيل للإخطل « ماذا يعجبك من الخمر فان أولها مر وآخرها خمار » . (٢) قاتل الدهر خبرة . وقد تكون قاتل من قتل أى أصاب قتاله (بفتح القاف) . والقتال هو النفس والقوة . (٣) الملكة فكتوريا التى حكمت انجلترا لغاية موتها فى سنة ١٩٠١ . وفى البيت إشارة إلى المقابلة المنتظرة بين الخديوى وجلالتها . (٤) شاطرتها أى ناصفتها أو أخذت شطرا وأعطت شطرا . (٥) يقدرون : يقسمون ويدبرون ويقيسون ويهيئون .

ورجال إذا سموا للمعالى ... ركبوا فى سبيلها الأخطارا
لا يبالون بالحوادث ربما ... حملت فى بطونها أم خسارا
جمعوا المجد والمفاخر طرا ... وجمعنا صغائرا وصغارا
إنما يبلغ الذى يغشوه ... من حذا الحذو واقتفى الآثارا
وسما للعلى سمو أبى ... يأنف الهون منزلا وقرارا
وإذا ما العزيز ساس بلادا ... علم المجد أهلها والفخارا
كوكب الآملين صبح التمنى ... كلما همت الخطوب أنارا
نحن رضوان فى جوارك يا عباس لا زلت للعناية جارا

خلق المرأة فى الهند

تعريبا عن فصل ورد فى جريدة (الديبا) الفرنسية

لحضرة نابغة العصر أحمد بك شوقى

أروى لكم خرافة فى غاية اللطافة
أتت من الهند لنا وترجموها قبلنا
الى لغات جمه لأن فيها حكمه

⁂

(طوشترى) معبود آلهه الهنود
قالوا هو الذى برا هذا الوجود والورى
ومثله (فلكان)[1] فيما رأى اليونان
كلاهما حداد عبده العباد

⁂

فحين صاغ العالما كما يصوغ الخاتما
أنفق ما كان ادخر ولم يدع ولم يذر
وكلّ شىء بذلا حتى أتم الرجلا
وضاق بالنساء فى الخلق والإنشاء
فحار ماذا يجمع ومنه أنثى يضع

⁂

وبعد فكر أعمله حتى بدا الصواب له
كونها تكوينا مختلفا تلوينا
من استدارة القمر الى لطافة الزهر

(١) الاسم اللاتينى لإله النار والمعادن عند اليونان . وتروى الميتولوجيا اليونانية أن هنايستوس (أو فلكان) كان شديد الكآبة لدرجة أن أمه قذفت به من أعلى جبل الأولب فأصابه العرج . وقد أنشأ فى جزيرة صقلية ، تحت بركان إتنا ، حدادات كان يساعده فى معالجة الحديد فيها عمالقة جبابرة يحملون عينا واحدة وسط جباههم .

إلى ترنح العشب[1] إلى رشاقة القضب

فلحظات الريم فقلق النسيم

فبهجة الشعاع فقسوة السباع

فقسوة الألماس وماله من باس

فزهوة الطاووس تأخذ بالنفوس

ومن دموع السحب إلى انكماش الأرنب

إلى التواء الأرقم فالزغب المقسم[2]

فالحر من وقود فالبرد من جليد

فالشهد في المذاق فخفة الأوراق

إلى التفات البهت زاخـه والنبت

فنغم الهدير فهذر العصفور

وكل هذا جباه مكونا منه امرأة

وبعد ما أتمها لعبده قدمها

وقال خذها يا رجل ومن هواها لا تمل

فبعد أسبوع مضى أتى له معترضا

يقول يا إلهنا خذها كفاني هما

لاصبر لي معها ولا أرى بها لي قِبلا

---

(١) لعلها طراوة العشب . (٢) المقسم : الجميل . والواقع أن هذا البيت والذي قبله .

ومن دموع السحب إلى انكماش الأرنب

غامضان ... ويعجبني بهذه المناسبة ما قاله شكيب أرسلان عن القصيدة المنشورة في الجزء الأول من (الشوقيات) طبعة سنة ١٩٢٦ ص ٢٩٦

رضى المسلمون والإسلام فرع عثمان دم فداك الدوام

" وهذه القصيدة غير خالية من أبيات فيها غموض وأخرى فيها تعقيد ولكنها على كل حال عامرة بشوارد الأبيات وشوقية كسائر الشوقيات وفيها درر يتائم وألفاظ كنسج الخاتم " (شوقي أو صداقة أربعين سنة . الأمير شكيب سنة ١٩٢٦) .

على أن معظم الغموض الذي يبدو في بعض أبيات (خلق المرأة في الهند) قد يجلوه ما جاء في الجزء الأول من ([illegible]) - فبراير سنة [illegible] تحت عنوان (المرأة) : «قال توسترى حكيم الهند إن الله لما أراد أن يخلق المرأة أخذ استدارة القمر ، وتموج الأفعى ، واحتباك النبات المعترش ، واهتزاز العشب ، وقوام القصبة ، ولمعان الأزاهر ، وخفة الورقاء ، ونظر الشاة ، وانبساط أشعة الشمس ، ودموع الغيوم ، وتقلب الرياح ، وحياء الأرنب ، وكبرياء الطاووس ، وقساوة الألماس ، وحلاوة الشهد ، وفظاظة النمر ، وخلق من كل هذه الأشياء المرأة» .

تظل تشكو الداء   وتخلق الشحناء
محتالة على الغضب   شاكية ولا سبب
قد ضيّعت أوقاتى   وأذهبت لذاتى
فأخذ الإله   ما كان قد أعطاه
فلم يكن بعض زمن   حتى تولاه الحزَن
فقال رب ردّها   فما نعمتُ بعدها
بانت فلا أنساها   كأننى أراها
ماثلة أمامى   مالئة أيامى
لطيفة فى لعبها   خفيفة فى وثبها

* * *

قال الإله للرجل   حيرت مولاك فقل
ماذا الذى تريد   أحفظ أم أعيد
فأخذ الرفيقة   وقال ذى الحقيقة
لا عيش لى معها ولا   بغيرها العيش حلا

شعر أجنبي فى قالب عربي

للشاعر الفرنسوى الفريد دى موسّيه

لا تسرق الشعر واتركه لقائله ... فان أقبح شيء سرقة الناس
انى وإن صغرت كأسى أخو أدب ... أُسقَ وأَسقِ أولى الألباب من كاسى

ولبعض شعراء الترك

كن فى التواضع كالمدا ... مة حين تُجلى فى الكؤوس
مشت اتئادا فى الصدو ... ر فحكّموها فى الرؤوس

وله أيضا :

هام الفؤاد بشادن ... ألف الدلال على المدى
أبكى فيضحك ثغره ... والكِمّ يفتحه[1] الندى

بعضهم لبعض كالمرآة

رأيت قومى يذم بعض ... بعضا إذا غابت الوجوه
وإن تلاقوا ففي تصاف ... كأن هذا لذا أخوه
كريمهم لا يسُدُّ سمعا ... ووغدهم لا يُسدّ فوه
وكلهم عاقل حكيم ... وغيره الجاهل السفيه
وذا ابن من مات عن كثير ... وذا ابن من قد سما أبوه
وذا بإسلامه مدل ... وذا بعصيانه يتيه
وكلهم قائم بمبدا ... ومبدأ الكل ضيعوه
فقد بدا لى أن قد تساوى ... فى ذلك الغمر[2] والنبيه
وليس من بينهم نزيه ... ولا أنا الواحد النزيه
جعلت هذا مرآة هذا ... أنظر فيها ولا أفوه

(شوقى)

---

(١) الكم (بكسر الكاف) وعاء الطلع و — غطاء النور (بفتح النون) و — الغلاف الذى تشق عنه الثمر ويحيط به سمى كمًّا لانه يستر ما تحته . (٢) الغمر من لم يجرب الأمور و — الجاهل الأبله .

(المجلة المصرية) فى ١٥ يولية سنة ١٩٠٠

ما بعـــد الصين

نشرت (المجلة المصرية) القصيدة الآتية لشوقى . وسنمهد لهـا بموجز عن حالة الصين وقتئذ . كتب خليل مطران فى عدد أول يولية سنة ١٩٠٠ من مجلته تلخيصا لحوادث الصين جاء فيه " وفى سنة ١٨٤٠ حدثت حرب الأفيوم الشهيرة وذلك أن انكلترا أذنت بزراعة هذا المخدر السام فى بلاد بنغال (الهند) وكانت تهربه إلى الصين وتستورد منه ستين مليون فرنك دخلا ســنويا ,فاتفق أن عاملا صينيا ظفر باثنين وعشرين ألف صـندوق من الأفيوم كان جماعة من تجار الانكليز يدخلونها سرا إلى الصين واشتد على أصحابها فحملت انجلترا بأساطيلها على الصين بدعوى أن بعض رعاياها أهينوا واحتلت جزيرة شوزان . ثم عرضت على الامبراطور شروط صلح ثقيلة فلم يقبلها فجهزت جيشين وأرسلتهما برا فلما وصلا الى نانكين عقد الصلح ســنة ١٨٤٢ على فتح خمســة من الموانى الصينية للتجارة الأجنبية وترك جزيرة هونج كونج لانكلترا وغرامة قدرها ١٢٠ مليون فرنك . واتفقت الحكومتان على منع تجارة الأفيوم غير أن إيراد بنغال منه أناف بعد ذلك على مائة مليون فرنك سنويا . .

وفى ســنة ١٨٤٤ أوفدت فرنسا سـفيرا إلى بكين لعقد معاهدة تجارية من مقتضياتها الغاء كل أمر صدر فى حق المرسلين الكاثوليك سنة ١٩٢٨ وإعادة الكنائس التى صودرت إلى أربابها ومنح الاذن بنشر تعاليم الانجيل . وفى ســنة ١٩٥٦ قتل بعض دعاة الدين الكاثوليك فاتخذت فرنسا وانكلترا ذلك وسيلة لمحاربة الصين معا ودخلتا عاصمتها سنة ١٨٦٠ وكان الأمريكيون قبل ذلك بسنتين قد دخلوا اليابان عنوة بدعوى أنه لا يجوز إقفال مرافئ وضعتها الطبيعة فى ذلك المكان لوقاية السفن من أخطار بحر كثير العواصف والأنواء .

"وفى سنة ١٨٥٦ رأت روسيا ما حصل فى قلوب الصينيين من رعب لاغارة الفرنسويين والانكليز على وطنهم فاستولت على بلاد منشوريا الواسعة وتم لها ذلك فى سنة ١٨٦٠ ثم شفعته بمد ظلها على كورية واكتفت انكلترا بجزيرة هونج كونج مرسى لمراكبها واتخــذت فرنسا فى الكوشنشين مستعمرة زاهرة . وليس يخاف على أحد ما جرى بعـد حرب اليـابان من الحوادث التى وضعت الدول إزاء الصين موضع السباع أمام الفريسة فكنّ كلمـا أمكنت فرصة واحدة منهن أنشبت ظفرها فى جسمها والتهمت قطعة ممـا هو أقرب إليهـا برغم أنه « فى منطقــة نفوذها » وأعظم ما مزّقت الصـين ونهشت فى السنة المـاضية . ولا ريب

أن هذا من أكبر الاسباب التي ثار من أجلها عصابة الملاكين (بوكسر) وهم جماعة رياضة بدنية فى الظاهر وأهل مطالب سياسية فى الباطن . وقد تفرعوا من جمعية السكين الأكبر وكان علة تحزبهم على هذه الصورة انسلاخ كياوتشيو وميناء أرثر وواى هاى واى عن بلادهم ودخولها فى ولاية الأجانب . ومشهور أن الامبراطورة كانت المحرضة لهم على هـذا العمل والمؤيدة لهم فيه . وهى عجوز ذات دهاء استبدت بثلاثة ملوك قبل تولى هـذا الشاب الذى لا حول ولا طول له بين يديها . وكان سلطانها عليهم كما كان على الصين كلها . وهكذا يسود الفساد فتضيع البلاد وتشقى العباد وكل شىء بميعاد " .

هذا ما كتبه مطران ولا شـك أن خاتمة مقاله " وهكذا يسود الفساد فتضيع البـلاد " لا تستقيم مع الحقائق المبينة فى صلب المقـال . لذلك جاءت قصيدة شوقى بعـد ذلك مرآة لهذا التناقض بين الوقائع والحكم عليها . ومعلوم أن أوروبا فى القرن التاسـع عشر قد جرت فى الصين على نفس السياسة التى جرت عليها فى أفريقيا ومصر وهى سياسة التعصب الإجماعى وتفتيت كل مقاومة بالأسـلحة الحديثة كالمكسيم والمـوزر وفرض غرامات فادحة أو إعارة أموال بفوائد باهظة لتعجيز البلاد عن النهوض اقتصاديا وتحقيق مشروعات الاصلاح والتمهيد لاستعمارها بإرسال المبشرين لإزالة العقائد الوطنيـة . وكانت أوروبا ، كما فعلت فى مصر، تضع يدها على الادارات والمصالح المختلفة ضمانا لأموالها تحت ستار الاصلاح وإنقاذ البلاد من الفوضى — ولعل أبشع مظاهر التعصب والجشع الأوروبى فى القرن التاسع عشر هو تقسيم بولندا، وتقسيم الصين ، وتقسيم مصر وامبراطوريتها الافريقية، وما صحب هذا التقسيم من مجازر وفظائع همجية كانت وصمة فى تاريخ المدنية و " التضامن الأوروبى " .

وقد فطنت صحافتنا الوطنيـة إلى مغزى ثورة الصـين فكتبت (المؤيد) فى افتتاحيتها فى ٨ يوليه سنة ١٩٠٠ تقول : " تجاوز الأوربيون فى طمعهم واستهانتهم بالشرقيين وخصوصا بالصينيين ، كل حد فهم قد ذهبوا زرافات ووحدانا وسفارات ومبعوثين إلى الصين ضاربين فى أرضهـا من كل حدب ممتهنين أهليها شر الامتهان، معلنين على رؤوس الاشهاد أن أولئك القوم ليسوا جديرين بأن يكونوا أهلا لوطنهم وملاكا لديارهم .

" أعلن الاوربيون مرارا وجهارا أنهم سيقسمون الصين فيما بينهم ولكن ريثما يتفقون . فالقضية تسمى نهوض الصينيين الآن ثورة . ومعلوم أن الحكومة الصينية سرا تناصر الثوار... الخ " .

⁂

لمن المساكن كالمقابر	يأوى لها حيٌّ كغابر
متجنب الدنيا عدوٌّ	و للأوائل والأواخر
تقف الطبيعة دونه	تحمى الميامن والمياسر
وتذود عنه بشامخ	منها وآونة بزاخر
وهو المضلَّل كاليعا	فر والمشرد كالعصافر[1]
دنياه دنيا الخاملي	ن ودينه دين الأصاغر
ولغاته لا لنا	ر قد خلقن ولا المحابر
وعلومه درست وعفَّا	ها من الأزمان داثر
أوعى صحافات الجدو	د وأسقط الحكم البواهر
الأمر فيه لكاهن	والنهى مرجعه لساحر
وإذا يسام نفيسه	والنفس أعطى الكل صاغر
فمن الملوك إلى الولا	ة إلى الجباة تراه حائر
هو بينهم ذاك الكسي	ر وكلهم للكل جابر
ومن العجائب ما لوى	ذنبا ولا رفع العقائر[2]
عَيْر المظالم والمغا	م ضارع للهون صابر[3]
كلب إذا خوَّفته	صقر إذا أمَّنت كاسر
جيل تقلقله الربى	فيلٌ تطارده الجآذر
بين العباد وبينه	غوْر من الأحقاد غائر
وقلاهم فى طبعه	كالفأر تلقاه السنانر[4]
لو أقطعوه صوفهم	غرس الخناجر فى الحناجر
وسق من المهجات أكـ	ـبادا أحرّ من الهواجر

---

(١) العصفور ظبي بلون التراب و [illegible] الخشف و [illegible] ولد البقرة الوحشية ج يعافير (أو يعافر) . وقيل اليعافير تيوس الظباء . والعصافر كعصافير .

(٢) لوى ذنبه أي حركه والعقيرة الصوت .

(٣) العير الحمار وحشيا كان أو أهليا .

(٤) السنور حيوان أليف ألوف يأكل الفار ج سنانر .

تلك المعالم والمجا ... هل والمعاهد والمحاشر

تلك المراحل والأسا ... كل والعيالم والزواخر

تلك المسالك والإكا ... [illegible] التي لم يحص حاصر

تلك المصادر لا مرا ... ود والموارد لا مصادر

الطير فيها مستخف ... [illegible] الروح والحيوان حائر[1]

والنجم مضطرب [illegible] ... [illegible] في الظلمات ماخر

يا مبعدًا أجذالها ... [illegible] منها الحاسر[2]

بالوحش في صور الأنا ... م حائرًا حازت [illegible]

أم يكتها القفر ... [illegible] وليس لها بكاثر

لا تختفها [illegible] ... [illegible] ولا خلالها نواضر

[illegible] ... [illegible] والتواجد والضمائر

حسروا الرؤوس [illegible] ... [illegible] فيها الضغائر[3]

وتحلوا [illegible] ... [illegible] كالطوافر

وكأن سوقهم الحصى ... أو القمي أو الصنائر

ولقد يتيهون [illegible] ... ف إذا عملوا والأساور

وهم [illegible] السلا ... م فوق الهدام هم المدابر[4]

وترى خراب الود بيـ ... ـنهم وبين الجن عامر

يستصرخونهم إذا ... ثاروا على الإنس المعاشر

❖

يا قوم هذا موقف ... ركن التهور فيه هائر

لا الجن فيه ناصر ... [illegible] ولا من الأرباب ناصر

كلا ولا يغني الرقا ... ة ولا البخور ولا المجامر

---

(١) حار الفرس والكلب في الأرض يحير حيرا انفلت وذهب ههنا وههنا من مرحه أو هام على وجهه لا يثنيه شيء.

(٢) الحسر (بفتح السين أو كسرها) [illegible] ـ أرض عارية المحاسر : لا نبات فيها.

(٣) [illegible]

(٤) المدابر (بضم الميم) : [illegible] الأصل مغادير.

والحكم ليس بنافع   ولو أنه أدهى المناخر[1]
إن الكفاية للمكا   حم واللوابل والموازر[2]
ولقد تصونكم الدرو   ع ولا تخونكم المغافر[3]
فتكاثروا مما ذكر   ت فإنه خير الذخائر
وتعلموه وعلموه   صغاركم ضمن الشعائر
هيهات قد نفذ القضا   ء وصرتم في حكم قادر
متلهب الطغوى إذا   أخذ الفريسة لم يغادر[4]

⁂

ياليت شعري من تدو   ر عليه بعدكم الدوائر
الوقت أضيق أن نغا   لط في الحقائق أو نكابر
لم يبق إلا كرمة   للسلمين بغير ناطر[5]
إن نام عنها الحافظو   ن فإن جفن الشر ساهر
من كان يرقب فرصة   فليغنم الفرص الحواضر
لا يعشين السلطا   ن وغيره للمجد طائر
لا يحسبن المجد والـ   علياء في كذب المظاهر
هذا بألقاب يتيـ   ـه وذا بأنساب يفاخر
وإلى الأجانب تنتهي   نعم المصانع والمتاجر
وتؤول كل إمارة   لم يرعها في القوم آمر
إن دام هذا فالسلا   م على المحارب والمنابر
وعلى البرور بلا معا   قل والبحور بلا (عمائر)

---

(١) إشارة إلى حرب البوكسر ، والبوكسر كلمة انجليزية معناها ملاكم أو لكام .

(٢) المكاحم جمع مكحيم اسم مدفع سريع الطلقات ، والموازر نوع من البنادق .

(٣) المغفر زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٤) الطغوى الاسم من طغا ومنه كذبت ثمود بطغواها ، وطغي وطغا الوادي كطغى الماء جاوز القدر والحد .

(٥) الناطر — نطر فلان الكرم والنخل والزرع نطرا ونطارة ، حفظه .

(المجلة المصرية) في ١٥ يولية سنة ١٩٠٠

نشيد ثوار البوكسر

وهو معرب عن ترجمة فرنسية للأصل الصيني

وجهة النظر الأوربية في [illegible]) : إنهم أعضاء إحدى الجمعيات السرية العديدة، ذوات النزعة السياسية والدينية في الصين . وكانوا يسمّون (المصارعين) أو المقاتلين في سبيل العدالة . وهم قوم من غلاة التعصب ورجعيون صاروا الأداة التنفيذية للحركة الشعورية المعادية للأجانب التي أدت إلى تدخل أوربا الاجماعي في الصين في سنة ١٩٠٠

كتب (اللواء) في عدده [illegible] يولية ١٩٠٠ يقول : "لثورة البوكسرس في الأصقاع الصينية سببان : أولاً : أن الصينيين قوم [illegible] متكبرون معجبون بأنفسهم . نقموا على الأوربيين أنهم يحملون على انتهاج مناهج الإصلاح، والأخذ بالتمدن الغربي . والسبب الثاني : أن الفتنة كانت نائمة ، فمن الذي حركها (روسيا ؟ ألمانيا ؟ فرانسا ؟) ، إذن لم تبق سوى انكلترا واليابان ، وهنا سهبت الثورة بالأمراء ، لأنهما يكرهان روسيا بسبب استفحال أمرها في الصين (احتلال بورت أرثور — مد سكك حديد سيبيريا — وامتلاكها بسلام لإقليم منشوريا) . بدأت الثورة بأن علقت في شوارع المملكة الدعوة الآتية :

« إن الآلهة التي تؤيد البوكسرس — تلك الجمعية المتبعة لأقوم طريق — تريد منكم أن تطردوا من دياركم أولئك الشياطين الأجانب الذين أتوا لإقلاق الراحة وتكدير صفاء العيش في مملكة ابن السماء . ألا فامحقوا جميعا هؤلاء الشياطين . دمروا السكك الحديدية . اهدموا أعمدة الأسلاك البرقية، وعلى الخصوص أغرقوا السفن التجارية . فإن ذلك يحرق قلب فرانسا الكبيرة الشأن ، ويجعلها مع الروس والإنكليز ترابا تذروه الرياح فتلقيه في بلاد غير بلادنا ، وفي هذا سعادة مملكتنا الجميلة التي ورثناها عن (شنغ) العظيم ".

ونشر (اللواء) في ١٥ يولية سنة ١٩٠٠ تحت عنوان (البوكسرس وأوربا) مقالا جاء فيه : نشرت مجلة (الشرق وهنغاريا) في بودابست في عددها الصادر في أول يولية الجاري مقالة تحت هذا العنوان بقلم الجنرال الطائر الصيت (إتيين تيور) رأينا أن نعربها : " الأنباء الواردة يستفاد منها معيان [illegible] أن الصينيين يقاومون الجنود المتحالفة ببسالة

غريبة ما كان أحد ينتظرها ، وثانيهما أن الاتحاد الأوربى يشعر من وقت لآخر بانحلال فى عراه وتفكك فى أوصاله ، والويل لأوربا من هذا الشقاق .

"رغبت أوربا منذ أربعين عاما تقريبا فى أن تنشر ألوية التمدن برغم أنف الصينيين، وأرادت أن تفرض عليهم مد السكك الحديدية، مع أنهم لم يشكوا إليها تعسر المواصلات ، وكانوا فى غنى عنها بقنواتهم التى تفى بحاجتهم ، وكذلك رامت أن تجبرهم على استعمال الآلات الميكانيكية . ولقد تحدثت مرة مع أحد الصينيين من نحو خمسين عاما فقال لى بلهجة صادقة واضحة : « نحن لا نريد هذه الزخارف الباطلة والزهو الوهمى لأنها إذا دخلت بلادنا جرت علينا شقاء عظيما ، وفنى بسببها من مائة إلى مائتى مليون من الصينيين » .

"هذا الشعب الصينى الذى يشمل نحو ثلث العالم الإنسانى لا يشغل سوى جزء من ستة عشر جزءا من مساحة الكرة الأرضية ، وفوق ذلك فإن النصف الشمالى من المملكة يحتوى على صحارى مترامية جدباء جرداء ، وبذلك يكون ثلث الإنسانية قاطبة مجتمعا فى جزء من خمسة وعشرين جزءا من سطح المعمورة . فماذا تشتغل تلك الأمة العظيمة إذا غمرتها أوربا بالآلات الميكانيكية التى تلاشى أصحاب الحرف الوضيعة ، وتبيد الفلاحين الأجراء عن بكرة أبيهم ، لكن أوربا لم تتحرك فيها عواطف الحنان رحمة بهؤلاء التعساء ، وقد نسى الأوربيون أن اليابان التى حملوا إليها من قبل آلاتهم وصنائعهم ومعداتهم ، قد نافستهم الآن فى التجارة وبارتهم فى الصناعة .

"تتظاهر أوربا بالنزاهة ، وتزعم أنها إنما تريد نشر تعاليم السيد المسيح ، وما تنشر إلا الشر والشقاء . فقد روى عن المبعوثين الدينيين أنهم يستميلون الناس لاعتناق النصرانية بغيرة وحمية ككهنة القرون الوسطى ، وبما أنهم لم ينجحوا فى إقناعهم بالدليل إلا نادرا جدا فقد لجأوا إلى استعمال القوة والإكراه ونشر الديانة المسيحية بالسيف والدم . من ذلك الحين كره تلامذة كونفوشيوس الهادئون الساكنون هذه الديانة المسيحية ونفروا منها ، وقد أراد ربك أن ينتقم من أوربا فأصبح الصينيون يحاربونها بأسلحتها . الصين هى عش الأفيون وينبت فراشه ، ولكن سفراء أوربا فى بكين هم الذين تسمموا به حيث ألقى على أعينهم غشاوة فلم يروا شيئا من تلك الحركة التى دبرت على مرأى منهم . ظن الناس بعد انتصارات اليابان أن الصين بأكملها أصبحت لقمة سائغة لأوربا تزدردها . إن أوربا تطوح بنفسها فى هاوية لا غور لها " .

ليتنا كل [illegible]	نحن حزب «البكسر» المتفقين
كي نبيد الغرباء المارقين	إنهم في الصين كانوا مفسدين
ليس ذلك الجنس من نسل البشر	إن شككتم أمعنوا فيه النظر
إنه يا قوم [illegible]	من بني إبليس شيطان لعين
جفت الأرض و[illegible] السما	وديور الكفر أوقفن السما (1)
أسعد الأرباب منهم ما سما (2)	فتولى الحق عنا مغضبين
[illegible]	ويستهزي «بأرباب» لنا
والتشرى بالمحرمات انحنا	والزنى والزنا شيء مهين
دونكم يا قوم [illegible]	وأنقذوا ألفاظ سحر لا يبور
وإذا [illegible] أهل [illegible]	أتقنوا الحرب علوما وفنون (3)
ما أتى «الأرباب» من أجيالهم	وتبدى الحق من أوغالهم (4)
كي يروا الأجنبي من أصلالهم	أي لحكم بشمال ويمين
[illegible]	واقطعوا أسلاك برق لا تفيد (5)
واحرقوا فُلك العدا كيما تبيد	وأريحوا الصين من شر السفين
فقرنا ذلك الشعب العزيز	ماله من بأسكم حرز حريز
أطلقوا الروس به والانكليز	واحفظوا الملك على (شنك) المكين (6)

---

(1) السما الأولى المطر . والسما الثانية بمعنى الفلك . وقد تكون السما الأولى بمعنى العشب والثانية بمعنى المطر . [illegible] ؟ .
(2) الأرباب الآلهة . ما سما : ما لاح وظهر .   (3) ردى : هلاك .
(4) الرغل : الشجر الملتف .   (5) إشارة إلى أن البوكسر في ربيع سنة ١٩٠٠ هاجموا موظفي السكة الحديد الأوروبيين ثم قطعوا الأسلاك بين [illegible] وبكين . وقد حاولت فرقة دولية إصلاحها ولكنها فشلت بعد معركة عنيفة واضطرت عسكرية بكين أمام الثورة المتأزمة إلى أمر الأجانب بمغادرة بكين .
(6) نشر (الرواء) بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٠ رسالة مؤرخة في ٨ نوفمبر لمراسلها بباريس جاء فيها : «[illegible] رجل الصين [illegible] الشهير (لي هنغ شنغ) الذي عرف المصريون [illegible] في هذا الواسع الذي طالما مثل لأوروبا المشاهد [illegible] الشرق ومراماه» .

جمعية العـــروة الوثقى

الخيرية الإســلامية باســكندرية

من مقال للأستاذ أحمد حافظ عوض مؤرخ المكس فى ٣٠ يولية :

"ولطالمـا سمعت الكثيرين يتذمرون من عدم وجود أناشيد مصرية يتغنى بها الصغار ويقدرها الكبار ، وقد أتاح الله أن يحقق الآمال فى هذه المدارس حيث كنت ترى التلاميذ من كل مدرسة عموما ينشدون بصوت مرتب منظم السلام الخديوى والأناشيد الوطنية التى اعتنى شاعر مصر فى هــذا العصر أحمد بك شوقى بتأليفها للنشأة المصرية مثل أنشودة :

يا ربنــا ياذا المنن — أكثر مــدارس الوطن

وأجــزل الأجـــر لمن — يجرى على هذا السنن الخ [1]

(١) فى الفصل الثالث من الجزء الأول من (تاريخ آداب اللغة العربية) الذى ظهر فى مايو ســنة ١٨٩٧ لمؤلفه محمد بك دياب جاء ما يأتى : وبعد الاسلام لمـا رسخت أقدام الأمة العربية فى الحضارة والعمران فى الأندلس والعراق ولوا حضهما أولعوا بالعلوم والفنون والآداب وركنت نفوسهم إلى ما يرضيها ويزكيها من سماع أناشيد الشعراء وألحان المغنين فإن كل أمة توطدت دعائم ملكها وتوفرت دواعى الرفه فيها فكان شعراؤهم ينظمون جيد الشعر ذى الخيالات التى لا تخطر بفكر العربى البحت فقالوا أسلافهم فى ذلك حتى نظموا الكلام على أوزان غير المأثورة عنهم فى أشعارهم واستحدثوا فنونا مستة ألحقها الأدباء بالشعر . أولهـا الموشح واخترعه أرباب الألحان من أهل الأندلس تطبيقا على أصوات الموسيقى . وأول من قاله مقدم بن معافر . . ويجىء الموشح على أوزان وصور مختلفة منها أن تأتى ببيت تلتزم فيه التقفية فى صدر الشطر الأول وعروضه وصدر الشطر الثانى وضربه ، ويسمى هذا البيت مذهبا ثم تأتى بثلاثة أشطر أخرى تلتزم فيها التقفية أيضا لكن على حرف آخر . وتسمى هذه الأشطر دورا ثم تعود وتأتى ببيت مقفى كالأول متحد معه فى حرف التقفية ويسمى قفلة . . مثال هذا موشح بن سنا الملك :

كلل . ياسحب تيجان الربى . بالحلى — واجعل سوارها منعطف الجدول (المذهب)

ياسما . فيك وفى الأرض نجوم وما — كلمـا أغربت نجما أطلعت أنجما (دور)

* وهى ما . تهطل إلا بالطلى والدمى *

وقد يكون المذهب بيتين يتفق عروضاهما فى قافية ويتفق ضرباهما فى أخرى . ويكون الدور خمسة أبيات ثلاثة منها تتفق أعاريضها فى قافية وضربها فى أخرى . والبيتان الآخران يتفقان مع المذهب فى قافيتيه فهما بمنزلة القفلة كقول بعض المغاربة :

(المــذهب)

قابل الصبـح الدجى فانهـزما — ومحـا بالسـيف أفـق الظلم

وجـلا الغـيم بـبرق رقمـا — ثـوب ديبـاج به الجـو كمى

(دور)

نسخ الصبح أحاديث الدجى — بيـد بيضاء فى لوح النهار

ولكهف المغرب الليل التجى — حين نادى الفجر فى الشرق البدار

ومنها الأنشودة الوطنية التي أولها :

مصر السعيدة موطني   وبها افتخرت على الزمن

* وأحسن ما في الاحتفال رواية سموها (مريض المناصب) فما كان أبلغ تأثيرها على النفوس وهي تكاد تكون مركز دائرة الاحتفال والدليل على مبادئ التعليم والتربية في مدارس الجمعية :

يا مريضا بالمناصب   داؤك الداء العضال

لم ترد غير المكاسب   يا غريقا في الضلال

أنت إن عشت نزيها   بين عزل واعتزال

= وجلا الصبح جبينا أبلجا   فاختفى النجم من نوره وغار

ربكى [illegible] لنا أبلجا   عاطر الزهر بثغر ألعس

[illegible]   وسرى عين العارض المنبجس

وقد يكون المذهب أربعة أبيات [illegible] في قافية أخرى . . . وقد يكون المذهب بيتين كما هو هنا [illegible] البيت الأول في قافية أخرى فضرب البيت الثاني يتحد مع المذهب في القافية وهكذا . ومنه قول الشاعر المجيد (أحمد بك شوقي) عند الاحتفال بفتح مدرسة في الاسكندرية من مجزوء الرجز :

يا ربنا يا ذا المنن   أكثر مدارس الوطن

وأنزل الأجر لمن   يجرى على هذا السنن

وهب لنا فيما نهب   حسن الثبات في الطلب

وفضل علم وأدب   كي نرتقي منا الفطن

إن العلوم للورى   كالنجم يهدى في السرى

والماء يجرى في الثرى   والروح تسرى في البدن

هن مفاتيح المنى   وهن أسباب الغنى

من اقتناهن اقتنى   ملكا كبيرا في الزمن

يا من لهذا أسسوا   ومن له قد غرسوا

من [illegible]   دام لنا السعي الحسن

ها نحن جئنا نشكر   والشكر منا أجدر

عذرا إذا نقصر   فليس للعلم ثمن

أبقاكم الله لنا   مؤيدا بسلطاننا

مشرقا [illegible]   لنا به يحيا الوطن

وثانيها الموشحات وهو من [illegible] ويسمونه بالرباعي . . وثالثها الزجل . . ورابعها كان وكان وهو نوع من الزجل إلا أنه يعمل فنا مستقلا . . وخامسها القوما وهي نوع من الزجل أيضا . . وسادسها المواليا ويعرف الآن بالمواويل جمع موال فيقال إنه ظهر في بغداد بعد الفتك بالبرامكة . ومن هذا الفن ما يأتي بلسان أهل الأدب ومنه ما يأتي بلسان العامة .

وإذا ما مت فيها ... مات بالفقر العيال
فا رئيس فا وكيل ... ذا على الاثنين عال
أنت للكل ذليل ... قابلٌ حكم الرجال
إن للسفن لرزقا ... غير محدود المجال
ازرع الأرض وأفلح ... تنبت التبرَّ الجبال
أتقن الصنعة تُفلح ... وتُوفَّق للكمال
إن للسعد لراية ... ظلها الوافى ينال
عملت للناس آية ... عملٌ ثم اتكال

« وأخيرا ظهر صبى صغير لا يزيد فى العمر عن ست سنوات قال : « إننى ولد صغير من المكتب الجابى اسمعوا لى حكاية صغيرة » . وأنشد من أقوال شوقى بك (أمة الأرانب والفيل) هذه الحكاية البليغة التى تشير الى أن الاتحاد بين الصغار الضعفاء يمنع اعتداء الكبار الأقوياء .. منها قوله :

وكان فيهم أرنب لبيب ... أذهب جل صوفه التجريب
نادى بهم يامعشر الأرانب ... من عالم وشاعر وكاتب
اتحدوا ضد العدو الجافى ... فالاتحاد قوة الضعاف

وهكذا من أمثال هذه النصائح العالية المكسوة بثياب الملح والفكاهات . ثم أنشد التلامذة الأناشيد، وأعطى صاحب الدولة رياض باشا بيده الكريمة للتلميذ مكافأة الجمعية له لنجاحه فى الشهادة الابتدائية » .

تعليــــق

كانت هذه القصة (أمة الأرانب والفيل) من قصص شوقى الأولى التى جارى بها لافونتين الفرنسى شاعر الحكايات على ألسنة البهائم والطير ، وهى خالية من روح الشعر التى ظهرت فيما بعد فى سنة ١٩٢٨ فى (الوطن) : « عصفورتان فى الحجاز ... » لذلك كنت أرى حذفها من شعر شوقى لضعفها حتى تبين لى من هذا المقال المغزى الأدبى والسياسى الرفيع الذى كان يرمى إليه شوقى فى نظم قصص وأناشيد الأطفال ..

[illegible]

نشرت ([illegible]) فى ٤ أغسطس سنة [illegible] (٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٢٠) رسالة من مكاتبها فى الاسكندرية بتاريخ ٢٨ ربيع الثانى (٣ أغسطس) تحت عنوان (احتفال المدرسة [illegible]) تقول : " احتفل اليوم . . وكان كبار المدعوين سر تشريفاتى الخديوى وأصحاب العزة مأمور الأوقاف [illegible] وعدد لا يحصى من كبار الأعيان . وقد ألقى [illegible] عبدالله بك [illegible] قصيدة [illegible] الأستاذ حسين سليمان تحية لصاحب الدولة رئيس الاحتفال (رياض باشا) . ثم [illegible] صغار التلامذة ومثلوا رواية أدبية ذات أربعة [illegible] من [illegible] رئيس قلم التعليم بالمجلس البلدى فكانت الرواية وعنوانها (العائلة) تمثل [illegible] من الوالدين الجاهلين والأضرار التى تلحق بالأولاد من جهلهما . .

" والإجمال كانت هذه الرواية [illegible] مواعظ وحكم جمعت فأوعت وأخذت أدوارها بقلوب الحاضرين [illegible] فى بدايتها فأنشدا نشيدا موضوعه الحرية :

يا أيها السائل [illegible]   [illegible] عن جوهرة سنيه
[illegible] أبوابا [illegible]   [illegible] الحياة بالحريه
[illegible]   [illegible] فى قلوبنا الحميه
تبعث فيها الهمة الأبيه   فتأنف المواقف الدنيه
وتألف المنازل العليه   العز كل العز فى الحريه
[illegible]   يا فاقدا حسّ الحياة الحيه
عميت عن أنوارها البهيه   صممت عن أنغامها الشجيه
فأنت فى غفلتك الغبيه   أشبه بالبهائم الوحشيه
لم ترد [illegible]   لم تعرف اللذائذ الهنيه
مورداك [illegible]   لفقدك النقائصُ البذية
تعيش عبدا [illegible] شقيه   مستضعفا تمقتك البريه
يا [illegible]   [illegible] الخطيه
الله أعطاك لنا عطية[1]   غريزة فى خلقه فطريه
لنبذلن دونها ضحية   النفس والنفيس والذريه

---

(١) [illegible] البيت ([illegible]) [illegible] بعد قوله فى البيت السابق ([illegible] نفوسنا الحريه) .

ونشر (المؤيد) فى ٦ أغسطس، أى بعد اللواء بيومين، مقالا لمراسله فى الإسكندرية الأستاذ أحمد حافظ عوض تحت عنوان (احتفال مدارس العروة الوثقى . رواية العائلة) جاء فيه : " وعدت القراء فى رسالة أمس أن أتناول بالبحث موضوع الرواية المهمة .. وهى الرواية البديعة التى حاك بردها قلم محمد أفندى عثمان وكان لها تأثير غريب على السامعين ..

" الفصل الأول من الرواية — يبتدئ المنظر بطفلين صغيرين يتكلمان عن الطبيعة وجمالها والأزهار والرياض والماء والهواء . وينتقلان من ذلك إلى الكلام على الحرية بعبارة لطيفة فيقول الولد للفتاة :

« انظرى إلى هذا العصفور كيف هو مسرور مثلنا بالحياة . يردد على الأغصان شجى الألحان . ما أحسن غناءه — هو يناغى الأزهار ويسبح الإله ويحمده على نعمة الوجود .

— من لى بهذا العصفور الرشيق، فاجعله فى قفص رقيق أطعمه وأسقيه كل ما يشتهيه .

— هو لا يرضى — لماذا ؟

— لأنه يحب الحياة حرا مطلق السراح يطير ما شاء فى متسع الفضاء .

— لكننى أخاف أن يقع فى أيدى الوحشيين الجناة فيعذبونه أو يعدمونه الحياة . فعندى يكون فى مكان تمكين آمنا من الأشرار والصيادين .

— نعم إن حياة العصفور محدقة بها الأخطار . إن لم تكن من الأشراك والأشرار . فمن جوارح الطيور . ولكنه رغما من كل ذلك فمن سجاياه الفطرية . تفضيل الخطر فى الحياة مع الحرية ... »

فى هذا الدرس اللطيف .. ذكرت حكاية هذا العصفور ليستفيد منها الناشئون معنى الحرية . ولا يخفى أن المثال أوضح من النظرية وأشد وقعا فى النفوس . ولهذا كانت القصيدة التى أنشدناها عن الحرية مقطوعة فى شكلها، غير مستحسنة فى وضعها . ولذلك أضرب صفحا عن نشرها .. "

أعرض حافظ عوض عن نشر قصيدة الحرية لأن اللواء سبقه إليها .. ومما يعلى من قدر ذلك النشيد أو القصيدة أنه خال من المدح التقليدى . وهو رائع . وأغلب الظن أنه إن لم يكن من نظم بلبل القريض فإن فيه لمسة شوقية تكاد تحسها حين يقول (مخاطبا الاحتلال) :

يا سالبا نفوسنا الحريه   يا راكبا مراكب الخطيه

الله أعطاها لنا هبـة   غريزة فى خلقه فطريه

وعلى أية حال مما لامراء فيه أن المعانى التى وردت فى منثور الرواية ومنظومها عن العصفور والحرية والخوف عليه من الجوارح[1] قد طرقها شوقى فيما بعد فى قصيدته الشهيرة (الرق والحرية) التى مطلعها :

صداح يا ملك الكنا   ر ويا أمير البلبل

والتى نظمها سنة ١٩١٠ ، وسنتكلم عنها بإسهاب فى منظومات تلك السنة لأهمية موضوعها .

---

(١) فى هذا إشارة إلى النظرية الانجليزية التى كانت تقول ببقاء الاحتلال وعدم منح مصر استقلالها حتى لا تقع فريسة سائغة لدولة أخرى قوية . .

دولـــة الســـوء[(1)]

ثم لبعض الناس فيا قد سلف ... كلب وقرود وحمار فاحترف

وصار يغتدى بها ويسرح ... بجوقة لها الطريق مرسح

علمها بالجهد كيف تفهم ... وكل شىء بالمراس يعلم

جاءته ليلا وهو فى المنام ... تقول قم ياسيد الكرام

ها قد تجلت ليلة القدر لنا ... وقبل مولانا سألنا سؤلنا

فقام يستعد للضراعه ... وقال ماذا طلب الجماعه

قال له القرد طلبت المملكه ... تكون لى وحدى بغير شركه

قال الحمار وأنا الوزير ... والصدر فى الدولة والمشير

والكلب قال قد سألت البارِيا ... يجعلنى فى ملك هذا قاضيا

فراع ربَّ الجوق ما قد سمعا ... ثم جثا لربه وضرعا

وقال يا صاحب هذه الليله ... سألتك الموت ولا ذى الدوله

(غـزل)

تشكو الخصور من الصدور تحاملا ... والذنب محمول على الأرداف

هذى توازرها وتلك تهينها ... فتضيع بين الرفق والإجحاف

* * *

أقول لقلبى والهوى يزحم الهوى ... حوالى الصبا والوجد بالوجد يلتقى

إذا أنت لم تعط الشبيبة حقها ... ندمت على ما فات بعد التفرق

وإنك حىٌّ ما خفقت مؤمل ... وإن حياتى فى حياتك فاخفق

(شوقى)

---

(1) هذه الحكاية لا وجود لها فى الجزء الرابع من (الشوقيات) لا فى باب (الحكايات) ولا فى (ديوان الأطفال).

ملح وآداب

لأحد فحول الشعراء والكتاب (1)

(أرى أنها لشوقي الشاعر ملك)

أما وزهر الأنجم ... وطول ليـل المغرم

وما شكا أهل الهوى ... من الهوى واللـوم

بل والمقام المعظم ... والحطيم الأعظـم

والمروتين وقبا ... ومنى وزمـزم

والمشعر الحرام ... والبيت العتيق الأكرم

لقد أخذت الشعر عن ... زهير يشدو فأنـدم

فكم ركبت الما ... مى متن ليـل أدهم

وكم جنيت ثمرة ... من لذة لـم تدم

وكم فتاة قد سبت ... [illegible] الهوى لم تحجم

وكم توسـدت من الـ ... ـغصان أبهى معصم

صادت فؤاد أصيد ... من قبلها لـم يكلم (2)

هيفـاء تمشي ميسا ... من عزة التنعـم

مديمـة الدلال والإ ... عجاب والتبسـم

غيداء ذات شـعر ... مرجـل ملمـلم (3)

---

(1) هذه القصيدة لأحد اثنين لا ثالث لهما: أحمد شوقي أو محمد توفيق البكري صاحب قصيدة (مصر) التي مطلعها:

أديار مي تطير ... فدموع عينك تقطر

وقد ثبت أن هذه القصيدة نظمها البكري في باريس إذ يقول فيها:

أنا شاعر في وصفها ... لكنها هي أشعر

إلى عصير [illegible] ... [illegible]

قال مطران في معرض كلامه عن البكري (كيف ينظم شعراؤنا) "ومن لطائفه أنه رأى يوما جرسونا في باريس وهي على ما هو معلوم اسم أعرابية بنت أعرابية إلى قحطان من الأعراب التي كان يذكرها شعراء العرب حقيقية أو خيالية".

ولكننا نرجح أن القصيدة لشوقي لأن فيها قصة باريسية، قصة شاعر عاش واستمتع بشتاء باريس وثلجها، وأمام مسرح الموسيقى أمامه "بانته" المعهد في مدينة النور.

(2) لم يكلم: لم يجرح. (3) الشعر المرجل: المسرح، والململم: المجموع.

شعر بلون منحب … أملس كالإبريسم (١)

ووجه يبدر في دجى … ثوب حرير أسحم

وأعين تذيب قلـ … ـب الفارس المستلئم (٢)

ما أحسن الأضداد في … هـذا الجمال المحكم

خصر نحيل لين … عـلى ثقيل مفعم

تفتن في الصلاة قلـ … ـب الراهب المصمم (٣)

ورأيها أن قتيل الحـ … ـب مطـلول الدم (٤)

لـم تـر سـعلاة ولا … غـولا بقفر مظلم (٥)

ولم تصادف إبـلا … تسف حب الحمخم (٦)

لم تبك من ذكرى طلو … ل قـد عفت وأرسم

ولـم تبـاين ذيبها … يعـدو وراء شيهم (٧)

لم تدر أن عنترا … توعـد ابنى ضمضم (٨)

وعمـرها ما سمعت … بالقشم بن الأرقم (٩)

ولا بمن فرقهم … حادث سيل العرم

ولا بحكم عمـر … فى لطمة ابن الأيهم (١٠)

---

(١) الإبريسم : الحرير قبل أن يخرقه الدود ، معرب . (٢) المستلئم المتدرع . (٣) صمم فى السير وتهور ـ عليه : مضى على رأيه فيه غير مضع المذاهب يرده كأنه أصم . (٤) طل الدم طلا وطلولا : هدره . (٥) السعلاة : الغول . (٦) كان العرب يعلفون الإبل حب الحمخم وهو نبت معروف . (٧) الشيهم : ذكر القنافذ ـ والديسم قيل ولد الدب وقيل الثعلب . (٨) قال عنترة فى معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر … للحرب دائرة على ابنى ضمضم

ابنا ضمضم هما هرم وحصين المريان . وكان عنترة قد قتل أباهما يوم المريقب ، فى حرب داحس والغبراء ، فكانا يتوعدانه الشر .

(٩) القشم من أسماء الأسد وكان ربيعة بن نزار يسمى القشم ، ثم أوقعوا القشم على القبيلة . والأرقم : الأراقم من قوم ربيعة سموا الأراقم تشبيها لعيونهم بعيون الأراقم من الحيات . الجوهرى الأراقم حى من تغلب .

(١٠) جاء فى الجزء الثانى من (العقد الفريد) فى باب (وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب) : "حدثنا مشايخ شيوخنا أن جبلة بن الأيهم بن أبى شمر الغسانى لما أراد أن يسلم كتب الى عمر بن الخطاب من الشام يعلمه بذلك ويستأذنه فى القدوم عليه .. فخرج جبلة فى خمسمائة فارس فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشى المنسوج بالذهب والفضة ولبس يومئذ جبلة تاجه .. فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من بنى فزارة فحله .. فالتفت إليه جبلة مغضبا فلطمه فهشم أنفه فاستعدى عليه الفزارى عمر بن الخطاب فبعث إليه فقال ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزارى فهشمت أنفه . فقال إنه وطىء إزارى فحله ، فلولا حرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه عيناه . فقال له عمر إما أن ترضيه وإلا أقدته منك . قال أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة . قال يا جبلة قد جمعك وإياه الاسلام فما تفضله بشىء إلا بالعافية" . وقد تنصر جبلة ثم ندم . أشار شوقى الى ذلك فى مقاله الخامس من (بضعة أيام فى عاصمة الاسلام) .

ولا بقتلة الإمام … من يد ابن ملجم [1]

لم تشرب الصفراء فى … الدباء أو فى الحنتم [2]

تهزأ بالقانون والطـ … ـب وسير الأنجم

وساسة الدنيا وتا … ريخ الزمان الأقدم [3]

[illegible] … العبقرى الأعلم

وكل شاعر قديم الد … ـهر أو مخضرم

فابلتها [illegible] … اليد منها والفم

وغمس [illegible] … [illegible] وتحمل أم قشعم [4]

والسن [illegible] … [illegible] والرقيب قد عمى

[illegible] … [illegible] تمى

[illegible] … [illegible] فلم يرقم

[illegible] … رجعل القوى المحكم

وتزانى الأطفال والـ … ـشيوخ عند المقدم

وكل [illegible] … [illegible] أو مقوم

كاشيب من الفر … ـنج منحن مسلم

أو عربى شاحب … بابيض معمم

قالت لها مسلمًا … (كمن سقا ماشيرامى) [5]

صنفا الزمان [illegible] … لمغرم متيم

* * *

قطعت وصل الغانيا … ت قطع حبل مبرم

لأنهم عفوا عن عبـ … ـد مستجير مجرم

---

(١) عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على . (٢) الدباء القرع الواحدة دباءة . والحنتم الجرة الخضراء .

(٣) الرواية الفرنسية كمثل امرأة مستهلكة الحس والورق تهتم كثيرا بشئون بلادها والعالم الذى تعيش فيه . [illegible] .

(٤) أم قشعم الحرب و— الداهية و— الضبع و— المنية ومنه قولهم « إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم » . وقيل هى كنية ناقة مرت على نار مضطرمة فأجفلت فألقت رحلها فى النار ومرت فى عدوها فصار ذلك مثلا يضرب للداهية التى يدعى عليه بالسوء كناية عن ذهابه إلى النار .

(٥) [illegible] كتبت بالعربية ومعناها "كيف حالك أيتها العزيزة" . (Comment ça va ma chère amie?)

وقال (١)

الحق صعب طعمه — مر كطعم العلقم

من مات مات وانتهى — ومن يعمر يهرم

ومن يخاف الموت هل — ينجو من المحتم

ومن يرد إحياءه غد — رات الزمان يسأم

المال ظل زائل — والجهل موت الأمم (٢)

---

(١) ظاهر أن القصيدة لم تنشر جميعها لطولها . ولعلها من القصائد التى نظمها شوقى فى باريس أيام الدراسة وقد نظم شعرا كثيرا فى هذه الفترة ضاع بعضه . جاء فى ديوان نجيب الحداد ص ٧٩ "وقال مجيبا صديقه الشاعر المشهور أحمد بك شوقى على أرجوزة أرسلها إليه من باريس" :

حكاية المسك مع الثياب — أغرب ما مر بهذا الباب

إذ أقبل المسك مع الثوب النقى — وقال قد جئت بشرى العبق

أهديك من عرفى الذكى ألوانا — تعطر الأذيال والأردانا

وتجتدى منى نشرا طيبا — أطيب للناشق من زهر الربى

لكن على شرط بكتم أمرى — كى لا تذيع فى الأنام سرى

إلى آخر الأرجوزة . ولم نعثر على أرجوزة شوقى ولا شك أن هذه الأرجوزة تهمنا من ناحية قيمتها «الموضوعية» التى يبدو من رد نجيب الحداد أنها شىء آخر غير المديح والتهنئة .

(٢) ضرب شوقى على وتر التنديد بالجهل طول حياته . وفى هذا البيت نحس وتر الشاعر . .

رواية دل وتيمان

في أول رجب سنة ١٣١٦ الموافق ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ صدر العدد الأول من مجلة (الموسوعات) لصاحبها أحمد حافظ عوض، وقد ألحقت بهذا العدد الملزمة الأولى من رواية لادياس، حتى عدد [illegible] (العدد ١٣ من السنة الأولى) ظهرت الملزمة الأولى من رواية (دل وتيمان أو آخر الفراعنة). وقد تمت هذه الرواية في عدد [illegible] أكتوبر سنة ١٩٠٠، ولم يُعد طبع هذه الرواية في حياة شوقي أو بعد موته، كما لم يعد طبع رواية عذراء الهند [illegible] ما في الرواية ولب لبابها.

[illegible] شوقي قد [illegible] شعرا وأسلوب جديد في رواية قمبيز (١٩٣١)، ولذا [illegible] الى عصر الشباب وبواكيره [illegible]

الفصل الأول

[illegible]

الهرم طال حكم يا أهرم ... فاذكركم بطلوع النجوم
واصبو اليكم واشتاقكم ... كما اشتاق طيب الشفاء السقيم
وما بيتنا غير هذا الفناء ... وهذا الجدار وهذى الحريم (١)
وهذى الرياض وهذى المجاني ... وهذا النخيل وهذى الكروم (٢)
ونحن كمن فرقت بينهم ... [illegible] في الحرب تحمى التخوم
[illegible] لمباك [illegible] الليـ ... ـلك [illegible] قلبي الكليم
ويا ليـل [illegible] ... [illegible] ولا الهموم
فماذا تريد بهذا السكون ... وماذا تريد بهذا الوجوم
ويا ماء ما تبتغي بالخرير ... ويا نجم بالخفق ماذا تروم

(١) [illegible] الحريم [illegible] الأجداد [illegible] كل موضع تلزم حمايته، وحريم [illegible] ما حولها من حقوقها ومرافقها و(حريم الرجل) ما يحميه ويقاتل عنه [illegible] (نساء الرجل بالحريم) [illegible] الحريم جمع حرمة [illegible] في هذه الحالة.

(٢) [illegible] جمع [illegible].

ويا زهر لا حسدتك القلوب · فبسمك فى العاشـقين النظيم
ويا طير يهنيـك طيب الكرى · وطول العناق وفرط النعـيم
سما بك غصن على كثرة · وضاق عن آثنين قصر عظـيم

« بهذى الألفاظ أو بمعانيها كان الجندى « تيمان » رئيس حامية القصر القـديم فى سايس يستحث سامر الهوى تحت سمـاء الليل ويحدث النفس خاليـا فى مقصورته من مخفر القصر ويناجى كل ما فى الدار وجنتها بسرائر نفسه المشوقة وحوائج فؤاده الولهان » .

هذا ما كتبه شوقى شرحا لموضوع الأبيات الإثنى عشر المتقدمة التى قالها على لسان الجندى العاشق فى مستهل الرواية . وهى من خير ما نظم شـوقى فى تصوير موقف معين من مواقف العاشق بحدوده ومسالمه . موقف العاشق المسكين الذى يناجى محبوبته و يضرع إلى الله أن يجد إليها منفذا من وراء الحواجز المـادية والأدبية التى تحيط به وتسجنه . فى هذا الشعر جو هادئ عبق ، ونفحة عطرة من زمن الشباب ، و إلمام من الغرب ، وهو لا يقل فى الحسن عن (خدعوها بقولهم حسناء) ، والعجيب أنى كلما قرأت هذه القطعة ووصلت إلى آخرها :

فياطير يهنيـك طيب الكرى · وطـول العناق وفـرط النعيم
سما بك غصن عـلى كثرة · وضاق عن آثنين قصر عظيم

رجعت إلى أولها ، كالمـأخوذ بالسحر (أحوم على حسنكم ما أحوم ..) :

وما بيننا غير هـذا الفنـاء · وهـذا الجـدار وهـذا الحريم
وهذى الرياض وهذى الحياض · وهذا النخيل وهـذى الكروم
ونحن كمن فرقت بينهـم · ممالك فى الحرب تحمى التخوم

لقـد أبدع شوقى فى تحديد أماكن الأحباب (هذا الفناء ، وهـذا الجدار ، وهذا الحريم ، وهذى الرياض ، وهـذى الحياض ، وهذا النخيل ، وهـذى الكروم) فعاد بنا إلى ذكرى حبيب ومنزل (بسـقط اللوى . بين الدخول . فحومل . فتوضح . فالمقراة ..) . عاد بنا إلى الشاعر الملهم الذى وقف واستوقف على منازل الأحباب .

***

تكلم شوقى فى بداية الفصل ، كما قلنا ، عن تيمان الجندى العاشق . قال : « وكان كلما ضاق به المكان عمد إلى كرسى عال لدى نافذة مفتوحة فجلس ينظر منها إلى معالم القصر وهى محتجبة فى الظلام مسورة بالدوح .. فبينما هو جالس على هذه الصورة وكان الفجر قـد طلع

أو كاد يصرخ بشبح الإنسان . فتقدم بستاني القصر وانحنى بين يدى تيمان يحمل عودا كما الريحان فى أطرافه زهرتان .

بستانى القصر — إن الزهر يا سيدى تيمان فاكهة الملوك . وتحيــة الطبيعة للعاشقين فهل تمن علىّ بقبول هذا العود النادر الثمين . تيمــان — أقبله شاكرا .

— والآن أسترعى نظرك لمـا تأولك من الزهر . . ومن غريب أوصافه إنك لا تجده فى أغصانه إلا زوجين زوجين (١) كما تشاهده على هذا العود الآن . ثم هو فى اللون الأصفر لون السقام قصير العمر قليــل المقام يتفتح قبيل الفجــر ويموت لأول شعاع يغشى الوجود من الشمس ولهذا دعاه جلالة الملك (بالعشاق) . وفيه قال شاعره اليونانى :

وزهرتين عــلى عود يُقلهما	كعاشقين اطمأنا باللقـا الهانى
لمـا رأيتهما فى راحــتىّ ذوتا	من فوق واه من الأعواد خوان
أيقنت أن منى العشاق ما جُمعت	إلا على مثل خيط العنكب الفانى

وكذلك قال فيه الشاعر المصرى لجلالة الملك .

متعاشقان من الزهور تبديا	ببديع مرأى فى الغصون عجيب
يتنسمان الحب بينهما فمـًا	لفم على غصن النبات رطيب
عجل الردى بهما ولا عجب إذا	ما أوديا بين الهــوى والطيب

وأحسن من هــذا وذاك يا مولاي قول السجينة تصف هــذا الزهر وقــد حبيتها بشىء منه من عهد غير بعيد . تيمان مقاطعا مضطربا — الأميرة . .

ثم اندفع البستانى ينشد ما قالته الأميرة (دل) فى وصف هذا الزهر :

فى زهرتَىْ ذا العود من	أهل الهوى جُمعت صفات
كالعاشقَين تقابــلا	لكن عــلى سُرر النبات
متآنسين يلاقيــان الحـ	ـب من كل الجهات
هــذا على هــذا حنـا	ولذا إلى هــذا التفـات
لكن فى الفجر الحيـا	ة وفى الضحى لهما الممات
قسمـا لقــد عاشا ولـا	يأمــلا أمــلا ففات

---

(١) زوجين زوجين : اثنين اثنين . الزوج كل واحد معه آخر من جنسه . ولا يتكلم العرب بالزوج موحدا فى مثل قولهم زوج حمام وإنما يقولون زوجان من حمام . ولا يقولون للواحد من الطير زوج بل للذكر فرد وللأنثى فردة .

من لى بسوق للحياة ة يقال فيها خذ وهات
فأبيع عمرا فى المنو م بساعة فى الطيبات

تعليق

وصف شاعرنا مناجاة العاشق فى بداية هذا الفصل الأول وتكلم فى نهايته عن الزهر بنفس اللغة، لغة الحب والحنين، لغة العاطفة والوجدان العميق، لغة الوجود والفرح والحزن متعانقين . . ولعمرى أى شىء أحلى وأرق من قول شوقى فى الزهرتين :

لكن فى الفجر الحياة وفى الضحى لهما الممات

الفصل الخامس عشر

العتاب

"لم تمض هنيهة على خروج أمازيس من الحجرة وانصرافه حتى شعرت الأميرة بيدين تمسكان يديها وفم يقبلها . . فإذا هى بتيمان قد جثا لديها وخبأ رأسه فى يديها يبكى ولا يتكلم. أقبلت عليه تقبله وتملأ بيوته من لؤلؤ دمعها الرطيب . فكان مشهدا تميد له جبال الحديد، ولا يقوى عليه فؤاد الشهيد .

جثا لديها وأذرى الدمع ناظره وعاتبتها بأن قالت محاجره
يا ذل هذا الهوى إن كان أوله ما قد رأيت فذلى كيف آخره
وعدت بالقلب ملكا ليس يملكه وليس تبلغه يوما عساكره
هبيه قمبيز أو قيروش والده فإن تيمان يوم الروع قاهره
فأطرقت خجلا من عتبه وجرى دمع الندامة لا ترقا بوادره
تقبل الرأس من تيمان تائبة عن ذنبها وحبيب القلب غافره
كأنما فمها فى شعر عاشقها (خمر يخامرها مسك تخامره)
تقول تيمان ماذا كنت صانعة وهل يرد قضاء الله حاذره
لكم لدى هوى والقلب حافظه وللبلاد هوى والقلب ناصره
إن لم يكن وطن لى فى الهوى ولكم فأى دوح الهوى تأوى طوائره

الفصل التاسع عشر

حادثة على الحدود

" الطريق بين الشام ومصر .. كانت تملك أطراف الطريق قبائل من عرب البادية الخائفين فرعون وحكومته .. وقد تقلد منصب الإمارة فى أول حكم الملك أمازيس بشيخ العرب منجاب وكان من سلالة ملوك الشام .. جاءه رسول من الملك قمبيز قال إنه يعدك ألف قلادة من ذهب وألف حسام بجوهر وألف جواد من أكرم الخيل وولاية من ولايات الشام ورتبة قائد فى جيوشه الظافرة لو أسلمك الأمير فانيس الذى هو أسيرنا الآن .. إن الملك يبلغك ما ذكرت لك إذا بذلت له المساعدة فيما عزم عليه من مهاجمة وادى النيل ..

فلما أتم الرجل عبارته حتى امتشق منجاب الباسل حسامه وصاح بالرجل :

بأى جواب غير ذا السيف قاطع ... يقابل دونه رد لمولاك مقنع
فعد يارسول الغادرين مخيباً ... فما كل من يُدعى الى الغدر يهرع
وأبلغ عظيم الفرس أنى أصنته ... وأحمى على الأيام جارى وأمنع
وما أنا بالباكى على أخى وقتله ... وعرضى إن يسلم قتيل مضيع
وخير لجادى من حياة ذليلة ... ممات الى أسمى ذرى العز يرفع
وخير لقلب منه إن ذاق ناره ... وقاء يذود النار عنى ويدفع
أبعد شباب قد تجمّل بالهدى ... يُلاح لشيبى بالضلال فيتبع
وترغب نفسى فى القلائد والغنى ... وصدرى بتقوى الله حال مرصع
وأقبل أن أُعطى بذل إمارةً ... فأبقى بها جاهى ودينى مضعضع
نعم ملك قمبيز أبن قيروش واسع ... ولكنما ملك الفراديس أوسع

الحملة على مصر وقائدها

الحرب لابد منها ... وإن أباها الأنام
حقيقة وضعوها ... فليس فيها كلام
مادام شر لحرب ... والشر فيهم لزام
فى كل يوم دعاوى ... لا تنقضى وخصام
إذا أستراح حسام ... فى الغمد قام حسام
وإن تصالح قوم ... تقاتلت أقوام
والناس الناس بالحر ... ب سيد وغلام

الفصل الثانى والثلاثون

الحالة على الحدود

قاميس يحتضب الحرب على الحدود . .

الفصل الرابع والثلاثون

القتال

الفصل الخامس والثلاثون

ما سلم حتى ودع

"الهزيمة الكبرى ... هرب بساماطيق ومعه الجند إلى منفيس وتمنعوا بها فركب قمبيز لساحته إليها وحاصرها وأخذها عنوة وأسر الملك وكانت الحادثة المشهورة التى نظمتها فى تاريخ مصر فقلت :

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيـ ـز ولا طنطنت بك الأنباء

❖

انتهت الرواية . والظاهر أن شوقى فى آخر حياته عاد إلى موضوع رواية (دل وتيمان) وبناه من جديد فى رواية (قمبيز) كما فعل فى رواية (على بك) . وهذا ما دعاه إلى إسقاط الروايتين القديمتين من آثاره . وقد احتفظنا نحن بما بقى فيهما من شعر نضير كالكروم الأبكار نمات أول حملها[1] .

---

(١) الحمل (بفتح الحاء وتكسر ثمر الشجر) .

رثاء حبيب باشا مطران

وهو من أعيان بعلبك وعم الشاعر خليل مطران صاحب (المجلة المصرية) وكان موته في أكتوبر سنة ١٩٠٠

شوقي أكبر شعراء العربية على الإطلاق في مراثيه ولا يدانيه فيها أحد . فإن خيال شوقي ووجدانه وعذوبته، ورقته، وحزنه أمام إدبار الحياة واختفاء الوجوه السمحة ونضوب الشباب والحب والمودات، قد تجلت كلها في المراثي ... وحسبه قوله في هذه القصيدة :

أي صرح [illegible]   تحت ذاك الثرى وتلك العماد

قف بآثارها البلاد وسائل   هل ترى من ممالك وبلاد

أصبح الملك سيرة وكرور المـ   ـلك حديثا فكيف بالأفراد

أذكر بهذه المناسبة أني كتبت في (الأهرام) مقالا نشر في عدد ٢٧ يوليه سنة ١٩٢٣ عنوانه (خطرات في الطريق — بلاغة العرب) ، وكنت وقتئذ أصطحب شوقي في سفره إلى أوربا جاء في هذا المقال : « قلت لأمير الشعر والحديث شجون ، إن خير ما قرأته في العزاء كتابا أرسله شيشرون إلى أحد أصدقائه يعزيه في فقد ابنته : « خطرت لي فكرة وجدت فيها عزاء ولعلها تخفف من لوعتك . بينما كنت أتجه بسفينتي من جزيرة إيجينه إلى مدينة ميجار حانت مني التفاتة إلى البلاد حولي . كانت ميجار أمامي وإيجينه ورائي . والبيريه على يميني . وقورنته على شمالي . مدائن كانت قديما زاهية زاهرة فعفت ولم يبق إلا رسمها وأنقاض مبعثرة فعجبت حيال هذا المنظر كيف نجرؤ ، نحن الهالكين الضعفاء ، على الشكوى كلما انتزع الموت واحدا من أهلنا وذوينا ، بينما نرى في طرفة عين كبريات المدائن صرعى هامدة ، وكانت عامرة آهلة بالسكان ثم أضحت خلاء . . فتعز عن ابنتك بفقد هاتيك المدائن والناس » — أعجب شوقي بهذا الخيال الرائع ولكنه قال من فوره إن العرب قالت أبلغ من ذلك : سأل أعرابي أعرابيا فقد ابنه « أكان يغيب كثيرا » ؟ قال : نعم ، قال : « اتركه غائبا » . (انتهت) .

والعجيب أن شوقي الذي [illegible] أبياته الثلاثة المتقدمة في بعلبك فيها روعة الصورة والمعاني التي تضمنها كتاب شيشرون . وهي أبلغ من قول الأعرابي . في جانب من اللوحة مدائن عامرة وعصور زاهية قد اندثرت ولم يبق منها إلا رسوم دارسة وأنقاض وفي الجانب

الآخر ابن يموت أو عم يهلك . وروعة الصورة هنا فى أنها « حسية » كصورة شيشرون تحدث فى النفس أبلغ الأثر . ولو قال شوقى (أى عصر ببعلبك دفين . . تحت ذلك الثرى) ووقف لتم المعنى ولكن قوله بعد ذلك (وتلك العماد) أبرز المعنى فى صورة كاملة ناطقة الملامح والحسن .

ولو قال أبو العلاء :

سر إن اسطعت فى الهواء رويدا   لا اختيالا على رفات العباد

لتم المعنى ولكن قوله بعد ذلك :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ   أرض إلا من هذه الأجساد

جعل المعرى يرتفع بالتصوير الحسى إلى قمة الشعر . ولا يضاهى هذا البيت فى قوته إلا البيت الآخر .

والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

ومن أجمل أبيات شوقى قوله فى رثاء المنشاوى باشا (والقصيدة فى هذا الكتاب) :

أما راعكم نعش حوى ذلك الغنى   وما فيه دينار ولا فيه درهم

وقوله فى رثاء مصطفى كامل :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى   هل فيه آمال وفيه أمانى

كل حياة مصطفى كامل مصوّرة فى هذا البيت وهى نابضة فيه .

ومن يمعن النظر فى شعر شوقى ، وفى مراثيه بوجه خاص ، يجد فيها آيات من التصوير الحسى لا يحصيها عد .

* * *

راية الموت فوق هام العباد   نشرتها كتائب الآباد

يشرب العالمون فى السلم منها   ويريفون ظلها فى الجهاد (١)

من تعاجل يمت ويلبس ومن تمـ   ـهل يعش تحت خافق متهاد (٢)

غاية المرء عائد وطبيب   ومصير الطبيب للعواد

وبكأسين من حياة وموت   شرب العالمون من عهد عاد

حلم هذه الحياة فمن تمـ   ـدد له يشق أو يطب بالرقاد

(١) راف الرجل يريف ريفا : أتى الريف . .   (٢) الخافق المتهادى هو الراية أو العلم المتمايل . .

وقصارى الكرى وإن طال نعمى ... لــزوال أو شقوة لنفاد

ذهبت في حساب يوسف سبع ... لينات في إثر سبع شداد

واستوى الصاحبان هذا إلى الوعـ ... ـد تولى وذا إلى الإيعاد

قبره الأرض والبرية ميت ... تلك مطوية وذي لمعاد

ومهود الأجساد بالأرض تحكى ... كمهود الأرواح بالأجساد

أي مصر بطيك دفين ... تحت ذاك الثرى وتلك العماد

قف بآثارها الجلائل وانظر ... هل ترى من ممالك وبلاد

أصبح الملك سنة وذوو المـ ... ـلك حديثاً فكيف بالأفراد

شيدوا النيل ومر عليهم ... زمن صالح وآخر عاد

[illegible] ... [illegible] الرياض صوب العهاد

فإذا جاوزت [illegible] ... بين عين النيل وعين السواد

أزليه منازل الصيد منهم ... وأجيبه مرقد الأنداد

قف ببغداد [illegible] ... يا أسير المتون هل لك فاد

إن سهماً أصاب منك (نجيبا) ... وقعه في القلوب والأكباد

وقضاء دهاك هـد بناء الـ ... ـبر ركن العفاة والقصاد

أي حي سواك يوم تولى ... خـدّدته نجابة الأولاد

عصبة بالشآم بعدك قاموا ... ملء عين اللدات والحساد

كلهم حافظ الصديق كريم الـ ... ـعهد راعي الزمام وافي الوداد

ذا لهـذا أب وجد إذا ولـ ... ـى أبر الآباء والأجداد

أخذوا البر والوفاء جميعاً ... عن أب سيد وفيّ جواد

آل مطران لو أتيت بوحي ... لم أزدكم من الحجى والرشاد

لكم أنفس تمر بها الأحـ ... ـداث مر الرياح بالأطواد

فخذوا بالعزاء في خطب من با ... ن وكونوا عليه غوث العباد

هزل العيش والمنية جد ... وتمثيل الحياة والموت هاد

وخفوق الفؤاد في ساعة التكـ ... ـوين داع إلى سكون الفؤاد

تطلع الشمس بالفناء علينا ... وعلى القادمين بالميلاد

فإذا جددت فأبلت وأحيت ... جاءها حينها بلا ميعاد

المجلة المصرية في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٠

قال يصف «ساعته»

لى ساعة من معدن لا يقتنيها مقتنى
تستعجل دقا وتنى مثل فؤاد المدمن
وعقرباها والزما ن فى اختلاف بين
إذا مشت لم أحتفل أو وقفت لم أحزن
أو أخرت لم يُحدنى أو قدمت لم أُغبن
أحملها لأنها تغشنى فى الزمن

المجلة المصرية فى ١٥ يناير سنة ١٩٠١

(مقتطفات من الجزء الثانى من الشوقيات)

وكتب إلى صديقه داود عمون وقد سمع بخسارته فى البورصة :

علمت بأن الحطام انصرف وأدبر ما كان إلا الشرف
وأنك بعت المثنى واشتريـ ـت ثلاثك فى ذاك سوق (الصُدف)
وأسرفت تبغى عريض الغنى أقبلك من ناله بالسرف
وما هو إلا انقباض اليدين رجاء الصبيان وخوف التلف
وحبك مالك حب الحياة وحفظك مالك حفظ (التحف)
فقلت لعل الأديب انتهى وكان له عظة ما سلف
أتدركه حرفة جازها قديما الى غيرها فى الحرف
وقد هجر النظم نظم الجمان وقد هجر النثر نثر الطرف
ومن كان ثروته عقله يبيع الجواهر بيع الخزف

نشيد الجمعية الخيرية الاسلامية

"أنشأ حضرة الفاضل الأديب أحمد شوقى بك نشيدا شعريا على لسان الجمعية الخيرية الإسلامية فأنشده جوق التمثيل أمس فى الأوبرا الخديوية بعد ختام الرواية بتلحين حضرة الشهير الشيخ سلامة حجازى على أبدع لحن موسيقى":

أنا بنت البر أم الفقرا ليس دونى ملجأ للقاصدين
لا ترى حولى إلا معسرا حين أُعطِى بشمال ويمين
لى صغار كلهم فى المكتب يتلقون به العلم المبين
ورجال كلهم لى كالأب صادق فى حبه واف أمين
كم بيوت ضاقت الدنيا بها بعدما عزت على طول السنين
جاءها الإسعاف من أبوابها حين وافاها رسول المحسنين
قل لمن حصّل مالا واقتنى أقرِض الله فيانعم المُدين
وتصدق فهو حصن للغنى وسلام النفس فى دنيا ودين
كل عام تجتلى ليلتى ليلة الأيتام عين البائسين
أشتكى لله فيها عيلتى(١) ورجاء الله رَوح اليائسين

---

(١) العيلة : الفقر ، والروح (بفتح الراء) : الراحة و — النصرة و — العدل الذى يريح المشتكى و — الرحمة ومنه « لا تيأسوا من روح الله » .

(المؤيد) في ٩ يناير سنة ١٩٠١

من تهنئة بعيد الجلوس

أهل القـدود التى صالت عواليها ... الله فى مهـج طاحت غـواليها

وقد نشرت أبيات الغزل من القصيدة فى الجزء الثانى من الديوان ص ١٧٨ مع أنها من الطراز البديعى القديم :

عنت لنا أُصُلًا تغرى بنا أَسَلًا ... مهزوزة شَكَلًا مشروعة تيها [١]

ومن محاسن القصيدة وصف ليلة فى حديقة الأزبكية والصواريخ النارية التى كانت تطلق فيها [٢] :

الأزبكية فيها درة عجب ... والنجم فى الأفق كالنقاد يفليها [٣]

تحكى المصابيح حولَيها وبُهرتَها [٤] ... قلائد الغيد فوضى فى تراقيها

أما الخميلة فالدنيا إذا ضحكت ... أو جنة الخلد أو وشىٌ يحاكيها

والأفق ممتلئ نورا وأعجبه ... تلك العِصِى إذا انسابت أفاعيها

وما تيامن يبغى الشرق سابقها ... إلا تياسر يبغى الغرب تاليها

مطوية صُعُدًا والجو ينشرها ... منشورة صببًا والجو يطويها

وكم ثريا وكم جوزاء ما لبثت ... حتى خبت غير رسم فى مهاويها

---

(١) أصل جمع أصيل . والأسل الرماح إشارة إلى القدود . والشكل : شكلت المرأة شكلا كانت ذات شكل أى غنج ودلال وغزل . مهزوزة وصف للأسل . مشروعة : يقال شرع الشىء رفعه جدا . وشرع القوم الرماح فشرعت هى : أى سددوها كقوله « فتسددت » لازم متعد .

(٢) جرت العادة فى عيد الجلوس أن تقام معالم الزينة داخل حديقة الأزبكية وخارجها على النظام الآتى : داخل الحديقة : أنوار مختلفة الألوان والأشكال — حراقات نارية — صواريخ إلخ . .

ومن أبدع ما كتب فى ليلة الجلوس قول أحمد فؤاد فى (الصاعقة) عدد ١٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ : « كانت الحديقة (فى ليلة عيد الجلوس) كالعبة ما خرج فوج منها إلا دخل فوج . . وبين هذه الجموع المحتشدة بدور طالعة . وأقمار ساطعة . ونور على نور . وسهام تصعد إلى السماء . . وكأنها دعوة المظلوم فى الفضاء ! ! » .

(٣) فل (بفتح اللام) يفلى ، فلى الشعر : تدبره واستخرج معانيه وغرائبه يقال " افل هذا البيت فانه صعب " و — الأمر : تأمل وجوهه ونظر إلى عاقبته ومن القوم تأملهم . .

(٤) البهرة (بضم الباء) والوادى والفرس والحلقة وسطه . .

[illegible] :

مضى على مصر دهر لم تكن وطنا ... وإن توهم أوطانا أهاليها
ما بين أوله لو يوعظون به ... وبين آخره ذكر لواعيها
كأن ما ساء مما مر بينهما ... أهوال حلم سرى بالطفل ساريها
يبكى ويضحك منها غير مكترث ... أسر مضحكها أم ساء مبكيها

([illegible]) في [illegible] سبتمبر ١٩٠[illegible]

من قصيدة تهنئة

« كان أمس عيد المولد الخديوى وميلاد أمير لمصر ، فقد حملت الأنباء أمس أن الخديوى رزق أميرا مباركا »[1] :

يوم أغر محجل الأيام ... لملاك تهنئتى به وهنائى

ولعل أجمل أبيات القصيدة من الناحية الفنية قول شوقى مخاطبا الخديوى :

علما البلاد إليك [illegible] ... علما النبات إلى الغمام النائى
شوقتها حتى إذا أظمأتها ... قام السراب بها مقام الماء
عيدان فيها حين تاجت ربها ... قالت لـه ثلثهما بلقاء

نشرنا هذه الأبيات لأن فيها لمحة من موسيقى شوقى ، وهى أشبه بموسيقى البحترى وأبى نواس من شعراء العرب ولامرتين من شعراء الافرنج .

ونجد هذه العذوبة الموسيقية فى شعر شوقى جميعه ، وهو القائل من قصيدة من نفس البحر والروى فى رثاء مصطفى باشا فهمى الذى مات فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٤ (لا فى أول سنة ١٩١٤ كما قال شارح الجزء الثالث من الديوان) :

إن البنات ذخائر من رحمة ... وكنوز حب صادق ووفاء
الساهرات لعلة أو كبرة ... والصابرات لشدة وبلاء
والباكيات حين ينقطع البكى ... والزائرات فى العراء النائى

---

(١) يظهر أن الخديوى كان لا يزال فى مصيفه بالإسكندرية .

(المجلة المصرية) فى ١٥ فبراير سنة ١٩٠١

القائد دى ويت Christiaan De Wét

كتب خليل مطران : «وقال شوقى مزاحا فى دى ويت القائد البويرى الشهير» والواقع أنه لا أثر المزاح فى أبيات شوقى لأن ذلك القائد دوخ كتشنر وكان من أبرع القواد فى العالم فى الانقضاض المفاجئ والإفلات من كل حصار أو تطويق محكم ..

كان له ذكر عظيم فى عصره فى مصر والخارج . قال (اللواء) فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠١ تحت عنوان (حرب الترنسفال . نشور دى ويت) : "بعث اللورد كتشنر رسالة برقية رسمية إلى وزارة الحربية الإنكليزية تتضمن حادثا من أهم الحوادث هذا نصها : « سافرت حملة فرق انكليزية لتفريق البوير الذين استجمعهم دى ويت أخيرا فى الشمال الشرقى لمستعمرة أورانج . أما جنوب تلك المستعمرة فيعتبر خاليا من الأعداء» . ولعل القارئ يتساءل عن المهم الخطير فى تلك الحادثة فنجيبه أننا نعنى بذلك عودة البطل المغوار دى ويت إلى ساحة الوغى بعد أن أذاعت المصادر الإنكليزية خبر وفاته وانقطعت أخباره زمنا ليس بالقصير . وأى حادث أهم لدى الانكليز من عودة عدوهم الألد وخصمهم العنيد ونشوره من موته المزعوم . ويؤخذ ضمنا من تلك الرسالة أنه عند ما أشاع الانكليز خبر موته كان يطوف أنحاء البلاد ليستجمع الجنود ويجند الرجال لمحاربتهم" .

وقالت مجلة (الهلال) فى عدد ١٥ فبراير سنة ١٩٠١ فى فصل عن دى ويت : " إنه اشتهر فى أواخر حرب الترنسفال وأحرز شهرة واسعة . ولم يكن فى حسبان أحد ، بعد أن فنيت جيوش البوير وأخذت بلادهم وخربت ديارهم ، أن تبقى منهم بقية تثبت ثبات الجبال بفضل بسالة دى ويت الذى كان يهاجم الانكليز فى حصونهم ويستولى على معسكراتهم فيقتل وينهب ويخرب ثم يعود" .

وفى مقال آخر بتاريخ ١٥ يونيه سنة ١٩٠٢ قالت الهلال : « وستنقضى الدول كما انقضت دولة الرومان وانمحت آثار قرطاجنة ويبقى ذكر البوير كما بقى ذكر القرطاجيين ، وسيذكر دى ويت كما يذكر هنيبال » .

ونشرت « مجلة المجلات العربية » فى عدد يناير سنة ١٩٠٢ فصلا عن (كريستيان دى ويت) بطل الدنيا فى هذا العصر بالاعيبه الحربية ووقائعه المدهشة التى صارت أشبه

بالقصص الخرافيـة التى تروى عن العفاريت والجـان ، قاهر أمهر قـواد الانكليز واحدا بعد واحد " .

ودى ويت ولا شك أول وأمهر قواد حرب العصابات أو الكومندوس وأول فدائى تمثل فى قصة استبسال أمة مصرية وتفانيها فى الدفاع عن وطنها :

أعفـريت من الجن ... أم القـائد دى وِيت
فـلا بـاد ولا خـاف ... ولا حىّ ولا ميت
ولا يضحكه قـلب ... ولا يحبسـه بيت
ويوما شـأنه كيت ... ويوما أمـره كيت
فيـا دى ويت يا ليت ... وهـل ينفعكم ليت
فمـا فى [illegible] ـمل أهوالهـا زيت

* * *

(مقتطفات من الجزء الثانى من الشوقيات)

قـل للزمان يصبّ من أحداثه ... أو لا يصب فـما بنـا إشفاق
غمرت مصائبـه فأغرقنا بهـا ... والغمر فيـه تستوى الأعماق (١)

وقـال :

كأنى بالحمام أصاب ركنى ... فمال وأى ركـن لا يميـل
وأدركنى ونجم صـباى عال ... نخرّ النجم وازدوج الأفـول
فلا يغـرركما ولدىّ بعـدى ... زُها الدنيا ومنظرها الجميـل (٢)

---

(١) أصل الأبيات أربعة لا اثنان وقد نشرت فى إحدى وقائع رواية تاريخية لشوقى سنة ١٨٩٩ هذا نصها :

قـل للزمان يصب من أحداثه ... أو لا يصب فـا بنـا إشـفاق
غمرت مصائبـه فأغرقنا بهـا ... والغمر فيه تستوى الأعماق
لا بد من يوم تميـد لهوله ... شم الجبـال وتظلـم الآفاق
فهنـاك إما طالت الأعناق ما ... طـالت وإما زالت الأعنـاق

وقد كرر شوقى فى حكمه النثرية قوله : (الغمر فيه تستوى الأعماق) .

(٢) زها الدنيا : زينتها وزخرفها .

مقتطفات من الجـزء الثـانى من الشوقيات

« قال على لسان أحد الإخوان وقد شكا إليـه كثرة الأولاد بعبارة اسـتظرفها فضمنها هذه الأبيـات » :

شـكوت لله من نسـل وكثرته ... وقلت فى ذاك والتوحيـد معتقدى
لا تنقضى سـنة إلّا ولى ولد ... وأنت يا ربّ من ألفين لم تـلد
ولو وهبتَ لعيسى منك ألف أخ ... ماضقت ذرعا ولا ضاقوا إلى الأبد
ولا ووجهـك لم أكره تمـددهم ... فاغنهم لم هبهـم لى بـلا عـدد

وله فى كلاب الاستانة :

قالوا فـروق الملك دار مخاوف ... لا ينـقضى لنزيلهـا وسـواس
وكلابهم فى مأمن فاعجب لهـا ... أمن الكلاب بهـا وخاف الناس

ولـه :

رأيت كلابا بـدار السـعادة ... عـداد الأهالى بهـا أو زيـادة
ولـكن بينهـما فارقـا ... ففيهـم حماس وفيهـم بلاده[1]
مقسـمة فـرقا فى الطـريق ... كما يقسم الجيش جنـدا وقاده
ومنهـا السـمين بحجم الخروف ... ومنهـا الضئيل بحجم الجـراده
ويحلو لهـا النـوم فوق الشريط ... وتحـلو لهـا فى الطـريق الولاده
وقـد يفسـد الجـو من نتنها ... وعنـدهم حفظها كالعبـادة

وبلغه أن صديق سوء اغتابه فى مجلس فقال فيه :

يا أيهـا الرجل المغتـاب صاحبـه ... لم ينس فضـلى ولكن قـد تناساه
تسبنى حسـدا والحلم من شيمى ... فلا أسـبك لكن سـبك الله
ولا أسميك خوفا من مقالتهـم ... قـد ظنـه فى الورى شيئا فسماه

(١) الحماس : يريد الحماسة ، وهذا خطأ شائع .

تقريظ ديوان حافظ إبراهيم

(١٩٠١)

قالوا حبيب أنت تطرى شعره	من ذا الذى لم يطر شعر حبيب (١)
من كان فى ريب فهذا ديوانه	راح العقول وكأس كل أديب
أوعى لأحمد والوليد كليهما	شمم المديح ورقة التشبيب (٢)
كم فيه من مثل يسير وحكمة	تبقى على الدنيا بقاء عسيب (٣)
يا حافظ الآداب والبطل الذى	يرجى ليوم فى البلاد عصيب
قل للأولى خصوا اللآلئ بالحصى	مثقوبة أو غير ذات ثقوب
لا تسألوا الأصداف ماذا أودعت	فى هذه الأوراق كلَّ عجيب (٤)

---

(١) حبيب هو أبو تمام الطائى الشاعر .

(٢) أحمد هو أبو العلاء المعرى (أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى) . والوليد البحترى الشاعر الذى اشتهر برقة تشبيبه . وأوعى الشىء والكلام أوعاه : حفظه وجمعه وأوعى الزاد والمتاع : جعله فى الوعاء وجمعه فيه . وأوعى الشىء : أوعبه .

(٣) عسيب اسم جبل قال امرؤ القيس (وإنى مقيم ما أقام عسيب) .

(٤) ماذا أودعت (على ما لم يسم فاعله) : ماذا ضمنت (بتشديد الميم وكسرها) .

(المؤيد) فى ٣٠ يونية سنة ١٩٠١

وداع ودعاء

بين سمع الله والبصر … أنت يا (محروسة) النفر
استمدى فى كلاءته … واغرجى فى ذمة القدر
وأضيئ البحر وابتسمى … بحجول اليمن والغرر
ضاق بحر الروم عن ملك … زاخر فى الحل والسفر
يملأ الدنيا هدى وندى … شيمتى عثمان أو عمر
قد أخذنا الدهر منه رضى … لم يحاربنا ولم يجر
ومشينا فى مناقبه … فسبقنا كل مفتخر
يا هلال الشرق حيث سرى … وسماء البدو والحضر
وابن محيى الأرض من عدم … ومداوى الأرض من عسر
النقى الفضل من ريب … السليم الحلم من كدر
كلما يممت منزلة … بشرت بالغيث والمطر
قد رآك الغرب فى كبر … ما رآك الغرب فى الصغر
نلت بالميلاد من فطن … ما ينال الناس بالعمر
فضير رأس التين مزدحم … بوفود الملك والزمر
لوداع بعده لكما … خطوات الشمس والقمر
إن يوما ودعوك به … نبوى الفجر والأثر
قام دين فى صبيحته … واستبان الرشد للبشر
واستضاء العالمون بهى … جبين الآى والسور
كلمات دون باهرها … فى النهى الآيات فى النظر
سُلّم الدنيا وضرتها … ونظام الناس والعصر (١)

(١) السلم (بتشديد اللام) المرقاة وهو ما يرتقى عليه فيسل سمى به لأنه يسلمك إلى حيث تريد . و — السبب إلى الشىء يقال اتخذه سلما إلى حاجته أى سببا يتوصل به إليها . والضرة (ضرة الدنيا) هى الأخرى .

الأبيات الخمسة الأخيرة هى التى جعلت المديح المطول محتملا إلى حد فى هذه القصيدة النواسية الرقيقة .

(المؤيد) فى ٣١ يوليه سنة ١٩٠١

« اشتد الحر فى الأيام الأخيرة اشتدادا عظيما أودى بحياة المئات من النفوس فى أمريكا، وجاء فى برقية اليوم من باريس أنه مات خمسة أنفس . وقرأنا فى جريدة الفار السكندرى أن القبودان سو برا يش الذى كان ربان الباخرة (شرقية) أثناء غرقها فى سبتمبر الماضى قد مات بضربة الشمس منذ يومين فى سواكن . وقد جادت قريحة حضرة شاعر مصر المفضال (أحمد بك شوقى) بأبيات رشيقة ، ضمنها من المعانى المبتكرة لمناسبة تلك الحادثات ما نورده تفكهة القراء[1] » .

(إيدسن[2]) ماذا ترى فى الكهرباء	أنت فى الأرض فمن ذا فى السماء
إن تكن تحكم فى أزرارها	إنه فى يده زر القضاء
كلما حركه فى خلقه	ذهب العقل وجن العقلاء
فتأمل هل ترى من حيلة	فى سلوك مرسلات من ذكاء[3]
قد حكيت الشمس حتى غضبت	غضبة جرت على القوم البلاء
وملكت الريح فى (مروحة)	من نحاس تجعل الصيف شتاء
من رآها قال قد سخرها	لك من سخرها للأنبياء
لعبة (الناظر) فى غرفته	ومزيد فى نعيم الأغنياء
فانظر اليوم أأغنت أم فدت	أم أفاد العلم أم أجدى الثراء
يا ملوك المال فيا زعموا	هل ملكتم خطرات من هواء
ليت لى الريح فساومتكمو	وأخذت الملك بيعا وشراء
أشرك البائس فى نعمائه	وأسوى القسم بين الفقراء
صدق الواهم منكم إنها	هى الدنيا خيال وهباء
كل ما ساء وما سر بها	ينقضى بين صباح ومساء

(١) أعتقد أن كلمة تفكهة لا تناسب المقام لأن هذه الأبيات الرشيقة » من روائع الشعر فى فلسفة الحياة ، وهى خليقة بالتفكير العميق .
(٢) عالم أمريكى اشتهر باختراع المصباح الأمريكى الكهربائى .
(٣) ذكاء (بضم الذال) : الشمس .

(الأهرام) فى ١٩ يونية سنة ١٩٠١

رثاء بشاره تقــــلا

حــل بالأمتين خطب جليــل رجــل مات والرجال قليــل[1]
زال عن سوريا فتاها المرجّى وعن النيــل جاره المأمــول
وعن الأهل من يبر ويحنو وعن الأصــدقاء من لا يحــول
وعن الأمر من يغامر فيه وعن الحــق سيفه المسلول
وعن الرأى والسياســة والتحـ ـرير من رأيه السديد الأصيل
يا صديقى وكنت بالأمس حيا عهدك اليــوم بالحياة طويل
قــد شجانى من نأى وجهك عنى أن وجه الوداد باقٍ جميــل
يقطــر الفضــل والمروءة منــه ويميــل الوفاء حيث يميــل
خير ما خلف ابن آدم فى الدنـ ـيا خــلال يبكى عليها خليــل
ليت شعرى ماذا لقيت من المو ت وأخفى لك التراب المهيــل
يلبث العالمون فى الشــك إلا ساعة عنــدها الشكوك تزول
ترجــع النفس للحقيقــة فيها وترى أن ما مضى تضليل
ويــلوذ العليــل فيهــا إلى الطـ ـب وهــل ينفع العليل العليل
إنما المــوت ظلمة تمــلأ العيـ ـن ووقر عــلى الصدور ثقيــل
وثوان أخف منهــا العوالى كل عضــو ببعضها مقتــول
ينتهى العيش عندها حين لا اليا فــع سالٍ ولا الكبير مــلول
هــذه الأرض والأنام عليها ملعب ثــم ينقضى التمثيــل
والذى ينشئ الروايات دهــر كم لــه من فصولها تخييــل
أيها الراحــل العــزيز علينا ســر برغم القلوب هــذا الرحيل
إن فضــلا خلفت فينا ونبــلا لأمين عليهمــا جبريــل[2]

---

(١) اشتهر الشطر الثانى من هذا البيت .

(٢) جبريل هو جبرائيل تقــلا بن بشارة تقلا . كان صاحب الأهرام بعــد موت أبيه . وقد تمكن بمساعدة الصحافى الكبير داود بركات من النهوض بالجريدة ورفع مستواها الأدبى والسياسى .

مسـألة الأرصـــفة

أو

فشـــودة أخـــرى

فى أغسطس سنة ١٩٠١ حدث نزاع بين الباب العالى وشركة فرنسية حول امتياز بناء رصيفين على ضفاف البوسفور ، وقد تدخلت الحكومة الفرنسية فى النزاع ، وهددت تركيا بقطع علاقاتها معها .

نشر (اللواء) فى ٢٤ أغسطس رسالة لمكاتبه بالإسكندرية تحت عنوان (فشودة أخرى) جاء فيها : " كلمة قالها أحد رجال السياسة الأوربيين العارفين بحالة فرانسا الراهنة عندما اطلع على ما نقله البرق إلينا بالأمس وهو أن سفير هذه الدولة قد أنذر حكومة جلالة السلطان بقطع العلائق بينهما ، وضرورة السفارة إن لم تجب حكومته إلى مطالبها .. " .

وفعلا غادر السفير الاستانة فى أوائل أغسطس ، وكانت أزمة تحرك لها الرأى العام . كتب (اللواء) فى ٣١ أغسطس تحت عنوان (أهـذه شهامتكم ؟) " إن المسيو جرانتيه صاحب الامتياز صنيعة السفير وغرس نعمته . وإن السفير هدد بالوسائل الثلاث : المظاهرة البحرية ، وامتلاك الكمرك ، وإرخاء العنان لحزب تركيا الفتاة " .

هذا عينه ما كان يحدث فى مصر فى عصر إسماعيل : تهديد بالأساطيل ، وتحويل جميع المسائل المالية أو الحقوقية الخاصة التى تختص المحاكم دون سواها بالفصل فيها إلى مسائل سياسية تدعو إلى تدخل القناصل وحكومات الدول الأوروبية الكبرى ..

وقد نشر (المؤيد) بهذه المناسبة فى أغسطس سنة ١٩٠١ البيتين الآتيين ونسبهما لأديب فاضل وهما :

قالوا فرنسا أنذرت سلطاننا ... قطع العلائق والوعيد مهول

وتساءلوا ماذا يكون فعالها ... فأجبتهم فاشودة وتزول

(المؤيد) فى ١ سبتمبر سنة ١٩٠١

تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه

لك أن تلوم ولى من الأعذار ... إن الهوى قدر من الأقدار
ما كنت أسلم للعيون سلامتى ... وأبيح حادثة الغرام وقارى
وطر تعلقه الفؤاد وينقضى ... والنفس ماضية مع الأوطار
يا قلب شأنك لا أمدك فى الهوى ... أبدا ولا أدعوك للإقصار
أمرى وأمرك فى الهوى بيد الهوى ... لو أنه بيدى فككت إسارى
جار الشبيبة وانتفع بجوارها ... قبل المشيب فما له من جار
مثل الحياة تحب فى عهد الصبا ... مثل الرياض تحب فى آذار
أبدا "فروق" من البلاد هى المنى ... ومناى منها ظبية بسوار
ممنوعة إلا الجمال بأسره ... محجوبة إلا عن الأنظار
خطواتها التقوى فلا مزهوة ... تمشى الدلال ولا بذات نفار
مرت بنا فوق الخليج فأسفرت ... عن جنة وتلفتت عن نار
فى نسوة يوردن من شئن الردى ... نظرا ولا ينظرن فى الإصدار
عارضتهن وبين قلبى والهوى ... أمر أحاول كتمه وأدارى

* * *

وسألت ما شغل الملائك بالثرى ... فأجبن عيد خليفة المختار
صبح الجلوس جلتك أشرف ليلة ... وجلوت للدنيا أجل نهار
الملك بينهما بأيمن طالع ... والدين بينهما بخير منار
تاب الزمان إليه عن أحداثه ... بفتى على أحداثه جبار
«عمر» الأمانة لا تراه غافلا ... عن حرمة أو نائما عن ثار
عش يا أمير المؤمنين لأمة ... ترضاك فى الإعلان والإسرار
لو كان يجلس فى الجوارح مالك ... لجلست فى الأسماع والأبصار
إن الذى جعل الخلافة هالة ... قد زانها بالبدر فى الأقمار
ألقى أزمتها إليك وحازها ... لك عن خلائف أربعين كبار

تعطى المشارق كل عام عيدها يحمل الأعوام والأعصار
بأبر ممدود البناء بنى لها ركنا وقد كانت بغير جدار
ويهز عطفيه الزمان ويزدهى بأغر فيه محجل الآثار
حالى الجنود كأنهم شهب الدجى ومنيرهم من كل ليث ضار
ولقد ينال حمى الإله ببعضهم ما لا تنال الأرض بالأسوار
أخليفة الرحمن دعوة مهتد بإمامة فى ضوء "يلدز" سار
لك أن تقر البيض فى أغمادها أو تترك الدنيا بغير قرار
فاختر لبأسك قرنه وأربأ به أن يلتقى بسفاسف الأحرار
إن يستعينوا بالسباب فإنه حول الضعيف وحيلة الخوار
مما يلقنى رضاكم البنى حسان أبغى الله فى أشعارى
ما زلت أهدى كل صالحة لكم حتى وهبت لكم ثواب البارى

⁂

التعليق

نشرت أبيات النسيب من هذه القصيدة فى باب النسيب من الجزء الثانى ص ١٥٦ — ١٥٧ مع تعديل فى البيت الأول من البيتين الآتيين :

فى نسوة يوردن من شئن (الهوى) نظرا ولا ينظرن فى الإصدار
عارضتهن وبين قلبى و (الهوى) أمر أحاول كتمه وأدارى

فوضعت كلمة الهوى بدلا من (الردى) . فتكرر ذكر الهوى فى البيتين . وهذا التكرار غير مستحسن لفظا ولا معنى . على أن إبدال الهوى بالردى غير منطق و يذهب بقوة البيت وجماله . ردت الفرس ردْيا : رجمت الأرض بحوافرها و — تهوّر من جبل عال و — فى البئر : سقط . وردِي يردى : هلك فهو ردٍ . ورداه فى البئر تردية : أسقطه فيها . وأردى زيدا : أهلكه كقوله « تنادوا فقالوا أردت الخيل نائما » . وتردّى فى الهوة تردّيا : سقط فيها . فيكون المعنى أن النسوة يوقعن من شئن بنظراتهن فى ورطة الحب ولا يفكرن فى تخليصه منها . فالردى هنا بمعنى الورطة والورطة هى الهوّة الغامضة . وهى المهلكة والشدّة وكل أمر شاق تعسر النجاة منه : ولو أن شوقى قال فى تعديله ما معناه " يوقعن من شئن فى الهوى "

لاستقام المعنى ولكنه قال " يوردن من شئن الهوى " وشتان بين ورود مناهل الحب والوقوع أو التورط فيها . فالأول لا يستعذب الخلاص منه بعكس الثانى . .

أما المديح فأبياته فى مجموعها جيدة وخصوصا قوله :

ألــق أزمتهـا إليــك وحازها   لك عن خلائف أربعين كبار

والمهم أن هذا المديح كان يجب تسجيله لأنه يتضمن مغامز سياسية تورط فيها شوقى تأييدا للسلطان كقوله :

فاختر لبأسك قرنه واربأ به   أن يلتــقى بسفاسف الأحرار

إن يستعينوا بالسباب فإنه   حــول الضعيف وحيلة الخوار

لم نجد الخوار ولعلها الخوّار وهو الجبان . والواقع أن الجبن من صفات الحاكم المستبد الذى لا يجد له حمى إلا فى الإرهاب . الجبان هو عبد الحميد لا الأحرار الشجعان الذين ثاروا عليه وثلوا عرشه فى سنة ١٩٠٩ .

الثورة العرابيّة

كان شوقى شاعر الحرية والمجد ، شاعر الثورات . وقد تغنى بالحرية وتغنى بالثورات جميعا إلا ثورة واحدة ، هى الثورة العرابية . ولا شك أنه كان مخلصا فى عقيدته ولعله تأثر بالبيئة التى كان يدين لها بنعمته ، بيئة السراى ورجال السراى الذين كان أكبر همهم إلصاق تهمة الخيانة بعرابى وتصويره بأنه كان خارجا على العرش والبلاد لتُنفى تهمة الخيانة عن توفيق ، ولعله تأثر أيضا بالشراكسة الذين ينتمى إلى عنصرهم وكانوا ألد أعداء الثورة و « أولاد العرب » فى الجيش . ومهما كان من الأمر فقد ساعد فشل الحركة على ترويج هذه التهمة الباطلة خصوصا بعد ما خلا الجو للخديوى وأعوانه .

كان رياض باشا خطب فى مدرسة محمد على الصناعية وأثنى على الاحتلال فى ٨ يونية سنة ١٩٠٤ فقال شوقى من قصيدة عنوانها (خاتمة رياض) وهى فى الجزء الأول ص ٢٥٩ :

أفى السبعين والدنيا تولت ولا يرجى سوى حسن الختام
تكون وأنت أنت رياض مصر عرابى اليوم فى نظر الأنام

وفى رثاء رياض فى أول أكتوبر سنة ١٩١١ (الجزء الثالث من الشوقيات صفحة ٤٦ وما بعدها) . قال :

أبا الوطن الأسيف بكتك مصر كما بكت الأب الكهف البنات
قضيت لها الحقوق فتى وكهلا ويوم كبرت وانحنت القناة
ويوم النهى للأمراء فيها ويوم الآمرون بها العصاة

وفى قصيدة (الأزهر) التى نشرتها (الأخبار) فى ٦ يناير سنة ١٩٢٥ (الجزء الأول صفحة ١٧٥) قال شوقى :

وُلدت قضيتها على محرابه[1] وحبت به طفلا وشبت معصرا
هزوا القرى من كهفها ورقيمها أنتم لعمر الله أعصاب القرى
الغافل الأمىّ ينطق عنكم كالببغاء مرددا ومكررا
ذُكر الرجال له فآله عصبة منهم وفسّق آخرين وكفرا
آباؤكم قرأوا عليه ورتلوا بالأمس تاريخ الرجال مزورا

---

(١) المعصر الفتاة المدركة .

حتى تلفت عن مجابر رومة ... فرأى عرابى فى المواكب قيصرا
ودعا المخلوق وأله زائلا ... وارتد فى ظلم العصور القهقرى
يجنى على العرش البلاء وما نوى ... وجنى على الوطن البلاء ومادرى
كونوا سياج العرش والتمسوا له ... نصرا من الملك العزيز مؤزرا

هذا أهم ما ورد عن عرابى فى ديوان شوقى المطبوع قبل موته وبعده (١٩٢٦ — ١٩٤٣) . وتوجد إشارات كثيرة إلى الثورة العرابية والعرابيين فى قصائد (الشوقيات المجهولة) . ولكن هناك إشارة وردت فى قصيدة أغفلناها قيلت على أثر رحلة قام بها الخديوى توفيق فى الصعيد (٤ يناير — ٨ فبراير ١٨٩١) . وكانت أرسلت من باريس مطلعها :

من له فى الملوك ذاك البناء ... يتهادى على ذراه اللواء

وهى مكونة من اثنين وأربعين بيتا لم ينشر منها إلا ستة وثلاثون فى الجزء الأول من الشوقيات طبعة قديمة تحت عنوان (تهنئة للمرحوم توفيق باشا بقدومه من الوجه القبلى والاحتفال بعيد ميلاده وهى مما نظم فى أول زمن القول) . وقد نشرتها (الوقائع) كاملة فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٩١ وكانت الأبيات الستة المحذوفة تشتمل على البيت الذى يشير فيه إلى العرابيين وهو البيت الثالث من الأبيات الآتية :

قمت بالأمر والحوادث شتى ... ولعلياك بالشباب ازدهاء
كنت أشهى وردا من القطر لما ... أشربتك القلوب وهى ظماء [(١)]
فطغى فى البلاد قوم أزيحوا ... فأزيحت من جفنها الأقذاء

وقد نشرت القصيدة كاملة فى كتاب مطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق عنوانه : (سياحة الجناب الخديوى المعظم فى أقاليم مصر البحرية والقبلية سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩١ م) .

ونشرت (الوقائع) فى ٢٠ يولية سنة ١٨٩١ قصيدة مطلعها :

لى الله ما أغرى الغرام بمهجتى ... وأهدى لأقمار المنازل مقلتى

وهى منشورة فى الشوقيات ، طبعة قديمة ، فى صفحة ٦٢ جاء فى هذه القصيدة :

رعى الله يوما أشرقت فيه مصر من ... سنا وجه توفيق بأيمن غرة
ويوما أمد الله فيه (محمدا) ... بأشرف نصر غب أشرف هجرة [(٢)]

(١) أشرب فلان حب فلان بصيغة المجهول : خالط حبه قلبه .

(٢) محمد هو محمد توفيق الخديوى . وأشرف هجرة إشارة إلى احتماء توفيق بالأسطول الانجليزى أثناء ضرب الاسكندرية بالقنابل .

على عصبة عن القلوب تموضعوا   عن المسالك أين المسالكين بسوقة
كشيعة موسى غاب عنها لياليا   فلما تولى رعيها العجل ضلت (١)

⁂

كان واضع هـذا الكتاب نشر تباعا بحثا عن البارودى فى الصفحة الأدبية من السياسة سنة ١٩٢١ ، ثم جمعه وطبعه على حدة فى رسالة ظهرت فى يونية سنة ١٩٢٣ ، فبعث إليـه أمير الشعراء بهذه المناسبة كتابا جاء فيه :

« وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ إنه كان له غنى عن الإشارة إلى مواقف المرحوم البارودى فى الحوادث العرابية فإن فى ذلك من مسابقة التاريخ ما فيه . ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يضل الأعقاب و يحرف مواضع التبعات من الرقاب » .

والحق يقال إن الانجليز ورجال السراى نجحوا فى تشويه حوادث الثـورة العرابية حتى أن المرحوم أمين الرافعى فى مذكرته للوفد المصرى فى سـنة ١٩١٩ عن القضية المصرية قال « إن حوادث الثورة العرابية يحيط بها الغموض » مع أن بلنت و برودلى وسميوركى وروستاين قد كشفوا القناع عن وجـوه الحوادث وأظهـروا زائفهـا . وعلى أية حال بدأ المؤرخون المصريون بعـد سنة ١٩٢٠ فى كتابة تاريخهـم الصحيح و بعبـارة أخرى أصبح للمؤرخين المصريين لأول مرة وجهة نظـر مصرية صميمة فى كتاباتهم فلا عذر لشوقى إذن فيما قاله عن العرابيين فى سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، أما ما كتبه فى الصحف سنة ١٩٠١ غفلا من الامضاء ولم ينشر فى الديوان ، وذلك إبان الضـجة الكبرى التى صحبت عـودة عرابى من المنـفى وتصريحاته ، فقد يلتمس له فيه بعض العذر .

فى سبتمبر سنة ١٩٠١ كان ولى عهد انجلترا فى جزيرة سيلان فالتمس منه عرابى العفـو فعفا عنـه . وقد غادر عرابى سيلان إلى مصر فى ١٧ سبتمبر ولكنه قبـل قيامه أدلى إلى صحيفة (التيمس أوف سيلان) بتصريحات أثنى فيها على الاحتلال الانجليزى وكان لهذه التصريحات الصادرة من زعيم الحركة العرابية وقع سيئ فى جميـع الأوساط خصوصا وأن حركة مصطفى كامل ضد الاحتلال كانت على ساق وقدم . ولمـا وصل عرابى إلى السويس فى ٢٩ سبتمبر أدلى إلى مراسل (التيمس) اللنـدنية بتصريح نشر فى عدد ١١ أكتوبر قال

---

(١) العجل يريد عرابى . والواقع أن عرابى كان زعيما وطنيا مخلصا ولكنه لم يكن رجل سياسة وحزم . ومن أكبر أخطائه عدم القبض على توفيق قبل استفحال الخيانة وترك القناة عوزاء .

المراسل : « وصرح لى مع السرور بإعجابه بحكم الانكليز فى مصر كما أعجب به فى جزيرة سيلان ، ويظهر أن ما حصل له فى مدة الثمانى عشرة سنة التى أقامها فى المنفى بتلك الجزيرة صيره صديقا حميما لانكلترا » .

وبعد وصول عرابى إلى القاهرة فى مساء ٣٠ سبتمبر لم يكتف بتصريحاته السابقة التى أثارت سخط الرأى العام فنشرت له (المقطم) جريدة الاحتلال فى ٢ أكتوبر حديثا جاء فيه : « ولما فرغ من شرح سفرته قلنا له هل وجدتم ما رأيتموه من مصر فى هذين اليومين مختلفا عما كان عليه حين مفارقتكم لها ؟ فقال إن عائلتنا كبيرة . . وقد قابلت أكابرهم الذين جاءوا السويس للتسليم علىّ فسألتهم عن الأحوال بالتفصيل والإجمال فوجدتهم متفقين فى الجواب سألتهم أصحيح أن السخرة ألغيت فقالوا نعم صحيح . قلت والكرباج ، قالوا بطل من زمان طويل . قلت وكيف تحصّل الأموال من الأهالى قالوا بالحق والعدل وكل إنسان يعرف ماله وما عليه . فسألتهم وكيف الاستبداد فى الأحكام الآن أجابوا لم يتبق للاستبداد أثر فى البلاد فكل شىء مقيد بقانون ونظام . . فشكرت الله حينئذ لأنه حقق مناى وأرانى قبل مماتى ما طالما كنت أتمناه لبلادى . وقلت هذا هو الإصلاح . . ولكن لحكمة له جل جلاله قضى أن لا يتم على يدى بل على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال وكانوا لنا أعداء فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء » .

من الصعب أن نصدق أن مثل هذا الكلام صادر من أحمد عرابى المصرى قائد أول ثورة مصرية فى تاريخ مصر الحديث . والظاهر أن شيخوخته وما صحبها من ضعف ووهن فى أثناء إقامته الطويلة فى المنفى قد أفقدته وعيه وبصره بالأمور . ومهما كان من الأمر فهذه زلة لا تغتفر لعرابى . وقد حملت عليه الصحف الوطنية وفى مقدمتها اللواء حملة شعواء : نشرت اللواء فى عدد ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠١ افتتاحية بقلم مصطفى كامل عن (عرابى) جاء فيها : « لم يكفه ما جناه على وطنه حتى سمعناه يفتخر بالاحتلال وآثاره ويراه النعمة الكبرى على هذه الديار الأسيفة . . نسى عرابى أو تناسى أن الانكليز أبوا أن يستلم سيفه قائد منهم أو ضابط صغير إظهارا لاحتقارهم لزعيم حركة لم يتصف جيشه وجنوده إلا بالجبن الفاضح والهرب السريع » . وفى عدد ٣ أكتوبر ، على أثر نشر حديث (المقطم) ظهرت افتتاحية أخرى فى اللواء بدون إمضاء عن عرابى : « مصر اليوم مرسح يمثل فيه آخر فصل من رواية (عاقبة خيانة عرابى) وهو أسوأ فصول هذه الرواية المحزنة » . وفى عدد ٥ أكتوبر من اللواء ظهرت افتتاحية (نظرات إلى عرابى) جاء فيها : « عاد محمود سامى إلى مصر

فقدته وجهة المصريين . ويعلم العقلاء أنه أعظم الخصوم مصابا وأكبرهم خسارة . أصيب في ثروته الواسعة وجاهه الرفيع وأهله الكرام ، وهو وإن لم تصنه أصالة الرأى عن الخطل فى السياسة فله من نسبته إلى الأدب ما يقوم له ببعض عذره . . ومع هذا كله لم يعلم أحد أنه اشتكى الفقر وهو الذى عرف الغنى أو حن إلى رتبه ونياشينه وهو الذى بلغ من المعالى ما تشتهى النفس العالية ولا يزال به حياء وخشية أن يحدثه الأصدقاء بأخبار الثورة . وإذا عرض له أحدهم ببعض الشيء منها لم يدر كيف يجيب . وبمثل هذا الحياء لقى المغفور له طلبة باشا المصريين قبل لقاء ربه . ويقال عن على فهمى الذى عاد إلينا بالأمس أنه كثير الحياء شديد الخجل والندامة » .

ومما يؤسف له أن التهمة الجائرة الموجهة إلى عرابى قد شملت الحركة العرابية وكبار العرابيين جميعا ، والمثل العامى يقول « البقرة لما تقع تكثر سكاكينها » . وقد أشار إلى ذلك البارودى فى منفاه حين قال :

لم أقترف زلة تقضى على بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلما وأغترب
فلا يظن بى الحساد مندمة ... فإننى صابر فى الله محتسب

فكل ذنب العرابيين أنهم دافعوا عن دينهم ووطنهم وأنهم ثاروا ضد التدخل الأجنبى ومطامع الأوروبيين . كتب (اللواء) فى ١٠ أكتوبر تحت عنوان (المدافعون عن الخائن) ما يأتى : « كيف لا يتهم عرابى بالخيانة بعد تصريحاته الأخيرة وهذا اللورد دوفرين أحد كبار الساسة الانجليز يقول فى تقريره عن مصر « إننا لو أحسنا إلى المصريين ورفعنا عن كواهلهم المظالم كلها ، وجعلنا بلادهم أنظم البلاد وأغناها لم نجد منهم حيالنا ميلا ولا انعطافا إذا دام احتلالنا لبلادهم لأن الاستقلال لا يقدر بثمن » .

ويمكن القول إنصافا للحقيقة والتاريخ أن عرابى لم يخن بلاده فى ثورته وكان زعيما مخلصا ولكنه سقط سقطة فى حق بلاده بتصريحاته فى سنة ١٩٠١ . وقد أظهر الشعب فى أيام الثورة العرابية روحا عالية ووطنية صادقة . فمن الظلم اتهام الكبار بالخطل فى السياسة واتهام الشعب بالجهل والغفلة . قال ملنر فى كتابه عن مصر " إن الحركة العرابية كانت نهضة عامة نهضها الشعب ضد ظلم لا يحتمل " وقال كرومر : " إن أغلبية الفلاحين كانت تعطف على عرابى وتولى وجهها قبله لإنقاذها من المرابى والباشا " .

ونعيد ونؤكد أن عرابى برىء من الخيانة التى نسبها إليه مصطفى كامل تحت تأثير فورة عاطفية لأن الذين خانوا هم توفيق وفريق من المصريين الموالين له وعلى رأسهم سلطان باشا، وطائفة من الضباط ، وعرب الطحاوى . ويمكن أن نضع فى عداد الخونة تركيا بإصدارها منشورا بإعلان عصيان عرابى، ودلسبس الذى خدع عرابى وكتب له فى إحدى رسائله : « إنى لن أسمح للإنكليز بدخول ترعة السويس إلا بعد أن يفصل رأسى عن بدنى و يعبر الإنكليز على جثتى » فأمن عرابى مجىء الإنكليز من ناحية القناة وتركها عوراء بلا تحصين .

وقد اشترك شوقى فى هذه المعركة بقلمه ونشر قصيدتين (بلا إمضاء) ولكن أسلوبهما ينم عليه[1] . ظهرت الأولى فى (اللواء) فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ فى الافتتاحية تحت عنوان ضخم (عرابى وما جنى) ، هذا نصها :

أهلا وسهلا بحاميها وفاديها	ومرحبا وسلاما ياعرابيها
وبالكرامة يامن راح يفضحها	ومقدم الخير يا من جاء يخزيها
وعد لها حين لا تغنى مدافعها	عن الزعيم ولا تجدى طوابيها
وارجع إليها فيا لله فاتحها	يوم الإياب ويا لله غازيها
وانزل على الطائر الميمون ساحتها	واجلس على تلها وانعق بواديها
وبض لها بيضة للنصر كافلة	إن الدجاج عقيم فى نواحيها
واظلم صحيح البخارى كل آونة	ونم عن الحرب واقرأ فى لياليها
وأخرج القوم من مصر بخارقة	تفوق " فاشودة " فيها وتنسيها
من العجائب صاروا من أحبتها	فيما زعمت وكانوا من أعاديها
كأنما كان من حرب ومن حرَب	عتب المودة لا يودى بصافيها
وضع عمامتك الخضراء من شرف	يعرفك كل جهول من أهاليها
وقص رؤياك مكذوبا بمضحكها	على النبيين مكذوبا بمبكيها
فلست تعدم عميا من أكابرها	ولست تعدم بكما من أعاليها

(١) قال الأستاذ أحمد زكى عبد الحكيم فى كتابه (أحمد شوقى شاعر الوطنية) ص ٨٩ : غير أن الأستاذ الدكتور أحمد الحوفى يقول إن شوقى قد أنشأ ثلاث قصائد حول عرابى » وإذا كان تاريخ الشعر والصحافة لم يثبت ذلك » فإن الدكتور الحوفى يقيم الأدلة على أن هذه القصائد الثلاث إنما هى لشوقى ولا أملك إلا أن أسجل هذه القصائد محملا الدكتور الحوفى التبعية التاريخية لذلك الإثبات والاستنباط » .

وقد ذكرنا هذه القصائد وظروفها بالدقة فى المحاضرة التى ألقيناها فى مهرجان شوقى الذى أقامه المجلس الأعلى للفنون والآداب فى منتصف أكتوبر سنة ١٩٥٨ .

ولست تعدم وغدا من أسافلها يزف للأمة البشرى ويهديها
ولست تعدم فى الأجواد ذا سفه يحصى الديون التى تشكو ويقضيها

* * *

قل للمك (أدورد) أصبت فتى عن الهنود وإرلندا وما فيها
هذا عرابى تمنى أن تقابله وأن ينال يدًا جلت أياديها
فسر بانكلترا ترجى فيالقها وبالأساطيل تدوى[1] فى موانيها
ومر بلندرة تبدو بزينتها وتنجلى للبرايا فى مجاليها
فأين "روبرس" منه إذ يحيها وأين "سيمور" منه إذ يوافيها
هذا الذى يعرف الافرنج صولته والبر يعلمها والبحر يدريها
وسله بالله إن صافحت راحته مانفسه مامناها ما مساعيها
وأين أيمانه اللاتى أشاد بها أن لا يحكم فيها غير أهليها
وأن يموت عزيزا دون أربعها ولا يعيش ذليلا فى مغانيها
وقل له بلسان النيل توجعه والنفس إن صغرت لاشىء يؤذيها
تلك العظام بلا قبر ولا كفن لولاك لم يبل فى العشرين باليها
فاقر السلام عليها حين تندبها وأمّل العفو منها حين تبكيها
وناجها مرة فى العمر واحدة لو كان سهلا عليها أن تناجيها
أوردتها الموت لم تبلغ بها شرفا ولا توخيت بالأوطان تنويها
وما رأت لك سيفا تستضىء به يوم القتال ولا وجها يحييها
باتت ترى الموت فيها كيف يدركها وبت تنظر مصرا كيف تأتيها
فأصبحت غنما من الذئاب بها ونام عنها غداة الروع راعيها
ياابن الحسين حسين مات من ظمأ وأنت محتفل بالنفس ترويها
تلك الأبوة ماهذى شمائلها للعارفين ولا هذى معانيها
وأنت أصغر أن تعطى مفاخرها وأنت أسمج أن تكسى معاليها
لم ينصر الله بالأحلام صاحبها لكن بكل عوان كان يذكيها
وبالمواقف يغشاها مؤلّبة والحوض يمنعه والخيل يحميها
أبوة المصطفى مازال يلبسها حرقشيب شباب الفخر ضافيها

---

(١) الصحيح تدوّى بتشديد الواو.

حتى تنازعها فى مصر طينتها ... دعوى وحتى ترقتها غوانيها

وأصبحت لجبان القوم منقبة ... وزينة لجهول القوم يبديها

*
* *

هلا سبقت غداة النيل ناعيها ... إلى المنية مسرورا تلاقيها

هلا تكفنت فى الهيجا برايتها ... مثل الدراويش خانتها عواليها

مازال جمعهم فى الحرب ينشرها ... حتى أتاها فناء الجمع يطويها

هلا أبيت على العافين عفوهم ... لكى يقال أبىّ النفس عاليها

زعمت أنك أولى من أعزتها ... بها وأحنى عليها من مواليها

وكنت تطرب إذ تتلى مدائحها ... فأين دمعك إذ تتلى مراثيها

* * *

فى هذه القصيدة تطل روح الشاعر من كل بيت ، فيها تهكمه اللاذع :

ياآبن الحسين حسين مات من ظما ... وأنت محتفل بالنفس ترويها

وفيها حكمته : * والنفس إن صغرت لاشىء يؤذيها *

أخذ المعنى من قول المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

ولكنه ربما كان أحق بالمعنى منه ، وفيها تصويره :

هلا تكفنت فى الهيجا برايتها ... مثل الدراويش خانتها عواليها

*
*

وقد نشر اللواء فى أول أكتوبر سنة ١٩٠١ تحت عنوان (عرابى) القصيدة الثانية ومهد لها بقوله : " قام عرابى على الطائر الأسود من السويس صباح الأمس ووصل إلى القاهرة فى مسائه يحفه الصغار ويلازمه الاحتقار .. هذا ولقد كان للقصيدة التى نشرناها تحية لهذا القادم المشئوم أعظم وقع " . وستطبعها . وطلب منا العدد الجم أن نعيد نشر قصيدة (عاد لها عرابى) وها هى[1] :

صغار فى الذهاب وفى الإياب ... أهذا كل شأنك ياعرابى

عفا عنك الأباعد والأدانى ... فمن يعفو عن الوطن المصاب

(١) نشرت (المجلة المصرية) فى عدد ١٥ يونية سنة ١٩٠١ هذه القصيدة بإمضاء (نديم) ، فهى إذن أقدم من القصيدة السابقة ويظهر أن شوقى نظمها بمجرد صدور الأمر بالإفراج عن عرابى وصاحبه .

وما سألوا بنيك بلا [illegible] ... ولا التفتوا إلى القوم الغضاب

فتى في مصر موفور المعالى ... [illegible] الذكا مقتبل الشباب

أفرق بين سيلان ومصر ... وفى كلتيهما حمر الثياب

يتوب عليك من [illegible] فيها ... أناس منك أولى بالمتاب

ولا والله ما ملكوا متابا ... ولا ملكوا التقديم من العقاب

ولا ساووك فى صدق النوايا ... [illegible] ساووك فى الشيم الكذاب

حكومة [illegible] بسراة [illegible] ... [illegible] تحييك الطوابى

وإذ ضربوا وسيفك لم يجرد ... وإذ دخلوا ونعلك فى الركاب

وإذ ملئت لك الدنيا [illegible] ... وصالت بالنهاوة والتغابى

وإذ تقضى المعالى [illegible] ... [illegible] يهزى الأعادى بالسباب

وإذ يعلى الأريكة فى [illegible] ... وتعلى التاج فى هزل الخطاب

ستنظر إن [illegible] ... [illegible] الوقت عن تلك الصحاب

وقد [illegible] ... [illegible] لاذوا إلى أقوى جناب

وبالإنجيل قد حلفوا لقوم ... كما حلفوا أمامك بالكتاب

يريدون القضاء بلا حجاب ... ونحن اليوم أولى بالحجاب

فإنا معشر الأحياء منا ... إذا ما قيل عاد لنا عرابى

المؤيد واللواء فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٠١

تحيــة الأمير بمناسبة عودته من مصيفه

اختار شوقى أبيات النسيب من هذه القصيدة ونشرها فى الجزء الثانى (باب النسيب صفحة ١٧٧) . ونحن نعيد نشر القصيدة هنا كاملة (ماخلا أبيات ستة) لأن معظم أبيات المديح فيها سهلة رقيقة كأنها عتاب أو نسيب ، تنتظمها كلها (نسيبا ومديحا) نسمة من نسمات أحمد :

مقادير من جفنيك حولن حاليا ... فذقت الهوى من بعد ما كنت خاليا

نفذن علىّ اللب بالسهم مرسلا ... وبالسحر مقضيا وبالسيف قاضيا

وألبسننى ثوب الضنى فلبسته ... فأحبب به ثوبا وإن ضم باليا

وما الحب إلا طاعة وتجاوز ... وإن أكثروا أوصافه والمعانيا

وما هو إلا العين بالعين تلتقى ... وإن نوعوا أسبابه والدواعيا

وعندى الهوى موصوفه لا صفاته ... إذا سألونى ما الهوى قلت ما بيا

وبى رشأ قد كان دنياى حاضرا ... فغادرنى أشتاق دنياى نائيا

سمحت بروحى فى هواه رخيصة ... ومن يهو لا يؤثر على الحب غاليا

ولم تجر ألفاظ الوشاة بريبة ... كهذى التى يجرى بها الدمع واشيا

أقول لمن ودعت والركب سائر ... برغم فؤادى سائر بفؤاديا

أمانا لقلبى من جفونك فى الهوى ... كفى بالهوى كأسا وراحا وساقيا

ولا تجعليه بين خديك والنوى ... من الظلم أن يغدو لناريك صاليا

ولى ملك ملء الفؤاد محبب ... جمعت الهوى فى مدحه والقوافيا

وما الشعر إلا خطرة أو سريرة ... نصوغهما لفظا إلى النفس ساريا

فتى الشرق فت العالمين مكارما ... ومن قبل فت النيرات معاليا

سموت فلم تستبق للمجد غاية ... تسوم السها هذى الخطى والمساعيا

وأطيب من قرب الحبيب على رضى ... مقامك فى (دار السعادة) راضيا

وما زلت فى ملك الخليفة أولا ... وإن كنت فى نادى الخليفة ثانيا

ولو سئل الإسلام ماذا يريده ... لما اختار إلا أن تديما التلاقيا

فبينكما فى الدين ودّ ورحمة ... وفى الملك عهد الله أن لا تجافيا[1]

وللودّ دل لا يكدّر صفوه ... ولكن كثيرا ما يغر الأعاديا

تقبل عزيز المالكين تحية ... تقدّمها مصر وتهدى التهانيا

طلعت عليها والضحى فى ربوعها ... فياحسنه يوما بشمسيه زاهيا

عروس سماء الشرق أنت جمالها ... إذا زُيّنت كنت الحلى والمجاليا

تنيب حبا حسنها [illegible] ... وقد ملأت منها الغداة النواحيا

نشرت جلال الملك فيها وعزه ... وأعلامه موسومة والعواليا

وأقبلتَ كالدنيا إذا هى أقبلت ... وكالدهر حال الصفو لو دام صافيا

تشير بوجه ذى جلال ورأفة ... يفيضان فى الناس الهدى والأياديا

فهذا هو البدر استقر به السرى ... وهذا سحاب الجود ألق المراسيا

---

(١) قال تعالى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة» .

(مقتطفات من الجزء الثانى من الشوقيات)

تفاخر فى الأمور تظن قصداً ... وأنت مع الأمور على اضطرار

إذا فاتتك قلت اختار دهرى ... وإن هى لم تفت قلت اختيارى

وقد تجرى سعود أو نحوس ... وليس سوى قضاء الله جارى

أرى طوفان هذا الغرب يطغى ... وأهل الشرق سادتهم نيام

فإن لم يأتنا نوح بفلك ... على الإسلام والشرق السلام

⁂

وقال وهو من مبتكراته :

زعموا اللؤلؤ من طول النوى ... يظهر السقم ويبدى الاصفرار

فإذا رُدَّ إلى موطنه ... فى جوار البحر يشفيه الجوار

وترى الأصداف لا تعطفها ... فرقة الدار ولا بعد المزار

وكذاك النفس فى أحوالها ... حسب الجوهر منها والنجار (١)

إن تكن من صدف تنس الحمى ... أو تكن من لؤلؤ تبك الديار

---

(١) النجار بالكسر الأصل والحسب واللون .

(اللواء) فى ١٢ يناير سنة ١٩٠٢

صوت العظام أو عرابى أمام قتلى التل الكبير

« إذا كان الشعراء هم سادة هذا العالم فى تمثيل آلام الأمم وترجمة ما فى الضمائر وإعلان حقائق التاريخ وعبر الحوادث والأيام بل جعلها خالدة باقية أبد الزمان متناقلة من نسل الى نسل ومن عصر الى عصر ومن جيل الى جيل فان خير ما جادت به قرائح شعراء مصر والعرب والاسلام قصيدة أنشأها أبلغ البلغاء ننشرها اليوم عبرة المعتبرين . وعظة طالبة للوطنيين والمارقين . وبها نكتفى عن نشر ما كتبه الينا صفوة أبناء القطر عن مسعى الذين يريدون رد رتب عرابى ونياشينه إليه وجعلون الأمة عارا فوق عارها وبلية فوق بلاياها الكبار » .

قال :

عرابى كيف أوفيك الملاما   جمعت على ملامتك الأناما

فقف "بالتل" واستمع العظاما   لأنذر ما كما لمسو كلاما

سمعت من الورى جدا وهزلا   فاسمعك إذ تقول القول فصلا

كأنك قاتل والحكم يتلى   عليك وأنت تنتظر الحماما

ولا آمل من الأموات عضوا   وإن كان الحسين أباك دعوى

أرقت دماءهم لعبا ولهوا   ولم تعرف لغاليها مقاما

دماء قد فدتك ولم تصنها   نفضت يديك يوم التل منها

فكيف تنام عين الله عنها   إذا غفل الملا عنها وناما

لقد سفكت بجهلك شر سفك   لغير شهادة أو رفع ملك (1)

وأنت على قديم العز تبكى   وتندب رتبة لك أو وساما

تقول لك العظام مقال صدق   ورب مقالة من غير نطق

قتلت المسلمين بغير حق   وضيعت الأمانة والذماما

تقول لقد بقيت وما بقينا   ثبتنا للعدا حتى فنينا

فما حكم الليالى فى بنينا   وما صنع الأرامل واليتامى

تقول وصوتها رعد قاصف   وتصل فى الضمير لها دوى

---

(١) لغير شهادة أو رفع ملك . يقول ان دم الشعب سفك جهلا لغير الموت والاستشهاد فى سبيل الله ورفع الملك أى تدعيمه وإصلاح حاله .

لقد مات الكرام وأنت حي ... حياة تنقضى عارا وذاما
تقول وصوتها ملأ الدهورا ... وأنت أصم من حجر شعورا
عرابى هل تركت لنا قبورا ... يقول الطائفون بها سلاما
تقول وصوتها بلغ السماء ... وأسمع خير من سمع النداء
إله العالمين أجب دعاء ... تصيح الانتقاما الانتقاما
تقول جبنت حين الظلم يسمو ... وثرت ولم يكن فى مصر ظلم (١)
وحركك من أبى العباس حلم ... ولما يكتمل فى الحكم عاما
وقفت له وما ظلم الأمير ... ولم يكن اطمأن به السرير
بفعل الخطب واضطربت أمور ... عنيت بأن تكون لها نظاما
تقول مقالة فيها اعتبار ... عشية حال بينكما الفرار
أموتك يا عرابى ثم عار ... يلازمنا بقالتنا لزاما
رمانا بالجبانة كل شعب ... وسبتنا الخلائق أى سب
لأنك حين لم تخرج لحرب ... ولا جردت فى الهيجا حساما
وقبل زعيمهم ولى الفرارا ... وفى "بلبيس" قد ساق القطارا
وخلف جيشه فوضى حيارى ... وقد بلغ العدى فيهم مراما
نسائل عن عرابى لا نراه ... وننشد حاميا خلى حماه
ركبنا الموت لم نركب سواه ... وأنت ركبت للعار الظلاما
رويدا يا شعوب الأرض مهلا ... فما كنا لهذا اللوم أهلا
أراكم واحدا جبنا وجهلا ... فأنساكم مواقفنا العظاما
سلوا تاريخنا وسلوا "عليا" ... ألم يملأ بنا الدنيا دويا
لقد عاش الأمير بنا قويا ... وعشنا تحت رايته كراما
يعزّبنا ويقهر من يشاء ... كأنا تحت رايته القضاء
لنا فى ظلها وله علاء ... ومجد يملأ الدنيا ابتساما
ألم نكشف الحجاز عوان حرب ... وأنقذناه من حرب وكرب

---

(١) أول أغراض العرابيين كان إنشاء حكومة دستورية وجيش قوى للقضاء على استبداد الحاكم — وقد كان غرضهما صيانتها من التدخل الأجنبي الذى كان يهدد استقلال البلاد ويحول دون تقدمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

فكنا [illegible] بني حرب • أجرنا الـدين والبيت الحراما

سلوا [illegible] ... ألم نقبض عليـه وهـو نار

[illegible] ... [illegible] يومئـذ دماما

ألم نك خلف إبراهيم لما ... رمى بجـواده الأبراج شمـا

وكنا يوم «[illegible]» لم [illegible] ... فكنا الصخر إذ كان الإماما

[illegible] ... كما جمع الأب الواقى بنيـه

وليس الجيش إلا [illegible] ... إذا ما قوموا الجيش استقاما

[illegible] ... إلى حصن فيسبقنا إليـه

كأن [illegible] ... [illegible] النار في الهيجا سلاما

وفي السودان [illegible] ... وسار المسلمون بنـا اللـواء

[illegible] بوارجنا [illegible] ... على الأمواج تضطرم اضطراما

وفي (البلقان) [illegible] ... وطاولنا الجبال بها فطلنا

[illegible] ... [illegible] الـرواسي الشم هـاما

وسل عن بأسنا سودان مصرا ... لعبـد الله والمهـدى أدرى

بأنا الأسد إقداما وأجرا ... إذا اصطدم الفريقان اصطداما

وفي ([illegible]) [illegible] ... على قتلى بها منا وأسرى

بلغنا [illegible] والأتراك عذرا ... وأرضينا المهيمن و « الإماما »

وكان لنا بلاء في (كريد) ... بيـوم ثائر الهيجا شـديد

[illegible] وكانت [illegible] ... وأطفـأنا لثـورتها ضِراما

رفعنا الملك بالمهج الغوالى ... تسـيل على القواضب والعوالى

وبالأذكار لم نحي الليالى ... ولا بتنا على ضيم نياما

تقول لك السلام مع الأمانى ... ولا تحفِـل بسيف غير قانى

وليس بذى الفقار ولا اليمانى ... ولا المتهـور دفعا واستلاما(1)

أراح الله منك [illegible] ... وأنسى النـاس ما عملوا عليـه

[illegible] ... [illegible] تذكر العار الحُساما

---

(1) ذو الفقار سيف الإمام على بن أبى طالب وسيف العاص بن منبه قتل يوم بدر . واليمانى نسبة إلى اليمن ، والسيوف اليمانية مشهورة .

تحن له كأنك لم تضعه   فسعه بجبنك المأثور سعه
ودعه فى ظلام الغمد دعه   لعل مع الظلام له احتراما
أما والله ما لُعب الصغار   ولا خُشُب يقلدن (الجوارى)[1]
ولا الأوتار فى أيدى الجوارى   بأحسن منه فى الهيجا قياما[2]
وهذا الصدر أضيق أن يحلّ   وأن يسترجع الشأن الأجلا
فلم يك للقنا يوما محلا   ولا لقى الرصاص ولا السهاما
لقد ضاع الفخار على "الحفير"   وضاعت عنده نعم الأمير
أمن تحت السلاح إلى وزير   يسمى السيد البطل الهماما
عمّى فى الشرق كان ولا يزال   فما برحت معاليه تنال
ويبلغ شأوها الأقصى رجال   لهم فى الجهل قدر لا يسامى
تخذ رتب المعالى أو فدعها   وإن شئت آشرها أو شئت بعها
فإنك إن تنلها لا تضعها   وحاشا ترفع الرتب الطغاما
تقول لك العظام وأنت لاه   تمنى النفس من مال وجاه
وتكذب بالصلاة على إله   يراك أضل من صلى وصاما
سنأخذ منك يوما بالخناق   ولما تبلغ الروح التراقى
تلاق بيوم ذلك ما تلاقى   دماء الخلق والموت الزؤاما
نجيئك يوم يحضرك الحمام   يسل حسامه ولنا حسام
وتسبق سهمه منا سهام   لها بالحق رام لا يرامى
نجيئك يوم تحضُرك المنون   ويأتى العقل إذ يمضى الجنون
تقول لنا على الجانى ديون   فياربّ الدم احتكم احتكاما
وتُسأل ما جنى ماذا أساء   ليلقى عن جنايته الجزاء
ترفعها إلى البارى دماء   ونعرضها له جثثا وهاما
تقول جنى ومنّ بما جناه   وحاول أن تُرد له علاه
وضيع أنفسا ذهبت فداه   وأنت الله فانتقم انتقاما
هناك ترى جهنم وهى تُحمى   وتذكر ما مضى جرما فجرما
تُشرق بالدم المسفوك ظلما   وبالوطن العثور ولا قياما

(١) خشب يقلدن الجوارى أى عرائس خشب .

(٢) الجوارى هنا — المغنيات .

[illegible]

هذه القصيدة من الناحية الأدبية أشبه بملحمة . محكمة البناء سلسة اللفظ والأسلوب تكلم شوقي فيها على لسان العظام يخاطب عرابي في تهكم لاذع وتقريع مر . تقول تلك العظام :

تقول وصوتها ملأ الدهورا ... وأنت أصم من حجر شعورا
عرابي هل تركت لنا قبورا ... يقول الطائفون بها سلاما

نكبت قوى عرابي وهزمت بسبب [illegible] وأعوان توفيق من الضباط ، بهجوم الانجليز في ليلة ١٣ سبتمبر في موقعة التل الكبير ، فهرب ليلا على جواده إلى بلبيس حيث ركب القطار إلى القاهرة . وإلى ذلك يشير شوقي بقوله وهو قول عظام الموتى :

تسائل عن عرابي لا تراه ... وتنشد سامها حق حماه
ركبنا الموت لم نركب سواه ... وأنت ركبت للعار الظلاما

مقابلة رائعة بين ركوب الموت ، والهرب على ساق ، وركوب الظلام للهرب . ومن أبلغ [illegible] شوقي قوله في [illegible] :

نجيئك يوم يحشرك [illegible] ... ويأتي القتل إذ يمضي الجنون
تقول لنا على الجاني ديون ... فيارب الدم احتكم احتكاما
ونسأل ما جنى ماذا أساء ... ليلقى عن جنايته الجزاء
نزفنا إلى البارئ دماه ... ونعرضها له جثثا وهاما

وقوله :

هنالك ترى جهنم وهي تحمى ... وتذكر ما مضى جرما فجرما
فتشرق بالدم المسفوك ظلما ... ويالوطن المشوه ولا قياما

موقف ودرامي إطبق له مؤثر في ختام مأساة حياة . في يوم حسابها الرهيب . وقد صوره شوقي تصويرا شكسبيريا في الأبيات الستة الأخيرة التي هي أشبه بقطعة من هاملت أو مكبث ، والرائع أن [illegible] سماء واحدة ولا يدانيهم أحد في صفاء أخيلتهم وسحر البيان .

مقتطفات من الجزء الثانى من الشوقيات

أُذُن الظالم

كان فى الروم عظيم   ينتهى الجود إليه
جاءه يوماً حكيم   يشتكى بين يديه
قبّل النعل وأبدى   أعظم الذل لديه
فرأى ذلك قوم   أنكروا الأمر عليه
قال ما قبّلت رجـ   ـليه ولكن أذنيه
إن من كان كهذا   أذنه فى قدميه

⁂

الشىء بالشىء يذكر

دام (ديويت) غانما   سالما من محاربه
تلك نيرانه التى   هى إحدى عجائبه
يُشترى اثنان منهما   بعرابى وصاحبه

الشرح

عرابى وصاحبه : صاحبه هو على فهمى الذى عاد معه من المنفى . وقد أطلق سراحهما فى وقت واحد بمرسوم من الخديوى ، وكلاهما كان عظيم الجثمان . كتب (المؤيد) فى ٢٥ مايو سنة ١٩٠١ فى افتتاحية تحت عنوان (العرابيون) يقول : « وها قد صدر الأمر الكريم الخديوى بعودة ذينك الاثنين وهما أحمد عرابى وعلى فهمى .. وإن هذين الزعيمين انتهزا فرصة زيارة سمو ولى عهد المملكة الانكليزية لكولومبو ورفعا له عريضة تضرعا إلخ » .

أما (دى ويت) ونيرانه . فقد اشتهرت بلاد البوير بنيرانها الضخمة التى كانت تستعمل بلا عربات التموين فى الحروب وما إليها .

جاء فى (الهلال) عدد أول مارس سنة ١٩٠٢ فى مقال عن (كريستيان دى ويت) : « فى جملة الاحتياطات التى اتخذها اللورد كتشنر لرد هجمات البوير وحماية السكك الحديدية

وطرق القاطرات إنشاء أسوار من الحصون الصغيرة التي يسميها الانكليز Blockhouses . وقد بلغ طول هذه الأسوار إلى الآن نحو ٣٥٠٠ ميل ، وعدد ما فيها من الحصون نحو عشرة آلاف حصن . . وفي بعض البقاع أسوار أشبه بفخ إذا دخله البوير أصبحوا في نطاق حديدي لا نجاة لهم منه .

وأشهر واقعة نجا منها هذا القائد العظيم حدثت منذ عشرين يوما . وذلك أنه نزل بثمانمائة من رجاله بالقرب من حصون تلك الحصون فبلغ الخبر إلى اللورد كتشنر وسائر القواد فصدرت الأوامر بالهجوم عليه من جميع نواحيه وطاردوه حتى حصروه ، وكان عددهم يزيد على ثلاثين ألفا ، فأحدقوا به وسدوا المنافذ من جهة ، والأسلاك والحصون من الجهة الأخرى فأصبح كأنه في قفص من حديد ، وظنوا أنهم قد ملكوا ناصية البوير وأذلوهم .

أما (دى ويت) فلما تحقق وقوعه في ذلك الخطر ، وأنه صائر إلى الأسر أو القتل ، فضّل الثاني وعمل عملا لم يسبق له ذكر في التاريخ القديم ولا الحديث . ذلك أنه أمر رجاله أن يتفرقوا فرقا صغيرة ، وأمر كل فرقة أن تطلب لها مهربا عند سنوح الفرصة . . وجمع ما كان معهم من الثيران وسائر الماشية ، وانفرد بها في نفر قليل من رجاله ، والانكليز يراقبون حركاته لأنه ضالتهم المنشودة . . فلما رآهم يطلبونه أمر رجاله أن يستحثوا الثيران بمهاميز حادة ، وكانت الثيران كبيرة ليلتئذ قوية القرون ، فلما أصابتها المهاميز هاجت ونفرت لا تلوى على شيء ، ولو كان في طريقها أسوار من الحجر لم تبال بها . ومما زاد هياجها إطلاق بنادق الإنكليز ومدافعهم . فانهالت الثيران على تلك الأسلاك وقطعتها بقرونها . واخترقت معسكر الانكليز وفتحت له طريقا انطلق فيه (دى ويت) ورجاله بين تلك الثيران ولم يمسهم ضرر » .

(اللواء) فى ٢٠ يناير سنة ١٩٠٢

من قصيدة فى ميلاد ولى العهد

حذفنا النصف الثانى من هذه القصيدة ، واكتفينا بنشر النصف الأول، لأنه قطعة مستقلة من المديح التقليدى الجيد ، ولا شك أن المديح عموما ، وخصوصا مديحه للعباس ، قل أن يكون صادرا عن عقيدة ، فالمديح هنا من حيث الموضوع لاقيمة له ، ولكنه من الناحية الفنية باعتباره مجاراة لفحول القدماء فى بابٍ من أبوابهم المطروقة ، خليق بالدرس والنظر ، وحسب شوقى فيه قوله :

أبدا عباس يبنى ركنها   لبنيه وبنينا باليمين

وأسيرى فى غد ساعده   ومن الأشبال لليث معين

يشرق الكرسى من نورهما   كلما لاحا ، جبينا لجبين

فى البيت الأخير صورة شعرية فخمة ، أقل ماتدل عليه أن شوقى بقوة شخصيته مجدد ولو كان الموضوع مطروقا ، وهذا يذكرنا بما قاله مطران فى (الجوائب المصرية) عدد ١١ مارس سنة ١٩٠٣ تعليقا على قصيدة لشوقى « تهنئة خديوية » مطلعها :

من صور السحر المبين عيونا   وأحله حدقًا لها وجفونا

وقد نشرت الأبيات الغزلية من هذه القصيدة فى الجزء الثانى من الشوقيات ص ١٧١ . قال مطران : "هذا عنوان القصيدة الشائقة التى رفعها طائر مصر المحكى ، وشادى النيل الذى لا يحاكى إلى سدة الجناب الخديوى . وهى عصرية بمعانيها القشيبة ، خالصة النسب إلى أقدم أعصر الشعر العربى بجمال أسلوبها وفصاحة تراكيبها . ورب شاعر من أفحل الشعراء المتقدمين حسد شاعرنا على بيت له فيها من مبتكرات القريض معنى ، ومن أطايبه لفظا وهو قوله :

وقف الحيا من دونها مستأذنا   ومشى النسيم بسوحها مأذونا"

يصف شوقى الخميلة (وهى الشجر الملتف) فيقول إن المطر لا يمر منها بسهولة ، ولكنه أبدع فى التعبير كما بين ذلك مطران . والشطر الثانى من البيت فى رواية الديوان (ومشى النسيم بظلها مأذونا) . ولكننا نفضل (بسوحها) سوح جمع ساحة ، وهى الناحية أو الفضاء الذى بين دور الحى أو بين الشجر . ومن روائع المديح فى تلك القصيدة قوله :

[illegible]   [illegible] وأقسموا الضمائر والقلوب عيونا

وتبادلوا بـدل الهتاف سرائرا   تصل الدعاء وتتبـع التأمينا

وفي كلتا القصيدتين تبدو عذوبة شوقي وطول نفسه :

القصيـدة

يا كريم العهد يا ابن الأكرمين   كل عيـد لك عيـد للبنين

مصر ترجوهم وترجوك لهم   في ذرا العباس خير المالكين

وتـرى شأنك فيها قبلهـم   أصلح الله شئون الناشئين

ورعاهـم الله وأسعدهم   بك مأمونا عـلى العهـد أمين

إنه في مهـده العالي ترى   حسب الطفـل عليها والجنين

أبـدا عباس يحنى ركنها   لبنيـه وبنينـا باليمين

وأميجهم في عهده   وترى الأشبال لليث معين

يشرق الكرسي من وجهها   كلما لاحا جبينا لجبـين

الترشيح للانتخابات

فى مجلس النواب[1]

عندى لكم منتخب ... فرشحوه وانتدبوا
هبوا له أصواتكم ... وغيره لا تهبوا
فى مجلس الشورى له ... ألف حساب يحسب
والاحتلال يتقى ... آراءه ويرهب
وتنقل (التيمس) ما ... يقوله ويطلب

***

قالوا فلان ليس من ... يقرا ولا من يكتب
لا عالم يملأها ... علما ولا مجرب
وليس بالخطيب إن ... قام الملا فخطبوا
مبدؤه لا مبدأ ... مشربه لا مشرب
عند الأمير يفترى ... عند الوزير يكذب
وإن تكن وشاية ... فالمستشار أقرب
عجيبة أموره ... والصحف منه أعجب
قالوا له فيها العلا ... م الفاضل المهذب
ولقبوه بالسرى ... الشهم فيما لقبوا
أين النهى يا أمة ... يضحك منها الأجنب[2]

(خبير)

---

(١) مجلس النواب هو مجلس الشورى كما جاء فى البيت الثالث.

(٢) الأجنب كالأجنبى: الغريب.

الشوقيات

لما سمعت بنقطة … في الخلف صارت شر هوّة

حققتها فوجدتها … بين البنوّة والنبوّة

[illegible] … كانت لعيسى منه غنوة (١)

وهو الذي من [illegible] … [illegible] أن يهوى عدوّه

لم يمسكه [illegible] … زمنا ولم يسلوا سلوّه

أتراه كان يسلمهم … أن يأخذوا الدنيا بقوّة

❖

لما رأيت جبينه [illegible] في الثرى … و[illegible] تدلى إلى الأعتاب

[illegible] … يا أيها البدوي فرّج ما بي

ولقيت في المنفى من يبعث له … رسالة مفتوحة وكتاب

وشهدت في روما كنيسة بطرس … يصل الشفاه بها حديد الباب

وعلمت أن من النفوس مؤمّنا … يرجى لمغفرة وحسن مآب

أيقنت أن الخلق ضلوا ربهم … يارب لا تأخذهم بعذاب

---

(١) الغنوة التي في قوله «[illegible] عنه غنوة» أي غنى. والغنية بالضم والكسر: اسم بمعنى الغنى. يقال «ما له عنه غنية» أي استغناء. ولعل صحة الشطر (كانت لعيسى منه غنوة) [illegible].

(اللواء) فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٢

تحت عنوان (أسمى التهانى) نشر اللواء القصيدة الآتيـة التى بدأها الشاعر على النحو التقليدى بالنسيب والحكمة . وقد لا تجد فى هذا الشعر « معنى » جديدا ، ولكنك تجد فيه حلاوة خاصة ، حلاوة النبع الصافى .. قال :

وإن لم تأتك الدنيا بظل ... فجاوزها إلى دنيا تُظل

ومن جيد الحكمة قوله : (وليس لأمة فى الجهل شمل) . ولا يقل هـذا روعة عن (رجل مات والرجال قليل) وعن (وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت) . ولعل شوقى هو الشاعر الوحيد الذى ربط بين عبقرية العـرب فى الجاهلية والإسلام ، وعبقريتهم فى العصر الحديث برباط الحكمة . ذلك لأن الحكمة من خصائص عبقرية العرب التى تميز بهـا عن الشعر الغـربى ، فليس عند شعراء الغرب أبيـات فى الحكمة تسير أمثالا كما عنـد العرب . الحكمة باب من أبواب الشعر ، ولكنه مـن أحب الأبواب إلى كل نفس وإلى كل عصر . وإذا كانت أبواب النسيب والهجاء والفخر قـد ذهب عصرها ، فإن عصر الحكمة والحماسة والوصف (الوصف الذى لا تكلف فيه) هو كل عصر .

من روائع المصاب الذى يرفع من شأن المدح ، ويدل على أن شـوقى لم يكن مجرد مدّاح قوله يخاطب الوالى :

عزيز الشرق هـل للشرق ذكر ... مـع الأيام أم طـوى السجل ؟
وهل لبنيه مـن سماك ركن ... فركنهم ضـعيف مضمحل

فهو صرخة فى أدب جم تنعكس فيه روح الزمن وأحزانه ، وقلقه من بقاء الاستبداد الضارب بجرانه فى أرض الوطن ، وحث لهم على النهوض واستئناف صفحة جديدة فى سجل المجد .

القصـــيدة

حبيبك من تحب ومن تجل ... ومن أحببت فالأدنين أهـل
ومن يجزيك عن ودّ بـودّ ... ومالك مهجتى منح وعـدل
إذا ما الحب لم يكسبك عزا ... فكل مودّة فى الناس ختل
وفضل منك أن ترعى ودادا ... وليس لمن تودّ عليك فضل
بلوت الناس خدنا بعد خدن ... فما المـرء غير النفس خـل
وطالعت الأمور فكل صعب ... إذا لزم الرجال الصبر سهل

أذل على الخطوب إذا أذلت ... وأتركها تهون ولا أذل

وألقى النازلات بجد عزم ... يفل النازلات ولا يفل

وأسمو كل كتاب المعالي ... ولو أن السماك له محل

[illegible] ... بها المجد يهض أو يزل

وأن النفس للإنسان كل ... إذا غلبت عليه وزال كل

* * *

عرفت حقيقة الدنيا قديما ... فصبري عن محبتها وتحلو

وأن لم تزل الدنيا بظل ... يقاربها إلى دنيا تظل

[illegible] ... رأيت الناس والأيام محل

* * *

مرور الشرق هل للشرق ذكر ... مع الأيام أم طوى السجل

وهل لبنيه من مسعاك ركن ... فركنهم ضعيف مضمحل

أقل له الصنائع [illegible] ... وهل يرفع الأوطان عطل

ولم أر كالرجال مع الليالي ... إذا كثرت على البلدان قلوا

ولا كالعلم يجمع كل شمل ... وليس لأمة في الجهل شمل

ولا كالمجد ميسورا قريبا ... لشعب فيه إقدام وعقل

(شوق)

المؤيد فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٢

الكاظمى[1]

فى هـذه الأيام التى يفد فيها على مصر الكبراء والعظماء من أهل الذكر السائر، والصيت الطائرين الغربيين يحلو بى أن أجدد على صفحات المؤيد ذكر ضيف عظيم ، ونزيل كريم، يجاورنا منذ عامين وتجمعه بنا جامعتان تقتصر دونهما جامعة الأوطان : الشرق والإسلام .

قدم هـذا الفاضل مصر وكأنه ابن هانئ جاء من بغـداد ، إلى البـلاد ، يحملها موضع الإنشاد ، وملأها أدبا ثم عاد .

سخر الله له من المؤيد راوية ، لم يسخر لشاعر فى العصور الخالية ، فما ألقى عصاه حتى أخذت هذه الصحيفة تجلو لنا شعره ، مديحه وفخره سلافة وسحر فإذا نحن بحكمة أبى الطيب ، وبالوليد ينسب ، وابن أبى ربيعة يشبب ، وابن زريق يشتاق إلى الأهل والبـلاد ، ويحن إلى قوله فى بغداد ، لفظ سهل ومعنى مبتكر وصوغ كما تصاغ الدرر ، وقصائد لا يمل منهـا طول ولا ينفر لقائلهـا قصر ، وارتجـال فى بعض الأحايين يدنى الشاعر إلى جيد الشـعر ولا ينزل به إلى رديئه ، و بالجملة فقد طالمـا سمعت "بالشاعر المطبوع" فلمـا قرأت شعر هذا الأديب انطبعت صورته فيـه لعينى ، وتمثلت فى خاطرى . عرفت الرجل فيمن عرفه فوجدته شاعرا أديبا ، يفيض شعره رقـة وتهذيبا ، وصديقا تدوم مودته ، وجليسا لا يمل حديثه ، وراوية لم أر أحسن منه اختيارا ، ولا أشد منه غيرة على أشياء الغير ، ورجلا كثير التجارب طويل الأسفار، إذا وصف لك البلدان ورد بك مصر وصدر عن مصر .

أما مثل سلطان الشعر على هذا الشاعر فإنى ما سمعت ولا رأيت فهو كما يمثله أصدقاؤه من قراء هـذه السطور نظرته شعر ، ومنطقه شعر ، وجلسته شعر ، وضحكته شعر ، ومشيته شعر ، وهو فى كل ذلك يحبب إلى النفس الشعر ، وناهيك بروح الشاعر إذا لطفت ، ونفس الأديب إذا خفت تدفعه إلى الإنشاء فيغضى حياء وينكمش فى ثيابه حتى إذا اندفع تغنى على طريقة أهـل تلك البلاد فى الإنشاد لكل وزن عنده مقـام ، ولكل باب من أبواب الشعر نغمة ، ولكل قافيـة رنة ، إذا ذكر الحبيب والمنزل والسـنين الخوالى كان قيس عامر رقة ونحولا ، وهيـاما وذهولا ، وأنينـا طويلا حتى إذا جلد نحرج إلى الفخر ودخل فى نمر من الحماسة ، فإذا أنت بعنترة ، بين عبلة وأهل عبـلة ، يصف أيامه المشهورة ويذكر مواقفه

(١) نشرنا هذا المقال لأهميته من ناحية التاريخ الأدبى فقط .

[illegible] ، وهو أخص الشعراء بالنظر في شعره وأبعدهم عنه في حديثه ، يفر من الثناء ولا يتعالى على [illegible] ، ولا يأخذ الشهرة غصبا ، ولا يزهى ولا يتكبر ، ولا يحسد ولا يحقد ولا يغضب [illegible] وهكذا يغنى الشاعر والأديب .

[illegible] الشيخ عبد المحسن الكاظمي [illegible] في الغربة تحمل له أنفاس الأدب [illegible] أن هذا النزيل الكريم يذهب اليوم [illegible] تلقيه وتشوه ، غير حسنات [illegible] ، وإن [illegible] الشيخ عبد المحسن [illegible] فيها جماعة الفضل والآداب عن [illegible] يطلب إلا ديوانه ليطبعه [illegible] [illegible] على الأيام . (شوقى)

[illegible] علينا أن ننشر هنا ما كتبه الأستاذ [illegible] في مقدمة الجمرة الثانية من ديوان الكاظمي (١٩٤٨) : « عرفت الشيخ عبد المحسن في إدارة (المؤيد) لأول عهدى [illegible] إلا مرة سواى ، وكان ذلك بعد وفاة [illegible] كان يشهده في آخر كل شهر [illegible] أن ينشر عنا في الملاحق أحد [illegible] في أن يكون له مرتب شهرى [illegible] المؤيد فكان الشيخ [illegible] ، إلا الربح له من مال [illegible] ، وكنت أتعجب من الشيخ عبد المحسن إلى الديوان فيطبعها .

[illegible] في كل مرة يظهر الناظر من [illegible] بنفسه وطورا بواسطة — [illegible] رأيت شعره مطبوعا ، ولما أصاب الشيخ الكاظمي إلى الإمام [illegible] كان قط [illegible] [illegible] عن رحمة [illegible] ، لكنها كما

والقيون وقفة الإيجاس ، من حالة الخديوى عباس . ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعا ، فكلفنى أن آخذ من الشيخ على وعدا بإنجاز المسألة مع الخديوى ، إما سلبا يريح النفس ، أو إيجابا يزيح الغلة ، فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير ، ودخلت على الشيخ على ، وبيده الرسالة ، وكان يصحح مقالة للطبع ، فترك القلم من يده ، وتنفس الصعداء ، ثم قال : ماذا أصنع يا أستاذ ؟ أنهيت القضية أمس مع الخديوى ، ووعد وعدا أكيدا بإصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له وخرجت من عنده ، لكننى لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس (ولم يسمه لى) فقال للخديوى : رأيت فلانا خارجا من عندك ، فماذا يبغى ؟ قال : قررنا راتبا للشيخ عبد المحسن الكاظمى . قال : أنسيت أنه شاعر المتقى ، وقد قال فيه من الشعر كذا وعرض فيك بكذا وكذا ؟ قال الشيخ على : فما كان من الخديوى إلا النشح بالمدة ، والنكول عن وعده ، فلما وعيت هذا رجعت إلى الشيخ الكاظمى ، فأنبأته الخبر ، فتأثر جد التأثر وقال أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا فقال : هو أحمد شوقى » .

ونضيف إلى ما تقدم أنه يبدو من مقال شوقى أن الكاظمى كان يفكر فى الرحيل من مصر فى سنة ١٩٠٢ بعد إقامة دامت حوالى السنتين ، ولعل الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية بدأ من تلك السنة يصرف له راتبه الشهرى حتى موته فى سنة ١٩٠٥ . روى (الجاحظ) فى عدد مجلة الرسالة الصادر فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤٧ : « قص علينا حافظ إبراهيم كيف جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى إلى مصر غريبا طريدا فحب أن يكون له فى رحاب الخديوى متسعا ، ولكن شوقى خشى منافسة الشاعر العراقى فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، ووجد السيد عبد المحسن فى الأستاذ الإمام حمى ولكن الحمام لم يمهل الأستاذ الإمام ، وهنا تهدج صوت حافظ ، ودمعت عيناه ولم يستطع أن يتم الحديث » .

وقد نشرت للكاظمى قصيدة غير مؤرخة (المجموعة الثانية ص ١٢٣) كان بعث بها إلى شوقى ، جاء فيها :

تعالى الله ما صورك الله وكم صور

فلهفى لك من هاد غواه الدهر فاستكبر

وأوّاه لمن أسلم ثم ارتد فاستنصر

لقد كنت أرجيه ليوم فى الورى يذكر

وكنت أخال زند الخيـ ل فى الغايات لا يعثر

إذا بالسابق الكرا ر ما إن كر حتى فر

عام الكف

نوفمبر سنة ١٩٠٢

في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٦ نشرت مجلة (مصر الحديثة المصورة) فصلا لأديب كبير عاصر مؤسسي نهضتنا الأدبية تحت عنوان (من لطائف الماضي الدفينة . صفحة يصاب بها المويلحي تشغل الشعراء عاما كاملا سمي عام الكف)[1] جاء فيه :

" كان المويلحيان الكبير والصغير طليعة كتاب العصر .. حتى لقد سمعت شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يوما وهو جالس على « فروته » أمام باب الرواق العباسي كعادته قبل غروب كل يوم استعدادا لتلك الدروس القيمة التي كان يلقيها علينا يقول إن إبراهيم المويلحي هو جاحظ العصر وصاحب مصر الأوحد . وكان المويلحي الكبير — يظاهره المويلحي الصغير — يخرج صحيفة أسبوعية هي صحيفة « مصباح الشرق » وكانت تطلع علينا كل يوم خميس وكنت أقيم أنا والمرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي في بيت (عم أسعد) بحكر الزعفراني بالقرب من مسجد سيدنا الحسين . وفي عصر كل خميس كنا نذهب إلى العتبة لنشتري مصباح الشرق " .

" وفي عام ١٩٠٢ في ذلك المقهى الخان الخليلي جاءنا إمام العبد كعادته وقص علينا حادث « دراكتوس » ... وقد رأينا بعد رواية إمام العبد بيومين في محليات المؤيد نبذة تناول فيها هذا الحادث بالغمز واللمز . ثم ما عتم شيخ المؤيد أن فتح هذا الباب « عام الكف » حتى انهالت عليه بدائع القرائح قرائح الكتاب والشعراء الذين افتنوا في هذا المعنى افتنانا ، وغاصوا على كل معنى بديع حتى استخرجوا لنا من در الشعر ألوانا ، وأنسونا بذلك ما قيل في طيلسان ابن حرب ومداس ابن القاسم وما إليهما ونحن هنا لا نستطيع إثبات جميع ما قيل وإنما نثبت ما يقع عليه الاختيار : قال شاعر من الصعيد ... وقال غيره ... وقال شاعر على لسان المصفوع وقال شاعر آخر يغبط .. وقال الكاظمي (!) .. ونكتفي بهذا " .

وعجيب من أديب كبير عاصر مؤسسي نهضتنا الأدبية وصديق للمنفلوطي أن ينشر مقطوعات الشعراء التي اختارها بأسمائها المستعارة دون أن يحاول الكشف عن أسماء أولئك الذين « غاصوا على كل معنى بديع حتى استخرجوا لنا من در الشعر ألوانا » . ويظهر من

---

(١) إنها لم تشغل الشعراء إلا شهرا واحدا هو شهر نوفمبر . ولكن المبالغة لأهميتها سمي العام بها .

قوله « وقال الكاظمى » أنه لم يفهم أن هذا إسم مستعار نسبة إلى « كاظم فاضل » أحد الذين اعتدوا بالسب على محمد المويلحى بعد الصفعة التى نالها على يد ابن أحمد باشا نشأت . وليس المقصود الكاظمى الشاعر .

ونشر الأستاذ محمد سيد كيلانى فى مجلة الرسالة عدد ١٨ سبتمبر سنة ١٩٥٠ فصلا جاء فيه : "حانة (دراكتوس) كانت مجمعا للأدباء والوجهاء فى كل مساء . وكانت بين محمد بك المويلحى صاحب (مصباح الشرق) وبين الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) عداوة شديدة . حدث ذات ليلة من ليالى أكتوبر سنة ١٩٠٢ بينما كان المويلحى جالسا أن دخل شاب من أبناء الأغنياء اسمه محمد نشأت فداعبه المويلحى كعادته فما كان من هذا الشاب إلا أن رفع يده وهوى بها على خدّ المويلحى . فانتهز صاحب (المؤيد) هذه الفرصة وفتح بابا فى جريدته سماه «عام الكف» فتسابق الشعراء فى نظم المقطوعات التى تفيض بالسخرية على أن أبلغ ما قيل فى الموضوع تلك المقطوعات التى نشرها تباعا فى (المؤيد) الشاعر الكبير إسماعيل صبرى مثال ذلك قوله . . الخ " .

والواقع أن إسماعيل صبرى نشر مقطوعاته كغيره من الشعراء بإمضاءات مستعارة متعقدة ، فلما صدر ديوانه فى سنة ١٩٣٨ كان من حسنات ناشره أن أبان لنا عن مقطوعات إسماعيل صبرى ونسبها الصحيح . وكان يجب على الأستاذ الكيلانى أن يذكر المصدر الذى نقل عنه خصوصا وأن إسماعيل صبرى من بين شعراء عام الكف ، هو الشاعر الوحيد الذى عرفت شخصيته .

وقد أشار الأستاذ عبد العزيز البشرى إلى هذا الحادث فى فصل كتبه عن محمد المويلحى فى الجزء الأول من كتاب (المختار ١٩٣٥) جاء فيه : "تتابعت السنون وخلص (المصباح) إلى محمد ، ثم امتحنه القدر بحادث اعتداء من بعض أبناء الذوات فى إحدى القهوات ، وانتهى الخبر إلى المرحوم الشيخ على يوسف وكان فى صدره موجدة شديدة على محمد وعلى أبيه فانتهز الفرصة وروى الحادثة فى صورة مهولة . واستدرج الكتاب والشعراء للقول فيها وفسح لهذا فى المؤيد مكانا عريضا . ومن ذا الذى لم يكن موتورا من المويلحى ؟ وتثور العاصفة ، ويشتد البأس ، وأذن النفير العام ، وشد الجميع على قلب رجل واحد . وهل كان من المستطاع أن يصمد لهذا الجيش اللجب رجل واحد ؟ لم يستطع المويلحى أن يثبت فى الميدان ، فأطفأ

(المصباح)[1] واتصل إلى داره واحتجب ولكن في انتظار الثأر ورى الغلة بالانتقام . ولقد تم للمويلحي من هذا بعض ما أراد أو كل ما أراده ، فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ [illegible] أيام حادث الزوجية [illegible] في جريدة (الظاهر) بابا مثل ذلك [illegible]

وكتب [illegible] في جريدة ([illegible] الشرق) بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢ [illegible] طول الأسبوع بالكتابة في حادثة [illegible] الشهودين بالذكاء والبلاغة [illegible] مع [illegible] الأسبوعية المشهور بحسن الكتابة والتوقيع [illegible] على قفاه . ولا صحة لما قيل من [illegible] رحب بالضارب عند [illegible] ، فلم يكن من هذا إلا أن قبل به [illegible] . [illegible] يضيق المقام عن نقله لطوله . .

[illegible] . . أنا محمد المويلحي [illegible] [illegible] كنت في دكان [illegible] يوم السبت ٢٥ شهر أكتوبر مع جماعة من [illegible] جالس [illegible] فقال لي « بونسوار مويلحي » [illegible] الكلمة التي يطلقها عليه أصحابه بالفرنسية Petit Intrigant فما كان منه إلا أن ضربني بكفه على وجهي فلم أتحرك من مكاني ولم تتغير جلستي وقلت له « ما زدت أن فعلت ما يمكن لأي حمار في الطريق [illegible] ويعرفونه . ثم خرج فغاب برهة وجاء من ورائه كاظم [illegible] ومن ورائهما جماعة من الأروام فتقدم كاظم بك نحوى وأخذ يشتم ويسب ويهدد باللغة الفرنسية ويقول « قد نشرت في جريدتك بأني أخذت [illegible] الأمية [illegible] من الانتقام منك بأعظم مما وقع لك [illegible] وأشار على الحاضرون بالخروج من

(١) [illegible] (الظاهر) [illegible] أبيات لحافظ إبراهيم يخاطب محمد المويلحي . وهذه [illegible]

[illegible] المصباح [illegible] أظلم الهوى والقلب

[illegible] الشيخ [illegible] القتل .

المكان فقلت أنا لا اضرب ولا أهرب . ثم انصرف المعتدون بعد ذلك إلى سبيلهم . هذه حقيقة الحادثة ذكرناها لمن يطلع عليها فماذا يعيب العائبون علينا " . ثم روى المويلحى بعض الحوادث المماثلة قال : " كان المغفور له إسماعيل باشا الخديوى الأسبق سائرا فى ساحة (باليه رويال) فى باريس فاعترضه دومينيكو الإيطالى وضربه بالكف على وجهه فوسعه حلمه ومنع من كان معه أن يتعرضوا له بسوء . . . " . انتهى .

* * *

كانت المقطوعات التى نشرها المؤيد فى اثنى عشر عددا كلها بأسماء مستعارة . ولئن كتب الكثيرون عن (عام الكف) ولكن أحدا ، كما قلنا ، لم يعن بمعرفة أسماء الشعراء الذين نظموا هذه المقطوعات .

قال أحمد الزين ، صفحة ٩٤ من ديوان إسماعيل صبرى الذى نشر سنة ١٩٣٧ ، تحت عنوان (الفكاهات . عام الكف) : « نشرت هذه المقطوعات الاثنتا عشرة بأسماء مستعارة فى المؤيد سنة ١٩٠٢ تعريضا باللطمة التى حدثت لمحمد المويلحى بك . . . » .

وبالرجوع الى المؤيد وجدنا مقطوعات صبرى التى كشف عنها الديوان موقعة بثلاثة أسماء مستعارة هى (صبحى ، وإسحاق ، وإسحاق صبحى) . وفى اعتقادنا أن (دراكتوس) هو الاسم المستعار الأول الذى اتخذه شوقى لنفسه . لأن شوقى وصبرى فرسا رهان فى ذلك الميدان ، ومن غير معقول أن يترك شوقى صبرى يجلى وحده فيه ، خصوصا وأنه كان يحقد على محمد المويلحى ويتربص فرصة الإيقاع به بسبب نقده (الشوقيات) فى (مصباح الشرق) عند ظهورها فى سنة ١٩٠٠ . ومعروف أن شوقى كان يتألم كثيرا من النقد . روى لى أحمد محفوظ أنه كان يكره ابراهيم اليازجى ويقول إنه متعصب ومنشأ هذه الكراهية فى اعتقادنا هو بلا شك نقده رواية عذراء الهند فى مجلة (البيان) ، فى سنة ١٨٩٧ . كان عام (الكف) فرصة ثمينة لشوقى لشفاء غليله من خصمه ، ويلاحظ أن اسماعيل صبرى (الصبحى) لم يشترك فى الحملة إلا ابتداء من الحلقة (٤) لذلك نرجح أن شوقى هو الذى بدأ الحملة وشنها ثائرا بمفرده فى الحلقات الثلاث الأولى .

لذلك سنعيد نشر معظم شعر صبرى مع الشعر الذى نعتقد أنه لشوقى بنفس الترتيب الذى اتبعه المؤيد : —

---

(٤) كان شوقى يزوم هذه الحانة قبل مقتله .

(المؤيد) في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٢

عام الكف

دعونا عامنا العام بعام الكف كما قال محرر مصباح الشرق (عام عمر) و (عام الخفين) لما دار بين أهل العلم والأدب في صرف وعدم صرف ، وفي وصف الخفين اللذين كان يلبسهما النبي صلى الله عليه وسلم وطالت المناقشة فيهما [1] .

قال أحد الشعراء في وصف تلك الكف وقد أحسن ما شاء :

رنة الكف فوق خدك أشهى   عند قومي من رنة الأوتار

إن كفا كفت أذاك عن الناس   لكف خليقة بالفخار

---

(1) نشرت مجلة (مصر الحديثة المصورة) في عدد ٩ يناير ١٩٣٠ لذلك " الأديب الكبير الذي عاصر مؤسس نهضتنا الأدبية " فصلا آخر تحت عنوان (الشنقيطي وعام عمر وعام الخف) جاء فيه : كان الشنقيطي رحمه الله نادرة في الحفظ والاستظهار . وكان آية في اللغة والشعر والأمثال والحديث وعلم الأنساب ... لما قدم القاهرة ونزل على السيد البكري اتفق ذلك يوم عيد . فجاء إلى السيد جماعة من العلماء يعيدون عليه وفيهم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك والشيخ عبد القادر الرافعي [illegible] ذلك . فلما اطمأن بهم المجلس أراد الشيخ الرافعي أن يداعبه أو يحرك بينه وبين الشيخ سليم ، وكانت بحركة من لباس . فقال : لقد تغيرت بعدنا إذ تلبس الخف الأسود فقال الشيخ البشري لقد أجمع على كراهة لبس الخف الأسود . فقال الشنقيطي : ثبت في الصحيح أن النجاشي أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفين فلبسهما ومسح عليهما فما لونهما ؟ فقال البشري : لا أدري . فقال الشنقيطي : فهل لك تدعي الإجماع ثم تقول لا أدري ؟ فسكت الجميع وكان في المجلس أحد الأفندية فقال للشنقيطي : أفتنا إذن يا مولاي عن لون الخفين المذكورين فقال سله العوام فليقوه من هناك ... وعلى ذلك انفض المجلس ثم أراهم بعد ذلك كتاب الشمائل : وأن الخفين كانا أسودين ، فلما بلغ ذلك الشيخ البشري قال إن في رواته ضعيفين فهو غير مقبول ووضع في ذلك رسالة . فلما اتصل ذلك بالشنقيطي قال ما معناه : إن الضعيف لا يرد إلا بما هو أصح منه والشيخ البشري أضعف منهما . فما كان بعد ذلك إلا أن فتحت جريدة (مصباح الشرق) بين محلياتها بابا أسمته «عام الخف» وكان في عام الخف مبارزة بين الأدباء كما كان في عام الكف .

"وأما مسألة عمر وعامها فذلك أن النحاة أجمعوا على أن عمر ممنوع من الصرف فجاء الشنقيطي وأثار غبار هذه المسألة من جديد وغلط جميع النحاة في ذهابهم إلى منع صرف عمر وأولهم سيبويه إمام النحاة وقال هو : إن عمر مصروف وربما ورد منه في الشعر ممنوعا من الصرف فإنما ذلك للضرورة ... فانبرى له علماء الأزهر يسفهونه ... وأخذ هو الآخر يرد عليهم ويؤيد نظريته بكل وجه وطال الأمر بينه وبين العلماء وفتح لها (مصباح الشرق) بابا سماه «عام عمر» فكانت هذه المسألة فتنة أي فتنة وسارت إذ ذاك مسائر الأمثال" .

المؤيد فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

عام الكف

٢

عرض محرر الصباح فى عدده الأخير بذكر المرحوم والد الصافع فرأينا أن نعرض اليوم بذكر المرحوم والد المصفوع . قال أحد الشعراء يخاطب المصفوع :

ورثت الحلم عن خل كريم ... فقيك الحلم عند الصفع عادة
وشأنك بيننا فى أرض مصر ... كشأن أبيك فى دار السعادة

« وقد أشار الشاعر بذلك إلى ما كان من أمر والده بالإستانة وما لحق به من الإهانة[1] » .

المؤيد فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٢

عام الكف

٣

قال أحد الشعراء وقد رمز لنفسه بحرف (ن) يخاطب المصفوع :

أمحمد فرغت حقيبتك التى ... أخرجت منها قول كل حكيم
فإذا لطمت بألف كف لم تجد ... للفخر قولا يا ابن إبراهيم

وقال أحد الشعراء على لسان المصفوع :

لقد نقل الراوون عنى حكاية ... وقالوا كلاما ما أشد وأشاما
أيصفع مثلى ناشئ ويراعتى ... أسالت دموع القوم فى مصر عندما
ألا اعتذروا لى عنده فأنا الذى ... صفعت بصدغى كفه فتألما

وقال شاعر عصره واعظا :

لا تدخل الحانات مستهترا ... فالصفع فى الحانات ساق يطوف
فرب كف خلقت أسطرا ... فى الوجه لا تمحى بعذر الحروف

---

(١) صحب الخديوى عباس فى سفره إلى الاستانة فى صيف سنة ٩٣ نفر من كبار المصريين للطالبة بتأييد السلطان لأمانى المصريين الخاصة بإنهاء الاحتلال . وكان إبراهيم المويلحى وقتئذ فى الاستانة فأرسل إلى المقطم رسالة يكشف فيها عن مطالب المصريين ... فكانت هذه الدسيسة فى جريدة الاحتلال سببا فى حنق المصريين على المويلحى .

[illegible]

[illegible] ... على القلب المكلوم قد زاد حدّه
[illegible] ... محمد ابراهيم صبحي حمده (١٣٣٠)

[illegible]

[illegible] ... وقفت بسوادر المحزونينا
[illegible] ... لا يجد المؤازر والمعينا
[illegible] ... لتعوض به خسار الصافينا
[illegible] ... رأيتهم أمامك هاربينا
[illegible] ... أنلم الكاتب ابن الكاتبينا
[illegible] ... على المشوب كأس الثاكلينا
وربما كان السلاح لشكلى ... من أرقام كف الضاربينا (٢)

(المؤيد) في ٢٣ فبراير ١٩٠٢

عام الكف

•

قال شاعر الاسكندرية وقد جاء منها قاصداً رؤية المصنوع في البار فلم يعثر به :

في [illegible] ... بالقرات فلا أراك
أحسبت أن تعرفهم ... باتت تسير إلى قفاك

[illegible]

(٢) [illegible] ([illegible]) في [illegible] (٣) من عام الكف :

الا [illegible] ... [illegible] كفه فالما

[illegible] كانت أربع »

وقال الشاعر (الصبحى) :

الحماسة العصرية

يقول (الأب) :

هبا وهباك لى أثر جيد   يشرفنى إذا أنا ما اتقيت

بهشت الناس أعراضا ومالا   ونلت من البرية ما اشتهيت

وكم صفع الجرىء أديم وجهى   فاخشنت الهوان وما آرعويت

أأترك لذة الفتن احتياطا   وأطمرها وفى المصباح زيت

فيجيبه (الابن) :

أنا فرع الأول نموا شباء   يرى النسر فوق داره بيت

أرش ياعتى بعد الله خبث   وأنى لاح لى هدف رميت

وإنه أسد تعرض لى بسوء   وقفت وراء صدغى واختفيت

(الكشكول) فى ٢٤ نوفمبر ١٩٠٢

عام الكف

٧

المناجاة . يقول الأب مطرقا :

لى خلال مخلة   بالمروءات والوفا

رب حب لى فيض ما   بان منى وما اختفى

يا عمادى وعدتى   يوم لا ينفع القفا

ويقول (الابن) واقفا وجهه إلى السماء :

إلهى أنا من ذنوبى تائب   ومن فعل المقوت يارب خائف

فلا تجعل اللهم صدغى صحيفتى   إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

(صبحى)[1]

وقال صديق المصفوع يعتذر له على لسانه :

عجبوا من المصفوع كيف تجمعت   كل البلادة عند شخص واحد

لا تعجبوا فالله صور وجهه   من جلمد أو من فلاذ جامد

جمع الجمودة والبرودة صنعه   فالناس تضرب فى حديد بارد

---

(١) صبحى كالصبحى كناية عن إسماعيل صبرى .

[illegible] ١٩٤٠

عام الكف

٨

الأسلحة الجديدة

[illegible] من صدغ إبراهيم يوم الكفاح
[illegible] فهاك صدغ لا يحب المزاح
[illegible] ملمست حيا لا أهاب السلاح

(إسحاق)[1]

[illegible] ملفقا مثل طيلسان ابن حرب
أنت [illegible] وحوى منه معمعان حرب وضرب

(صبحي)

يا [illegible] ـل وسباب الخليفة
[illegible] ـهم على تلك الصحيفة

(أ . م)

يا باذلا وجنتيه إن كنت للغيظ كاظم
بنلت [illegible] مجد بمجد (لكاظم)

(الكاظمي)

أرتصوه قولهم فيلسوف حين غنت على قفاه الكفوف
كاتب الشرق ماله من جزاء غير صفع السقاة حين تطوف
وله السبك حين ينشي وما يسـ ـبك مما يخط إلا الحروف
كنت في بيانه كل دعوى هو في الناس سارق معروف

(البديع)

ما هذه الكف التي قد كفت ونالها من نال بالراحه
كانت يدا بيضاء لكنها قد أفقدت مصفوعها الراحه
سـ[illegible] أرتك أن [illegible] يحرق مصباحه

(١) إسحاق، وإسحاق صبحي، وصبحي، والصبحي كلها أسماء مستعارة لشاعر واحد (إسماعيل صبري).

***

لك خدّ كأنه قطعة الجلـ ـمـد ثقلا فمن تراه استخفه
كلفوا صافعا به وهو لا يد رى لذا راح صافعا كفه

(هرا كتوس)

قل للأولى جعلوا القريض وسيلة يتناظرون به مع المصباح
لا تعجبوا من راحة صفعت قفى مثلى فتلك مغرم بالراح

(عدو الوالد لا الولد)

كتّاب مصر اثنان فى آرائنا وعند حسن الرأى تجلى المعمعه
فكاتب يقام إجلالا له وكاتب لا نستحى أن نصفعه

(القلم)

(المؤيد) فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢

عام الكف

٩

قفاك محمدُ نعم السلاح إذا التف بالعسكر العسكر
وصدغك إن نقر النافرون عليه يرن ولا يكسر

(صبحى)

النصيحة

يا ابن الأولى وبحت أحلامهم وربت إذ الأكف مجانين مهاويس
لا تدخل الحان والصفاع ثائرة حتى تقام حواليك المتاريس
وقل لصدغك يستقبل وفودهم بالباب : إنهم قوم مناحيس

(إسحاق)

وقال شاعر أزهرى على لسان المصفوع يواسيه ويسليه :

قد صفعناك صفعة ليس يمحى لها أثر
هذه الكف مبتدا ولدى غيرنا الخبر

[illegible]

[illegible] عام الكف

[illegible] [illegible] على قفاه
[illegible] الكلام على هواه
[illegible] أبناه

(الفارسي)

[illegible] بالنقد والناقد
[illegible] حضرة الوالد

[illegible] رأيه بها
[illegible] ذوق من يشتريها (١)

(ولادة)

[illegible] حتى الغد نبات
في أنفه الأقلام قد زرعت — لكنها في [illegible] نشأت

[illegible]

[illegible] ([illegible]) إذ جمعت — [illegible] من صفعه وردا لقحلح
[illegible] من رأس [illegible] — في المسافة بين الماء والراح

(١) [illegible] ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن [illegible] المعروف ، وهما :

[illegible] بها
[illegible]

[illegible] (ولادة) [illegible] . وأنه ليس [illegible] من الأسماء [illegible] ([illegible]) و ([illegible]) و ([illegible]) [illegible]

***

رأى وجهه باردا جامدا فراح يسنّ عليه الجلم[1]
ولو كان صانعه منصفا بصيرا لقط عليه (القلم)

***

رآك تحب السجع حتى تظنه هو الحسن لا ماجاء من جودة الطبع
فثقّل من صفع بسجع وما درى بأن أجل السجع ماخف فى السمع

***

رأى قفاك الذى رآه سهلا وما كان بالممتّنع
فبات (ينشى) وبت تملى وهو (يقفّى) وأنت تسجع

***

لقد صفعوه صفعة جل شأنها وأعيا على حذق الطبيب علاجها
ولو أتبعوا صفعا بصفع لأحسنوا (وزان اللآلى فى النحور ازدواجها)

(دراكتوس)

(المؤيد) فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٢

عام الكف

١١

هى صفعة سر الصحافة وقعها وربما بيان مثلها وبديع
كانت تؤملها البلاد ليرعوى غِر ويعرف قدره المخدوع
عظمت على من نالها فكأنه من كف كل أخى نهى مصفوع

***

هى صفعة لهج الأنام بذكرها ودرى البعيد بها ومن لم يعلم
قد بالغ الأدباء فى أوصافها ما بين منثور وبين منظم
فغدا قفاك يقول منذ هلالم[2] (هل غادر الشعراء من متردّم)

(١) الجلم: المقراض. (٢) لعلها: منذ خلا لم.

* * *

قد كنت لاشىء فى الأنام لكى تصفع من صانع وإن عدلا
فذاك ما كان ضاربا رجلا لكنه راح ضاربا مثلا [1]

* * *

توليت الصحافة فاستكانت لما أرخصتها بيعا وسوما
وقد أبكيتها دهرا طويلا فلا تحزن إذا أبكاك يوما

(دراكتوس)

يرى كاتب المصباح فى الصفع لذة وليس سواه من يرى صفعه نفعا
أديب له حسن اجتناس طبيعة يزيدك صفحا كلما زدته صفعا

(صافح لا صافع)

(المؤيد) فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٢

عام الكف

١٢

قال شاعر مجيد فى الصعيد :

لى سؤال يا أهل مصر فردوا بجواب عن السؤال مفيد
أى كف قد باشرت صفع خد فسمعنا دويها فى الصعيد

وقال أيضا :

بين أهل الصعيد شاع حديث وهو أن المويلحى صفعوه
ليت شعرى وليتنى كنت أدرى ساعة الصفع أين كان أبوه

وقال مؤرخا :

أمحمد لا تحسبن الـ ـصفع لم يصغ إليه
فلقد أتى التاريخ خد ك فوقع الكف عليه

وقال أيضا :

ولقد ظننتك يا محمد فى فن الكتابة حاذقا فهما
وطفقت أسأل كل ذى ثقة حتى نظرت بصدغك (القلما)

---

(١) لشوقى طعنات خاطفة ولكنها نافذه .

وقال صاحب الإمضاء :

رأى خدك الفنان أشهى من المنى ... فمال إليه ميل صب مولع
وما كان ممن يصفع الخد كفه ... ولكن من ينظر خدودك يصفع

(دراكتوس)

سموه عام الكف وهو الذى ... يؤخذ من معناه أن قد كفى
ما هو عام الكف لو أنصفوا ... لكنه بالحق عام القفا

(مصحح)

رأيت جمادات الثرى ونباته ... وكل خسيس دب فوق أديم
فلم أر أهلا للهانة والأذى ... كصدغ لئيم الدهر وابن لئيم

الخاتمة :

صرت أرجو بأن تكون المرجى ... وبأن يبدل الهجا لك مدحا
تلك كف قد اكتفت واكتفينا ... فرأينا أن نعقب الصفع صفحا

(دراكتوس)

وقال أديب فاضل :

صفعنا روحه بيد المعانى ... فألفينا لها صبرا جميلا
ومن طلب الإقالة من شجاع ... وأشفق من مضاربه أقيلا

* * *

وقال شفيع ضمين :

* أقسم بعد اليوم أن يتوبا *
* فأذن لعام الكف أن يغيبا *
* فلن تراه بعدها لعوبا *
* ولا أخا هجو ولا كذوبا *
* وارحم فتى أوشك أن يذوبا *
* أمسى حزينا حائرا مضروبا *
* فإنه إن عاود الذنوبا *
* أخلق بهذا العام أن نؤوبا *

استرحام (لصاحب المؤيد) :

يقول المنفوع واقفا :

أيها المولى الذى عودنا   حكمة الرفق بحال البائسين
إن شهر الصوم قد حل ففز   فيه بالأجر وشكر الشاكرين
قد كفانى كل ما قد حل بى   فاعف عنى يا أبر القادرين

ويقول (عالم مصر الأدبى)[1] :

ابن إبراهيم طب إنا وإن   قد أذقناك جزاء الظالمين
لكرام الناس غضبتنا رقة   عن أذى منك طبع الكاظمين
إن هذا الشهر شهر يحتفى   فيه أمثالك صفح الصافحين
قد عرفنا آية الكهف وما   نحن نتلو اليوم آى الراحمين
فالزم العرف تعش فى ظلنا   فى عداد الكاتبين المكرمين
واسكب الخير وقبله ترضنا   واغتنم رضى إله العالمين

(إسحاق صبحى)

---

(١) يريد صاحب اللواء .

(اللواء) فى ٨ يناير سنة ١٩٠٢

من «تهنئة بعيد الجلوس»

جئتنا بالشعور والأحداق ... وقسمن الحظوظ فى العشاق

حبذا القسم فى المحبين قسمى ... لو يلاقون فى الهوى ما ألاق

حيلتى فى الهوى وما آتمنى ... حيلة الأذكياء فى الأرزاق(١)

لو يجازى المحب عن فرط شوق ... لجزيت الكثير عن أشواق

وفتاة ما زادها فى غريب الـ ... ـحسن إلا غرائب الأخلاق

ذقت منها حلوا ومرا وكانت ... لذة العشق فى اختلاف المذاق

ضربت موعدا فلما التقينا ... جانبتنى تقول فيم التلاق

قلت ما هكذا المواثيق قالت ... ليس للغانيات من ميثاق(٢)

عطفتها نحافتى وشجاها ... شافع بادر من الآماق

---

(١) فى هذا البيت معنى جليل وحكمة من روائع القول .

(٢) نظر شوقى فى هذا البيت إلى قول من قال :

وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

(اللواء) فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٢

احتفال الخـــزان

أو سـد أسوان

نشرت (اللواء) قصيدة « شاعر النيل » فى حفلة الخزان التى كانت « أكبر الحفلات التى شاهدها المصريون فى هذا العصر على ضفاف النيل » . ونشرت (مجلة المجلات العربية) القصيدة فى عدد نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٠٢ ووصفت الاحتفال الذى جرى فى العاشر من ديسمبر قالت : « جاء إلى مصر خصيصا على دعوة الخديوى سمو الدوق دى كونوت شقيق جلالة الملك إدوارد السابع والدوقة قرينته وحضرا الاحتفال مع الغازى مختار باشا والقناصل والنظار » — ونشرت (المؤيد) القصيدة فى يوم ١٨ ديسمبر ١٩٠٢ تحت عنوان (آية الخزان) ومهدت للقصيدة بقولها :

" أنشأ نابغة الأدب فى مصر قصيدة غراء يصف بها حفلة الخزان وما لها من جمال . والبناء وما له من عظمة وجلال . والنيل وكيف كان طليقا ثم أسر . ومجد مصر كيف كان شامخا ثم دثر . واختتمها بهذين البيتين مخاطبا رفات المصريين القدماء :

يا أمـة بلغت فى المجد غايتـه ... وقصر الناس فيه عن مساعيها

قوموا الغداة انظروا هذى مآثركم ... هـل فى مآثرهم شىء يضاهيها

فكانا بيت قصيده . بل آية الخزان البالغة التى قد تخلد بخلوده وربمـا كانت الأثر بعد العين على ممر الأحقاب الطوال . وفناء الأجيال بعد الأجيال " :

أعيـاد عزك للدنيا مجاليها ... وللأحاديث عاليها وغاليها

وللـبرية منها ما تسـر به ... وللرعيـة ما يرضى أمانيها

وللسـعود غدو فى صباحها ... ولليـامن مسرى فى لياليها

وللمـالك حظ فى مفاخرها ... وللـملوك نصيب من معانيها

لمصر (غليوم) فيهـا من يمثله ... وذات (إدورد) فيها من يحاكيها

ما للمـالك لا يأتى أكابرها ... لصاحب النيـل أو يسعى أهاليها

أليس من جل الدنيا أبوته ... وقصرت عن معاليهـم مواليها

العصر يعلـم والأحياء ما بلغت ... بعصر أيام (إسماعيل) تنويهـا

ضافته بلقيس حين الدهر خادمها ... فى ملكها والليالى من جواريها (١)
وجاءه المالكون الصِّيد فى سفن ... ألقت على الساحة الكبرى مراسيها
تُقِل كل كبير الملك مقتدر ... تعزّ آيته الدنيا وتعليها
منًى كبار وآمال محببة ... خابت ولم يلق غير اللوم راجيها
والناس من تقعد الدنيا به قعدوا ... سجية المرء فى الدنيا يجاريها

***

بنيت فوق عريض اليم قنطرة ... ما كان فرعون ذو الأوتاد يبنيها
شماء قاهرة فوق المياه فلا ... تجرى وتذهب إلا ما توليها
طلعت والشمس فى أبهى مواكبها ... وموكب الملك ذو الأنوار يزريها
كما تطلّع يوما فى ركائبه ... رمسيس تدفعه الأيدى وتزجيها
أجلِل ركبا من الأقمار كافلة ... تبدو النجوم حواليها تساريها (٢)
لا تنثنى عن محياك القلوب هوى ... إن عارض الذهب الأبصار يثنيها
وقفت والنيل خلف السد منتظر ... إشارة من بنان الخير يمضيها
فأعملت يدك المفتاح فانفجرت ... فى مصر عشر عيون من أياديها
لما جريت لغايات الندى وجرى ... عجبت كيف حوى البحرين واديها
تالله ما جرت الأرزاق يومئذ ... إلا وكنت بإذن الله مجريها
مفاخر لك يختال الزمان بها ... قام الخطيب وزير الرى يطريها
من (لأبن جعفر) إن يحصى عليك ثنا ... وللبلاغة فى علياك ما فيها (٣)
لو دام يهدى لك الأشعار حافلة ... ما ضِقت جاها ولا ضاقت قوافيها

***

يا نيل مصر وفى الأيام موعظة ... ماذا لقيت من الدنيا وأهليها
ليت البرية ما داستك أرجلها ... بعد المشيب ولا غلتك أيديها
قد ثقلوك بنير من جلامد لا ... تعده الأرض إلا من رواسيها
وحملوك صخورا فوق ما حملت ... منها أثافى دهور عز خاليها

---

(١) ضافته بلقيس أى نزلت به ضيفا . وبلقيس كناية عن الإمبراطورة أوجينى التى وفدت مع ملوك أوروبا إلى مصر للاشتراك فى مهرجان افتتاح القناة فى سنة ١٨٦٩ . (٢) لعلها من الأقمار حافلة : أى محتشدة ومجتمعة . (٣) حسين باشا فخرى « ناظر » الأشغال العمومية وابن جعفر باشا صادق .

أحييت في مصر موثوقا إلى أجل — وكنت وحدك حــرزا في نواحيها

فتحت بالعصر أغلالا ولى ذهب — التبر تجــزيك حين الخير تجزيها

خشا عمالك أن يسق الصيد به — ورب حرص على الأشياء يؤذيها

✦

ومركب من بخار قد جرى وجرت — من تحته الأرض تطويه ويطويها (١)

كأن أشباحه والليل يأخذها — سرائر الأرض تبــديها وتخفيها (٢)

كأنها وبياض الصبح ترميها — رســل النهار إلى الدنيا تهنيها (٣)

تمر أعجل من شرخ الشباب بنا — على مناظــر كالفردوس ضاحيها (٤)

مثل الطبيعة تهوى في ملاعبها — من الوجــود وتزهى في مغانيها (٥)

كغــادة لمعاني الحسن جامعــة — تقاسم الحسن عاريها وكاســيها

بلى الصبا ومضى جد الدهور به — ولا تزال لعــوبا في تصابيهــا (٦)

مثــل الملاحة في الدنيا مداولة — تفــنى الحسان ولا حسناء تفنيها

✦

يا ابن البخار تمهل في الصعيد بنا — تر البسيطة في مشهور ماضــيها

وقف نشاهد طلول الأقدمين به — تحيــير الدهر فيها كيف يبليها

هيــا كل كالجبــال الشم سافلها — وفــوق هام النجوم الزهر عاليها

إذا أتتها الليــالي من قواعدها — تنالهــا بالبــلى قامت أثافيهــا

يفــنى الزمان ولا تبلى زخارفهــا — ولا يحول من الألوان زاهيها

إذا وقفت (بأبواب الملوك) ضحى — أيقنت أن قد بنى للخلد بانيهــا

رأيت فرعون موسى عند حفرته — لا يطلب اليوم من دنياه تاليهــا

---

(١) مركب من بخار القاطرة أو القطار أو ما يسميه العامة بالوابور. وهذا الإسم الأخير مأخوذ من الاسم vapeur أي البخار. (٢) الأشباح هي الأشخاص والشخص سواد الانسان وغيره تراه من بعد.

(٣) وبياض الصبح ترميها. مأخوذ من قول المتنبي:

أزورهم وسواد الليــل يشفع لي — وأنثني وبياض الصبح يغــري بي

(٤) أعجل أفعل تفضيل بمعنى أسرع. وقوله بعــد ذلك (في شرخ الشباب بنا) غير مستساغ ولو كان المقصود تشبيه سرعة القطار واندفاعه بغير رفق بعنفوان الشباب. ولعل صحة الشطر الأول (تمر أعجل من شرخ الشباب بنا).

(٥) الطبيعة تهوى في ملاعبها وتزهى أي تتيه. والمغاني المنازل. (٦) جد الدهور أي عجلتها. التصابي: الميل إلى الصبوة واللهو واللعب.

بين الحياة و بين المـوت من جزع ... يخشى القيـامة فيها أن يلاقيهـا
عجـائب الطب لا لقمان يعرفهـا ... فى الغابرين ولا (بستور) يدريها
يا أمة بلغت فى المجـد غايته ... وقصر الناس فيـه عن مساعيها
قوموا الغداة انظروا هذى مآثركم ... هـل فى مآثرهم شىء يضاهيها

(شوقى)

التعليـــق

تنقسم قصيدة شوقى إلى خمسـة أقسام : القسم الأول والثانى منها يتضمنان وصف المهرجان من (أعياد عزك . .) إلى (لو دام يهدى لك الأشعار . .) . وهـذا الوصف وما يتخلله من مديح حديث معاد . والقسم الثالث عن النيل الذى بنى الخزان عليه :

يا نيـل مصر وفى الأيام موعظة ... ماذا لقيت من الدنيا وأهليها
ليت البرية ما داستك أرجلهـا ... بعـد المشيب ولا غلتك أيديهـا

والأبيات الخمسة الباقية على نمط هـذين البيتين وموضوعها واحد : وهو أن النيل فى الأسر والمناسبة طيبة ولكنى لا أحب من شوقى قوله (بعـد المشيب) بعد قوله (ليت البرية ما داستك أرجلها) . . كما لا أحب منه قوله إن السد والصخور إن هى إلا نير وأغلال وأثقال تمنع النيل أن يجرى حرا وأن يسق الصعيد بمائه . فهذا خيال لا سناد له من الحقيقة . وقد يستحب الخيال إذا بالغ فى تمثيل الحقيقة لا فى مجافاتها . .

وفى القسم الرابع وصف شوقى القطار والمناظر التى يمر بهـا . فأخذ يعلو نفَسه و بانت له خلجات ووثبات : أجاد شاعرنا وصف سرعـة القطار فى البيت الأول حيث يقول (وجرت * من تحته الأرض تطويه و يطويها) . وهذا الوصف الحسى للسرعة أروع من الوصف المعنوى الذى ورد فى البيت التالى (تمر أعجل من شرخ الشباب بنا) . وقد استهل حافظ إبراهيم قصيدة (رعاية الأطفال) التى نشرت فى أول فبراير سـنة ١٩١١ بوصف القطار . وكان كله وصفا معنو يا ركيكا لا تصو ير فيه ولا إبداع . قال :

صفحة البرق أومضت فى الغمام ... أم شهاب يشق جوف الظلام
أم سليل البخار طار إلى القصـ ... ـد فأعيـا سـوابق الأوهام
مر كالمح لم تكد تقف العيـ ... ـن على ظل جرمه المترامى
أو كشرخ الشباب لم يدر كاسيـ ... ـه تولى فى يقظـة أو منام
لا يبالى السرى إذا اعتكر الليـ ... ـل وخانت مواقع الأقـدام

يقطع البيد والفيافي وحيدا لم تضعضعه وحشة الإظلام
بين جنبيه ما يجنيّ لكن ما يجنيّ مستديم الضرام

إلى آخره . . من الخيال العقيم . وكان البارودى نظم حوالى سنة ١٨٨١ قصيدة يصف فيها القطار الذى استقله مسافرا إلى ضيعته بناحية (قرقيرة) بالدقهلية . والواقع أن البارودى لم يسعفه خياله فلم يصور القطار ولا مناظر الريف المصرى ولكنه فعل ما فعله حافظ فيما بعد وأشرنا اليه فحشا قصيدته باستعارات وتشبيهات مبتذلة لا تمثل القوى التى تزخر بها الطبيعة والحياة ، قال فى القطار :

ولقد علوت مَراة أدهم لو جرى فى شأوه برق تعثر أو كبا
يجرى على عجل فلا يشكو الوجى مدّ النهار ولا يمل من السرى
ريان ملء ضلوعه لكنه يشكو بزفرته لهيبا فى الحشا

وشوقى بلا شك أرق خيالا من البارودى وحافظ ، وحسبه قوله فى القطار من هذه القصيدة وهو آية من التصوير المعنوى .

كأن أشباحه والليل يأخذها سرائر الأرض تبديها وتخفيها
كأنها وبياض الصبح نم بها رسل النهار إلى الدنيا تهنيها

ليس أدل على قوة الملاحظة عند شاعرنا من أنه فتح عينيه على منظر من أدق وأروع مناظر الطبيعة والحياة ، منظر سواد القطار وهو ينساب فى ضمير الليل والبلاد . أما البيت الثانى (كأنها وبياض الصبح نم بها . .) فلا يدرك جماله إلا من سافر وجرب ورأى بعينيه بهجة الحياة وفرحتها عند مرور القطار فى أول النهار ببلد من البلاد . . إن مجرد سماع اسم المحطة أو البلد الذى يقف فيه القطار أو يمر به صبحا يحرك القلوب كما تحركها الذكرى والحنين .

وقد أجاد شوقى بعد ذلك فى وصف الطبيعة التى يمر عليها القطار :

على الطبيعة تلهو فى ملاعبها من الوجود وتزهى فى مغانيها
كغادة لمعانى الحسن جامعة تقاسم الحسن عاريها وكاسيها
ولى الصبا ومضى جد الدهور به ولا تزال لعوبا فى تصابيها

هذا شعر حيّ يذكرنا بقصيدة البحترىّ فى وصف بركة المتوكل :

ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها نعم ونسألها عن بعض أهليها

ولا يفوتنا أن نذكر أن شوقى راعى جمال القطار وهو ينساب فى حشا الليل والطبيعة ، بعكس شعراء الإفرنج فى أوائل انتشار السكة الحديد فى أوروبا حوالى سنة ١٨٤٠ فإنهم

لم يرحبوا بها لإنها حلت محل عربات السفر التى تجرها الخيول وكان للسفر فيها مهلة واسعة للتعارف والتلاقى والاستمتاع بالحقول والغابات التى كانت تخترقها طرق الريف على مراحل مختلفة . والغريب أن الشاعر الفرنسى الكبير ألفرد ديفينى وصف القاطرة البخارية فى قصيدة (بيت الراعى) كما يصفها حافظ والبارودى وصفا لا يدل على إلهام . قال عنها إنها السهم الذى يطير فى الفضاء . والأيل الذى يثب . وإنها ثور من حديد . وجنّ مزمجر .

وفى القسم الخامس والأخير استعرض شوقى آثار مصر التى يخترق القطار طريقها . وقد استوقفتنى كلمة فى أحد الأبيات :

إذا وقفت بأبواب الملوك ضحى   أيقنت أن قد بنى للخلد بانيها

رأيت فرعون موسى عند حفرته   لا يطلب اليوم من دنياه تاليها

كلمة (حفرة) كلمة جامعة وصورة شعرية عظيمة .. إنها مقابلة مؤثرة بين مهانة الفانى فى نهايته عند خروجه صاغرا من مهرجان الحياة وبين كبرياء العاتى الذى له الملك والأنهار تجرى ..) .

ولشوقى مقابلات كثيرة لا يحصيها العد صادرة عن بلاغة سليقية وطبيعة جبارة . قال :

عباد الله أكرمهم عليه   كرام فى بريته أساة

كمائدة المسيح يقوم بؤس   حواليها وتقعد بائسات

لا يفهم جمال البيت الثانى إلا من يعلم أن كبار مصورى الإفرنج قد رسموا صورة مائدة المسيح وحواليها التائبات والزاهدات قائمات وقاعدات . ولو قال شوقى (تقوم بائسات حواليها وتقعد بائسات) لذهب من البيت نصف جماله وروعته . فى البيت مقابلة بين القيام والقعود . بين التذكير والتأنيث . بين الفرد والجمع (يقوم بؤس . وتقعد بائسات) . وحواليها بحوالها بمعنى الجهات المحيطة كلمة متخيرة مصورة .

وقد علا نفس شوقى وبلغ بيانه القمة فى البيتين الأخيرين من قصيدة الخزان لأن فى هذين البيتين نوعا من المقابلة أو المقارنة أو التمثيل الحسى لشيئين متقابلين :

يا أمة بلغت فى المجد غايته   وقصر الناس فيه عن مساعيها

قوموا الغداة انظروا هذى مآثركم   هل فى مآثرهم شىء يضاهيها

بيتان جليلان من شعر الفخر يلتق جلالهما بجلال الموقف فى أسوان حيث يفاخر الإنجليز « بخزانهم » ويستعلون علينا .. وفيهما تنبيه للهمم النائمة للاقتداء بالسلف الماثلة آثاره الخالدة فى أنحاء الوادى .

(اللواء) فى ٢٢ مارس سنة ١٩٠٢

(تحيــة لضيف عظيم)

«وأنشأ نابغة الشعر فى مصر أحمد شوقى هذه التحية الجليلة لصاحب السمو ولى عهد ألمانيا، وهى تحية الأدب العربى لضيف مصر وضيف أميرها».

مرحبا بالفتى العظيم الشان ... سيد الكل من بنى الألمان

وارث النسر للسلام جناحا ... وللحرب ذانك المخلبان (1)

يخلف النسر فى جيوش السرايا ... زاهدا فى غنائم العقبان (2)

مصر من نوركم ونور أبيكم ... قد مشى فوق أرضها الفرقدان

أنت فى كل بلدة تجتلى ... وأبوك العظيم ملء الزمان

مظهر الشمس فى الوجود عليا ... ونشاط الأفلاك فى الدوران

عالم شاعر حكيم خطيب ... ما له فوق منبر العصر ثانى

ما نسيناه وقوله بصلاح الد ... ين والعالمون فى نسيان (3)

كلمة قد زادت القبر طيبا ... فوق طيب العظام والأكفان

---

(1) المخلب ظفر كل سبع من الماشى والطائر.

(2) السرية قطعة من الجيش. والذى يخلف النسر هو العقاب لا النسر. والعقاب هو الذى يزهد فى غنائم النسر ويعفها.

(3) كانت ألمانيا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العظمى تتودد إلى تركيا والشعوب الإسلامية. ومن مظاهر هذا التودد تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى قبره. وكان تيار الوطنية المصرية متجها إلى تركيا وألمانيا للتخلص من الاحتلال. نشر مصطفى كامل فى جريدة (المؤيد) فى ١٥ فبراير سنة ١٨٩٧ مقالا افتتاحيا تحت عنوان (استغاثة بالأمة الألمانية). وفى شهر مايو من نفس السنة (١٨٩٧) حوكم سليم سركيس صاحب (المشير) وهو من أنصار (المقطم) بتهمة الطعن فى امبراطور ألمانيا وحكم عليه بالسجن. وكان شوقى قد نشر فى (المؤيد) بتاريخ ١٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩ قصيدته الشهيرة (تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر).

عظيم الناس من يبكى العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظاما

وهى منشورة فى الجزء الرابع من (الشوقيات) ص ٤٠.

وفى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٤ نشرت (الأهرام) قصيدة لشوقى يخاطب بها غليوم الثانى عاهل ألمانيا ويندد فيها بمطامعه وأحلامه العريضة. انتصارا للحلفاء فى الحرب العظمى.

يارب ما حكمك ماذا ترى ... فى ذلك الحلم الطويل العريض

قد قام غليوم عظيما فما ... أعطاك من ملكك إلا القليل

وقد نشرت هذه القصيدة فى الجزء الرابع من (الشوقيات) وجاء فى تقديمها: «وخطب غليوم خطبة فى سنة ١٩٠٦ (كذا) كان لها رجع عظيم وأحدثت أزمة أوشكت أن تنتهى إلى حرب أوروبية طاحنة (!!)».

وإذا القلب كان سمحا كريما ظهرت طيباته فى اللسان
والمروءات عند أربابها فو ق اختلاف الآراء والأديان

***

قف برمسيس إنه كصلاح الـ ـدين أهل لذلك الإحسان
قل له يا أبا الملوك هل العيـ ـش وإن طال غير بضع ثوان
قم فيظنا فهذه هامة آبن الـ ـشمس أين النحاس والتاجان
ونعم هذه يمينك لكن حيل بين اليمين والصولجان (١)
وتأمل على الصعيد بقايا دولة فوق دولة الرومان
قهرت أربعين شعبا إلى أن قبرتها طوارق الحدثان

***

يا ابن غليوم يوم ترجع بر لين ويصغى لقولك الوالدان
قل لمولاك يا أبى ومليكى مصر أم الشعوب ذات الحنان
منهل العالمين من كل جنس وخوان لكل قاص ودانى

---

(١) هذا البيت والبيتان التاليان أجمل أبيات القصيدة وفيها تمثيل رائع لدول تدول ونعيم يزول وعيش يحول . قال شوقى مخاطبا رمسيس بلسان ولى العهد ، وما أجمل قوله :

ونعم هذه يمينك لكن حيل بين اليمين والصولجان

وقوله موجها الخطاب لولى العهد :

وتأمل على الصعيد بقايا دولة فوق دولة الرومان
قهرت أربعين شعبا إلى أن قبرتها طوارق الحدثان

وداع (١)

تنقــل أيهـا القمر المنــير   لقــد خُلق السرى لك والمسير
اذا لم تطو منــزلة لأخــرى   فما تجــدى منازلك الكثير
تظن العين أن قــد غبت عنها   وأنت بجفنهـا بصر ونــور
وتلتفت القلوب إليــك شوقا   فتهديهـا لموضعها الصــدور
ومثلك من يضيق الرحب عنه   ويحمــله على السعة الضمير
هنيئا للســراة ولليـالى   وللدنيا قيامــك والسفور
ونورك وهو للدانى سـبيل   وبشرك وهو للقاضى بشـير
أرى دار السعادة قــد تجلت   وعاد لها التأنس والحبــور (٢)
تهللت القــلوب وأنت فيها   فعــذرا إن تبسمت الثغور
أتدرى قدر زائرها المفــدّى   وإن جلت وجل بهـا المزور
يضيف خليفة الرحمن فيها   عظــيم فى خلافته كـبير (٣)
اذا اجتمع الصدور به تنحــوا   كما نزلت عن الطغرى السطور

---

(١) نشرنا بعض هذه القصيدة لأنها رقيقة حسنة السبك ، ومن رائع المديح فيها قوله :
اذا اجتمع الصدور به تنحــوا   كما نزلت عن الطغــرى السطور
(٢) تأنس تأنسا صار إنسانا ، وتأنس ضد توحش .
(٣) ضافه يضيفه ، نزل به ضيفا .

رثـــاء

" فقــدت مصر يوم الخميس المـاضى رجلا كبير الهمة ... السيد على باشا رفاعة وكيل نظارة المعارف سابقا، وقد قال حضرة صديقه الحميم أحمد شوقى بك يرثيه بهذه القصيدة " .

فــيم ابتسامك للدنيـا وغايتها ... ترد كل محب عنــك منتحبا
وما اتساعك منها بعد ما حسبت ... عليك ضـــيقة الأجداث منقلبـا
كم صاحب لبدور الأرض فارقهم ... لم يحص من حشرات الأرض ماصحبا
وناعم كان يُؤذى من غِلالتــه ... تألّف الدود والأكفان والـــتربا [1]
لا يعرف العيش حتى ينقضى فترى ... صدق الحياة بعين الموت والكذبا
كل الحقائق فيهـا الشك محتمل ... إلا المنيــة تأبى الشــك والريبـا
وما رأيت على علمى وتجــربتى ... كالمــوت جدا ولا ما قبله لعبـا
ما مات من أودع الدنيا عظيم نبا ... ولا قضى من قضى للجد ما وجبا
وما استوى المرء يطوى ذكره معه ... وذاهب فضله فى النــاس ما ذهبا
فإن مررت على الدنيـا فمـرّ فتى ... ولا تمرنّ مثـــل الأكثرين هبـا
فالخلد صنفان خلد الناس بعدهم ... بالذكر والخــلد عنــد الله مرتقبا
أبكى رفاعة أبكى العــلم والأدبا ... أبكى المروءة والفضل الذى احتجبا
أبكى ابن أعظمها نفعـا وأرفعها ... ذكرا وأشرفها بالمصطفى نســبا
أبكى القوافى كضوء الشمس سائرة ... أبكى المحـابر والأقــلام والكتبا
أبكى الأحاديث تجرى كلها أدبا ... أبكى البــلاغة أبكى بعدك العــربا
يا ابن الذى بعثت مصرا معارفه ... أبوك كان لأبنـاء البــلاد أبا
أتيتما وظــلام الجهــل يملؤها ... كالشمس والبدر لا أدعوكما الشهبا
تربيان لهـا الأبنـاء صالحــة ... وتخــرجان حمـاة الدولة النخبـا [2]
والشكر أولى وأحرى فى الشعوب به ... من يمطر العــلم ممن يمطـر الذهبا
قال النعاة قضى خير الــكرام أبا ... فقلت إن شاء ربى خيرهم عقبـا [3]
لا يهدم الله بيتـا أســـه شرف ... مدّت له يده من فضـــله طنبـا

---

(١) الغلالة شعار يلبس تحت الثوب . وتألفه : تكلف ألفه وداراه . (٢) النخبة المختار من كل شىء ج نخب . يقال " جاء فى نخب أصحابه " أى فى خيارهم . (٣) العقب : المولد .

(الصاعقة) فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٠٢

كان صاحب الصاعقة أحمد فؤاد يطعن فى حافظ ابراهيم الشاعر وفى شيخ المؤيد على يوسف ورسالته من أوروبا ... ولكنه كان ناقدا هجاء كثير التقلب يهجو الكتاب والشعراء ليحملهم على مراضاته بالمال ثم يمدحهم ثم يهجوهم ... وها هو ذا يصافى شوقى وينشر له الأبيات الآتية — [illegible] على يوسف ثم لا يلبث أن يطعن فى شوقى وينقده فى عدد ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٠٣ من الصاعقة قصيدته التى مطلعها :

شرف العلم الكريم المرسل … مثلا كالزمان إن هو أقبل

[illegible] سنة ١٩٠٤ ما دل على امتداح صاحب (المؤيد) وحافظ بمناسبة قضية الزوجية الشهيرة . ومن أمثلة هجوه القديم فى على يوسف ما كتبه فى عدد ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٢ أى بعد أسبوع من نشر أبيات شوقى : " كان الشيخ بالأمس وطنيا أيام كان نعلاه رجلاه . وجلده بردته . وسفطه جفنته . فأين منها لما انتقل من الحصير الى السرير ومن الكلاك الى الحرير . ومن القبر الى الصدر . ومن [illegible] ذات المروج . الى ذات البروج ومن النعل الى القلم . ومن حمل القامة . الى حمل العمامة . ومن احتذاء الدما . الى محازاة القدما . ومن شرب القراح . الى رشف الأقداح . ومن جمع الجريد . الى سياسة كريد . ومن استجداء الحسنين . الى ذكر الصين . . "

من شاعر صالح
الى
شيخ سائح

ماذا رجوت من الجفاوة عنده … يا بائع القرآن بالإنجيل
دع ملك (إدورد) وحل بلاده … يكفيك عسكره بوادى النيل
خلقان فيك تخالفا وتباعدا … حب الجميل وكفر كل جميل

(اللواء) فى ١ سبتمبرسنة ١٩٠٣

عيــــد الخليفــــة

نشرت اللــواء تحت عنوان (إخلاص المصريين للعــرش الحميدى الأقــدس . آيات الشعراء) قصيدة قالت إنها "لشاعر حكيم من أكبر شعراء العصر فى مصر" دون ذكر اسمه.

ويلاحظ أن معظم قصائد شوقى فى الخليفة كانت دفاعا عن الخلافة والاسلام ضد التعصب الأوروبى الذى كان يحرض دول البلقـان التابعة لتركيا على الثورة والانفصال ، وإنها كانت غفلا من الإمضاء . ولعــل ذلك يرجع إلى أن شوقى كان شاعر السراى وكان قصر الدوبارة يعمل على الحط من شأن الخلافة التى يعتصم بهـا المصريون الأحرار كما كان يرى فى كل تقرب الى السلطان مظهرا عدائيا له .

والقصيدة سلسة جيدة النسج . وحسبها هذا البيت :

وتحمل الملك والاسلام عن أمم   شلّاء لا تحفظ الأشيـاء أيديها

هذا البيت من وحى العبقرية . وهو من التمثيل الحسى الرائع . وقد يقول قائل إن الصورة قد كملت عنـد قول الشاعر « شلاء » . ولا يزيد الصورة أو المعنى شيئا قوله بعـد ذلك «لا تحفظ الأشياء أيديها» . ولكن روعة التمثيل الحسى هى فى هذه الزيادة بالذات لأن الصورة لا تبدو فى تمـامها ونضجها إلا فى هذا الوصف الجزئى الإضافى . وفى مثل هذا التمثيل تبدو عبقرية العرب . مثال ذلك قول الشاعر :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمو   بنى برمك من رائحين وغادى

فلو وقف عند « بنى برمك » لتم المعنى . ولكن قوله بعد ذلك « من رائحين وغادى » خلق لنا صورة حسية من صور الحياة الواسعة تنطق بهول الفاجعة التى تمثّـل فى ناحية من المسرح الكونى . وإن من البيان لسحرا ولقــد وفق الشاعر فى قوة الأداء والتركيب واختيار اللفظ فى قوله (من رائحين وغادى) . ولو قال نثرا أو شعرا من رائحين وغادين ، أو من رائح وغادى ، أو من رائح أو غادى ، أو من رائحين أو غادين لأنطمست الصــورة كلها بنغمها وشجاها وذهبت حلاوة ذلك الطىّ والنشر .

ومن الإيجاز المعجز فى التمثيل الحسى قوله تعالى : « وقودها الناس والحجارة » . كلمة « الحجارة » جزئية فى الصورة قد يتم المعنى بدونهـا ولكنها توسّع الصورة وتعمقها وتجسمها تجسيما يقذف الرعب .

(قصيدة شوقى)

عش للخلافة ترضاها وترضيها … وتنشئ السكة الكبرى وتحميها [١]

وتنشر الأمن فى بدو وفى حضر … وتملأ الأرض عمرانا وتحييها

وتحمل الملك والإسلام عن أمم … شلاء لا تحفظ الأشياء أيديها

هوى الأجانب أعماها وضللها … صيان سافلها فيه وعاليها

تفرقت وتولت عنك فاحتكمت … للقوم فيها يد كالنار عاديها

إن أضحك الملأ المفتونَ حاضرها … أبكى الأجنة فى الأرحام آتيها

توهموا العز فى ذل يراد بهم … وشُبّهت لهم النعماء تشبيها

لا عيش فى الذل إلا للذليل ولا … حياة للنفس إن ماتت أمانيها

أنفض اليد من عز تؤمله … وتحت رايتك الآساد تزجيها

إن أظمت الحرب كانوا اليد ظامئة … أو أعرت الحرب كانوا هم عواليها [٢]

من كل فاز صحابىّ له ثقة … بالله لا تفصم البلوى أواخيها [٣]

لا تصهل الخيل إلا تحته طربا … ولا يرى الخير إلا فى نواصيها

يا كافل (البيت) لا تجزع لحادثة … وثق بنفسك إن الله كافيها

تأبى الحوادث إلا أن تلاعبها … ترميك بالحادث الداجى وترميها

وأنت من فوقها رأيا وتجربة … بالصبر فى الصدمة الأولى تلاقيها

عطفت كل فؤاد فيه مرحمة … وكل نفس مصير الدين يعنيها

لم يبق للدين لا جيش ولا علم … سواك يوم تميد الأرض يرسيها

لا بارك الله فى البلغار يوم بغت … ويوم تخزى ولا فى ملك مغريها [٤]

شعب يجير النصارى فى مآربه … وسيفه فى يهود الأرض يفنيها

كأن صاحبه فرعون برهته … موكلا ببنى إسرائيل يؤذيها

تفر شيعة موسى من رعيته … وأنت من كرم الإسلام تؤويها

حضارة يخدع الأغرار زخرفها … وما زخارفها إلا مخازيها

---

(١) إشارة إلى مشروع سكة حديد الحجاز . (٢) يريد أنهم ذوو جلد فى الحروب لا ينال منهم ظمأ ولا عرى . لأنهم كاليد فى احتمال الظمأ مهما اشتد وكالعوالى يؤدون مهمتهم فى الحرب وإن أعرتهم .

(٣) الأواخى جمع أخيه (بفتح الهمزة وتشديد الياء) وهى العروة . (٤) قرر مؤتمر برلين فى سنة ١٨٧٨ جعل بلغاريا إمارة مستقلة مرتبطة بتركيا . وكان السكان البلغار نحو مليونين ونصف والأتراك حوالى نصف مليون . وكان البلغار لا ينون فى السعى للتحرر الكامل من كل تبعية عثمانية . وكانوا أبدا فى مناوشات مستمرة مع الجيش التركى .

***

عيد الخليفة فى الدنيا وساكنها ... عيد الملائك فى عالى مساريها
تطوى السماء إلى (إدريس) زينته ... أشعة بركات فى لياليها
ويزدهى الركن والبيت الحرام به ... والقدس والهند قاصيها ودانيها
كأنه النيل فى ماضى مواسمه ... تعليه مصر وتطريه أهاليها
يحييه فيها ويحليه أخو كرم ... فى المسلمين أبىّ النفس عاليها
جار الخليفة لا يبغى به بدلا ... إذا الرجال تخلت عن مواليها
يا أمة المصطفى جلت حوائجكم ... فقدموا الخير علّ الله يقضيها
لا تسمعوا لمريب فى خلافتكم ... كفى الخلافة ما يأتى أعاديها
ما هذه الحرب فى زى السلام لكم ... إلا صليبيّة والكل صاليها
يقوم عنكم بها جيش ملائكة ... موكل بتخوم الدين يحميها
يؤذى كما كان يؤذى الصحب محتملا ... فى طاعة الله والمختار يبغيها
تكثّروا ما استطعتم من ديونكم ... عند النبى فإن الله موفيها
تلك الإعانة لا مين ولا كذب ... إعانة المصطفى، جبريل جابيها (١)
فمن يضنّ على (طه) وفى يده ... فضول مال فللشيطان ما فيها
ومن يلبِّ ففى دنيا يشيدها ... للمسلمين وفى أخرى يرجيها
قالوا الطريق إلى المختار نائية ... قلت الإمام بإذن الله مدنيها
لكل شىء زمان ينقضى معه ... فودّعوا النوق واطووا ذكر حاديها
كأنى بسبيل البيت قد فتحت ... تطوى ويدنو لوفد الله قاصيها
يجرى البخار إلى خير البطاح بهم ... جرى الثواب حثيثا فى نواحيها
ويبلغ البيت والقبر الذى دفنت ... فيه المكارم خاليها وباقيها
مثوبة ودّها فى عهده (عمر) ... وودّ (عثمان) لو يحيا فيبنيها
لا ترتقى عن سجل الفخر آيتها ... إلا إلى قلم فى اللوح يحصيها

(١) فتح بمناسبة عيد الجلوس باب الإعانات لمساعدة الدولة العلية فى تنفيذ مشروع سكة حديد الحجاز .

(اللواء) فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٢

من قصيدة تهنئة (١)

جعلتم للفـؤاد شغلا	وأنتم مهجتى وأغلى
أحللتم فى سواد عينى	تالله نورتم المحلا
يا مالكين الفؤاد رفقا	يا مالكين العنان مهلا
رضيتُ إلا الصدود منكم	فحمّلونى فى الحب إلا
أنا الذى ذقت فى هواكم	ماذاق قيس من حب ليلى
أزيدكم ما استطعت حبا	ما زادنى العاذلون عذلا
يا أكحل العين أى ذنب	صير حظى لديك كحلا
يا لين الأذن هل ألانوا	وشاية فى الهوى ونقلا
يا نافر العطف لا لداع	من ذا أراك النفار سهلا
صبك ما يستفيق عشقا	وأنت ما تستفيق دلا
هلا حكيت الغصون لينا	كما حكاك الغصون شكلا
جعلت فى راحتيك روحى	وذاك شىء فى الحب قلا
وتبتغون السلو منى	يا مالك الروح كيف تُسلى
تماد فى الهجر أو تمهل	لعل بعد الصدود وصلا
تكاد بشرى رضاك عندى	تعدل بشرى القدوم فعلا

(١) اكتفينا بالغزل وأسقطنا المديح . وقد تأثر شاعرنا فى نظم هذه القصيدة بأبى نواس .

(الظاهر) فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٣

(مقتطفات من الشوقيات الجديدة)

يا رب لا غبطة ولا حسد ... ولا انتقاد فلست تنتقد

أرى ثراء أفاده قلم ... أخف منه فى المسمع الوتد

فهل أفاد البلاد فائدة ... أم اعتنى بالجهالة البلد

(ذكرى)

يا طير مالك لا تهيج لك الجوى ... نسمات أسحار خطرن رقاق

مات (الحمولى) والغرام فلا «الصَّبا» ... فى العالمين صَبًا ولا « العشّاق »

❖

وصاحب عود به عازف ... يحركه عن هزار غرد

أنامله تلتق فى الفؤاد ... وريشته تنبرى للكبد

❖

ياناى كيف عرفت أرباب الهوى ... وحكيتهم فيه حكاية صادق

فكأن صوتك أنة بعث الجوى ... وكأن غابك من ضلوع العاشق

أمين بزرى (1)

سالوا أمينا كيف يبكى الناى فى ... يده ويستبكى الملا بشجونه

فأجاب خِلٌ لا عدمت وداده ... أبكى على عينى بكل عيونه

---

(1) جاء فى الجزء الأول من كتاب (الموسيقى الشرقية والغناء العربى) لمؤلفه الأستاذ قسطندى رزق ص ١٢١ تحت عنوان (أمين البزرى) ما يأتى : « كان من أغنياء البلد ومن هواة الناى الذى تعلمه عن رجل اسلامبولى (مولوى) اسمه دادا وتفوق على أستاذه ولما قلب له الدهر ظهر المجن اضطر إلى احتراف العزف فى الأعراس والحفلات . وقد اعترف عبده الحمولى له بالعبقرية فى العزف على الناى بدار الوجيه موسى بك عصمت نجل المرحوم جعفر باشا . وقد حضر عثمان الموصلى الفنان المشهور إلى مصر خصيصا ليسمعه وهو فى حلوان ولما سمعه بمنزل عثمان باشا غالب الذى كان يحسن إلى الموسيقيين ويعد من محبى الغناء العربى ، بعد أن أبطأ وتورط الروح تيها ودلالا ، دهش من مهارته التى أنسته ما حصل منه من تثاقل وتباطؤ » .

حكم

فى سنة ١٩٣٢ صدر لشوقى كتاب (أسواق الذهب) وهو نثر شعرى أكثره مسجع وفى أواخر الكتاب فصل عنوانه (خواطر) يضم حوالى مائتى حكمة أو أكثر . بعض هذه الحكم قد كتب فى المنفى وبعضها بعد العودة وتطور ثورة ١٩ من حركة وطنية شعبية إلى حركة حزبية تعج بالأغراض والشهوات . لذلك كانت أروع حكمه هى الحكم التى أملتها تجارب الثورة كقوله : « قادة الثورة مقودون بها كالجلاميد تقدمت السيل تحسبها تقوده وهى به مندفعة . الثورة جنون طرفاه عقل . أخدع من شئت إلا التاريخ . مجد السياسة عرضة للأحداث وقد ينهدم على أهله فى الأحداث . الجماعات مطايا أهل المطامع تُبلغهم إلى منازل الشهرة . الطير لا تقرب أفقا فسد فضاؤه والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه . الحق نبى قليل التبع ، والباطل مشعوذ كثير الشيع » .

وقد نظم شوقى أكثر هذه الحكم فى شعره ورواياته فى ألوان شتى . على أن بعض هذه الخواطر يرجع إلى عهد الشباب . فقد نشرت (المجلة المصرية) فى يونية و يولية سنة ١٩٠٠ وفى يناير سنة ١٩٠١ (شذرات حكم . للناظم الفريد والناثر المجيد أحمد بك شوقى) وظهرت هذه الحكم ، منقولة بلا شك عن المجلة ، فى الطبعة الثالثة من (جواهر الأدب) يونية سنة ١٩٠١ ، تحت عنوان (حكم وأمثال عصرية) . وقد اختار شوقى بعض هذه الحكم وأعاد نشرها فى (خواطره) .

ونحن نورد هنا مثالا مما آثر تركه وقد ورد فى (المجلة المصرية) عدد أول يولية سنة ١٩٠٠

« أمس خبر . واليوم عبر . وغدا قدر . يأبى الله ويذر . لا يغنى عن نفس حذر . ولا ينفعها حجر . يا أيها الزمر . نفد العمر . وأرداكم البطر . هل من أثر أو صالح يدخر . فما كان للدنيا فيسير . وحديث يُذّكر . وما كان للآخرة فعصمة فى السفر . وسلام فى الحضر . وأمان من سقر . إن للدنيا لخطرا . وإن منها لمن علم لوطرا . الجاهل مقبور فى بدنه . رافل فى كفنه . غريب فى وطنه . عالم ذو همة . يحيى أمة » .

وقد نشر شوقى أيضا فى جريدة (الظاهر) بين ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٣ و ٢٢ مايو سنة ١٩٠٤ حوالى مائة حكمة أو أكثر يجدها القارئ فى الصفحات التالية . والعجيب أن شوقى لم يعد نشر حكمة واحدة من هذه الحكم فى (خواطره) . وأغلب الظن أنه نسيها أو لم تكن تحت يده شأنها شأن بقية قصائده المجهولة المنشورة فى هذا الكتاب .

القاهرة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٢

حكم من كلم شـــوقى بك

إثنان من نعم الله عليك عدوّ تشغله كثيرا وصديق يشغلك كثيرا .

إن كنت عصا فكن لينا و إن كنت سيفا فكن قاطعا .

القلم كالمصباح نور فى يد الكبير نار فى يد الصغير .

الإقدام والجد إذا اجتمعا لرجل لم يقف له شىء فى طريقه .

السعادة فى الدنيا لا كاملة ولا شاملة . سل أسعد الناس يخبرك .

بين الحلم والحـــذر و بين المداراة والرياء و بين التواضع والتدنّى مسافة أرق من الصراط فمن شاء وقع فى الفضيلة ومن شاء وقع فى الرذيلة .

مودع المعروف عند الأشرار كمودع الحطب عند النار .

من وثق بالله مشى على المـاء .

الأصيل من كان لنفسه أصلا لا من كان عالة على الأصول .

العلم أرفع النسب والعمل أرفع الحسب .

بعض الفضـــل كنور الكوكب يظهر من نفســـه وهو الحقيق . و بعضه كضوء السُرُج تظهره بنفسك وتجلبه بيدك وهو الفضل الكاذب .

إثنان لا مال لهما الكريم والبخيل إلا أن عِرض الأوّل موفور .

فى النفس ألف داء وفى القرآن ألف دواء له ودواء .

من أحسن إلى لئيم أساء إلى نفسه .

جاه المناصب مبدد وجاه الفضل محدد .

لا أدب فى أمة يَتسابّ أدباؤها .

مثـــل رجال الأعمال فى المنافسة والمزاحمة كأصائل الخيل تجـرى على انفراد ومندفعة ، وهى أجرى إذا انبرت مجتمعة .

إن كان ولا بد فخذ من شهواتك ولا تدعها تأخذ منك .

حظ البخيل من ماله حظ الميَسّر من آماله وربما كان الأخير أسعد[1] .

صداقة اللئيم ندامة ومداراته سلامة .

من حدث الناس عن نفسه بما يرضى تحدثوا عنه بما يكره .

(الظاهر) فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٣

نفس الظالم على كف المظلوم كلما بسطها إلى الله وكلما قبضها .

الحق يطلب بعضه بعضا فكيف إذا طلبه صاحبه .

العالم الفخور كالعارض[2] يتكسر بعضه على بعض . والعالم المتواضع كالغدير الصافى يمسك بعضه بعضا .

لا تزال النفس تهزل حتى يحضرها الموت فتجد .

العمر ساعتان ساعة الموت والساعة التى أنت فيها .

الوجوه مرايا أصدقها ما أخذ من قلبك . والعيون مرايا أصدقها ما تريك من عيبك .

كن مع الله ثم كن كيف شئت فإنك مع كريم .

حامل الحقد حامل التعب كله .

إذا أصيبت أمة فى الأخلاق أصيبت فى أنفس الأعلاق .

الشرف الرفيع تؤذيه ريبة كما يؤذى ضوء الشمس من غمامة .

(الظاهر) فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٣

الدنيا حسناء تُحب مقبلة ومدبرة .

همة تنهض بأمة . وعزمة تفرج أزمة . وصولة تبنى دولة . والعزائم تلد العظائم . وبالإقدام تضع الممالك حدودها أنى تشاء .

لا جدّ لمن لا هزل له ، ولا هزل لمن لا جدّ له .

الموت داء النوع البشرى ودواؤه .

تسعة أعشار الفضل فى الاعتراف بفضل الغير .

---

(١) الميسر : القوم المجتمعون على الميسر . (٢) العارض السحاب المعترض فى الأفق .

من كثر أدواؤه كثر أعداؤه .

جوهرة فى الدماغ خير من ألف جوهرة فى الجيب .

ما اشتريت بمالك أغلى من عرضك .

ثلاثة يمرون بالدنيا مرا : البخيل والجاهل والمجنون .

كن من تُستقبح عليه النقمة ولا تكن من تُستقبح عليه النعمة .

(الظاهر) فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣

النصيحة دين لا يؤدّى مرتين .

الرذيلة فى الرجل بعض الشر . وهى فى المرأة كله . والفضيلة فى الرجل بعض الخير . وهى فى المرأة الخير كله .

قلب المرأة خلف عينيها . وعقلها بين جنبيها .

الدنيا يوم ويوم . والناس قوم وقوم . فدارِ الأنام . ودر مع الأيام .

لا تزال فى الصغر حتى تعلم فتدخل فى الكبر .

كن ابن نفسك ثم كن ابن من شئت . واصنع المعروف بين الناس ثم اصنع ما شئت .

الله أعين والناس ألسن فأين المفر .

(الظاهر) فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٠٣

شهرة أُخذت غصبا ترد عفوا .

الدنيا إذا اتسعت ضاقت . وإذا ضاقت اتسعت .

الحياة مع الموت على الناس .

الخواص حفظة الدنيا والعوام حفظة الدين .

القاهر فوق نفسه قاهر فوق شياطين الأرض والسماء .

على الأرض كما فى السماء ملائكة هم الراحمون والراحمات .

من أمن الدائرات أن تدور . والموت أن يزور . فليشمت بمن عاش ويلعن من مات .

لا تجمع النفس بين الكِبر والكِبر (١) .

---

(١) الكبر الشرف و — الإثم الكبير .

الناس فى اتقاء اللئيم وخداع الكريم .

لو دخل الجنة دينار لأخرج منها الأبرار .

من حمل غما حمل سما .

بطن الأرض أوسع من بطن حواء .

ارجُ الذكى واخشه فإن صداقته بعقل وعداوته بعقل .

مثل الأمانى والأحلام كالأزهار ما تراكم عليك منها قتل .

ليس بعد القلم واللوح أجل من القلم والطرس بين يدى حكيم .

النفس الصغيرة مولعة بالصغائر .

(الظاهر) فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤

المرء مروءته .

الدنيا باب الآخرة فأت الآخرة من بابها .

علوم الدنيا شارحة لعلوم الدين .

أمة تزرى بعلمائها أمة ذاهبة .

إذا ضحكت سن اليتيم ضحكت سن العناية . وإذا بكت عين اليتيم بكت عين العناية .

لكل حال حلو ومر . فاشرب بكأسى الحياة حتى تمر .

الله منتقم لا يحب المنتقمين .

ما أضاء زيت الحكمة فى أوهج من سُرُج الشعر[1] .

السعادة الحقيقية فى احتقار السعادة الوهمية .

ليس فوق الصحة نعمة ولا فوق المرض نقمة .

العاقل حيث يجعل نفسه . والجاهل حيث تجعله نفسه .

تكثّر من الحساد بفضلك . ولا تتكثر من الأعداء بجهلك .

(الظاهر) فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٣

شر الإماء نفوس اللؤماء من ملك منها هلك .

السعادة صديق يعرفك إذا أنكرتك السعادة .

---

(١) سرج جمع سراج .

الناس فى غبطة الملوك والملوك فى حسد العلماء .

المستبسل من عشق فعف ، والباسل من صدق فوفى .

كل الأمهات بقلوب إلا الدنيا .

صديقك من ساهرك فوق الرمس لا من ساهرك ليلة أمس .

يُكتشف ألف كوكب فى السماء قبل أن يكتشف حكيم فوق الأرض .

العادل من ظلم نفسه فى إنصاف الغير .

مثل أمة يضيع عالمها كمريض يضيع طبيبه .

البخيل حى يرزأ من حيث يرزق .

زكاة العلم العمل وزكاة الجاه النفع .

عدوان لم يبتل الإنسان بشر منهما : نفسه ولسانه .

الظالم لنفسه أظلم .

الجاهل ميت الأحياء .

شاهد الزور شر القتلة : يبرئ القاتل ويقتل البرىء .

(الظاهر) فى ٢٢ مايو سنة ١٩٠٤

النفــــس

النفس حرة إذا مَلَكت ، أمة إذا مُلكت . النفس كالمرأة لا تُرَدّ فى حالين : إذا انصرفت عن هـوى وإذا انصرفت إلى هوى . إذا كنت فى أمر فكن على نفسك فى صدوره تكن معك فى عواقبه . هوى للنفس أغلب فدارها كما تدارى السفيه واعطها بمقدار ما تشتهيه . النفس حاكم مستبد إن لم تستطع خلعه فقيّده بدستور من الاعتدال . من كرمت نفسه عليـه هانت الدنيا فى عينيه . مالك نفسه المعتـدل فى الأمر كله . السفيه من بذل نفسه لا من بذل نفيسه . ما عرف قط الندامة من عرف لنفسه الكرامة . النفس أضـعف ما تكون قاهرة وأقوى ما تكون مقهورة .

كلمات مأثورة

ما أولع الناس بالناس . يشتغل أحدهم بشؤون أخيه . وفى أيسر شأنه ما يلهيه .

إثنان فى النار دنيا وأخرى : الحاسد والحاقد .

بين الظلم والجور جسر أدق من الصراط .

ليس للعلم وطن . ولا للحكمة دار . بل العاقل من له فى كل أرض مدرسة وعلى كل طريق أستاذ .

لكل زمان كاتب . ولكل جيل أديب . ولكل كاتب قارئ . ولكل شاعر منشد . والناس أحوج إلى أدب من غير أديب . منهم إلى أديب بغير أدب .

العاقل من رضى الدنيا حليلة . ولم يتخذها خليلة . لأنها كالمرأة تسكن إلى بعل . ولا تصبر على خل .

العدل أساس الملك . ولا عدل إلا حيث القضاء يدور دولابه . ويولاه أربابه . وتوثق أسبابه . فهو مرآة الحكومات التى تتراءى فيها بما هى من استقامة أو عوج . وظلم أو عدل . وصلاح أو فساد . وارتقاء أو انحطاط . وأساس الممالك إذا سلم سلمت . وإذا تهدم انهدمت . وعنوان شعور الأمم وتعلقها ودرجتها فى القوانين التى تضعها كل أمة وتتواصى بالخضوع لها ليست إلا مجموعة تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها . ولأن القائمين عليه بهذه القوانين ليسوا إلا أفرادا من أبنائها يبصرون بعينها . ويسمعون بآذانها . ويشعرون مثل شعورها . ويجدون مثل وجدانها . فإذا زكوا زكا سائر الأمة . وإذا حنثوا حنثت الأمة جمعاء .

• • •

الأوهام داء الأمم . منذ القدم . لم تخل منها أمة خالية . ولن تخلو منها أمة آتية .

خلق الإنسان من ضعف فكان الوهم أول دين دان به وأول حكومة دان لها . وأول شيطان سكن إليه . يستقبل الجبهات . ويتخذ منها آلهة يسجد لها ولا يزال آخر الدهر يتوجه إليها بالتأليه والتقديس والتنزيه . وإذا عبد الله كما تعبدونه أنتم والنصارى واليهود كان لله الشطر من تلك العبادة وللأوهام الشطر . فالمسيحى يبلى الحديد فى كنيسة القديس بطرس بروما استلاما وتقبيلا . كما يضع المسلم خده فى عتب الأضرحة بالقاهرة تمسحا وتأميلا . وتعظيما وتبجيلا . وكان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله . ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله .

الوهم أول شيطان سكن إليه الانسان . تولد منـه يقينه ونشأ عنه علمه . وجرت عليـه أموره . وانبنى عليه حكمه . وتألف منه مألوف عاداته . يحس به ويشعر . ويسمع به ويبصر ويعجز به ويقدر . وبه يعيش وعليه يموت .

* * *

الأوهام لاتخلو منهـا الأمم الكبيرة والشعوب الحية إلا أنها تقف حينئذ حيث العامة . ولا تتجاوزها إلى الخاصة إلا ما ندر . كما أنها تملك الأمم الصغيرة والشعوب المنحطة فيكون لخاصة منها مثل حظ اللـة[1] وهنا عظيم البلوى ومنتهى نكد الدنيا .

* * *

أليس من الوهم القاتل للأنفس . المميت القلوب . أن يصبح فى أذهان خاصة المصريين من أمراء وعظماء وأدباء وعلماء أنهـم أمة ليس فيهـم فلاح . ولا يرجى فى أمرهم صلاح . وأن اتفاقهم سابع الجهات . ورابع المستحيلات . وأن الوطن ميت وأنهم ميتون . وماأشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التى لا تنطبق على نواميس الوجود . ولا ترد إلى أحوال البشر وحوادث التاريخ .

* * *

الأوهام داء الأمم ومنيّـة الشعوب . إذا تمكنت من قوم كانت كالفاس فى الأساس . وكالنار فى الشعار . وكالحبل فى الخناق . وكالعلة فى القلب . لا يخفق معها إلا الى حين . ومن تبالغ نكد الدنيا على الشرق الحاضر تبالغ هذا الداء فيه . حكوماته دواليب تدور بالأوهام وبلدانه مملوءة ما بين السما كين من الأوهام . وأممه تروح وتغدو حيث تحملها الأوهام . نظر الواحد منهم فى الأمور عرضا وبعـين غيره . وحكمه فيها عن الهوى . وانقيادها فى إيرادها وإصدارها بأزمة الأوهام .

* *

ليس مع السلوة عيش . ولا مع القنوط عمـل . ولا مع اليأس حيـاة . وليس أجلب للشر والضر من الدعوة إلى الربوض وتوهين العـزائم . وإماتة القلوب . وإخراج النفوس من الرجاء إلى اليأس الذى هو الموت فى أشنع صوره وأقبح أحواله .

* * *

الأمم تموت . ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنـة الاضمحلال فمـا تلك إلا بؤسى تزول . وحال ستـحول . الأمة تصح ثم تعتل . تتجدد من حيث تبلى . وتقوم من حيث

---

(١) لم ترد اللة بمعنى السواد أو الدهماء . جاء فى القاموس : اللة الصاحب أو الأصحاب فى السفر " لا تسافروا حتى تصيبوا لة " أى رفقة . واللة المؤنس للواحد والجمع تقول " هو أوهم لتى " .

تسقط وتصح بالعلل . هذه اليابان هل كان فى حسبان أحد أن تضم صوتها يوما إلى أصوات دول الغرب — مسألة من أكبر مسائل العصر — وتطمع مع الممالك الطامعة . وتسير الجيوش فى البر . وتخرج الأساطيل فى البحر . وقد كانت، وأنت فى زمن الدراسة، لا يذكر اسمها إلا مقرونا باسم الصين . عنوان الهمجية . ومثال التوحش . والمشبه به إذا ذكر التأخر والانحطاط .

* * *

الغضب يعمى صاحبه . ويضل راكبه . يريه صدور الأمر ولا يريه عواقبه .

عرفت صنوف الفلسفة فلم أر كالفلسفة يأخذها المرء من نفسه . ثم من حيث التفت فرأى . وكلما قيل له فسمع . من حديث المتكلم . إن صدقا وإن كذبا . وصموت الصامت . إن بكامة، وإن بكما(١)، ونعيم المنعم . وبؤس البئيس . ومشية المتكبر، وهذيان المهوّس(٢)، وعربدة السكران، ومن النمل فى مشاغلها، والنحل فى معاملها، والذر فى مستثاره، والبرق فى مستطاره، ومن الدهر فى إقباله وإدباره، والفلك فى ليله ونهاره، والبحر فى مضطربه وقراره، ومن النفس إذا اعتلت، وإذا صحت، وإذا طمعت، وإذا رغبت، وإذا تسلت، وإذا جشأت(٣)، وإذا اطمأنت، وإذا شكرت، وإذا جحدت، ومن الطباع إذا امتحنت، والسرائر إذا بليت، والأهواء إذا اختبرت . مدارس لا يفرغ اللبيب منها، ودروس لا يصبر الحكيم عنها .

* * *

عليكم بالإقدام فإنه مفتاح الغنى، والطريق المختصر إلى العلياء، والسلاح الأمضى فى معترك الأحياء . به سدت وعليه اعتمدت فيما أسست وشيدت . وإنه ليخرج أصحابه من غمار العامة إلى عليا مراتب الملوك، ومن هون الخمول إلى العز والسؤدد والذكر الجميل .

* * *

الذى يميز علماء هذه الأمة على غيرهم، ويجرى بهم إلى الغايات، ويكفل لهم السبق، ويجعلهم أساتذة وقتهم، ومصابيح عصرهم . إنهم يطلبون العلم لذاته ثم لأنفسهم ثم للأحاديث من بعدهم . وهذه الثلاثة ما قامت بنفس طالب علم رزق الحجى والذكاء وفسحة الأجل إلا نبغ فى حياته ثم جاوز ذلك إلى رتبة الخلود بالذكر بعد مماته .

---

(١) البكم : الخرس . والبكامة : الامتناع عن الكلام تعمدا .

(٢) والمهوس كالمعظم : ذو الهوس . وفى الأساس الرجل الذى يحدث نفسه .

(٣) جشأت نفسه جشوءا وجشأ : من شدة الفزع والغم : نهضت إليه وارتفعت وثارت للقيء . وجشأت الأرض : أخرجت جميع نباتها وجشأت البلاد بأهلها لفظتهم .

حظ النفس من الحرص . حظ المقاتل من السلاح ، إذا زاد عن حاجته اختبل . وناء بما حمل . و إذا قصر تقهقر وانخذل .

* *

لا تتهافت على اللئيم فتتهم فى مروءتك ، ولا على الغنى فتتهم فى عفتك ، ولا على الجاهل فتتهم فى فطنتك .

* * *

لا تعطوا الغواية أزمتكم فتسلب منكم ذكاءكم وهمتكم . دخل الرعاة بلادكم فى شبيبة الدهر فأفسدوا فيها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكان آباؤكم على أخلاقهم القديمة . يأخذون الفضيلة . وينبذون الرذيلة . صحاح العقول . صحاح النفوس . صحاح الأبدان . فاستجمعوا فى وقت السكون . ثم وثبوا فى وقت الوثوب فاستردوا ملكهم بقوة . ويراد منكم أن تكونوا فى الأمن فى درع مضاعفة من الفضيلة . لا تأمنوا الدهر أن يأتى على عجل . يا حملة السلاح لا تقتلكم فى السلم الراح . يا حملة العلم . لا تغلبكم الخمر على الحلم .

* * *

انظر إلى هذه الجبال كيف قطعت . و إلى الآساس كيف وضعت . و إلى العمد كيف رفعت . و إلى الزخارف كيف جمعت . هل ترى فى جميع ذلك إلا معرفة فى العلم . ودراية فى الفن . ومهارة فى الصناعة . وغير إحكام فى الصنع . و إتقان فى العلم . ورغبة فى الثناء . وهمة عالية فى الأمر وذكاء فائق . وطاعة واجبة للحاكم على الرعايا . وعدالة مفروضة للرعايا على الحاكم . وهذه يا بنى أسس الآداب . ورؤوس الأخلاق . وقوى الحياة فى الأمم وسر نجاح الشعوب .

* * *

إن بيوت التجار لا تعمر — ولا يرفع لها عماد حتى تكون أوسع من صدر الحليم . وأرحب من فناء الكريم . تخف بالثقلاء . ويدارى فيها السفهاء . و يعالج البخلاء ، و يصبر للأغبياء . ويتهافت على الغلظاء . ويحمل فيها الكبراء .

تم الجـــزء الأول

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الأول
من "التربيات المجهولة"

الفهارس

الجزء الأول

(١)

الفهرس العام

الموضوع — الصفحة

(٢)

الفهرس المفصل (الشعر) — أول

(تابع) الفهرس المفصل (الشــعر) — أوّل

(تابع) الفهرس المفصل (الشعر) — أوّل

صفحة	موضوع القصيدة	مطلعها	القافية	عدد الأبيات	التاريخ
١٤٩	رثاء عبد الرحمن رشدى باشا	يقولون رشدى مات قلت صدقتم	وآمالى — ل	١٠	١٨٩٥
١٤٩	على قبر مصطفى عاكف	فى القبر أم فى فؤادى الواجف	عاكف — ف	٧	١٨٩٧
١٥٠	من رثاء سليم تقلا	زاحمته على الطريق عقول	بضاعة — ع	٢	١٨٩٢
١٥٠	من قصيدة تهنئة	زاحمت كل أخى جهل وزاحمنى	الظلما — م	٢	١٨٩٦
١٥٠	من رثاء على حيدر باشا يكن	العزاء العزاء يا صفر الخير	التقى — ى	٤	١٨٩٧
١٥٠	رثاء أمين فكرى باشا	يا أقرب الناس من أمين	للثمين — ن	٩	١٨٩٨
١٥١	إن من الشعر لحكمة	كم لنا من عجيبة	البسيطة — ه	٩	حوالى ١٨٩٣
١٥١	« « «	من يرد حقه فللحق أنصار	كرام — م	٢	»
١٥١	« « «	غالب الأمر بالتواكل غالب	المطالب — ب	٢	»
١٥١	« « «	أرى دنيا ولا دنيا	ناس — س	٢	»
١٥١	تهنئة بشهر الصوم	تحبك صاحبي منا قلوب	الصميم — م	٣	١٨٩٦
١٥٢	« « «	لحظها لحظها رويدا رويدا	كيدا — د	١٣	١٨٩٣
١٥٤	البحر	والماء يحدق من كل الجهات بنا	فالأفقا — ق	٤	١٨٩٩
١٧٩	البسفور	ما هيج البسفور مثلك شاعرا	التاريخ — خ	٢	»
١٨٨	العثمانيات والمظلات	شمس النهار وأختها	مستظلة — ل	٤	»
١٩٧	تهنئة بشهر الصوم	أفى هذا الشباب تعف نفس	النعيم — م	٨	١٩٠٠
١٩٨	الرد على هانوتو	محمد ما أخلفتنا ما وعدتنا	ضمير — ر	٩	»
١٩٩	مدحة سنية	بدأ الطيف بالجميل وزارا	المثارا — ر	٤١	»
٢٠٣	خلق المرأة فى الهند (أرجوزة)	أروى لكم خرافة	اللطافة — ف	٤٥	»
٢٠٦	سرقة الشعر	لا تسرق الشعر واتركه لقائله	الناس — س	٢	»
٢٠٦	التواضع	كن فى التواضع كالمدامة	الكؤوس — س	٢	»
٢٠٦	تشبيب	هام الفؤاد بشادن	المدى — د	٢	»
٢٠٦	بعضهم لبعض كالمرآة	رأيت قومى يذم بعض	الوجوه — ه	١٠	»
٢٠٧	ما بعد الصين	لمن المساكن كالمقابر	كغابر — ر	٦١	»
٢١٢	نشيد ثوار البوكسر	ليعنا كل معبود معين	المتفقين — ن	١٦	»
٢١٦	جمعية العروة الوثقى	يا مريضا بالمناصب (نشيد)	العضال — ل	١١	»
٢١٦	« « «	يا ربنا ياذا المنن (نشيد)	الوطن — ن	١٤	»
٢١٨	« « «	يا أيها السائل ما الحرية (نشيد)	منية — ى	١٤	١٩٠٢
٢٢١	دولة السوء (أرجوزة)	تم لبعض الناس فيما قد سلف	فاحترف — ف	١١	١٩٠٠
٢٢١	غزل	تشكو الخصور من الصدور تحاملا	الأرداف — ف	٢	»
٢٢١	«	أقول لقلبي والهوى يزحم الهوى	يلتقى — ق	٣	»
٢٢٢	ملح وآداب	أما وزهر الأنجم	المغرم — م	٥٤	»
٢٢٦	رواية دل وتيمان	أحوم على حسنكم ما أحوم	النجوم — م	١٢	١٨٩٩

(تابع) الفهرس المفصل (الشعر) — أول

(تابع) الفهرس المفصل (الشعر) — أول

(تابع) الفهرس المفصل (الشــعر) — أوّل

الصفحة	موضوع القصيدة	مطلعها	القافية	عدد الأبيات	التاريخ
٢٩٠	عام الكف	قد كنت لا شيء فى الأنام لكى	عـدلا — ل	٢	١٩٠٢
٢٩٠	« «	توليت الصحافة فاستكانت	وسوما — م	٢	«
٢٩٠	« «	يرى كاتب المصباح فى الصفع لذة	نفعا — ع	٢	«
٢٩٠	« «	لى سؤال يا أهل مصر فردوا	مفيـد — د	٢	«
٢٩٠	« «	بين أهل الصعيد شاع حديث	صفعوه — و	٢	«
٢٩٠	« «	أمحمد لا تحسبن الصفع	إليـه — ى	٢	«
٢٩٠	« «	ولقد ظننتك يا محمد فى	فهما — م	٢	«
٢٩١	« «	رأى خدك الفتان أشهى من المنى	مواع — ع	٢	«
٢٩١	« «	سموه عام الكف وهو الذى	كفى — ف	٢	«
٢٩١	« «	رأيت جمادات الثرى و نباته	أديم — م	٢	«
٢٩١	« «	صرت أرجو بأن تكون المرجى	مدحا — ح	٢	
٢٩١	« «	صفعنا وجهه بيد المعانى	جميلا — ل	٢	
٢٩٣	عيد الجلوس	جئتنا بالشعور والأحداق	العشاق — ق	٩	١٩٠٣
٢٩٤	احتفال الخزان	أعياد عزك للدنيا مجاليها	غاليها — ى	٥٢	١٩٠٢
٣٠٠	تحية لضيف عظيم	مرحبا بالفتى العظيم الشان	الألمان — ن	٢٠	١٩٠٣
٣٠٢	وداع	تنقل أيها القمر المنـير	والمسير — ر	١٢	«
٣٠٣	رثاء على باشا رفاعة	فيم ابتسامك للدنيا وغايتها	منتحبا — ب	٢١	«
٣٠٤	من شاعر صالح الى شيخ سائح	ماذا رجوت من الحفاوة عنده	بالانجيل — ل	٣	«
٣٠٥	عيد الخليفة	عش للخلافة ترضاها وترضيها	ومحميها — ى	٤٤	«
٣٠٨	تهنئة	جعلتم للفؤاد شغلا	وأعلى — ل	١٥	«
٣٠٩	رثاء قلم	يا رب لا غبطة ولا حسد	تنتقد — د	٣	«
٣٠٩	ذكرى	يا طير ما لك لا تهيج لك الجوى	رقاق — ق	٢	«
٣٠٩	عازف	وصاحب عود به عازف	غرد — د	٢	«
٣٠٩	الناى	ياناى كيف عرفت أرباب الهوى	صادق — ق	٢	«
٣٠٩	أمين بزرى	سألوا أمينا كيف يبكى الناى فى	بشجونه — ن	٢	«

(٣)

الفهرس المفصل (النــثر) — أوّل

الصفحة	موضوع المقالة	التاريخ
١٣٩ — ١٤١	شذرة أدبية فى حلوان	١٨٩٨
١٥٤ — ١٩٦	بضعة أيام فى عاصمة الإسلام (٢٢ مقالة)	١٨٩٩
٢٧٥ — ٢٧٦	الكاظمى	١٩٠٢
٣١٠ — ٣١٩	حكم	١٩٠٠ — ١٩٠٤